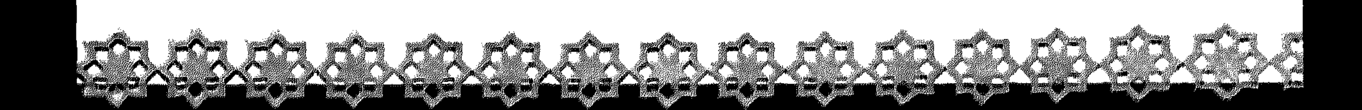
الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء التاسع عشر

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٦)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء التاسع عشر

دمشق

١٩٩٥ – ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

لأبي شامة

الجزء الثالث

دمشق ١٤١٦/ ١٩٩٥

فصل

في ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل الولايات بين أولاده

قال العماد: وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه، وكان الملك الأفضل نور الدين علي بمصر، وهو ولده الأكبر، وقد بدأ يظهر، وعلى تجويد الخط والأدب وسماع الأحاديث النبوية يتوفر، وقد مالت إليه بمصر جماعة، وله منهم طاعة، وربما نقم تقي الدين النائب هناك من أحد أمراً فوقعت منه فيه شفاعة، فكتب يشكو من اختلال أمره، واشتغال سره، وكان في نفس السلطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر ليكون عزيزها، وليحرز مملكتها ويحوزها، وهو مفكر في طريق تدبيره ووجه تقريره، حتى بدا له نقل الأفضل إلى الشام، فكتب إليه يتشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه، فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وخرج السلطان لاستقباله وأنزله بالقلعة في دار رضوانه، وكتب إلى تقي الدين أنه استقل أمره، وزال عذره، فابتهج بتفرده وخفي عنه أنه كان في ذمة ولد السلطان وعصمته، وان تمام حرمته بحرمته.

قال: ولما وصلنا إلى دمشق كان بها من أولاد السلطان الملك الظاهر غازي غياث الدين، فزار عمه العادل، وهو صهره، وقد اشتد بمصاهرته، ظهره، فقال له: قد نزلت عن حلب لك، وأنا أقنع من أخي باقطاع أين كان، وألزم الخدمة ولاأفارق السلطان، فأطلبها من أبيك إن كانت ترضيك، وجاء الى السلطان وقال هذه حلب مع رغبتي لتوليها أرى أن أحد أولادك بها أحق، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أن أوثره بها، فقال السلطان: المهم الآن تدبير ولدي الملك العزيز فإن مصر لابد

أن يكون لي بها ولـد أعتمد عليـه، وأسند ملكهـا إليه، ورحـل إلى الزرقـا، ومعه ولداه العزيز والظاهر وأخـوه العادل، فالتمس العادل عوض حلب بلادا عينهـا، ونواحي بمصر بينهـا وكان قد مـال الملك العزيـز إليه لاشفـــــــــاقـــــــه عليـــــــــه، فسأل أباه أن يسير معه العادل فإنه نعم الكافي الكافل، فأعطاه السلطان بمصر البلاد المعـروفة بالشرقيـة، واعتمد عليـه في نيابته في سـائر الممالك المصرية، ولما سمـع تقي الـدين هـذا الخبر نبا ونفـر، وذم الغير، واستبدل من الصفو الكدر، وغار من تغير الرأي فيـه، وإذا تولى أبو بكر فلا عمر، فعبر إلى الجيزة، مظهرا أنه يمضي إلى بلاد المغـرب ليتملكها، وكتب يسأل السلطان أن لايمنعه من سلوك مسلكها، وسمـت همته إلى مملكة جديدة، وأقاليم ذات ظلال مـديدة، وبلاد واسعة، ومدن شاسعـة، وقد كان أحد مماليكه المعـروف بقراقوش، قد جمع مـن قبل الجيوش وسار إلى بـلاد برقة فملكها، وهـزته الأمنيـة للنفائس مـن بلاد نفـوسة فـأدركها، وتجاوز إلى إفريقيـة وهو يكتب أبـدا إلى مالكه الملك المظفـر يرغبه في تلـك المملكة ويقـول إن البـلاد سائبـة، فلما تجدد لتقـي الـديـن ماتجدد، وتمهـد لعمـه العادل مـاتمهد، عاد لـه ذكر المغرب فعبر بعسكره، ومـالت إليه عسـاكر مصر لبذلـه، وقدم مملوكه بـوزبا في المقدمة، فلما انتهـى الى السلطان خبر عزمه قال: لعمري إن فتح المغرب مهـم، ولكن فتح البيت المقدس أهم، والفائدة بـه أتم، والمصلحـة منه أخـص وأعم، وإذا تـوجه تقـي الديـن، واستصحب معـه رجالنـا المعروفـة، ذهب العمـر في اقتناء الـرجال، وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل، وعلم لجاج تقي الدين في ركوب تلك اللجة، فكتب إليه يـأمره بالقدوم عليه، وجهز ولده العزيز إلى مصر، وقرر له قوص، وأعمالها، وسـار معه عمه العادل، فدخلا القاهـرة في خامس شهر رمضـان، وأما الملك الظاهـر فسيره السلطان إلى حلب وأنعـم عليه بها، وبسائر قـلاعها وأقـاليمها، وندب معـه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بلاشـو، وعاد السلطان ومعه الأفضل، وقدم تقي الديـن في آخر شعبان، وتلقـاه السلطان وخيـم على المصري فوق قصر أم

حكيم، فلما قـرب ركب إلى مـوكبه، ورحـب به ودخـل دمشق، وعـاد إلى ماكان له من البلاد ومنح المعـرة وسائر أعمالها، ثم أضاف إليه ميافارقين، وجميع مافي ذلك الاقليـم من المعاقل، وكتب إلى مصر باستـدعاء رجاله، وإعلامهم بتأخير عزم المغرب بل ابطالـه، فامتثلوا الأمر، وفارقوا إلى الشام مصر، سوى مملـوكه زيـن الديـن بوزبا فـإنه رتـب له عسكـر إلى المغرب فمضى واستصحبه وغلـب على بلاد إفريقية، ثم قصده صـاحب المغرب فأخـذه مأسـورا، ثم أغـزاه مع الغز في ثغـر من الثغـور فألفـاه مشهورا مشكورا، فقدمه عليهم.

قلت: وكتـب الفاضل إلى تقـي الدين:« سبـب هذه الخدمة مـااتصل بالمملـوك من تردد رسائل مولانـا في التماس السفر إلى الغرب، والـدستور إليه— يكفي الزمان فما لنا نستعجل— يامـولانا ماهذا الواقع الذي وقع، وماهذا الغريم من الهم الذي ماندفع، بالأمس ماكان لكم من الدنيا إلا البلغة، واليوم قد وهـب الله هذه النعمة، وقد كان الشمـل مجموعا، والهم مقطوعا ممنوعا، أفتصبح الآن الدنيـا ضيقة علينا، وقد وسعت، والأسباب بنا مقطوعة، ولا واللـه ماانقطعت، يامولانا إلى أين ومالغـاية وهل نحن في ضـائقة مـن عيش، أو في قلـة مـن عدد، أو في عـدم من بـلاد، أوفي شكوى مـن عدم، كيـف نختار على اللـه، وقد اختـار لنا، وكيـف ندبـر لأنفسنا وهو قـد دبر لنا، وكيف ننتجـع الجدب، ونحن في دار الخصب، وكيف نعـدل إلى حرب الاسلام المنهي عنهـا، ونحن في المدعو إليهـا من حرب أهل الحرب، معاشر الخدام والجيش، وأرباب العقول والآراء أليس فيكم رجل رشيد:

تعقـب الـرأي وانظـر في أواخـره
فطـالما اتهمـت قـدمـا أوائلـه

لازال مولانـا يمضي الآراء صائبـة، ويلحظها باديـة وعاقبـة، ولاخلت

منه دار إن خلت فهيهات أن تعمر، ولاعدمته أيام إن لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر».

وقال القاضي ابن شداد: وفي سابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضل إلى دمشق، ولم يكن رأى الشام قبل ذلك، وكان السلطان رأى رواح الملك العادل إلى مصر، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر، فما زال يفاوضه في ذلك وهو على حران مريض، وحصل ذلك في نفس العادل فإنه كان يحب الديار المصرية، فلما عاد السلطان إلى دمشق ومن الله بعافيته سير يطلب العادل إلى دمشق، فتجهز من حلب جريدة، وأقام بدمشق في خدمة السلطان يجري بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جمادى الآخرة، فاستقر عود العادل إلى مصر ويسلم بلاد حلب إلى الظاهر، وسلم السلطان إليه ولده الملك العزيز، وجعله أتابكه.

قال: ولقد قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة: اجتمعت بخدمة الملك العزيز، والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للعزيز: إعلم يامولاي أن السلطان قد أمرنى أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأ نا أعلم أن المفسدين كثير وغدا فما نخلوا ممن يقول مالايجوز عني، ويخوفك مني، فإن كان لك عزم تسمع فقل لي حتى لاأجيء، فقال: لاأسمع وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: وأنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا فمالي إلا أنت وقد قنعت منك بمنبج، متى ضاق صدري من جانبه، فقال: مبارك، وذكر كل خير، ثم إن السلطان سير ولده الظاهر إلى حلب، وأعادها اليه، وكان رحمه الله يعلم أن حلب هي أصل الملك وجرثومته وقاعدته، ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت له أعرض عما عداها من بلاد الشرق، وقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد، فسلمها إليه علما منه بحذاقته وحزمه، وحفظه، فسار حتى أتى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشارة، وواليا شجاع الدين عيسى بن بلاشو، ونزل يوم الجمعة

بالعين المباركة، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة، وصعد القلعة ضاحي نهاره، وفرح الناس به فرحا شديدا، ومد على الناس جناح عدله، وأفاض عليهم وابل فضله.

وأما الملك العزيز والعادل فإن السلطان قرر حالهما، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسيرهما إلى مصر، ويأمره بالوصول الى الشام، فشق ذلك عليه حتى ظهر للناس، وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى برقة، فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال، والله يعلم مايكون منه بعد ذلك، فرأى الحق بعين البصيرة، وأجاب بالسمع والطاعة، وسلم البلاد، ورحل واصلا إلى خدمة السلطان، فسار السلطان الى لقائه، فلقيه بمرج الصفر، وفرح بوصوله فرحا شديدا، وذلك في الثالث والعشرين من شعبان، وأعطاه حماة وسار اليها، وكان عقد بين الظاهر وبعض بنات العادل عقد نكاح، فتمم ذلك،ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شيركوه في شوال من هذه السنة.

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان:« الملك العادل والملك المظفر المذكوران ماهما أخ وابن أخ بل هما ولدان لايعرفان إلا المولى والدا ومنعما، وكل واحد منهما له عش كثير الفراخ، وبيت كرقعة الشطرنج فيه صغار وكبار كالبيادق والرخاخ، فلا يقنع كل واحد منهما إلا طرف يملكه، وأقليم يتفرد به، فيدبر مولانا في ذلك بما يقتضيه صدره الواسع، وجوده الذي مانظر مثله الناظر، ولاسمع السامع، ولاينس قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:« مروا القرابة أن يتزاوروا ولايتجاوروا»، وماعلى مولانا عجلة في تدبير يدبره، ولافي أمر يبته « وستبدي لك الأيام ماكنت عارفا»، وفي غد ماليس في اليوم، ولله اقدار، ولها أمد، وقد رزق الله مولانا ذرية تود لو قدمت أنفسها بين يديه، ولو اكتحلت اجفانها بغبار

قدميه، مافيها من يشكي منه الا التزايد في الطلب، وهو من باب الثقة بكرم المنعم، ولهم أولاد، والمولى مد الآمال لهم، كما قال مولى الأمة:« تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم»(٣٤) طالما قال لهم المولى لدوا وعلي تجهيز الإناث وغنى الذكور، وسواء على أفق البيت طلوع الشموس والبدور».

قال العماد: ومدحت تقي الدين بقصيدة سينية سنية، قطوفها دانية جنية، تشتمل على مائة وأربعين بيتا، أنشدته إياها في ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق، وأوردت بعضها ومطلعها:

عفا الله عنكم عن ذوي الشوق نفسوا
فقد تلفت منا قلوب وأنفس

ألم تعلموا أني من الشوق موسر
ألم تعلموا أني من الصبر مفلس

ظننتم بعيني أنها تألف الكرى
فهلا بعثتم طيفكم يتجسس

وليس لقلبي في السرور تصرف
فقلبي على الأحزان وقف محبس

ومنها:

لفتك محبيه تيقظ طرفه
وتحسبه من سقم عينيه ينعس

له ناظر عند الخلاف مناظر
يقول دليل الدل عندي أقيس

إذا درست ألحاظه السحر أصبحت
رسوم اصطباري درسا حين تدرس

ولم أنس أنسي بالحمى رعي الحمى
عشية لي مجنى ومجلى ومجلس

لحى الله أبناء الزمان فكلهم
صحيفته أودى بها المتلمس

ولـولا ابتسـامـات المظفـر بـالنـدى
لما راق نفسي صبحـه المتنفـس
جلـت شمـس لقيـاه الحنـادس بعـدمـا
عرتنـا وهـل يبقى مـع الشمـس حنـدس
وصـار بـه هـذا الـزمـان جميعـه
نهارًا فما للنـاس ليـل معسعـس
إذا صـال فـا لمفلـول ألـف مـدرع
وإن جـاد فـا لمبذول ألـف مكيـس
وليـس بمغبـون على فضـل رأيـه
ويغبـن في الأمـوال منـه ويبخـس
إذا أطلـق الملـك المظفـر في الـوغـى
اعنتـه فـالشمـس بـالنقـع تحبـس
فـداك ملـوك لا يلبـون داعيـا
وكلهـم عـن دعـوة الحق يخنـس
تشكـى إليـك الغـرب جـور ملـوكـه
فـاشكيتـه والجور بـالعـدل يعكـس
سيهـدى إلى المهـديـة النصر والهدى
بهديكـم فيهـا وتـونـس تـؤنـس
رددت كـراديـس الفـرنـج وكلهـم
لـدى الأسر في غـل الصغـار مكـردس
وبيضـت وجـه الـديـن يـوم لقيتهـم
وأبيضكـم مـن أسـود القصر أشـوس
أفـادم الأنجـاس طهـر سيـوفكـم
ومـا يستفـاد الطهـر لـولا التنجـس
شمـوس ظبـى تغـدو لها الهام سجـدا
فللـه نصرانيـة تتمجـس
وكـم كفـى الاسـلام سـوءا بملككـم
كفيتـم على رغـم المعـاديـن كـل سـو

ولا يفتـــح البيـــت المقـــدس غيركـــم
وبيتكـــم مـــن كـــل عـــاب مقـــدس
لهم كـــل يـــوم في جهـــاد مثلـــث
إذا نصروا التـــوحيـــد فيء مخمـــس
إذا مـــا تقـــي الـــدين صـــال تسـاقطـت
لأقـــدامـــه مـــن عصبـــة الشرك أرؤس
ومـــا عمـــر إلا شبيـــه سميـــه
شـــديـــد على الأعـــداء ثبـــت عمـــرس

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان بطوفان الريح في سائر البلدان، وخوفوا بذلك من لاوثوق له باليقين ولاإحكام له في الدين، من ملوك الأعاجم والروم، وأشعروهم من تأثيرات النجوم، فشرعوا في حفر مغارات في التخوم، وتعميق بيوت في الأسراب، وتوثيقها، وسد منافسها على الريح وقطع طريقها ونقلوا إليها الماء والأزواد، وانتقلوا إليها وانتظروا الميعاد، وكلما سمعنا بأخبارهم استغربنا في الضحك من عقولهم، وسلطاننا متنمر من أباطيل المنجمين، موقن أن قولهم مبني على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون لمثل ريح عاد، وقد شارفنا الميعاد، ونحن جلوس عند السلطان في فضاء واسع، وناد للشموع المزهرات جامع، ومايتحرك لنا نسيم ولالسرح الهواء في رعي منابت الأنوار مسيم، فما رأينا ليلة مثلها في ركودها وركونها، وهدوها وهدونها.

قال ابن القادسي: وحكم أصحاب النجوم أن في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمسة، والشمس والقمر في برج الميزان، ويؤثر ذلك هواء عظيما وغيما سموميا، وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين تهلك البلاد، وتحمل الرمل ونسبوا ذلك إلى الخوارزمي، وقالوا:يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء إلى نصف ليلة الأربعاء، فاستعد لذلك أقوام في البلاد، وجمعوا الكعك وحفروا السراديب، فأهل رجب وماجرى مما قالوا شيء فخزي أهل التنجيم لذلك، ولم يهب في ذلك اليوم هواء البتة، وكان الزمان حارا واشتد الحر في ذلك اليوم وبعده، ولم يظهر مما قالوا شيء، وعمل الشعراء في ذلك

شعرا يزرون عليهم في حكمهم، منهم نجم الدين أبو الغنائم محمد بن علي بن المعلم الهرثي، وفخر الدين عيسى بن مودود دزدار قلعة تكريت، وأبو الفتح سبط ابن التعاويذي. قال أبو الغنائم بن المعلم:

قل لأبي الفضل قول معترف
مضى جمادى وجاءنا رجب
وما جرت زعزعا كما حكموا
ولابدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا
أبدت أذى في قرانها الشهب
يقضي عليها من ليس يعلم ما
يقضي عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والاصـ
ـطرلاب خير من صفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفي
أي مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الأمر واحد ليس
للسبعة في كل حادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحل
باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق وانجا
ب التمادي وزالت الريب
فليبطل المدعون ما وضعوا
في كتبهم ولتخزق الكتب

قال عيسى بن مودود:

مزق التقويم والزيج
فقد بان الخفاء
إنما التقويم والز
يج هواء وهباء

قلـــــت للسبعـــــــة ابـــــرا
م ومنـــــــــع وعطـــــــاء

ومتـــــى ينـــــزلـــــن في المـــــ
ـــــيزان يستـــــولي الهواء

وتثير الـــــرمـــــل حتـــــى
يمتلي منـــــــه الفضـــــاء

ويعـــــــم الأرض خســـــــف
وخـــــراب وبـــــــلاء

ويصير القـــــــاع كالقـــــــ
ـــــف وكـــــالطـــــود العـــــراء

وحكمتـــــم فـــــأبـــــى الحا
كـــــم إلا مـــــا يشـــــاء

مـــــا أتـــــى الشرع ولا
جـــــاءت بهذا الأنبيـــــاء

فبقيتـــــم ضحكـــــة تضـــــ
ـــــحك منهـــــا العلماء

حسبكـــــم خـــــزيـــــا وعـــــارا
مـــــا تقـــــول الشعـــــراء

ثـــم مـــــا أطمعكـــم إلـــى الـــــ
ـــــحكم إلا الأمـــــراء

ليـــــت إذ لم يحسنـــــوا في الـــ
ـــــدين ظنـــــا ومـــــا أســـــاءوا

فعلى اصطـــــرلاب بطـــــ
ـــــليموس والـــــزيـــــج العفـــــاء

وعليـــــــه الخزي مـــــا
جـــــادت على الأرض السماء

ولم يذكر شعر سبط ابن التعاويذي

قال: وفي السابع والعشرين من شوال تـوفي محمد أبو عبد الله بن بري ابن عبـد الجبار النحوي، وكـان آية في النحـو ثقة عالما صـالحا، مبلدا في أمر دنياه حدث عن ابن الخطاب، ومرشد بن صادق وغيرهما.

قال العماد: وفي هذه السنـة جاء نعي أتابـك محمد بن أتابـك إيلدكز المعـروف بالبهلـوان، وهـو الذي كـان نـزل على خلاط في العـام الماضي، وكانت حيـاته متصلة الجد والجدى، واضطربت من بعـده تلك الممالك، واخترىت أصفهـان وإلى اليوم مـن سنة أربـع وتسعين ماوضعـت الحرب أوزارها، وتـولى بعده أخوه قـزل أرسلان، فأزال مهـابة الملك السلجـوقي، وسلك نهج السعيد الشقي، إلى أن ذهب،فاتضع الملك، وانقطع السلك، واتسع الهلك، وطمعت خراسان في العراق، وعـدمت الإفاقة من الآفاق، وأظلمت مطالع الإشراق.

قـال:واشتغل السلطـان في بقيـة سنة اثنتين وثمانين بـدمشـق بالصيـد والقنص والانتهـاز فيه لبوادر الفرص، وكـان يركب إلى تل راهـط للصيد بالبـزاة والشواهين مع ممـاليكه الخواص الميـامين، وله شاهين يجري كـأنه بحر، إذ حلق فشرار، وإن أحرق فجمر، فكم صـاد ليوسف يعقوبا، وعقر بإنجـاز وعد صيـده عرقـوبا، فطلبتـه من السلطـان، فقال: أنـت للقلم والـدواويـن، فمالك والبـزاة والشـواهين؟ فقلـت: يكون في ملكـي وكـل مايقنصـه يأمر لي به المولى، وهـذا أربح لي وأنفع وأولى، فقـال: نعم، فلما أصبـح سير لي سبـع عشرة قطعـة مـن طير وحجـل، وقـال: هـذا صيـد شاهينـك في طلق واحد على عجـل، فملكت ذلك الشـاهين خمس ست سنين والسلطان يصطـاد به ولي قنصـه، وله مطلعـه، فما زال لي على هذا الحق محافظا، ولهذه النكتـة ملاحظـا إلى أن أودى الجارح وانقطعت تلـك المنائح، فيالله دره من سلطـان لم ينس ذكر هذه القضية التي أعـاد مزحها جدا، واعتـده لي حقامعدا، فـدون حقه على مثلـه أن يؤسف، ومـن حقنا بعده أن نتلوا(يا أسفي على يوسف)(٣٥) .

قال: ولما دخل شهر رمضان نوع أقسام الإنعام، واتفق أن بعض التجار كانت بضاعته بقلير رفيعه، وما لها نفاق، وهي أكثر من مائة قطعة فحملها إلى الخزانة السلطانية في بضاعات، وقال: خذوها واكتبوا لي بأثمانها في مصر على بعض الجهات، فاشتريت منه بما كان يرجوه من الربح، وكان من كرم شيم السلطان إذا عرف في خزانته موجودا، أنه لايستطيب تلك الليلة حتى يفرقه جودا، فقال لي: قد اجتمعت لنا بقلير وعمائم، وقد تقاضتني نفسي بخلعها على أهل الفضل والمكارم، فنبدأ بأهل الدين والتقوى، ونجعل لهم أوفر حظ من الجدوى، وكان في الوافدين ومن أهل البلد وعاظ وعلماء وحفاظ، فيكون كل يوم بكرة نوبة لمن يتكلم على المنبر، ويذكرنا بالحلال والحرام والبعث والمحشر، ثم يخلع عليهم وعلى القراء فاشتغل مدة اسبوعين بالمواعظ، ووضع المنبر في إيوان القلعة، فقلت: بقي إحضار الفقهاء في المدة الباقية من الشهر، فقال: إنهم يمضي بهم الخلاف إلى التشاجر والتضاغن، فقلت: أنا أضمنهم، ولايحضر إلا أوقرهم وأرزنهم، فاستدل أول يوم برهان الدين مسعود مدرس الحنفية في المدرسة المعمورة النورية، واعترض عليه العماد الكاتب، وفي اليوم الثاني استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر واعترض عليه قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، فكان السلطان يجلس في كل يوم لطائفة، فلما دنا العيد أمر بابتياع العمائم وغيرها وصرفها إليهم.

قال القاضي ابن شداد: وفي شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وقعات كثيرة بين التركمان والأكراد بأرض نصيبين وغيرها، وقتل من الفئتين خلق عظيم، وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصى بالراوندان، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه، وكان نزولهم عليه في العشر الأول من سنة اثنتين وثمانين، وأعطى برج الرصاص لتميرك في بقية ذلك الشهر، وفي ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من

الـراوندان، وقـد سلمهـا إلى علـم الديـن سليمان، ثـم مضـى إلى خدمـة السلطان.

قـال ابن القـادسي: وقـدم الحاج في عـاشر صفر، فـأخبروا أن سيـف الاسلام أخـا صلاح الديـن ملك مكة وضرب الدنـانير فيها باسـم أخيه، ومنـع مـن قـولهم حـي على خير العمـل، وشرط على العبيـد أن لايـؤذوا الحاج، وأخبر الحاج أن قفل باب الكعبة تعسر حتـى فتح، ولما فتح مات في الدوسة أربعة وثلاثون شخصا من بين رجل وامرأة.

قال: ووصل الخبر أن ريحا هبت بـالبصرة فكسرت نخيلا كثيرا، وماتت بهائم كثيرة، ووصـل الخبر إلى بغـداد بقتـل البهلـوان، وأن القتـال وقـع هناك، واحرقت المحال، ونهبت الأمـوال، واقتتل أهل المذاهب، واحترقت مدارس وبقـي الأمر على ذلك مـن سابـع محرم إلى ربيع الآخر، فـاحصوا من القتلى أربعـة آلاف رجل وسبـع عشرة امرأة بعـد أن احترق أطفال في المهود بالليل،وقـام قزل أخو البهلوان، فكف الناس.وكـان قزل قد رتب شحنة في إصفهان بعـد الفتنة التي وقعت بها، ومعـه ألف فارس، فما زال يهذب البلد والـرساتيق بالقتـل والصلب، وصادرهم وأشير على قـزل بأن يلزم أهـل البلد سبعين ألف دينـار، فقال لـه الشحنة: أهل البلـد فقراء، فقال بعـض المصالحة لقزل: مـانأخذ إلا من الأغنيـاء، فوثب عيـار فقتل المصلحـي، وكان العيـار متعلقا على قـاضي البلـد، فوكـل الشحنة بـدار القاضي، فجاء ابـن الخجندي إلى دار القاضي فحسن لـه إخراج الموكلين بـه وتحالفا على إخـراج الشحنة مـن البلد، وأن يقطعـوا خطبة السلطـان الذي نصـب قزل، ففعـل ذلك في سابـع شوال، ثـم كثر القتـل في البلد فكل من في قلبـه على أحد شر وثب عليه فقتله من رجـل أو امرأة، وكان القتل الكثير في أصحـاب ابن الخجندي، وكـان الحريق والنهـب واحراق الدور في أصحـاب القاضي، وجـرى القتال يوم عـرفة، ويـوم العيد ودام، وبطل الناس من المعـايش، وخربت الأسواق ووقع الغـلاء، ومات الناس

من الجوع، وبقي أهل أصفهان على قدم الخوف، وأخذت ثياب الناس فلا يتجاسر أحد ان يلبس ثوبا جديدا، والعيارون يأخذون أموال الناس مقاواة، وهرب الناس من أصفهان.

فصل

قال العماد: مما قدره الله تعالى من أسباب نصرة الاسلام، ووهن الكفر أن قمص طرابلس رغب في مصافاة السلطان والالتجاء إليه والمساعدة له على أهل ملته بسبب أنه كان تزوج بالقمصية صاحبة طبرية، وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخته هذه وهو صغير فتزوج القمص أمه ورباه، فمات الصغير وانتقل الملك إلى أمه، ثم أنها مدت عينها إلى بعض المقدمين من الغرب فتزوجته وفوضت الملك إليه فشرع يطلب حساب البلاد من القمص،[٣٦] فوقع الاختلاف بينهم لذلك فالتجأ القمص إلى ظل السلطان، فصار له من جملة الأتباع فقبله السلطان وقواه، وشد عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم، وصار بدولة السلطان وملكه يقسم، ومال إليه من الفرنج جماعة، وظهرت له منهم للطاعة طاعة، ودخلت إلى بلادهم من جانبه السرايا، وخرجت بالغنائم والسبايا، وأعطى الدنية في دينه بما استدناه من العطايا، فصار الفرنج يدفعون شره، ويحذرون مكره، فتارة يدارونه، وآونة يمارونه، وللقمص قوم صدق يساعدونه في كل حق وباطل، فبلي منهم أهل الساحل بشغل شاغل، وهذا الملك المجذوم وهو ابن الملك أماري ابن فلك، وهو مري الذي تقدم ذكره، وتوفي أماري في آخر سنة تسع وستين سنة مات نور الدين رحمه الله تعالى، وخلف الملعون هذا الولد المجذوم، فبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا، فلما حضره الموت أوصى لابن أخته بالملك.

قال: وكان ابرنس الكرك أرناط أغدر الفرنجية وأخبثها، وأفحصها عن الردى والرداء، وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة، وأنكثها وأحنثها، ومعه شرذمة لها شر ذمة، وهي من شر أمة، على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز، وكنا في كل سنة نغزوه، وبالبوائق

نعروه، ويصيبه منا المكروه، فأظهر أنه على الهدنة، وجنح للسلم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملا، والقفل من مصر في طريق بلده متواصلا، وهو يمكن الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق وأخاف السبيل، ووقع في قافلة ثقيلة، معها نعم جليلة، فأخذها بأسرها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشرك، وحملهم إلى الكرك، وأخذ خيلهم والعدة، وسامهم الشد والشدة، فأرسلنا إليه وذممنا فعاله، وقبحنا احتياله واغتياله، فأبى إلا الإصرار والإضرار، فنذر السلطان دمه ووفى في إراقة دمه بما التزمه، وذلك في السنة الآتية، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الإستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية، فانتظمت أموره على أحسن قضية.

ومن كتاب فاضلي إلى بعض أخوانه:« كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السلطان أعز الله أنصاره للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لايحصله الخاطر، وقد نهضت به همة لايرجى غير الله لإنهاضها ونجحت به عزمة الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها، وباع الله نفسا يستمتع أهل الاسلام بصفقتها، ويذهب الله الشرك بهيبتها، وأرجو أن يتمحص عن زبدة، وتستريح الأيدي بعدها عن المخض، وأن يكون الله قد بعث سفتجة نصرة الاسلام، وسلطانه قد نهض للقبض».

- ٨٤٨٩ -

ثم دخلت

سنة ثلاث وثمانين

وهي سنة كسرة حطين، وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين

قال العماد في كتاب البرق: وهي السنة الحسنة المحسنة، والزمان الذي تقضت على إنتظار إحسانه الأزمنة، وطهر فيه المكان المقدس الذي سلمت لسلامته الأمكنة، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة، وكفى الله شر الشرك، وحكم على دماء الكفرة بالسفك، ونصرت الدولة الناصرية، وخذلت الملة النصرانية، وانتقم التوحيد من التثليث، وشاع في الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن الأحاديث.

ثم ذكر في كتابي الفتح والبرق ماجملته أن قال: فبرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم، فلما وصل إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك يستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعارب والأعاجم والأتراك، وسار السلطان إلى بصرى، وخيم على قصر السلامة، وأقام على إرتقاب إقتراب الحجاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ووالدته أخت السلطان مع جماعة من الخواص، وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على الكرك وأخاف أهله وأخذ ماكان حوله، ورعى زرعهم، وقطع أشجارهم وكرومهم، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك، ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين، وفرقه على أعمال القلعتين، وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك

الأفضل ولـده مقيم بـرأس الماء في جمع عظيم مـن العظماء، وعنده الجحافل الحافلة والحواصل الحاصلة، والعساكر الكاسرة، والقساور القاسرة، وهـو ينتظر أمرا مـن أبيه، ويكتب إليه ويقتضيه، وانقضى من السنة شهران، وطال بهم انتظار السلطان، فأنهض منهم سرية سرية، وأمرها بالغارة على أعمال طبرية، ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبري صاحب حران، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق، وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النجمي، فساروا مدججين، وسروا مدلجين، وصبحوا صفورية، وساء صباح المنذرين، فخرج إليهم الفرنج في حشدهم فآتاهم الله النصر الهني، والظفر السني، وشفوا منهم حنين الحنايا، وأدركوا فيهم منى المنايا، وفازوا وظفروا، وقتلوا وأسروا، وهلك مقدم الإسبتار، وحصل جماعة من فرسانهم في قبضة الأسار، وأفلت مقدم الداوية وله حصاص، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص، وعادوا سالمين سالبين غانمين غالبين، فكانت هذه باكورة البركات، ومقدمة مابعدها من ميامن الحركات، وجاءتنا البشرى، ونحن في نواحي الكرك والشوبك، فسار السلطان ووصل السير بالسرى، وخيم بعشترا، والقدر يقول له تعيش وترى، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى، وامتد العسكر فراسخ عرضا وطولا، وملأ بالملأ حزونا وسهولا، ومارأيت عسكرا أبرك منه ولاأكبر، ولاأكرث للكفر ولا أكثر، وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض، وما شاهده إلا من تلا:(ولله جنود السموات والأرض)[٣٧].

وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجج في ليل العجاج مدلج، ولما تم العرض، حسم الفرض، وسالت بأفلاك السماء والأرض، وتعين الجهاد، وتبين الاجتهاد، ثم رتب السلطان للعسكر أطلابا، وحزبه أحزابا، وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر عازما على دخول الساحل، فأناخ ليلة السبت على خسفين، ثم سار في الأردن إلى ثغر

الأقحوانة، وأقام هناك خمسة أيام، وقد عين مواقف الأمراء وشعارهم، وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط، ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام عليهم، وسير ذلك الجيش إليهم، علموا أنه جاءهم مالا عهد لهم بمثله، وإن الإيمان كله قد برز إلى الشرك كله، فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا، وانتخوا و دخل القمص معهم بعد أن دخل عليه الملك، ورمى بنفسه عليه، وصفوا راياتهم بصفورية، ولووا الألوية، وحشدوا الفارس والراجل والرامح والنابل، ورفعوا صليب الصلبوت، فاجتمع إليه عباد الطاغوت، وضلال الناسوت واللاهوت، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهل الأقانيم، وصلبوا للصليب الأعظم بالتعظيم، وماعصاهم من له عصا، وخرجوا عن العدد والإحصا، وكانوا عدد الحصى، وصاروا في زهاء خمسين ألفا أويزيدون، ويكيدون مايكيدون، قد توافوا على صعيد، ووافوا من قريب وبعيد، وهم هناك مقيمون لايريمون، والسلطان في كل صباح يسير إليهم ويشرف عليهم ويراميهم، وينكي فيهم، ويتعرض لهم ليتعرضوا له ويردوا عن رقابهم سيوفه، وعن شعابهم سيوله، فربضوا ومانبضوا، وقعدوا ومانهضوا، فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف، فلما رأى السلطان أنهم لايبرحون، ومن قرب صفورية لاينزحون أمر أمراءه أن يقيموا في مقابلتهم، ويديموا على عزم مقاتلتهم، ونزل هو في خواصه العسسية على مدينة طبرية، وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها، فحينئذ يتمكن من قتالهم، ويجهد في استئصالهم، ثم أحضر الجاندارية والنقابين والخراسانية والحجارين، وأطاف بسورها، وشرع في تخريب معمورها، وأخذ النقابون في النقب في برج فهدوه وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه، ودخل الليل، وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر، وامتنعت القلعة بمن فيها من القمصية وبنيها، ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بلده سقط في يده، وخرج عن جلد جلده، وسمح للفرنج بسبده ولبده، وقال لهم: لاقعود بعد اليوم ولابد لنا

من لقاء القوم، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وذهبت الطراف والتلاد، ومابقي لي صبر، ومابعد هذا الكسر لي جبر.

وكان الملك قد خلفه، ووافقه فما نافقه، ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه فمادت الأرض بحركته ، وغامت السماء من غيرته، ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا ففرح السلطان وقال: جاءنا مانريد، ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع، ولاعن فتحه وازع، واستخار الله تعالى وسار، وعدم القرار، وذلك يوم الخميس ثالث عشري ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية بقضهم وقضيضهم، وهم كالجبال السائرة، والبحار الزاخرة، أمواجها ملتطمة وأفواجها مزدحمة، فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه، وحصل بعسكره قدامهم، وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وهيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان، فهي (ليلة القدر .خير من ألف شهر. تنزل الملائكة والروح فيها)(٣٨) وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم (فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة)(٣٩) وبتنا والجنة معروضة،والسنة مفروضة، والكوثر واقفة سقاته والخلد قاطفة جناته، والسلسبيل واضح سبيله، والإقبال ظاهر قبيله، والظهور قائم دليله، والله ناصر الاسلام ومديله، وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال، وكان مافرقه من النشاب أربعمائة حمل، ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه، حتى إذا أسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار، ورنت القسي وغنت الأوتار، إذ ذاك، واليوم ذاك، والجيش شاك، وللقيظ عليهم فيض، ومالغيظ منهم غيض، وقد وقد الحر، واستشرى الشر، ووقع الكر والفر، والسراب طافح، والظماء لافح، والجو محرق، والجوى مقلق،

ولأولئك الكلاب من اللهب لهث، وبالعيث عبث، في ظنهم انهم يريدون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها، وذلك في يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة ووراء عسكرنا بحيرة طبرية، والورد عد، ومامنه بعد، وقد قطعت على الفرنج طريق الورود، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود، فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين، فكلبوا على ضراوتهم، وشربوا مافي أداوتهم، وشفهوا ماحولهم من موارد المصانع، واستنزفوا حتى ماء المدامع، وأشرفوا على المصير إلى المصارع، ودخل الليل وسكن السيل، وباتوا حيارى، ومن العطش سكارى، وهم على شغف البحيرة بحيرة، وقووا أنفسهم على الشدة، واستعدوا بالعزائم المحتدة، وقالوا: غدا نصب عليهم ماء المواضي، ونقاضيهم إلى القواضي، فأجدوا عزم البلاء، وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء، وأما عساكرنا فإنها اجترأت، ومن كل مايعوقها برئت، فهذا لسنانه شاحذ، وهذا لعنانه آخذ، وهذا سهم مفوق، وهذا شهم موفق، وهذا مكثر للتكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا ناج للسعادة، وهذا راج للشهادة فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة، ومن سحر أنفاسها ألطاف الله المتداركة، والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله فهو يمضي نفسه على الصفوف، ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف، ويغري المئين بالألوف، وهم بمشاهدته إياهم يجيدون ويجدون، ويصدون العدو ويردون.

وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل في أول الناس، وكان حصانه قوي الراس، فأبعد عن أخوانه، ولم يتابعه أحد من أقرانه، فانفرد به الفرنج فاثبث في مستنقع الموت رجله، وقاتل إلى أن بلغوا قتله، فلما أخذوا رأسه ظنوا أنه أحد أولاد السلطان، وانتقل الشهيد إلى جوار الرحمن، ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلده وجلاده، حميت حميتهم، وخلصت لله نيتهم، وأصبح الجيش على تعبيته، والنصر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصرة،

ووقوع الكسرة، وبرح بالفرنج العطش وأ بت عثرتها أن تنتعش، وكان النسيم من أمامها والحشيش تحت أقدامها، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش، فتأجج عليهم استعارها، وتوهج أوارها فبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام: في الاصطلاء، والاصطلام نار الضرام، ونار الأوام، ونار السهام، فرجا الفرنج فرجا، وطلب طلبهم المخرج مخرجا، فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب فما برحوا، وهم ظماءى وما لهم ماء سوى ما بأيديهم من ماء الفرند، فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصممت عليهم قلوب القسي القاسية، وأصممتهم وأعجز وا وأزعجوا، وأحرجوا وأخرجوا، وكلما حملوا ردوا وأردوا، وكلما ساروا او شدوا أسروا وشدوا، وما دبت منهم نملة، ولاذبت عنهم حملة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النشاب، فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ، فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين بوارق البوار، ورشقتهم الظبى، وفرشتهم على الربى، ووسقتهم الحنايا، وقسرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرزايا، ولما أحس القمص بالكسرة حسر عن ذراع الحسرة، وأقتال من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر، فخرج بطلبه يطلب الخروج، وأعوج إلى الوادي وماود أن يعوج، ومضى كومض البرق، ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق، وأفلت في عدة معدودة، ولم يلتفت إلى ردة مردودة، وكان قال لأصحابه: أنا أسبقكم بالحملة، وأفضلكم في الجملة، فاجتمع هو ومؤازروه، وجماعة من المقدمين مظافروه، وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان، وتوامروا على أنهم يحملون، ويبلغون الطعان، فحمل القمص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقا، ورمى من أتباعهم فريقا، فمضوا على رؤوسهم ونجوا بنفوسهم، ولما عرف الفرنج أن القمص أخذ بالعزيمة، ونفذ في الهزيمة، وهنوا وهانوا، ثم اشتدوا

ومـالانوا، وثبتـوا على مـاكانـوا واستقبلـوا واستقتلـوا واستحلموا وحملـوا، ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء، وصببنـا ماء الحديد للإطفاء، فزاد في الإذكـاء، فحطـوا خيـامهـم على غـارب حطين، حين رأونـا بهم محيطين، فأعجلنـاهم عـن ضرب الخيام بضرب الهام، ثـم استحر الحرب، واستمـر الطعن والضرب، وأحيـط بالفرنج مـن حواليهم، ودارت الـدوائر عليهم، وترجـوا خيرا فترجلوا عـن الخيل وجـرفهم السيـف جرف السيـل، وملك عليهم الصليـب الأعظم، وذاك مصابهم الأعظـم، ولما شاهـدوا الصليب سليبا، ورقيب الـردى قريبا، أيقنوا بالهلاك، وأثخنـوا بالضرب الدراك، فما برحـوا يؤسرون ويقتلون، ويخمدون ويخملـون، وللوثوب يخفـون، وبالجراح يثقلـون، ومـن مصـارع القتـل إلى معـاصر الأسر ينقلـون، ووصلنـا إلى مقدمهم وملكهم وإبرنسهم، فتم أسر الملك وإبرنس الكرك وأخي الملك جفـري، وأوك صـاحب جبيـل، وهنفـري، وابـن صـاحب اسكنـدرونـة، وصاحـب مرقية، وأسر مـن نجا من القتـل من الـداوية ومقدمهـا، ومن الإسبتارية معظمها ومن البارونية من أخطـأه البوار، فأصابه وساءه الأسار، وأسر الشيطـان وجنوده، وملـك الملك وكنـوده، وجبر الاسلام بكسرهـم، وقتلوا وأسروا بأسرهـم، فمن شاهد القتلى قـال: ماهناك أسير، ومن عـاين الأسرى قـال: مـاهناك قتيـل، ومـذ استـولى الفـرنـج على سـاحـل الشـام مـاشفي للمسلمين كيـوم حطين غليـل، فالله عـز وجـل سلط السلطـان وأقدره على مـاأعجز عنـه الملوك وهـداه من التـوفيق لامتثـال أمره، ومـن إقامة فرضـه للنهج المسلوك، ونظم له في حتوف أعـدائه والفتوح لأوليائه السلـوك، وخصه بهذا اليـوم الأغر، والنصر الأبـر، واليمن الأسر، والنجـح الأدر، ولـو لم يكـن لـه إلا فضيلـة هـذا اليوم لكـان متفـردا على الملـوك السـالفة، فكيـف ملـوك العصر في السمو والسـوم، غير أن هـذه النوبـة المبـاركة كـانت للفتـح القدسي مقـدمه، ولمعـاقد النصر وقـواعده مبرمـة محكمة.

ومن عجـائب هذه الوقعـة، وغرائب هذه الـدفعة، أن فارسهـم مادام

فرسه سالما لم يذل للصرعة، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد، ودارك الضرب إليه غير مفيد، لكن فرسه إذا هلك، فرس وملك، فلم يغنم من خيلهم ودوابهم، وكانت ألوفا، ماهو سالم، وماترجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم، وغنمنا مالا يحصر من بيض مكنون، وزغف موضون، وبلاد وحصون، وسهول وحزون، وابتذلنا منهم لهذا الفتح كل إقليم مصون، وذلك سوى مااستبيح من مال مخزون، واستخرج من كنز مدفون، وصحت هذه الكسرة، وتمت هذه النصرة يوم السبت، وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد، وكانوا أسودا فعادوا من النقد، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد، ومانجا من أولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى، وقيدت الأسارى في الحبال، واجبة القلوب، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب، وحطت حطين تلك الجيف عن متنها، وطاب نشر النصر بنتنها، وعبرت بها فألفيتها محل الإعتبار، وشاهدت مافعل أهل الإقبال بأهل الإدبار، وعاينت أعيانهم خبرا من الأخبار، ورأيت الرؤوس طائرة، والنفوس بائرة، والعيون غائرة، والجسوم رسمتها السوافي، والرسوم درستها العوافي، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عراة ممزقة بالمازق، مفصلة المفاصل، مفرقة المرافق، مفلقة المفارق، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام مجدوعة الآناف، منزعة الأطراف، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، منصفة الأجساد، مقصفة الأعضاد، مقلصة الشفاه، مخلصة الجباه، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كالأحجار بين الأحجار عبرة لأولي الأبصار، ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب، وقد قطعوا آرابا آرابا تلوت قول الله تعالى:(ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا)(٤٠).

فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث، وماألهب عذبات العذاب في تلك الجثث، وماأحسن عمارات القلوب بقبيح ذلك الشعث، وما أجزأ

صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث، هـذا حساب من قتل، فقد حصرت ألسنـة الأمم عـن حصره وعده، وأمـا مـن أسر فلم تكـف أطناب الخيـم لقيـده وشـده، ولقد رأيـت في الحبـل الـواحـد ثلاثين وأربعين يقـودهـم فارس، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهـم حارس، وهناك العتاة عناة، والعـداة عــراة، وذوو الأسرة أسرى، وأولـوا الأثـرة عثرى، والقــوامـص قنـائص، والفوارس فـرائس، وغـوالي الأرواح رخـائص، ووجوه الـداويـة عوابـس، والرؤوس تحت الأخامـص، فكم أصيـد صيد، وقائد قيـد وقيد، وملك مملوك، وهاتك مهتوك،وحر في الرق ومبطل في يد المحق.

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبـوت، وأهلك دونه الطاغوت، وهـو الذي إذا انصـب وأقيـم ورفع سجـد لـه كـل نصراني وركع، وهـم يزعمـون أنه من الخشبـة التي يزعمـون أنه صلـب عليها معبودهـم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالـدر والجوهر، وأعدوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيـدهم الموعود، فـإذا أخرجتـه القسوس، وحملته الـرؤوس تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولايسع أحدهـم عنه التخلف، وللمتخلف عن أتباعه في نفسـه التصرف، وأخـذه عنـدهـم أعظم مـن أسر الملـك، وهـو أشـد مصاب لهم في ذلـك المعترك، فإن الصليب السليـب مالـه عوض، ولالهم في سواه غرض، والتألـه له عليهم مفترض، فهو إلههم، تعفر لـه جباههم، وتسبـح لـه أفـواههـم، يتغـاشون عنـد إحضـاره، ويتعـاشـون لإبصـاره، ويتـلاشون لإظهـاره، ويتغاضـون إذا شـاهدوه، ويتـواجدون إذا وجـدوه، ويبذلـون دونه المهـج، ويطلبون به الفـرج، بل صاغـوا على مثله صلبـانا يعبـدونها، ويخشعون لها في بيـوتهم، ويشهدونها، فلما أخـذ هذا الصليـب عظم مصـابهم، ووهت أصلابهم، وكـان الجمع المكسـور عظيما، والموقف المنصور كريما، فكأنهم لما عرفوا إخـراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلا وأسرا، وملكوا قهرا وقسرا.

ولما صـح الكسر، وقضي الأمـر، وتمكــن النصر، وسكـن البحـر، ضرب

السلطـان في تلك الحومـة دهليـز السرادق، وتـوافت إليـه حماة الحقـائق، ونزل السلطـان وصلى للشكر وسجد، وجدد الإستبشـار بما وجد، وأحضر عنده من الأسارى الملك والبرنس وأجلس الملك بجنبه.

وقال في كتـاب الفتح: وجلس السلطان لعـرض أكابر الأسـارى، وهـم يتهادون في القيـود تهادي السكارى، فقـدم بدايـة مقدم الـداوية، وعـدة كثيرة منهـم ومـن الإسبتـارية، وأحضر الملـك كـي وأخـوه جفـري، وأوك صاحـب جبيل وهنفري والإبـرنس أرناط صـاحـب الكرك، وهـو أول من وقـع في الشرك، وكان السلطـان نذر دمـه، وقـال لأعجلن عنـد وجدانـه عدمه، فلما حضر بين يـديه أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبـه، وقرعه على غدره، وذكـره بذنبـه، وقال لـه: كـم تحلـف وتحنث، وتعهـد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض، وتقبل على الوفـاق ثم تعرض؟! فقال الترجمان عنه: إنـه يقـول : قـد جـرت بـذلـك عـادة الملـوك، ومـاسلكـت غير السنـن المسلـوك، وكان الملـك يلهث ظمـأ، ويميل مـن سكرة الـرعب منتشيـا، فآنسـه السلطان وحـاوره، وفثأ سورة الـوجل الـذي ساوره، وسكـن رعبه وأمـن قلبه، وأمـر له بماء مثلـوج فشربه، وأطفـأ بـه لهبه، ثـم ناول الملـك الإبرنس القـدح فاستشفه وبرد بـه لهفه، فقال السلطان للملـك: لم تأخذ في سقيه مني إذنا، فلا يوجب ذلك له مني أمنا، ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل أصـلاهما، ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه، وركزت أعلامـه وبيارقه، وعـادت إلى الحمـى عـن الحومـة فيـالقـه، فلما دخـل سرادقـه استحضر الإبرنـس فقام إليه وتلقـاه بالسيف فحل عـاتقه، وحين صرع أمر بـرأسه فقطع، وجر برجله قدام الملك حتى أخـرج، فارتاع الملك وانزعج، فعرف السلطـان أنه خـامـره الفزع، وسـاوره الهلـع، وسامـره الجزع، فـاستدعـاه واستدنـاه، وأمنه وطمنـه، ومكنه من قـربه وسكنـه، وقال لـه: ذاك رداءته أردته، وغدرتـه كما تراه غادرته، وقـد هلك بغيه وبغيه، ثـم جمع الأسارى

المعروفين، وسلمهم إلى والي قلعة دمشق الناصح الغيدي، فقال لهم: انتم تحت قيدي، وسلمهم الى أصحابه فتسلمتهم الأيدي ، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفي بن القابض في دمشق بوصولهم، ويحتاط عليهم في أغلالهم وكبولهم، فتفرق العسكر بمن ضمته أيدي السبي أيدي سبأ، وهادتهم الوهاد والربى.

قال: ولما أصبح السلطان يوم الأحد استقام على الجدد وخيم على طبرية، وراسل القمصية وأخرجها من حصنها بالأمان، ووفى لها وللفرسان بنيها بشروط الأيمان، فخرجت بمالها ورحالها ونسائها ورجالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القمص بمالها وحالها، وولى طبرية قايماز النجمي، وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل عوف والحيانية والسواد، وتناصف الجولان، ومايقربها إلى بلد حوران، فخلصت المناصفات، وصفت الصفات وأمنت الآفات، هذا والسلطان نازل ظاهر طبرية، وقد طب البرية، وعسكره قد طبق البرية، فلما أصبح يوم الإثنين بعد الفتح بيومين طلب الأسارى من الداوية والإسبتارية، وقال: أنا أطهر الأرض من هذين الجنسين النجسين، فما جرت عادتها بالمفاداة، ولايقلعان عن المعاداة، ولايخدمان في الأسر، وهما أخبث أهل الكفر، فتقدم بإحضار كل أسير داوي واسبتاري ليمضي فيه حكم السيف، ورأى البقيا عليه عين الحيف، ثم علم أن كل من عنده أسير لايسمح به، وأنه يضن بعطبه، فجعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدنانير الحمر خمسين، فأتوه في الحال بمئين، فأمر بإعطابهم، وضرب رقابهم، ومحو حسابهم، وكان بحضرته جماعة من المتطوعة المتورعة، والمتصونة المتصوفة، والمتعممة المتصرفة، ومن تمت له المعرفة بالزهد والمعرفة، فسأل كل واحد في قتل واحد، وسل سيفه وحسر عن ساعد، والسلطان جالس، ووجهه باشر والكفر عابس، والعساكر صفوف، والأمراء في السماطين وقوف، فمنهم من فرى وبرى، فشكر ومنهم من أبى ونبا وعذر، ومنهم من يضحك

منه، وينوب سواه عنه، وشاهدت هناك الضحوك القتال، ورأيت منه القوال الفعال، فكم وعداً أنجزه، وحمداً أحرزه، وأجراً استدامه بدم أجراه، وبرا عنق إليه بعنق براه وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعهم السجون، وتستبدل حركاتهم بالسكون، وتفرقت العساكر بما حوت أيديهم من السبى وسبق بهم إلى البلاد الناس ولم يقع على عددهم القياس، فكتب إلى الصفي بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عنق من يجده من الداوية والإسبتارية، فامتثل الأمر في إرهاقهم، وضرب أعناقهم، فما قتل إلا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم، وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم، وتأكد بالدين عزامهم.

قال العماد: ومازلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم الإبرنس، حتى حدثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس، وهو ذو البيت الكبير، والحسب الجليل، وكان جده صاحب إفريقية والقيروان، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان، ذكر أن الأجل الفاضل حدثه أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حران بعد المرضة التي صار بها كل قلب عليه حران، وذلك في سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سقمه لايفارق الأنين، فقلت له: مامعناه قد أيقظك الله ومايعيذك من هذا السوء سواه، فأنذر أنك إذا أبللت من هذا المرض، تقوم بكل مالله من المفترض، وأنك لاتقاتل من المسلمين أحدا أبدا، وتكون في جهاد أعداء الله مجتهدا، وأنك إذا نصرك الله في المعترك وظفرت بالقومص وإبرنس الكرك تتقرب إلى الله بإراقة دمهما، فما يتم وجود النصر إلا بعدمهما، فأعطاه يده على هذا النذر، ونجاه الله ببركة هذا العذر من الذعر، وخلصه إخلاصه في مرضاة الله، فأبل من مرضته، واستقل بنهضته، واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفريضته، ثم جرى من مقدمات الجهاد ونتائجها ماجرى، وخيم السلطان في جمع الاسلام بعشترا، وركب يوما في عسكره وعزم على نشر القساطل، وطي

المراحل، ودخول الساحل والقذف بالحق على الباطل، فبدأ بلقاء الطلعة المباركة من الأجل الفاضل، فقال له ليكن نذرك على ذكرك، واستزد نعمة الله عنده بمزيد شكرك، ولاتحط غير قمع أهل الكفر بفكرك، فما أنقذك الله من تلك الورطة، وأنعشك من تلك السقطة، إلا ليوفر حظك من هذه الغبطة، فتوكل على الله عازما، وجاز الأردن جازما، وأرعب جأش الكفر وكسر جيوشه، وثل عروشه، ووقع في الشرك أبرنس الكرك فوفى بضرب عنقه نذره، وأما القومص فإنه أخذ في الملتقى بالهزيمة حذره، ولما وصل إلى طرابلس أخافه في منامه القدر، وفجأة في صفوه الكدر، وتسلمه مالك إلى سقر.

فصل

هذا الذي تقـدم من وصف كسرة حطين، هو عين ماذكـره عماد الدين رحمه الله في كتابيـه الفتح والبرق، اختصرتـه منهما، وهو مطـول فيهما، وقد وقفت على كلام لغيره في ذلك فأحببـت إيراده على وجهه لما فيه من شرح ماتقـدم وتقويتـه، وربما اشتمل على زيـادات من فـوائد تتعلق بـذلك لم يتعرض العماد لها، أو مخالفة لبعض ماذكره.

قال القاضي أبو المحاسن بـن شداد: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين عزم السلطـان على قصد الكرك، فسير إلى حلب مـن يستحضر العسكر، وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسـار حتى نزل بأرض الكرك منتظرا لإجتماع العساكـر المصرية والشاميـة، وأمر العساكـر المتواصلة إليـه بشن الغارة على مـافي طريقهم من البـلاد الساحلية، ففعلوا ذلـك، وأقام رحمه الله بـأرض الكرك حتـى وصـل الحاج الشامـي إلى الشـام، وأمنـوا غائلـة العدو، ووصـل قفل مصر، ومعـه بنت الملك المظفـر، وماكان لـه بالـديار المصرية، وتأخـرت عنه العساكر الحلبيـة، بسبب اشتغالها بالفـرنج بأرض انطاكية وبلاد ابن لاون، وذلك أنه كـان قد مات ووصى لابن أخيه لاون بالملك، وكـان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطـان فأمره بالـدخول إلى بـلاد العدو وإخماد نـائرته، فـوصل تقـي الديـن حلب، ونـزل في دار العفيف بـن زريق، وانتقل إلى دار طمان، وفي تـاسع صفر خـرج بعسكر حلـب إلى حـارم ليعلـم العـدو أن هـذا الجانـب ليس بمهمـل، وعـاد السلطان فـوصل إلى السـواد ونزل بعشترا سـابع عشر ربيـع الأول، ولقيه ولـده الأفضل، ومظفـر الـدين، وجميـع العساكـر، وكـان تقدم إلى الملـك المظفر بمصـالحة الجانب الحلبـي من الفـرنج ليتفـرغ البال مـع العدو في جانب واحـد، فصالحهم وتوجـه إلى حماة يطلب خدمة السلطـان للغزاة، فسارت العساكر الشرقيـة في خدمته، وهم عسكر الموصل يقـدمه مسعود ابـن الـزعفراني، وعسكـر مـارديـن إلى أن أتوا عشترا، فلقيهـم السلطـان

وأكـرمهم، ثـم عرض السلطـان العساكـر منتصف ربيـع الآخر على تـل يعـرف بتل تسيـل، ورتبهـم وانـدفع قـاصـدا بـلاد العدو في وسـط نهار الجمعة، وكـان أبداً يقصـد بوقعـاته الجمـع لاسيما أوقات صـلاة الجمعة، تبركا بدعاء الخطبـاء على المنابر، فربما كانت أقـرب إلى الإجابة، وبلغه أن الفرنـج اجتمعوا في مرج صفـورية بأرض عكـا فقصد نحوهـم للمصاف معهم، فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قـرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غـربي طبرية على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظـرا أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا مـن منزلهم، فنزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حـالها قبالة وجه العدو، ونازل طبريـة وزحف عليها، فهجمهـا وأخذهـا في سـاعـة من نهار، وامتـدت الأيـدي إليهـا بالنهـب والأسر والحريـق والقتـل، وامتنعـت القلعـة وحـدهـا، فـرحـل الفـرنـج وقصدوا طبريـة للدفع عنهـا، فأخبرت الطلائع الاسـلامية الأمراء بحـركة الفرنـج، فسيروا إلى السلطان من عرفـه ذلك، فترك على طبرية مـن يحفظ قلعتها، ولقي العسكر هو و من معـه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليـل بين الفئتين، فباتتا على مصاف شاكيتين في السلاح إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكـران وتصادما، وذلك بأرض قرية تسمـى اللوبيا، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهـم الظلام، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والأمـور الجسيمة مالم يحك عن من تقدم، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمـه في كل ساعة،وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كـان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلـب كل من الفئتين مقامـه، وعلمت كـل طائفة أن المكسـورة منهما مدحـورة الجنس، معدومة النفس، وتحقق المسلمـون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بـلاد القـوم ولاينجيهم إلا الله، وكـان الله قـد قـدر نصر المسلمين فيسره، وأجـراه على وفق مـاقدره، فحملـت الأطـلاب الاسلاميـة من الجوانـب، وحمل القلب وصاحوا صيحـة الرجل الواحد، فألقـى الله الرعب في قلوب الكافرين(وكـان حقا علينا نصر المؤمنين)[٤١]، وكان القمص ذكي القوم

وألمعهم،فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن مخاشنة جنسه عن يقينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده، وأمن الاسلام كيده، واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب، فانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين، وهي قرية عنده، وعندها قبر النبي شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون على التل، وأشعلوا حولهم النيران، وقتلهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل، فأسر مقدومهم، وقتل الباقون وأسروا، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه.

ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا ومعه طنب، خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرهم وحده بخذلان وقع عليهم، وأما القمص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب فأهلكه الله بها، وأما مقدمو الاسبتارية والداوية فإن السلطان اختار قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم، وأما البرنس أرناط، فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قفل من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال : مايتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقال: قولوا لمحمدكم يخلصكم، وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دهليز الخيمة فإنها لم تكن نصبت، والناس يتقربون إليه بالأسارى، وبمن وجدوه من المقدمين، ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا شاكرا لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك كي وأخاه جفري والبرنس أرناط، وناول الملك شربة من جلاب بثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعضها البرنس أرناط، فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت

الـذي تسقيه، وإلا أنا مـاسقيته، وكـان على جميـل عادة العـرب وكريـم أخـلاقهـم أن الأسير إذا أكـل أو شرب من مـاء مـن أسره أمـن، فقصـد بـذلك الجري على مكـارم الأخـلاق، ثم أمـر بمسيرهـم إلى موضـع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئا ثم عـاد استحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعـد الملك في الدهليز واستحضر البرنـس أرناط، وأوقفه على ماقـال، وقال: ها أنا انتصر لمحمـد صلى الله عليه وسلم، ثـم عرض عليه الاسـلام فلم يفعـل، ثم سل النمجـاة وضربه بها فحـل كتفه، وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه إلى النـار، فأخذ ورمى على باب الخيمة، فلما رآه الملـك قـد أخـرج على تلـك الصورة لم يشـك في أنـه يثنـي بـه، فاستحضره وطيـب قلبه، وقال: لم تجر عـادة الملوك أن يقتلوا الملـوك، وأما هذا فـإنه جاوز حـده فجرى ماجـرى، وبات الناس في تلـك الليلة على أتم سرور، وأكمـل حبور، ترتفع أصـواتهم بالحمد لله والشكـر له والتكبير والتهليـل، حتى طلـع الصبح في يـوم الأحـد، فنزل رحمه الله على طبريـة، وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قلت: وذكـر محمد بن القادسي في تـاريخه أنه ورد في هذه السنـة كتب إلى بغـداد في وصـف هـذه الـوقعة، منهـا كتـاب مـن عبـد الله بـن أحمد المقدسي يقول فيـه:« كتبت هذا الكتاب مـن عسقلان يوم الثلاثـاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة»وفيـه :«ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ماوفينا بعشر نعمته التـي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإنا خرجنا إلى عسكر صلاح الـدين، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر وإربل، فجمـع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليـوم الذي كنـت أنتظره، وقـد جمع الله لنا العسـاكر، وأنـا رجل قـد كبرت، وماأدري متـى أجلي، فاغتنمـوا هذا اليـوم وقاتلـوا لله تعالى لامـن أجلي فاختلفوا في الجواب، وكـان رأي أكثرهم لقاء الكفـار، فعرض جنده ورتبهم وجعـل تقي الدين في الميمنـة ومظفر الدين في الميسرة، وكـان هو في القلـب، وجعل بقيـة العسكـر في الجناحين، ثـم سـاروا على مراتبهـم

حتى نزلـوا الأقحوانة، فتركوا بها أثقـالهم، وساروا حتى نزلـوا بكفر سبت فـأقـاموا يـومين ينتظـرون أن يبرز لهم الكفـار، وكان عسكـر الكفـار على صفـورية، فلـم يبرزوا فعاد صـلاح الديـن حتى نـزل على طبرية، فتقـدم فرسانـه وحماته ورماته والنقـابون فدخلوا تحت الحصـن، فلما تمكن النقب منـه انهال من غير وقـود نـار، ودخل المسلمـون فـانتهبـوا يوم الخميـس، وأصبحوا يـوم الجمعة فشرعوا في نقب القلعـة فلما كان وقت الصـلاةجاء الخبر أن الكفـار قد تـوجهـوا إلينا، فـارتحل صلاح الـديـن على صفوفـه فلقيهم، ثـم لم يزالـوا يتقدمون حتـى صار المسلمـون محيطين بهم، وصار قلب المسلمين خلفهم، فتراموا ساعة، وبات كل فريق على مصافهم، ثم أصبحوا فسـار الكفار يقصدون طبريـة والمسلمون حولهم يلحـون عليهم بالـرمي، فـاقتلع المسلمـون منه فـوارس، وقتلوا خيـالة ورجـالة، فـانحاز المشركون إلى تـل حطين فنزلـوا عنده ونصبوا الخيـام، وأقام النـاس حولهم إلى أن انتصف النهـار، وهبت الـرياح فهجم المسلمـون عليهم، فـانهزموا لايلوون على شيء، ولم يفلـت منهم إلا نحو مـن مائتين، وكانـوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفـا، وقيل ثـلاثة وعشريـن ألفا، لم يتركـوا في بلادهـم من يقدر على القتـال إلا قليلا، وكان الـذي أسر الملك هو دربـاس الكردي وغلام الأمير إبراهيم المهراني أسر الإبرنـس، وقتل صلاح الدين الإبرنس بيده لأنـه كان قـد غدر، وأخـذ قافلـة من طـريق مصر، ثـم عاد صـلاح الدين إلى طبرية فـأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضرب أعنـاق الأسارى الذين كانوا في العسكر، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم».

قال: وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التـي ماسمع بها قط،وهذه ذكر بعضها مختصرا مع أنه لايقدر أحد يصـف ذلك لأن الأمر أكبر من ذلك الـذي يبشر به المسلمـون:« إن مدينـة طبريـة فتحت بـالسيف وأخـذت قلعتها بـالأمان، واجتمع عسكر الأفـرنج جميعهم والتقوا بـالمسلمين عند

قبر شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقتل من الأفرنج ثلاثون ألفا، وكان عدد الأفرنج ثلاثة وستين ألفا بين فارس وراجل، وأسر منهم ثلاثون ألفا، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الاسلام من الأسرى والأموال والغنائم، بحيث لايقدر أحد يصف ذلك، وماسلم من عسكر الفرنج سوى قمص اطرابلس مع أربعة نفر، وهو مجروح ثلاث جراحات، وأخذ جميع أمراء الفرنج، وكم قد سبي من النساء والأطفال يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين دينارا، وأخذ صليب الصلبوت فعلق على قنطارية منكسا، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال مالم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم.

قال: وفي كتاب آخر:« وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفا فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم، وكذلك الملوك».

قلت: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجا إلى نعل فباعه بها، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن يذكر ذلك، ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل ولله الحمد، وماأحسن ماقال أبو الحسن ابن الذروي من قصيدة:

شرحت صلاح الدين بالسمر والظبى
من المجد معنى كان من قبل يغمض
وماكاد جيش الروم يبرم كيده
إلى أن سرت منك المهابة تنقض
حميت ثغور المسلمين فأصبحت
ثغورا بأمواه الحديد تمضمض

أسرت ملـــوك الكفـــر حتـــى تـــركتـــه
ومـــا فيـــه عـــرق عـــن قـــوى النفـــس ينبـــض

وكان القاضي الفاضل غائبا عن هذه الكسرة بدمشق، فلما بلغته كتب إلى السلطان:« ليهـن المولى إن الله قد أقام به الـدين القيم، وإنـه كما قيل أصبحت مولاي ومـولى كل مسلم، وإنه قد أسبغ عليـه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيـا وملك الآخرة، كتب المملوك هذه الخدمة والـرؤوس إلى الآن لم ترفع مـن سجودهـا، والدموع، لم تمسـح من خدودها، وكلما فكـر الخادم أن البيع تعود وهي مساجـد، والمكان الذي كان يقـال فيه إن الله ثالـث ثلاثة يقـال اليوم فيـه: إنه الواحـد، جدد لله شكرا تارة يفيـض من لسانه، وتـارة يفيض من جفنه، وجـزا يوسف خيرا عن إخـراجه من سجنه، والمماليـك ينتظرون أمر المولى، فكـل من أراد أن يدخـل الحمام بدمشـق قد عـول على دخول حمام طبريـة:« تلك المكـارم لاقعبان مـن لبن» وذلـك الفتح لاعمان واليمـن، وذلك السيـف لاسيف ابن ذي يزن، وللألسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل».

وللعماد رحمه الله قصائد يذكر فيها وقعة حطين، لم يـذكر منها شيئا هنا بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نـابلس، وبعضها عند فتح القدس، فنقلت إلى هذا المكان منها مايتعلق به والباقي يذكر في مكانه قال:

يـــا يـــوم حطين والأبطـــال عـــابســـة
وبـــالعجـــاجـــة وجـــه الشمـــس قـــد عبســـا
رأيـــت فيـــه عظيـــم الكفـــر محتقـــرا
معفـــرا خـــده والأنـــف قـــد تعـــس
يـــاظهـــر سيـــف بـــرى رأس البرنـــس فقـــد
أصـــاب أعظـــم مـــن بـــالشرك قـــد نجســـا
وغـــاص إذ طـــار ذاك الـــرأس في دمـــه
كـــأنـــه ضفـــدع في الماء قـــد غطســـا

مـــازال يعطـــس مـــزكـــومـــا بغـــدرتـــه
والقتـل تشميـت مـن بـالغـدر قـد عطسـا
عـــرى ظبـــاه مـــن الأغماد مهـــرقـــة
دمـــا مـــن الشرك رد إهـــابـــه وكســـا
مـــن سيفـــه في دمـــاء القـــوم منغمـــس
مـن كـل مـن لـم يـزل فـي الكفـر منغمسـا
أفنـــاهـــم قتلهـــم والأسر فـــانتكســـوا
وبيـت كفـــرهـــم مـــن خبثهـم كنســـا

وقال أيضا يخاطب صلاح الدين رحمه الله:

سحبـــت على الأردن ردنـــا مـــن القنـــا
ردينيـــة ملـــدا وخطيـــة ملســـا
حططـــت على حطين قـــدر ملـــوكهـــم
ولم تبـق مـــن أجنـاس كفـــرهـــم جنســـا
ونعـــم مجال الخيـــل حطين لم تكـــن
معـــاركهـــا للجـــرد ضرســـا ولادهســـا
غـــداة أســـود الحرب تعتقـــل القنـــا
أســـاود تبغـــي مـــن نحـــور العـــدا نهســـا
أتـــوا شكـــس الأخـــلاق خشنـــا فلينـــت حـــ
ـــدود الـرقـــاق الخشـــن أخـــلاقهـــا الشكســـا
طـــــردتهم في الملتقـــــى وعكستهـــــم
مجيـــدا بحكـــم العـــزم طـــردك والعكســـا
فكيـــف مكســـت المشركين رؤوسهـــم
ودأبـــك في الإحســـان أن تطلـــق المكســـا
كسرتهم إذ صـــح عـــزمـــك فيهـــم
ونكستهـــم إذ صـــار سهمهـــم نكســـا
بـــواقعـــة رجـــت بها الأرض جيشهـــم
دمـــاراً كما بســـت جبـــالهم بســـا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
ولم ترض أرض ان تكون لهم رمسا
وطارت على نار المواضي فراشهم
صلالا فزادت من خمودهم قبسا
وقد خشعت أصوات أبطالها فما
يعي السمع إلا من صليل الظبي همسا
تقاد بأيدي الإماء الدماء ملوكهم
أسارى كسفن اليم نطت بها القلسا
سبايا بلاد الله مملوءة بها
وقد شريت بخسا وقد عرضت نخسا
يطاف بها الأسواق لا راغب لها
لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا
شكا يبسا رأس البرنس الذي به
تندى حسام حاسم ذلك اليبسا
حسا دمه ماض الغرار لغدره
وما كان لولا غدره دمه يحسى
فلله مما أهدى يدا افتكت به
وأطهر سيفا معدما رجسه النجسا
نسفت به رأس البرنس بضربة
فأشبه رأسي رأسه العهن والبرسا
تبوغ في أوداجه دم بغيه
فصال عليه السيف يلحسه لحسا
بعثت أمام أمة النار نحوها
أمامهم أرناطها ذلك الجبسا
ولله نص النصر جاء لنصله
فلا قونسا أبقى لرأس ولا قنسا
حكى عنق الداوي صل بضربة
طرير الشبا عودا بمضرابه حسا
أيوم وغى تدعوه أم يوم نائل
وأنت وهبت الغانمين به الخمسا

وقـــد طـــاب ريـــانـــا على طبريـــة
فيـــا طيبهـــا ريـــا و يـــا حسنهـــا مـــرســـى

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة سيأتي بعضها في مدح صلاح الدين رحمه الله:

جـــاشـــت جيـــوش الشرك يـــوم لقيتهـــم
يتـــذامـــرون على متـــون الضمـــر
أوردت أطـــراف الـــرمـــاح صـــدورهـــم
فـــولغـــن في علـــق النجيـــع الأحمر
فهنـــاك لم يـــر غير نجـــم مقبـــل
في أثـــر عفـــريـــت رجيـــم مـــدبـــر
فمـــن الـــذي مـــن جيشهـــم لم يخترم
ومـــن الـــذي مـــن جمعهـــم لم يـــؤسر
حتـــى لقـــد بيعـــت عقـــائل أرهقـــت
بـــالسبـــي بـــالثمـــن الأخـــس الأحقـــر
سقـــت المماليـــك الكـــرام ملـــوكهـــم
كـــأســـا بـــه سقـــت اللئيـــم الهنفـــري
وعجمـــت عـــود صليبهـــم فكسرتـــه
وســـواك ألفـــاه صليـــب المكسر
أغلـــى الأداهـــم مـــن أســـرت وأرخصـــت
بيـــض الصـــوارم مـــن نهاب العسكـــر
وجعلـــت شرق الأرض يحســـد غـــربها
بـــك فهـــو داع دعـــوة المستنصر
لا يعـــد منـــك المسلمـــون فكـــم يـــدا
أوليتهـــم معـــروفهـــا لم تنكـــر
آمنـــت سربهم وصنـــت حـــريمهـــم
ودرأت عنهـــم قـــاصمات الأظهـــر
مـــا أن رآك الله إلا آمـــرا
فيهـــم بمعـــروف ومنكـــر منكـــر

متواضعاً لله جل جلاله
وبك اضمحلت سطوة المتكبر
لم يخل سمع من هناء مهنىء
للمسلمين ومن سماع مبشر
واستعظم الأخبار عنك معاشر
فاستصغروا ما استعظموا بالمخبر
مضت الملوك ولم تنل عشر الذي
أوتيته من منجح أو مفخر

وقال أبو الحسن علي بن الساعاتي في فتح طبرية:

جلت عزماتك الفتح المبينا
فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما
غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما
يعز على العوالي أن يهونا
يقاتل كل ذي ملك رياء
وأنت تقاتل الأعداء دينا
غدت في وجنة الأيام خالا
وفي جيد العلا عقدا ثمينا
فيا لله كم سرت قلوبا
ويا الله كم أبكت عيونا
وما طبرية إلا هدي
ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء
وسل عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسرا ومن ذا
يصد الليث أن يلج العرينا

لقـــد أنكحتهـــا صـــم العـــوالي
فكـــان نتـــاجهـــا الحرب الـــزبـــونـــا
هنـــاك نـــدى أهـــل الأرض طـــرا
ســـواك ومعقـــل أعيـــا القـــرونـــا
قســـت حتـــى رأت كفـــؤا فـــلانـــت
وغـــايـــة كـــل قـــاس ان يلينـــا
قضيـــت فـــريضـــة الاســـلام منهـــا
وصـــدقـــت الأمـــاني والظنـــونـــا
تهز معـــاطـــف القـــدس ابتهـــاجـــا
وتـــرضـــى عنـــك مكـــة والحجـــونـــا
فلـــو أن الجماد يطيـــق نطقـــا
لنـــادتـــك أدخلـــوهـــا آمنينـــا
جعلـــت صبـــاح آهلهـــا ظـــلامـــا
وأبـــدلتـــك الـــزئير بها أنينـــا
تخال حماة حـــوزتها نســـاء
لموضـــون الحديـــد مقنعينـــا
لبيضـــك في جماجمهـــم غنـــاء
لـــذيـــذ علـــم الطير الحنينـــا

تميـــل إلى المثقفـــة العـــوالي
فهـــل أمســـت رمـــاحـــا أم غصـــونـــا
يكـــاد النقـــع يـــذهلهـــا فلـــولا
بـــروق القـــاضبـــات لما دهينـــا
فكـــم حـــازت قـــدود قنـــاك منهـــا
قـــدودا كـــالقنـــا لـــونـــا ولينـــا
وغيـــد كـــالجآذر آنســـات
كغيـــد نـــداك ابكـــارا وعـــونـــا
ولما بـــاكـــرتها منـــك نعمـــى
بنـــان تفضـــح الغيـــث الهتـــونـــا

أعـــدت بها الليـــالي وهـــي بيـــض
وقـــد كـــانـــت بها الأيـــام جـــونـــا

فليـــس بعـــادم مـــرعـــى خصيبـــا
أخـــو سغـــب ولا مـــاء معينـــا

فـــلا عـــدم الشـــآم وســـاكنـــوه
ظبـــى تشفـــي بها الـــداء الـــدفينـــا

سهـــاد جفـــونها في كـــل فتـــح
سهـــاد يمنـــح الغمـــض الجفـــونـــا

فـــالمم بـــالســـواحـــل فهـــي صـــور
إليـــك وألحق الهام المتـــونـــا

فقلـــب القـــدس مسرور ولـــولا
سطـــاك لكـــان مكتئبـــا حـــزينـــا

أدرت على الفـــرنـــج وقـــد تـــلاقـــت
جموعهـــم عليـــك رحـــى طحـــونـــا

ففـــي بيســـان ذاقـــوا منـــك بـــؤســـا
وفي صفـــد أتـــوك مصفـــدينـــا

لقـــد جـــاءتهم الأحـــداث جمعـــا
كـــأن صروفهـــا كـــانـــت كمينـــا

وخـــانهم الـــزمـــان ولا مـــلام
فلســـت بمبغـــض زمنـــا خـــؤونـــا

لقـــد جـــردت عـــزمـــا نـــاصريـــا
يحدث عـــن سنـــاه طـــور سنيـــا

فكنـــت كيـــوســـف الصـــديـــق حقـــا
لـــه هـــوت الكـــواكـــب ســـاجـــدينـــا

لقـــد أتعبـــت مـــن طلـــب المعـــالي
وحـــاول أن يســـوس المسلمينـــا

وأن تـــك آخـــراً وخـــلاك ذم
فـــإن محمـــداً في الآخـــرينـــا

قال ابن أبي طي: حدثني والدي عن أحد التجار قال: كنت بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فزرت الشيخ عمر الملا. فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ رأيت البارحة في النوم كأني بأرض غريبة لاأعرفها، وكأنها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلا في يده سيف، وهو يقتل الخنازير، والناس ينظرون إليه، فقلت لرجل: هذا عيسى بن مريم، هذا المهدي، قال: لا، فقلت: من هذا؟ قال: هذا يوسف مازادني على ذلك، قال: فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا، وقالوا: إنه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف، وحدست الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة فحدس بعض الجماعة عليه، قال: وأنسيت أنا هذه الوقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها، فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله.

قال: وحدثني ظئر لي من نساء الحلبيين، كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر، قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها أتيت في نومها وفي حامل بالسلطان، فقيل لها: إن في بطنك سيفا من سيوف الله تعالى.

فصل

في فتح عكا وغيرها

وهي بالألف الممدودة،ويدل على ذلك أنه يقال في النسبة إليها عكاوي، وقد وجدت ذلك في شعر قديم، ومنهم من يقول عكة بالهاء ومثل ذلك حصن عرقة، وبعضهم يقول عرقا بالألف ونهر تورا، وبعضهم يقول: نهر توره بالهاء.

قال القاضي ابن شداد: ثم رحل السلطان طالبا عكا، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى، فأخذها واستنقذ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر، واستولى على مافيها من الأموال والذخائر، والبضائع والتجائر، فإنها كانت مظنة التجار.

وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا، وقيسارية وصفورية، والناصرة، وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والأسر.

قال العماد: ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء، والتوحيد ظاهر على التثليث، والطيب قد امتاز من الخبيث، ونزل بأرض لوبية عشية، وأعادها بأزهار بنوده، وأنوار جنوده، روضة موشية، ثم أصبح سائرا إلى عكا، فاشيا سره، بارا بأهل الدين بره، وكان أمير المدينة النبويةصلوات الله على ساكنها في موكبه، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير إلى نصرته من يثري به من يثربه، وهذا الأمير عز الدين أبو فليته القاسم بن المهنا الحسني، قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شيبة تقد كالسراج، ومابرح مع السلطان مأثور المآثر ميمون الصحبة، مأمون

المحبة، مبارك الطلعة، مشاركا في الوقعة، فما تم فتح في تلك السنين إلا بحضوره، ولاأشرق مطلع من النصر إلا بنوره، فرأيته في ذلك اليوم للسلطان مسايرا، ورأيت السلطان له مشاورا محاورا، وأنا أسير معهما، وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما، ولاحت أعلام عكا، وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى، وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الاسلام إليها من وعرها وسهلها، ولما أشرفنا عليها مستظهرين أيقنا بفتحها مستبشرين، فما كان فيها من يحميها، فما صدقنا كيف نملكها ونحويها، وظهر على السور أهلها لأجل الممانعة، والثبات على المدافعة، وخفقان ألويتها يشعر بقلوبها الخافقة، وأرواح جلدهم الزاهقة، ووقفنا نتأمل طلولها، ونؤمل حصولها، وخيم السلطان بقربها وراء التل، وانبثت عساكره في الوعر والسهل، وبتنا تلك الليلة وقد هزتنا الإطراب، نقول متى يجتمع الأصباح والأصحاب، فما هجدنا ولاغرارا، ولاوجدنا من الفرح قرارا، والسلطان جالس ونحن عنده، وهو يحض جنده، ويقدح معهم في اقتباس الآراء زنده، ومنا من يستنجز وعده، ومنا من يستميح رفده، ومنا من يواصله بالدعاء، ومنا من يشافهه بالهناء، وأصبح يوم الخميس فركب في خميسه، ووقف كالأسد في عريسه، ووقفنا بإزاء البلد صفوفا، وأطللنا على أطلاله وقوفا، فخرج أهل البلد يطلبون الأمان، ويبذلون الإذعان، فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال، وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذريتهم ونساءهم، وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة، فاغتنموا تلك المهلة، وفتح الباب للخاصة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوي الخصاصة، فإن القوم ماصدقوا من الخوف المزعج، والفرق المحرج، كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون، وعندهم أنهم إذا نجو بأنفسهم أنهم يغنمون، فلما دخل الجند ركز كل واحد منهم على دار رمحه، وأسام فيها سرحه، فحصلوا على دور أخلاها أربابها، وأموال خلاها أصحابها، وكنا لأجل

الأمـان نهابها، فطـاب لأولئـك نهابها، وجعـل السلطـان للفقيـه عيسـى الهكاري كل مـاكان للداوية من منـازل وضياع ومواضع ورباع، فـأخذها بما فيها مـن غلال ومتـاع، واستخرجـوا الدفـائن، وولجوا المخازن، وداروا الأماكن، وكـذلك مماليك الملك الأفضـل وأصحابه، وولاته ونـوابه نبشوا المحـارز، وفتشـوا المراكز، واستبـاحـوا الإهـراء واجتـاحوا الأشيـاء، وكـان السلطـان قد فـوض عكـا وضياعهـا ومعاقلهـا وقـلاعها إلى ولـده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي.

ثم ذكر العماد أنـواع مااستولوا عليـه من الأموال، ثم قـال: ومن جملة ذلـك أنهم احتاطـوا بغير علمـي على دار بـاسمي، فبـاعـوا منهـا متاعـا بسبعمائة دينـار، وأخلـوها ممـا كـان فيهـاآلات وأذخار، وقلـدوني المنـة في تحصيل تلـك الدار، فـإنها كانت مـن أنفس العقـار، وسلموهـا إلى غلام صديق لي يصونها، ويقوم بحفظها والـذب عنها، والدفاع دونها، فذكر أن الغلام انتفـع من آلاتها بعـد خلوهـا بما قيمته سبعـون دينارا، وأن الأولين نقلوا منها من الذخر أوقارا.

قال: وإنما وصفت هذا ليعلم ماغنمـوه، والتهبوا على حيازته والتهموه، وتصرف الملك المظفر تقي الدين في دار السكر فـأفنى قنودها، واستوعب موجودها، ونقل قدورها وأنقاضها، وحوى جواهرها وأعراضها.

وقال في كتاب الفتح:وخلى سكان البلـد دورهم، ومخزونهم ومدخولهم، وتركـوها لمن أخـذها، ونبـذوا ماحـووه لمن حواهـا ومانبـذها، وافتقـر من الفرنج أغنيـاء، واستغنى من أجنادنـا فقراء، ولو ذخرت تلـك الحواصل، وحصلـت تلك الـذخائر، وجمع لبيـت المال ذلك المال المجمـوع الوافـر، لكان عـدة ليوم الشدائد، وعمدة لنجـح المقاصد، فرتعـت في خضرائها، بل في صفـرائها وبيضـائها سروح الأطماع، وطـال لمستحلبها ومستحيلهـا الأمتاع بذلك المتاع.

وقال في البرق: وقرىء على السلطان ليلة من كتاب الفتح ونحن بالقدس، يعني هذا المكان، وذلك سنة ثمان وثمانين، فقال السلطان: هذه رفيعة على ثلاثة، اثنان منهم في جوار الرحمة، والآخر باق في مقر العصمة،يعني بالاثنين، الفقيه عيسى، وتقي الدين، وبالآخر الباقي ولده نور الدين.

قال: ولعمري هو كما ذكره، لكن الأفضل ماحصل له ولخواصه بل لذوي اختصاصه واستخلاصه، وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، فجئنا إلى كنيستها العظمى، فأزحنا عنها البؤسى بالنعمى، وحضر الأجل الفاضل فرتب بها المنبر، والقبلة وهي أول جمعة أقيمت بالساحل بعد يوم الفتح، وكان الخطيب والإمام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي، وولاه السلطان مناصب الشريعة بعكا، تولى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد بعد فتح عكا يصف كسرة حطين:« صبح الخادم طبرية فافتض عذرتها السيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها بين الأسر والقتل وعاجلهم الأمر، فلم يقدوا على الخداع والختل، وجاء الملك ومن كان معه من كفاره، ولم يشعر أن ليل الكفر قد آن وقت إسفاره، فأضرم الخادم عليها نارا ذات شرار، أذكرت بما أعد الله لهم في دار القرار، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد، وتسنموا هضبة رجاء أن تنجيهم من حر السيوف الحداد، ونصبوا للملك خيمة حمراء، وضعوا على الشرك عمادها، وتولت الرجال حفظ أطنابها، فكانوا أوتادها، فأخذ الملك أسيرا(وكان يوما على الكافرين عسيرا)[٤٢] وأسر الإبرنس لعنه الله فحصد بذره، وقتله الخادم بيده ووفى بذلك نذره، وأسر جماعة من مقدمي دولته وكبراء ضلالته، وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفا، ولم يبق أحد من الديوية، فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، وتداول فيه القتل والأسر، أصدر الخادم هذه الخدمة من

ثغر عكا والاسلام قد اتسع مجاله، وتصرف أنصاره ورجاله والكفر قد ثبتت أوجاله، ودنت آجاله».

قال العماد: ومن جملة البشائر بكسرة حطين:« ولما أحيط بالقوم أوى ملكهم إلى جبل يعصمه من العوم، فأسمعه السيف(لاعاصم اليوم)[٤٣] واستولى الخذلان عليهم بأسرهم،وبردت أيدي المؤمنين بحر قتلهم وأسرهم، ولم يبق لهم باقية، وغصت بقتلاهم في الدنيا والآخرة أرض الله الواسعة، ونار الله الحامية، فما يطأ من يصل إلى مخيمنا إلا على رممهم البالية وأسر الملك وأخوه وبارونيته ومقدموه ولم يفلت منهم إلا القومص وهو مسلوب، ولابد أن ندركه فهو مطلوب، وقد كنا نذرنا ضرب رقبة الإبرنس صاحب الكرك الغدار، كافر الكفار، ونشيدة النار، فلما رأيناه ضربنا عنقه سريعا، وسرنا إلى عكا وهي بيضة ملكهم، وواسطة سلكهم، ومركز دائرة كفرهم، ومجمع جمع برهم وبحرهم، فتسلمناها بالأمان، والصخرة المقدسة الآن بنا تصرخ وتستغيث، وعباد الله الصالحون قد وصلت إليهم بوعد الله الصادق المواريث، والبشارة بفتح القدس لاتتأخر، والهمم بعد هذا الفتح السني على ذلك تتوفر، والحمد لله الذي تتم الصالحات بحمده(مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ومايمسك فلا مرسل له من بعده)[٤٤]».

- ٨٥٢١ -

فصل

في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية بعد فتح عكا و طبرية وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك

قال العماد: وأقام السلطان أياما بعد فتح عكا على التل مخيما، وعلى سائر بلاد الساحل مصمما، وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه، فوصل بعسكره وفتح في طريقه حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، فقصده من عسكرنا القصاد، ووفد إليه الوفاد، وأمره السلطان بأن يقيم في ذلك الجانب، جامعا للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر الآملون معه بالنصر.

قال: وتوجه عدة من الأمراء والعسكرية إلى الناصرة وقيسارية، والبلاد المجاورة لعكا وطبرية، ومضى كل فريق في صوب، وآبوا بالغنيمة والسبى خير أوب.

قال: فأما الفولة فهي قلعة للداوية حصينة، وفيها ذخائرهم وأموالهم، فلما خرج الداوية منها وقتلوا لم يبق فيها إلا اتباع وغلمان فسلموها وجميع مايجاورها، كدبورية وجينين وزرعين والطور وزاد في كتاب الفتح: واللجون وبيسان والقيمون، وجميع مالعكا وطبرية من الولايات، والزيب ومعليا والبعنة واسكندورنة ومنوات.

قال: وتوجه مظفر الدين كوكبري إلى الناصرة فاستباحها، وصفرت صفورية من سكانها، وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف، واستولى على تلك الشموس والأقمار الكسوف والخسوف، وحيفا بين عكا وقيسارية على البحر.

قال: وأما نابلس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها، كانوا مسلمين، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون كل عام منهم قرارا، ولايغيرون لهم شرعا ولاشعارا، فلما عرفوا كسرهم، وأنهم لايرجون جبرهم، خافوا من مساكنة المسلمين فتفرقوا، وكبسهم أهل الضياع في الدور والرباع، وغنموا ماوجدوه من الذخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائهم، وضايقوا الحصون على أقويائهم، وطلبها من السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو عزيز عند خاله، ملىء بفضله وأفضاله، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها، ونواحيها وقلاعها، فتوجه إليها بعسكره، فأول ما أناخ على سبسطية وفيها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذه الأقساء كنيسة منذ فارقه الاسلام، وهو متعبدهم المعظم، والمشهد المكرم، وقد حجبوه بالأستار، وحلوه بالفضة والنضار، وعينوا له مواسم الزوار، وقومته من الرهابين فيه مقيمة، ولايؤذن في الزيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة، فدخله وحوى مافيه، وأبقى مالايحسن أن يخلو من مثله المسجد، وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلين محرابه، ثم سار إلى نابلس ففتحها بالأمان، واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان، وأجراهم على مالهم من العمارة والبنيان وبقيت بيده الى آخر عهده، وعمرت بعدله ورفده.

قال العماد: وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة أولها:

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا
وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا

ماطبت نفسا ولااستحسنت بعدكم
شيئا نفيسا ولااستعذبت لي نفسا

قلبي وصبري وغمضي والشباب وما
الفتم من نشاطي كله خلسا

وكيـــــف يصبـــــح أو يمسي محبكـــــم
وشـــوقكـــم يتـــولاه صبـــاح مســـا
عـــادت معـــاهـــدكـــم بـــالجزع دارسـة
وإن معهـــدكـــم في القلـــب مـــادرســـا
وكنـــت أحـــدس منكـــم كـــل داهيـــة
ومـــادهـــانـــا مـــن الهجـــران مـــاحـــدســـا
لما هـــدت نـــار شـــوقـــي ضيـــف طيفكـــم
قـــريتـــه بـــالكـــرى زار مقتبســـا
ورمـــت تـــأنيســـه حتـــى وهبـــت لـــه
إنســـان عينـــي أفـــديـــه فما أنســـا
أنـــا الخيـــال نحـــو لا فـــالخيـــال إذا
مـــازارني كيـــف يلقـــى مـــن بـــه التبســـا
لهفـــي على زمـــن قضيتـــه طـــربـــا
إذ لم أكـــن مـــن صروف الـــدهـــر محترســـا
عســـى يعـــود شبـــا بي نـــاضرا ومتـــى
أرجـــو نضـــارة عـــود للشبـــاب عســـا
وســـادن يفـــرس الآســـاد نـــاظـــره
فـــديتـــه شـــادنـــا لـــلأســـد مفترســـا
في العطـــف لين وفي أخـــلاقـــه شـــوس
يـــا لين عطفيـــه جنـــب خلقـــه الشـــوســـا

ومنها في المديح:

إن بـــان لبـــس مضينـــا لاجئين إلى الـــ
ـــفتى الحســـام بـــن لاجين بنـــابلســـا
يميـــت أعـــداءه بـــأســـا ونـــائلـــه
يحيـــي رجـــاء الـــذي مـــن نجحـــه أيســـا
ممـــــزق المازق المنســـــــوج عثيره
وقـــد محا اليـــوم ليـــل النقـــع فـــانطمســـا

لازلت مستويا فوق الحصان وفي
حصن الحفاظ ومن عاداك منتكسا

وهي طويلة وقد تقدمت منها أبيات في وصف كسرة حطين، وسيأتي منها أيضا أبيات عند فتح القدس في مدح السلطان صلاح الدين رحمه الله.

ومن كتاب عن السلطان إلى سيف الاسلام أخيه: « كاتبنا أخانا العادل أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب، فلما بشر بكسر الفرنج وفتح عكا وطبرية،كان قد وصل إلى السواد، فحاز العريش، وزار الداروم، وأجفلت قدامه البلاد، ووصل إلى يافا ففتحها عنوة، ثم حصر مجدل يابا، فطلبت منه الأمان، وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة بعد وهي:

طبرية. عكا. الزيب. معليا. اسكندرونة. تبنين. هونين. الناصرة. الطور. صفورية. الفولة. جينين. زرعين. دبورية. عفربلا. بيسان. سبسطية. نابلس. اللجون. أريحا. سنجل. البيرة. يافا. أرسوف. قيسارية. حيفا. صرفند. صيدا. بيروت. قلعة أبي الحسن. جبيل. مجدل يابا. جبل الجليل. مجدل حباب. الداروم. غزة. عسقلان. تل الصافية. التل الأحمر. الأطرون. بيت جبريل. جبل الخليل. بيت لحم. لد. الرملة. قرتيا. القدس. صوبا. هرمز. سلع. عفرا. الشقيف.

قال: ولم يذكر ماتخللها من القرى والضياع والأبراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع ولكل واحدة من هذه البلاد التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع قد جاسوا خلالها واستوعبوا ثمارها وغلالها.

قال العماد: ومما أنشأته من شرح الفتوح وكتبت به إلى الديوان

وبدأت بقـوله تعـالى:«(ولقـد كتبنـا في الزبـور من بعـد الذكـر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)[٤٥] الحمد لله على ماأنجز مـن هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبـل ومن بعد، وجعل بعد عسر يسرا، وقد أحـدث الله بعد ذلـك أمرا، وهـون الأمر الـذي ماكـان الاسلام يستطيـع عليه صبرا، وخـوطب الـدين بقولـه:(ولقد مننـا عليك مـرة أخرى)[٤٦] فالأولى في عصر النبـي صلى الله عليه وسلـم والصحابـة، والأخرى هـذه التي عتـق فيها مـن رق الكآبة، فهـو قد أصبـح حرا، ريـان الكبد الحرا، والزمـان كهيئته استـدار، والحق ببهجته قـد استنار، والكفـر قد رد مـاكان عنده من المتاع المستعار، فالحمد لله الذي أعـاد الاسلام جديدا ثوبه، بعد أن كان جـذيذا حبلـه، مبيضا نصره، مخضرا نصلـه، متسعا فضلـه، مجتمعا شملـه، والخادم يشرح مـن نبـأ هـذا الفتـح العظيـم، والنصر الكـريـم، مايشرح صـدور المؤمنين، ويمنح الحبـور لكافـة المسلمين، ويورد البشرى بما أنعم الله به مـن يوم الخميس الثالـث والعشرين من شهر ربيـع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه ، وتلك سبع ليال وثمانيـة أيام حسوما، سخرها الله على الكفار فترى القوم فيهـا صرعى كأنهم أعجاز نخـل خاوية، وإذا رأيت ثـم رأيت البلاد على عروشها خـالية، ورأيتها إلى الاسلام ضاحكة، كما كـانت مـن الكفر بـاكية، فيـوم الخميس الأول فتحـت طبرية، ويـوم الجمعة والسبـت نوزل الفرنـج فكسروا الكسرة التي مـالهم بعدها قـائمة، وأخذ الله أعداءه بـأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظـالمة، وفي يوم الخميس منسلخ الشهـر فتحت عكـا بالأمـان، ورفعت بها أعـلام الإيمان، وهي أم البـلاد، وأخـت إرم ذات العماد، وقـد أصـدر هـذه المطـالعـة وصليـب الصلبـوت مأسـور، وقلب ملـك الكفر الأسير بجيشـه المكسور مكسـور، والحديد الكـافر الذي كـان في يد الكفـر يضرب وجه الاسلام، قـد صار حـديـدا مسلما يعـوق خطـوات الكفر عـن الإقـدام، وأنصـار الصليـب وكباره، وكل من المعمودية عمدته والـدير داره قد أحاطت به يد القبضة، وغلق رهنه فـلا تقبل فيه القناطير المقنطـرة من الذهب والفضـة، وطبرية

قد رفعت أعلام الاسلام عليها، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها، وعمرت إلى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها، وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها، وطالما ارتجت لموقف الكافر، فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا، وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطع بهم سوق نار الجحيم، ورحل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم، وقتل الإبرنس كافر الكفار، ونشيدة النار، من يده في الاسلام كما كانت يد الكليم، والبلاد والمعاقل التي فتحت هي: طبرية. عكا. الناصرة. صفورية. قيساريه. نابلس. حيفا. معليا. الفولة. الطور. الشقيف. وقلاع بين هذه كبيرة، والملك المظفر تقي الدين ظفره الله مضايق لصور، وحصن تبنين، والأخ العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر لينزل في طريقه على غزة وعسقلان ويجهز مراكب الاسطول المنصورة إلى عكا، ومايتأخر النهوض إلى القدس، فهذا هو أوان فتحه، ولقد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه».

فصل

في فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها ومجيء المركيس إلى صور

قال العماد: أرسل السلطان إلى تبنين ابن أخيه تقي الدين فضايقها، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه فوصل إليها في ثلاث مراحل، ونزل عليها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى، فراسلوا السلطان، وسألوا الأمان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا، وبذلوا رهائن من مقدميهم، ووفوا بها بذلوا، وتقربوا بإطلاق الأسارى المسلمين، فخرج الأسارى مسرورين، فسر بهم السلطان وسر بهم، وأقرهم وقربهم، وكساهم وحباهم، وأتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه، وملك يربحه، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويعيد بعد عدمها وجودها، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف، ولما خلوا القلعة، وأخلوا البقعة سيرهم، ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر من جمادي الأولى، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن.

وقال القاضي ابن شداد: فتحها السلطان عنوة، وكان بها رجال أبطال، شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا، فنزل عليها، ومن الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء الحادي و العشرون.

قال العماد: سنحت له صيدا فتصدى لصيدها، وكانت همته في

قيدها، وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها، ووصلنا في يومين إلى صيدا إلى منهل فتحها صادين، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صادين، ولما نزلنا من الوعر إلى السهل سهل ماتوعر، وصفا من الأمر ماظن أنه تكدر، فصرفنا الأعنة إلى صرفند، وهي مدينة لطيفة على الساحل، موروده المناهل، ذات بساتين وأشجار ورياحين وأزهار، فأخذناها، وخيمنا على صيدا وقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها، وطلعت الراية الصفراء على سورها وأقيمت بها الجمعة والجماعة، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة.

ثم سار في يومه على سمت بيروت، فنزل عليها يوم الخميس، وضايقها وحاصرها ثمانية أيام، ثم طلبوا الأمان فأمنهم وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى.

ومرض العماد فأملى كتاب صلح بيروت، ورجع إلى دمشق للمداواة، ثم وجد الشفاء، وعاد إلى السلطان يوم فتح القدس كما سيأتي.

قال: وسلمت بيروت بحضوري، فكان من سبب ابلالي سروري بفتحها وحبوري، وخرج منها ومن قلعتها الفرنج وامتلأ بهم إلى صور النهج، وعاد الاسلام الغريب فيها إلى وطنه، وتوطن الدين بها في مأمنه وسكن في مسكنه، وأما جبيل فإن صاحبها أوك كان في جملة من نقل إلى دمشق مع الملك الأسير، فضاق ذرعا بسجنه الذي تعجل له فيه عذاب السعير، فتحدث مع الصفي بن القابض في أمره، وباح إليه بسره، وقال: مالكم في أسري فائدة ولاغنيمة على فتح جبيل زائدة، وأنا أسلمها بشرط سلامتي، فخذوها ولاتفقدوني، فقد قامت قيامتي، فأنهى الصفي حاله، واستصوب ماقاله، فأمر باحضاره في قيده والإحتراز من كيده، فوصل به ونحن على بيروت فسلم جبيل وسلم وربح نجاته وغنم، ومضى إليها من تولاها، وانسل منها صاحبها وسلاها، وتبعها فتح بيروت وتلاها،

فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل في سلك من الفتوح متسق، وأمر من الاستقامة متفق، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين، مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين، فذاقوا العزة بعد الذلة، وفاقوا الكثرة بعد القلة، وصدقت البشائر، وصدحت المنابر، وظهر عيب البيع، وشهر جمع الجمع، وقرىء القرآن، واستشاط الشيطان، وخرست النواقيس، وبطلت النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم، وعرفوا نفوسهم، وكان كل من استأمن من الكفار يمضي إلى صور محمي الذمار، فصارت صور عش غشهم، ووكر مكرهم، وملجأ طريدهم، ومنجا شريدهم، وهي التي فر القومص إليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم، ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها، وآوى إلى طرابلس وثواها فما متع بها ملك وكان كما قيل:« راح يبغي نجوة من هلاك فهلك»، وتعوضت صور عن القومص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بإبليس، فأدرك ذماء الكفر بعدما أشفى، وأيقظ روع الروع بعدما أغفى، وضبط صور بمن فيها، من مهزومي الفرنج ومنفيها، وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغول شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذئابه، وانجس كلابه، وهو الطاغية الداهية، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى الساحل قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى مينا عكا وهو بفتحها جاهل، وعمن فيها من المسلمين ذاهل، فعزم على إرساء الشينى بالمينا،ثم تعجب وقال: مانرى أحدا من أهليها يلتقينا، ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرفه، فارتاب وارتاع، وحدث عن الدخول توقفه، وبان تندمه، وتأخر تقدمه، وسأل عن الحال فأخبر بها ففكر في النجاة والهواء راكد، والقضاء عنه راقد، فإنه لو خرج إليه مركب لأخذه، ولو وقف له قاصد لوقذه، فاحتال كيف يخرج بسفينته، ولا يدخل مع فقد سكينته، فسأله عن متولي البلد، وقال:خذوا لي منه أما نا حتى أدخل وأرفع ما معي من المتاع، وأنقل ما عندي من الثقل، فجيء إليه من الأفضل بالأمان، فقال: ما أثق إلا بخط يده، ولاأنزل

إلا بعهده إلى بلده، وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة، فما زال يردد الرسل، ويدبر الحيل، حتى وافقته الريح فأقلع وأفلت من الشرك بعدما وقع، وصار في صور فرم الأمور وجرأ الكفر بعد خوره، وبصر الشيطان بعد عماه وعوره، وأرسل رسله إلى الجزائر وذوي الجرائر يستعدي ويستدعي، ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعي، ويستشير ويستزير، ويستنفر ويستنصر، وثبت في صور ونبت، وجمع إليه من الفرنج من تشتت، ومافتح بلد بالأمان إلا سار أهله في حفظ السلطان حتى يصيروا بصور ويأمنوا المحذور، فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة بالقلوب المقفلة المغلوبة المقروحة، فامتلأت وكانت خالية، وانتاشت وكانت بالية، وتعللت وكانت معتلة، وتعقدت وكانت منحلة، ولم يحتفل بها فأخر فتحها فاستجدت رمقا بالمهلة، وتصعبت بعد مقادتها السهلة، وألهى عن طلبها طلب ماهو أشرف وهو البيت المقدس، فإن فتحه من كل فتح أنفس والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد الموثق ويبرمه، ويجمع المتفرق وينظمه.

- ٨٥٣١ -

فصل

فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها

قال العماد: لما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ثنى عنانه عائدا على صيدا وصرفند، وجاء إلى صور ناظرا إليها، وعابرا عليها غير مكترث بأمرها، ولامتحدث في حصرها، ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالساحل بلد منها أحصن، فعطف الأعنة إلى ماهو منها أهون، وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية في قيودهما، وشرط معهما واستوثق منهما أنه يطلقهما من الأسر والبلية، متى تمكن بإعانتهما من البلاد البقية، وعبر والعيون صور إلى صور، وماشك المركيس أنه محصور محسور، فلما أرخي من وثاقه، واتسع ضيق خناقه، حلق في مطار أوطاره، وحرك لغواته أوتار أوتاره، واجتمع السلطان بأخيه العادل واتفقا على طي المراحل، ونشر القساطل، فنزل على عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، وشديدها قد لان، فتجلد من بها على الحصار وتربصوا وتصبروا، فنصب السلطان عليها مجانيق ورماهم بها، وجسر النقاب فحسر النقاب، وباشر الباشورة، فرفع الحجاب، واشتد القتال واحتد المصال، وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، وجرت حالات، وتكررت حوالات، وترددت رسالات، وقال لهم الملك الأسير: لاتخالفوا مابه أشير، واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، ولاتخطروا غيري ببالكم فإني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت استنقذت، وخرج مقدمون وشاوروا الملك، ونهجوا في التسليم نهجه الذي سلك، وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم، وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الأكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهراني، وهو أول أمير

افتتح بالشهادة واختتم بالسعادة، وكان السلطان قد أخذ في طريقه إليها الرملة، وتبنين، وبيت لحم، والخليل، وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية: غزة والنطرون، وبيت جبريل، وكان قد استصحب معه مقدم الداوية، وشرط معه أنه متى سلم معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة، كما أخذ مواثيقه.

كذا قال العماد في كتاب الفتح، وقال في كتاب البرق: ومابرح السلطان مقيما بظاهر عسقلان حتى تسلم المعاقل المجاورة لها، والبلاد المتخللة فيما بينها، فذكر الداروم، وغزة والرملة وتبنين، وبيت لحم ومشهد الخليل عليه السلام، ولد، وبيت جبريل، والنطرون.

قال ابن شداد: لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب يعني ناحية بيروت رأى قصد عسقلان، ولم ير الإشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها، لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل، وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيئا، وكانوا قد ضرسوا من القتال، ومن ملازمة الحرب والنزال، وكان قد اجتمع في صور — يسر الله فتحها— كل فرنجي بقي في الساحل فرأى قصد عسقلان لأن أمرها كان أيسر، وتسلم في طريقه مواضع كثيرة: كالرملة، وتبنين، والداروم. فأقام عليها المنجنيقات وقاتلها قتالا شديدا، وتسلمها سلخ جمادى الآخرة، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة، وبيت جبريل، والنطرون بغير قتال.

قال: وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإن العدو ملكها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وذكر ابن القادسي نسخة كتاب كتبه السلطان إلى بعض أهله وفيه:« انتقلنا إلى الجانب الذي فيه القدس، وعسقلان ففتحنا قلاعه كلها

وحصونه جميعها ومعاقله بجملتها ومدنه بأسرها وهي: حيفا، وقيسارية، وأرسوف، ويافا، والرملة، ولد، وتل الصافية، وبيت جبريل، والدير، والخليل، ونازلنا عسقلان، وهي المعقل المنيع، والحصن الحصين، والتل الرفيع، وفيهم من القوة والعدة والعدد ماتتقاصر الآمال عن نيل مثله، فافتتحناها سلما لتمام أربعة عشر يوما من يوم نزولنا عليها، ونصبت أعلام التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعمرت بالمسلمين، وخلت من مشركيها وكفارها، وكبر المؤذنون في أقطارها، ولم يبق في الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس، وصور، والعزم مصمم على قصد القدس، فالله يسهله ويعجله، فإذا يسر الله تعالى فتح القدس ملنا إلى صور، والسلام».

وفي كتاب آخر تقدم ذكر بعضه قال:« وقد تفرق العسكر، وتوجه قوم إلى القدس وابن زين الدين وتقي الدين نازلان على صور، وفتحت هونين بالسيف وتبنين، بالسيف واسكندرونه بالسيف».

وفي كتاب آخر:« ونزلوا على صور وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الأمان، فقال له صلاح الدين: أنا أجيء إليكم، فقال له المنجمون: على نجمك أن تدخل بيت المقدس وتذهب عين واحدة منك، فقال: قد رضيت بأن أعمى وآخذ البلد».

قال:« ولم يمنعه من ذلك إلا فتح صور، وماهي شيء يقف عليه، وقد خطب لأمير المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبرا من بلاد الفرنج».

قال العماد: وفوض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الأمور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدمشقي، المعروف بقاضي اليمن.

قال: ووصل إلى السلطان من مصر ولده الملك العزيز عثمان، واجتمع

به على عسقلان، فقرت عينه بولده، واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد الله في يده، وكان قد استدعى بالأساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا، وأفواج تزاحم أفواجا، تدب على البحر عقاربها، وتخب كقطع الليل سحائبها، لؤلؤ مقدمها ومقدامها، وضرغام غابها وهمامها، فطفق يكسر ويكسب، ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

فصل

فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى

قال القاضي ابن شداد: لما تسلم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس، شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، مفوضا أمره إلى الله، منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه إذا فتح بقوله عليه السلام:« من فتح له باب خير لينتهزه، فإنه لايعلم متى يغلق دونه» وكان نزوله عليه قدس الله روحه يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغربي، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه المقاتلة بما يزيد على ستين ألفا ماعدا النساء والصبيان، ثم انتقل رحمه الله تعالى لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي.

وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه المنجنيقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما رأى أعداء الله مانزل بهم من الأمر الذي لايندفع، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل، وكان قد ألقى الله في قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر وماجرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ماصاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قتل به أخوانهم يقتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب، كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل

زمان الأسراء بنبيهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى.

قلت: هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلاف كثير ذكرناه في موضع غير هذا والله أعلم.

ثم قال القاضي: وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الخرق والحرف، وذلك أن الناس لما بلغهم مامن الله به على يده من فتوح الساحل، شاع قصده للقدس، فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلا عظيما، ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر، وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير،وعن كل امرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا.

قلت: كذا قال، وسيأتي في كلام العماد أن على كل صغير دينارين، وكذا قال: ان الجمعة صليت ببيت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كلام العماد التصريح بأن يوم الفتح ضاق عن ذلك، فصليت في يوم الجمعة الآتي.

ثم قال القاضي: فمن أحضر القطيعة سلم بنفسه، وإلا أخذ أسيرا، وفرج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا خلقا عظيما زهاء ثلاثة آلاف نفس، وأقام عليه رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور.

قال: ولقد بلغني أنه رحمه الله رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال

شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفـا، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي.

فصل

هذا الذي ذكره القاضي في أمر فتح بيت المقدس مختصرا مجموعاً، وقد بسطه العماد فقال: رحل السلطان من عسقلان للقدس طالبا، وبالعزم غالبا، وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا، والاسلام يخطب من القدس عروساً، ويبذل لها في المهر نفوساً، ويحمل إليها نعمى ليحمل عنها بوسى، ويهدي بشرى ليذهب عبوساً، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لإعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها، وتلبية ندائها، واطلاع زهر المصابيح في سمائها، وإعادة الايمان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسكنه، وإقصاء أعداء الذين أقصاهم الله تعالى بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذي استعصى، واسكات الناقوس منه بانطاق الأذان، وكف كف الكفرعنه بأيمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس، وأدناس أدنى الناس، وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعبا واطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الاسلام وجاشت، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ماعاشت، وكان به من مقدّمي الفرنج باليان بن بارزان، وهو وملكهم في التسلط شيئان بارزان، والبطرك الأعظم وهو الثاني العظيم الشان، والذين أعظمتهم حياطة حطين به من الفرسان الداوية والاسبتاربة و البارونية من ذوي الكفر والشنآن، وقد حشروا وحشدوا، ونشروا ونشدوا، وحميت حميتهم وأبت الضيم أبيتهم، وحارت غيرتهم، وغارت حيرتهم، وتبلدوا وتلدّدوا، وقاموا وقعدوا، وصوّبوا وصعدوا، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نار بطر البطرك، وضاقت بالقوم منازلهم، فكانت كل دار منها شركا للمشرك، وقاموا للتدبير في مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وايس الفرنج من الفرج، وأجمعوا على بذل المهج، وقالوا: هاهنا نطرح الرؤوس، ونسلو النفوس، ونسفك الدماء، ونهلك الدهماء، ونصبر على اقتراح القروح، واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شحا بمحل الروح، فهذه

الأماكن فيها قيامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصيح هامتنا، وتصح ندامتنا، وتسيح علامتنا، وتسح غمامتنا وبها غرامنا، وعليها غرامتنا، وباكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإذا تخلينا عنها لزمت لامتنا، ووجبت ملامتنا، ففيها المصلب والمطلب، والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمرقى والمرقب، والمشرب والملعب، والمحق والمذهب والمطلع والمقطع والمربى والمربع، والمرخم والمخرّم، والمحلل والمحرّم، والصور والاشكال، والانظار والأمثال،والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجساد والأرواح، وفيها صور الحواريين في حوارهم، والأحبار في أخبارهم والراهبين في صوامعهم، والاقساء في مجامعهم، والسحرة وحبالها، والكهنة وخيالها، ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت والتلميذ والمعلم، والمهد والصبي المتكلم،وصورة الكبش والحمار، والجنة والنار والنواقيس والنواميس، قالوا: وفيها صلب المسيح، وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور، وزال الديجور، وازدوجت الطبيعة بالاقنوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى متعبدهم من هذه الضلالات ماضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت،وعنها نـدافع، وعليها نقارع، ومالنا لانقاتل، وكيف لاننازع ولاننازل،ولأي معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستخلصوا مااستخلصنا منهم ويستنقذوا، وتأهبوا وتناهوا، ومانتهوا بل تناهوا، ونصبوا المجانيق على الأسوار، وستروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار، واستشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم، وأصلتت مصاليتهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، وحضهم قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم، وجاءتهم بنجوى السوء جواسيسهم، ونصبوا على كل نيق منجنيقا، وحفروا في الخندق

حفراً عميقا، وشادوا في كل جانب ركنا وثيقـا، وفرقوا على كل برج فريقا، وجعلوا إلى كـل طارق بـالردى للـرّد طريقـا، وأعادوا كـل نهج واسع بها وعروه وعورّه بـه مضيقا، وتحمل كل منهـم مالم يكن له مـن قبل مطيقا، وخـرج جماعة منهـم على سبيل اليـزك فـأدلجوا ليلا، واعترضـوا عدّة مـن أصحـابنا غـارة، على طريـق السلامـة مـاره، وكان قـد شذ مـن المقدمـة المنصورة أمير تقـدم، وماتحرز، ولاتحزم، ومـاظن أن قـدامه مـن له جـراءة الإقـدام، ومن يعتقـد أن ربـح كفـره خسارة الاسـلام، وهـوالأمير جمال الدين شروين حسـن الزرزاري، فوقعوا عليه في موضـع يعرف بالقبيبات، فاستشهـد رحمه الله، ولما بلغ السلطـان خبره ساءه وغمه ثـم أقبل بـاقبال سلطـانه وأبطـال شجعـانـه، واقيال أولاده، وأخـوانـه، وأشبـال مماليكـه وغلمانه، وكرام أمـرائه وعظام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصـى وطريقة الأدنـى، وفريقـه الأسنـى، ويذكـر مـايفتح الله عليـه بحسـن فتحه مـن الحسنـى، وقال إن أسعـدنا الله على إخـراج أعدائه مـن بيته المقـدس فما أسعدنا، وأي يـد له عندنا إذا أيـدنا، وإنه مكث في أيـدي الكفر احدى وتسعين سنة، ولم يتقبل الله فيه من عابـد حسنه، ودامت همم الملوك دونه متوسنة، وخلت القـرون عنه متخليه، وخلت الفرنج بـه متوليه، فما ادخر الله فضيلة فتحـه إلا لآل إيوب ليجمع الله لهم بـالقبول القلـوب، كيف لايهتـم بفتح البيـت الأقوى، والمسجـد الأقصـى المؤسس على ا لتقـوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأوليـاء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض، وملائكة السماء، ومنـه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه مـن أولياء الله المعشر بعد المعشر، وفيه الصخرة التي صينـت جدة ابهاجها من الانهاج، ومنهاج المعراج، لها القبة الشماء التي هي على رأسها كـالتاج، وفيه ومض البارق، ومضـى البراق، وأضـاءت ليلـة الاسراء بحلـول السراج المنير في الآفـاق، ومن أبـوابه بـاب الرحمة، الذي يستـوجب داخله إلى الجنـة بالـدخول إلى الخلـود، وفيـه كـرسي سليمان ومحراب دواد، وفيه عين سلـوان التـي تمثـل لـواردهـا مـن الكـوثـر الحوض المورود، وهـو أوّل القبلتين،وثـاني البيتين،

وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال وتعقد الرجاء بها الرجال، ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صوره، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سوره، فقال عز من قائل:(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)(٤٧) وله فضائل ومناقب لاتحصى، ومنه كان الاسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنباء الانبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء، وفيه مبارك المبار، ومسارح المسار، وصخرته الطولى، والقبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا بالنبيين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليين، وفيه محراب مريم عليها السلام، الذي قال فيه: (كلما دخل عليها زكريا المحراب)(٤٨) ولنهاره التعبد، ولليله المحيا، وهو الذي أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه « سبحان»، وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان، فما أجله وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأسناه وأكرمه، وأيمن بركاته، وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته، وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه، وأبهج مزاينه، وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله:(الذي باركنا حوله) وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه، وجعل مسموعاتنا من فضائله مرويه، ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ماوثق على استعادة آلائه مواثيقه وألاياه، وأقسم لايبرح حتى يبر قسمه، ويرفع بأعلاه علمه، وتخطر إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، وتصغي إلى صرخة الصخرة أذنه، وسار واثقا بكمال النصره.

فصل

في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره وما كان من أمره

قال العماد: نـزل السلطان على غربي القـدس يوم الأحد خـامس عشر رجب، وكان في القدس حينئذ من الفرنـج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسـائف ونابـل، فاستهدفـوا للسهام، واستـوقفوا للحمام، وقـالوا كل واحـد منا بعشريـن، وكل عشرة بمئتين، ودون القيامـة تقوم القيـامة، وبحب سـلامتها تقلى السـلامة، وأقـام السلطان خمسـة أيام يـدور حول البلـد، ويقسم على حصـاره أهل الجلـد، وأبصر في شماليـه أرضاً رضيهـا للحصار، متسعة المجـال للاسماع والابصار، وممكنة للدنـو منه للنقب إن صار مـن حيز الانصـار، فانتقل إلى المنـزل الشمالي يوم الجمعـة العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبـت إلاّ على منجنيقات قد نصبت بلا نصب، فدام القتال والنزال، وفرسـانهم في كل يوم يباشرون دون الباشورة، أمـام جموعهـم المحسـورة المحشـورة، ويبرزون ويبـارزون،ويطـاعنـون ويحاجزون ، والمطيعـون لله عليهم يحملون، ومـن دمائهم ينهلـون ويُنهلون كما قال الله تعالى فيهم(يقاتلـون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون)(٤٩) وممن استشهد مبارزا ولم يشهـد بينه وبين الجنة حاجزا الامير عز الـدين عيسى ابن مـالك كان أبـوه صاحب قلعة جعبر، فـانه حاز لشهـادته في المحشر المفخـر وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكـوثـر، وكـان في كل يـوم يفـرس فوارس، ويلقى ببشر وجهـه وجوه المنون العوابس ، فاغتـم المسلمون من صرعته، وهـان عليهم اتـلاف المهج بعـد اتلاف مهجتـه، فركبـوا أكتاف الرهج، حتى وصلـوا إلى الخندق فخرقوه وبددوا جمعهم وفـرقوه، والتصقوا بـالسور فنقبـوه وعلقـوه وحشـوه وأحرقـوه، وصـدقـوا وعد الله في القتـال لأعـدائه وصـدقـوه ، ولما عضتهـم الحرب، وقـع السـور واتسـع النقـب، فصعب عليهم الهين وهـان لنا الصعب، وعقدوا مابينهـم مشورة، وقعدوا

مابينهم ضرورة، وقـالوا: مالنا إلاّ الإستئمان ، فقد أخـذ لنا بخطة الخذلان والحرمان، وأخرجوا كبراءهم ليؤخـذ لهم الأمان، فأبى السلطان إلا قتالهم، وتدميرهم واستئصالهم ،وقال: لاآخـذ القدس إلاّ كما أخذوه من المسلمين منذ احـدى وتسعين سنة، فإنهم استبـاحوا القتل ولم يتركـوا طرفا يستـزير سنة، فـأنا أفنـي رجالهم قتـلا، وأحوي نسـاءهم سبيـا، فبرز ابن بـارزان ليـأمن مـن السلطـان بموثقـه ، وطلـب الأمان لقـومـه، وتمنع السلطـان وتسامى في سومـه، وقال: لاأمن لكم ولاأمان، وماهوانـا إلاّ أن نديم لكم الهوان، وغدا نملككم قسرا، ونـوسعكم قتلاً وأسرا، ونسفك مـن الرجال الدماء، ونسلـط على الذرية والنساء السباء، وأبى في تـأمينهم إلاّ الإباء ، فتعرضـوا للتضرع وخوّفوه عـاقبة التسرع، وقالـوا: إذا أيسنا من أمـانكم وخفنا من سلطانكـم، وخبنا من احسانكم، وأيقنا أنـه لانجاة ولانجاح، ولاصلح ولا صلاح، ولاسلـم ولاسلامه، ولا نعمة ولاكرامة، فـانا نستقتل فنقاتـل قتال الـدم والندم، ونقـابل الـوجود بـالعدم، ونلقـي أنفسنا على النار، ولانلقـي بأيـدينا إلى التهلكة والعـار، ولايجرح منا واحـد حتى يجرح عشره، وإنا نحـرق الدور، ونخـرب القبه، ونترك عليكـم في سبينا السبـه، ونقلـع الصخرة، ونـوجدكـم عليهـا الحسره، وقبة الصخـرة نرميهـا، وعين سلـوان نعميها، والمصـانـع نخسفهـا ، والمطالـع نكسفهـا، وعنـدنا مـن المسلمين خمسة آلاف أسير مابين غنـي وفقير وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم، وشت شملهم، وأمـا الأموال فإنا نعطبهـا ولانعطيها، وإما الذراري فـإنا نسارع إلى اعـدامها ولانستبطيهـا، فلا يحصـل لكم سبـي، ولايقبل لكـم سعـي، ولايسلم عمـر ولاعماره، ولانضار ولانضـاره، ولانساء ولاصبيـان، ولاجماد ولاحيوان، فأي فائدة لكم في هـذا الشح، وكل خسر لكم في هذا الربح، ورب خيبـة جاءت من بعد رجاء النجح، ولايصلـح السوء سوى الصلح، فشاور السلطان أصحابه فقيـل له الصواب إن نحسبهم أسارانا فنبيعهم نفـوسهم، ونعمـم لصغار الجزية رؤوسهـم، ويدخـل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهـم، واستقرّ الحال بعد مروادات ومعـاودات ومفاوضات

وتفـويضـات وضراعـات مـن القوم وشفـاعـات، على قطيعـة تكمـل بها الغبطة، ويحصل منهـا الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأمـوالهم، وخلصوا بها رجالهم ونسـاءهم وأطفـالهم، على أنه من عجـز بعد أربعين يـوما عما لزمه أو امتنـع منه وماسلمه، ضرب عليه الرق، وثبـت في تملكه لنا الحق، وهـو: عن كـل رجـل عشرة دنانير، وعـن كـل امـرأة خمسة، وكـل صغيرة أوصغير ديناران، الـذكر والأنثى فيهما سيـان، ودخل ابن بـارزان والبطرك ومقدّمو الداوية والاسبتار في هـذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقـام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء، فمـن سلم خرج عن بيته آمنا، ولم يعد إليه ساكنا، وسلمـوا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردّوه بالرغـم والغصب لاالوديعة، وكان فيه أكثـر من مـائة ألف انسـان من رجـال ونساء وصبيـان، فأغلقـت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهـم واستخراج مايلزمهم النواب، ووكـل بكل باب أمير ، ومقدّم كبير، يحصر الخارجين، ويحسر الوالجين، فمـن استخرج منه خرج، ومن لم يقـم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج، ولـو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منـه بيت المال بأوفر حـظه، لكن تـم التفريط وعم التخليط، فكل من رشـا مشى، وتنكب مناهج الرشد بالـرشا، فمنهم من أدلي مـن السور بـالحبال، ومنهـم من حمل مخفيـا في الرحـال، ومنهم مـن غيرت لبستـه، فخرج مخفيـا بـزي الجند، ومنهـم من وقعـت فيـه شفاعـة مطاعـة لم تقابـل بالـرد، والنقاب الأكـابر استنـابوا أصـاغر، فـأقامـوا في تقصيرهم المعاذر، وقنـوا لأنفسهم الذخائر، وادّعى مظفر الـدين كوكبري أن منهم جماعة مـن أرمن الرها، وعددهـا ألف نسمة، فجعل إليـه أمرها، وكذلـك صاحـب البيرة ادّعى بها لعـدته الكثيرة زهاء خمسمائة أرمنـي ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القـدس لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهـب عدة استطلقها، وحصل لـه مرفقها، ثم تـولى الملك العادل استخـراجهم، وقـوّم على الأداء منهـاجهـم، وسهل على السلطـان لفـرط جوده الاستخراج والإخراج، وتـوفر لعامة الناس وخاصتهـم بهجة سماحة

الابتهاج، ومـا فينا من فـاز بأوفى نصيب، ورعـى منه في مرعـى خصيب، وكان السلطان قد رتـب عدّة دواوين في كل ديوان منها عـدّة من النواب المصريين،وفيهم من الشاميين، فمن أخذ مـن أحد الدواوين خطاً بالأداء انطلـق مـع الطلقاء، بعـد عـرض خطـه على مـن بـالباب مـن الأمنـاء والـوكلاء، فـذكر لي مـن لاأشك في مقـالـه أنه كـان يحضر في الديـوان ويطلـع على حالـه، فربما كتبـوا خطـا لمن نقده في كيسهـم، وتلبس أمـر تلبيسهـم ، فكانـوا شركاء بيت المال لاأمناءه، وخانوه على مـاحصل لكل من الغنى والنفـع ومأضر غناءه، ومع ذلك حصل لبيـت المال مايقارب مـائة أ لـف دينار، وبقـي مـن بقـي تحت رق إسار ينتظـر انقضـاء المدّة المضروبه، والعجز عـن الوفاء بالقطيعة المطلـوبة، وكانت بـالقدس ملكة رومية متعبـدة مترهبة في عبادة الصليـب متصلبه، وعلى مصـابها متلهبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفـاسها متصاعدة للحزن وعبراتها منحدرة تحدّر القطرات مـن المزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشيـاء وأشياع وأتباع، فـاستعاذت بالسلطـان فأعاذها، ومـنّ عليها وعلى كل مـن معها بالافراج، وأذن في اخـراج كل مالها في الأكياس والأخـراج، وأبقى عليها مـن مصوغـات صلبانها الـذهبية المجـوهرة ونفـائسها وكـرائم خزائنهـا، فخـرجت بجميـع مالها وحـالها، ونسائهـا ورجالها، واسفـاطها وأعـدالها، والصناديق بأقفـالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فـراحت فرحى، وإن كانـت من سجنهـا قرحـى، وكذلك خـرجت زوجـة الملك المأسـور كى، وهـى ابنة الملك امـارى، وكـانت مقيمـة في جوار القـدس مـع مالها مـن الخول والخدم والجواري، فاستأذنت في الالمام بزوجها، وكان بقيده مقيما في برج نـابلس، موكـلاً به ليوم وعـد تسريحه، فأذن لها ، فخلصت هـي ومن تبعها، وأقـامت عنـد زوجها، وكذلـك خرجت الابـرنسة أم هنفـري وهي ابنة فليـب وزوجة الابـرنس الذي سفـك دمه يـوم حطين، وهي صـاحبة الكرك والشـوبك، وهي بنـوّابها محوطة وبرأيها منـوطه، فجاءت سـائلة في ولدهـا العاني، فـوعدت أنها إن سمحـت بحصنها سمـح لها بابنهـا، ثم

أعفيـت وأطلقـت وعصمـت، واستحضر ابنها هنفـري بـن هنفـري مـن دمشق إليها وأقر بـرؤيته عينها، وسار معها من الأمـراء الأمناء من يتسلم منهـم تلك المعـاقل، فخـرجـت فمضت إلى حصـونها لتسلمها فمانعهـا أهلها ودافعوها وردّوها ذليلة خائبـة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها باطلاقه إذا تسلـم تلك الحصون.

فصل

في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد: تسلم المسلمون المدينة يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها، وأغلقت أبوابها، لحفظ ناسها في طلب القطيعة والتماسها، وضاق وقت الفريضة وتعذر أداؤها، وللجمعة مقدّمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان الأقصى لاسيما محرابه مشغولا بالخنازير والخناء، مملوءا بما أحدثوا من البناء، مسكونا بمن كفر وغوى، وضل وظلم وجنى، مغمورا بالنجاسات التي حرم علينا في تطهيره منا الونا، فوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتم الأنجح الأنجع، وهو حفظهم وضبطهم، إلى أن يوجد شرطهم،ويؤخذ قسطهم، واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج، وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج، وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء، وللقاء الأكابر والأمراء،والمتصوفة والعلماء ، وهو جالس على هيئة التواضع، وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الابرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأهله بعز النجح ظافر، وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مقبل، وبساطه مقبل، ومحياه يلوح، ورياه يفوح، قد حلت له حالة الظفر، وكأن دسته به هالة القمر، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون، وينشدون، والاعلام تبرز لتنشر، والأقلام تزبر لتبشر، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع، وبشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وتلي:(شرع لكم من الدين ماوصى)(٥٠)وهنئي الحجر الأسود بالصخرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحل الاسراء، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء، ومقام ابراهيم، بموضع قدم المصطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل

الاسلام بشرف بنيته مستمتعين، وتسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه في كل طريق، وأحرموا من البيت المقدّس إلى البيت العتيق، وتنزهوا من زهر كراماته في الروض الأنيق.

وقد سبق أن العماد كان توجه إلى دمشق، والسلطان على بيروت للألم الذي ألم به، فلما سمع بنزول السلطان على القدس أبل من مرضه، وتوجه إليه، فوصل يوم السبت ثاني يوم الفتح، قال: وطلعت عليه صبحا عند طلوع الصبح، فاستبشر بقدومي، وخلع على البشير قبل رؤيتي، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغرّبوا بها.ويشرّقوا، وهو يقول لهم: لهذه القوس بار ولهذه المأدبة قار، قال فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشاره، كل كتاب بمعنى بديع وعباره، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)(٥١).

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكن دينه المرتضى، وبدّل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى، والنصر الأهنى للعصرالامامي النبوي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه، وهذا الفتح العظيم، والنجح الكريم، قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية، على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه ووحشة اليأس من تسنيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الامم، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وأعاذه من الرجس، وحقق من فتحه ماكان في النفس، وبدّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس،

وجعل عـز يومه مـاحياً ذل أمـس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعـد الجهال والضلال مـن البطرك والقس، وعبـدة الصليب، ومستقبلي الشمـس، وقد أظهـر الله على المشركين الضـالين جنـوده المؤمنين العـالمين، وقطـع دابـر القوم الظـالمين والحمد لله رب العـالمين، فكـأن الله شرف هذه الامـة وقال لهم: اعزمـوا على اقتناء هذه الفضيلـة التي بها فضلكم وحقـق في حقهم امتثـال أمره في قـولـه الكريـم:(ادخلوا الارض المقـدّسـة التي كتـب الله لكم)(٥٢)وهذا الفتـح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان، وجعل ملائكتـه المسوّمـة له مـن أعز الانصـار وأظهر الاعـوان، واخرج مـن بيته المقدس يوم الجمعة أهـل الأحد، وقمع من كان يقول إن الله ثـالث ثلاثة بمن يقـول: هو الله أحـد، وأعان الله بـانزال الملائكـة والروح، وأتـى بهذا النصر الممنوح، الـذي هو فتـح الفتوح، وقـد تعالى أن يحيـط به وصـف البليغ نظماً ونثـراً، وعبد الله في البيـت المقدّس سراً وجهـراً، وملكت بـلاد الأردن وفلسطين غوراً ونجـداً وبراً وبحـراً، وملئت اسلامـا وكانـت قد ملئت كفراً، وتقاضى الخادم دين الدين الذي غلق رهنه دهرا، والحمد لله شكرا، حمدا يجددّ للاسلام كل يوم نصرا، ويزيد وجوه أهله بشرى، فتوجه بشرا، وأبى الخادم إلا استبـاحة أموالهم وأرواحهم، وحسـم داء اجتراحهم باجتياحهـم، وانه لابد من تطهير الأرض المقـدّسة برجس دمـائهم، وقتل رجـالهم وسبي ذراريهم ونسـائهم، ولما أيسـوا من النجـاة، وفتحوا أبـوابها المرتجة من أسبـابها المرتجاه، خوّفـوا بقتل الأسـاري المسلمين، وهـم أكثـر من ثـلاثة آلاف، وأنهم يفسـدون جميع مـا في البلد مـن مال وبنـاء بهدم واحراق واتـلاف، وعرف ان جهلهم يحملهـم على كل مكـر شنيع، وأنهم تدعـوهم فظـاظتهم إلى كل أمـر فظيع، وبـذلوا اطـلاق الاسرى، وشرطوا حمل مال الفـداء ومازالـوا يبتهلون ويضرعون، ويـذلون ويخشعـون، حتى استقرّ الأمـر أنهم يفادون، وأجيبت الصخـرة المقدّسة عنـد استصراخها، وبركت البركة النـاهضة اليها في مناخها، وغسلت مـن أوضارها وأوزارها بعبرات العيـون، ورجع اضطـرابها إلى السكـون، وفديـت بنـواظر أهـل

الايمان، وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالايمان، وذكرت في يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج، وتجلى اظلامها بإنارة سناء السراج، واعيدت الكنائس مدارس، وأضحت باحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس، وزالت ضجرة الصخرة، ونعشها الله من العثرة، وبدّل بالأنس فيها ماكان من الوحشة والحسرة، والحمد لله على هذه النصرة، والمنة له على هذه المبرة، وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حد الداروم إلى حد طرابلس، وكل ماكان جاريا في مملكة ملك القدس ونابلس، ولم يبق إلاّ صور فإنها قد تأخر انتزاعها، وتقدّم امتناعها، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها وأطماعها، وهي بتأييد الله مستفتحة، والقلوب بتذليل جامحها منشرحة».

ومن كتاب آخر: « فتح بيت الله المقدس الذي عجز الملوك عن تمنيه، فكيف تسنيه، وماتت الأطماع دونه فلم تطمع فيه، فمنّ الله علينا بتذليل صعبه، وإعذاب شربه، وتسهيل وعره، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في ليله، وجئنا نحن عليه بأسفار فجره، وقد كانت الصخرة مستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة، فأجيبت دعوتها، وأصيبت خطوتها، وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفاء، وقوبلت قبلتها بقبل الافواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والداني، وزال رين العائن وقرّت عين الراني.

هذا فتح عظيم قدره، جسيم فخره، فاضل عصره، كامل نصره، غير منسي إلى يوم الحشر ذكره، وقد افتض بنا بكره، واقتضى بسيفنا وتره، وزهر زهره، وظهر قهره، وهلك الكافر وكفره، وجاء من الله مالزم على الأبد شكره، أبينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم، واغراقهم في أمواه الطلى والجماجم، وتسلمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج، وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك

السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ماوضح من المنهاج، ونضوب ماكان نبع من الاجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج.

مبشرة بما فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا، ونظم به سلكنا، وطرز به ملكنا، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه دهراً، واغتصب من الاسلام قهراً، وارتد كفراً، وامتدت به الأيام عمراً فعمرا، وتقاصرت الهمم عن استفتاحه، وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرغم على التماس الكفر واقتراحه، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكاية اجتراحه، فلا جرم أعده الله لأيامنا وذخره لمواسم اعتزامنا، وفتحه بنا اظهاراً لفضل هذه الأيام، وايثاراً لما نحن نؤثره من إعلاء كلمة الاسلام، فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النصرة، ومكنا من قلبها — وإن كان من الحجر — المسرة.

تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وقضينا من حق هذا البيت ماوجب، وجاء القدس إلى القدس، وزال الرجس وذهب، وتولى فيه الاسلام، وتولى عنه الكفر، وعظم الأجر وفخم الفخر، وطاب النشر، وزاد البشر، ومحي الرجس، وثبت الطهر، وهلك المشرك وذل البطرك، وأقصي من المسجد الاقصى الساجد إلى الشمس، وتجلى الحق بنوره الكاشف للبس.

عاد بيت الله المقدس إلى طهارته، ونطق منه لسان التقديس بعبادته، وتهلل وجه السعد بنضارته، وخصنا القدر في اتمام أمره بخطابه واشارته، وزادت الوجوه بشراً ببشارته، وقد أعاد الله إلى الاسلام المسجد الأقصى، وملكنا أدناه وأقصاه، وأسنى دولتنا بها سناه، من فتحه وهناه، وعلموا أنهم هالكون، وأنا لهم بالقهر مالكون، وفي سبيل القتل والاسر والسبي سالكون، فخرجوا يطلبون الأمان ، ويبذلون الاذعان،حتى يسلموا المكان، فقيل لهم: الآن وقد عصيتم ورضيتم بما فيه هلاككم

وأبيتم، فروّعوا بقتل أسارى المسلمين، وهم ألوف، وعرفنا انهم لايقصرون في الشرّ فإن جهلهم معروف، فتضرعوا وتشفعوا وتعفروا في تراب الذل وتوقعوا، وتقرر عليهم مال اشتروا به أنفسهم، فنزعوا به من الخوف ملبسهم، وسلموا القدس، فأعدناه إلى القدس، وطهرناه من ا لرجس، وأجبنا دعوة الصخرة، وغسلنا عنها وضر الكفر بعبرات العبرة.

فتح بيت الله المقدّس الذي غلق رهنه، وطال في يد الكفر أسره وسجنه، واستهل بغرّ أيامنا مزنه، وأنار يمنه. وعاد باحساننا حسنه، وزال بنا خوفه وزاد أمنه، وبقي قريب مائة سنة في يد الكفر مسجونا وبرجس الشرك مشحونا، حتى أعاد الله بنا رونقه، وأذهب قلقه، وأعدم فرقه.

وهذا فتح لم يكن منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم له نظير، وأفق الدين به منيف منير، وشرف أيامنا به كثير، وهو إمام فتوحنا المدّخرة لنا ومالها بتأييد الله تأخير.

فتح البيت المقدس الذي لم يخطر تمنيه بخاطر الملوك، وتوعر على عزائمهم نهج طريقه المسلوك، وحالت دونه قنطاريات الفرنج وطوارقها، وجنت على الاسلام فيه حوادث الليالي وطوارقها، حتى دعانا الله لفتحه فأجبناه، ووعدنا بالفوز فأصبناه، وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخر لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه.

رأوا أحجار المنجنيقات قد أنزلت الأسواء بالاسوار، وغارت الصخور للصخرة المباركة فجدّت في انقاذها من الاسار، وهتمت ثنايا الأبراج، وأعضل بهافي العلاج داء الاعلاج، فعاينوا الحمام، وشاهدوا الموت الزؤام.

أقامت المنجنيقات على عصابته حد الرجم، وواقعت ثنايا شرفاته

بالهتم، وتطايرت الصخور في نصرة الصخرة المباركة، وحجرت على حكم السور بشفة الأحجار المتداركة، وحسرت النقـوب عن عروس البلد بنقب الاسوار، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار.

نهضـت لاصراخ الصخـرة المقـدّسـة الصخـور، وطـارت مـن أوكـار المجـانيق كـأنها الصقور، فما أسرّ البيـت الحرام، بفكـاك أخيه مـن الأسر، واجراء الاسـلام فيه لغسـل أوضار الكفـر، وانقاذ الصخـرة المباركـة ممن قلـوبهم كالحجـارة أو أشـدّ قسـوه، والحافها مـن البهـاء والـرونق والعـز الاسلامي بكسـوه، ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسـه، وطهرت من أرجاس نجـاسه، بمياه العيون التـي بها قذيت، وصقلـت بشفاه المؤمنين وطـالما بأيـدي الشرك صـديـت، وأعيد إليهـا ذكـر الله تعـالى بعد طـول الغربة، وتذكرت بصحبة الأوليـاء ماسلف لها في عهد الصحابة رضي الله عنهم مـن حسن الصحبة، ودنـا المسجد الأقصى فـأقصي منه السـاجد للشمـس، وسكـن العلماء والفقهـاء في مواطـن البطـرك والقس، وأبـدل الناقوس بـالأذان، بل الكفر بالايمان، وصلى محراب الاسـلام في المحراب الذي أسلـم، وقدسنـى الله تعالى هـذا الفتح الأعظـم، والنجح الأفخـم، وقد ندب فـلان في الرسالة القدسية والبشـارة العرسية، التي تم بـه مأتم الكفـر وعـرس الاسلام، وعـادبها المسجـد الأقصـى إلى مدانـاة المسجـد الحرام.

وتجلت عروس الصخرة لعيـون الناظرين، وفاضت عليهـا مياه أحداق الأولياء، فـرحضت عنهـا أوضار الكـافريـن، وكان الاسـلام منه غـريبا، فرجـع إلى وطنه، وسكن منـه إلى التوطـن في مسكنه، وزالت مخاوفـه وعاد إلى مأمنه ، وفاض العرف من منبعه، وأنـار التوحيد من مطلعه، وعلا سنا السنه، وحـلا جنا الجنـه، وخلصت مواضـع المخلصين من أوليـاء الأمة، وخرج البطـاركـة والقسيسـون مـن مساجـد الائمـة، وعـادت الكنـائس مـدارس، وآيات التثليـث بها دوارس، ووجوه الايمان بـاشرة، ووجوه أهـل

الصليب عوابس، ومحت من هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد أقيمت الجمع والجماعات ونظفت بل طهرت تلك الساحات، وصلى في محرابه المحرب، ودرس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى بفضله هذا المطلب، وتيسر بتأييده الأمر الاصعب».

فصل

قال ا لعماد: وكان المولى الأجل الفاضل متأخرا بدمشق لعارض مرض منّ الله بشفائه فمن جملة ماكتب السلطان إليه:«أما الفتح فمن جملة بركات همته، وآثار جذبات عزمته، فإن الله تعالى سهل ماسجل أهل الدهر بانه صعب، واهب نسيم النصر إبان يقال ليس له مهب، وخصنا بهذا الشرف، وألحقنا بهذه الفضيلة بصالحي السلف، وقد بدّل الكفر بالايمان، والناقوس بالأذان، وجلس العلماء والفقهاء في مجالس الرهبان، وفتحت بهذا الفتح من بيت الله المقدس أبواب الجنان، وتزاحم الخارجون من البلد من الفرنج والنصارى في دخول أبواب النيران، وصلى محارب الدين في المحراب، ورفع الملائكة ماكان تكاثف بأنفاس الكفر من الحجاب، وغسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفائض الفائق غزارة الأمواه، وقبلت بالشفاه وبوشرت بالأفواه، وطهرت بأهل العلم والحلم من أدناس أهل الجهل والسفاه، والحمد لله، ثم الحمدلله، وماكان يعوزنا ويعوزه إلاّ حضور المجلس السامي أسماه الله، فما لهذا الأمر رواء إلا برؤائه، ولا للانس لقاء إلاّ بأنس لقائه، وكاد يتصحف الفتح لولا صالح دعائه، وحسن آلائه، والحمد لله الذي خصنا بهذه الخاصية، وفضلنا بالنصرة القدسية، وذخر لنا هذا البر الذي عجز بل قصر عنه ملوك البرية، والحمد لله على هذه النعمة السنية، فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه، وما أظمأنا وأظمأه إلى خصوص الري به وعمومه، وماحظ هذا البيت الذي هو أخو البيت الحرام من زيارته، وماآنق روضه وأوفق رضاه إذا فاز بنظره ونضارته، ونحن نعرف أن همته العالية تحدوه، وأن دينه إلى إجابة دعوته تدعوه، ونسأل الله أن يكمل صحته، وينعش قوّته، ويقوّي نهضته، وما أقمنا بهذا البلد إلاّ لتطهيره، وترتيب أمره وتدبيره».

ومن كتاب آخر: «نصرنا الله بملائكته المسّومين، وأوليائه المؤمنين،

واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها ، وافتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتوح وافترعناها، وهذه موهبة مذهبة ومنقبة لايبلغ الى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة، ونوبة مابعدها للاسلام نبوه، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوه، وبشرى تجلو الوجوه ببشرها وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى(باركنا حوله) عرفت ، وظهرت الصخرة المقدسة وطهرت، وزهيت أيامن هذه الأيام وزهرت، وقمعت الطائفة الطاغية من أهل التثليث بجهل التوحيد وقهرت، واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وإمامه، وافتخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه، وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنا حصنا، ونقضنا من الكفر ركناً ركنا، واجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حسنى.

فتح شرف الله به هذه الأمة، وجلا به الغمه، وكشف الملمة بل شرفنا بفخره، وأعدّنا لذخره، وخصنا بفضيلته في عصره، وأجرى لنا ماكان قد أبطأ من عادة نصره، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره، وقامت بواترنا بوتره، وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره، واصرخت الصخرة، وحفت بها النصره، وزالت عنها المضره، وعادت إليها المبره، ونعشت منها العثرة، وفاضت لها من عين المؤمنين العبره، وزفت عروسها البكر محصنة لم تفتض منها العذره، وحالت العره ولاحت الغره، وظهرت من صدف قبتها الدره، وصوفحت آثار القدم النبوية بالايمان، وجددت بعهدها صفقة الايمان، وبطل الناقوس بحق الأذان، وفتحت أبواب الجنان لأهلها وأخرج منها أهل النيران، والحمدلله على هذا الاحسان، حمدا مستمرا على مر الزمان».

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن:«فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه، وطال في أسره سجنه، واستحكم وهنه، وقوي سكره وضعف ركنه، وزاد حزنه، وزال حسنه، وأجدبت من الهدى أرضه وأخلف مزنه، وواصله خوفه وفارقه أمنه، واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساء ظنه، وذكر فيه الواحد الأحد الذي تعالى عن الولد أن المسيح ابنه، وربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه، وافرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه، ودرج الملوك المتقدمين على تمني استنقاذه، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه، وكان في الغيب الالهي أن معاده في الآخرة إلى معاذه، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس، وجليت الصخرة المقدسة جلوة العروس، وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح، وليل فطرها بالتراويح».

ومن كتاب آخر:«البيت المقدّس صار مقدساً ، وأصبح للاسلام معرّسا، ورجع الاذى بالأذان، وصوفحت الصخرة المقدسة بأيمان أهل الإيمان، وماصلت في محراب البيت المقدس الثقاة حتى صلت في محاريب رقاب الكفر المشرفيات، وماتم الرضى بفتح المسجد الأقصى حتى أقصي منه من أقصاه الله عن رضاه، وماتبوأ المسلم المصلى فيه مثواه من الجنة حتى تبوأ الكافر المصلى بالنار مثواه، صوفح موضع القدم المباركة ليلة المعراج بالأيدي ، وقال لأولياء الله أهل الاخلاص أهلا بكم فما أحسن الخلاص من ولاية أهل التعدي، وعاد المسجد الأقصى للمصلين المقربين جنة ومنارا، بعد أن كان للمقصين المصلين ناراً دارا، وتسلم محرب الاسلام محرابه، وأصحب لآلافه لما ألفى أصحابه، وترنح المنبر لترنم الخطيب، وانجبر الدين بانكسار صلب عابد الصليب السليب.

خلا باله من أمر القدس بإعادته إلى قدسه، وإخلائه من رجز الشرك

ورجسه، وإجلاء داويه واسبتاره وبطركه وقسه، وتعويضه من وحشة الضلال من الهدى بأنسه، ورد الاسلام الغريب إلى بيته المقدس، ونفي الكافر منه كاسف البال راغم المعطس، ونصب المنبر للمسجد الاقصى لاقامة الخطبة الإمامية، ورفع مارفع قدره من الأعلام العباسية، والافراج عن محرابه بهدم مابني دونه من مباني الشرك، وكشف استار الكفرة التي حجبت بالهتك والفتك، وإقامة الجمع فيه والجماعات، وادامة أوراد العبادات به ووظائف الطاعات، وغسل الصخرة المقدسة بدم الكافر ودمع المؤمن، ونزع لباس بأس المسيء عنها بافاضة ثوب المحسن، وتنزيه تلك الجنة من دنس أهل النار، واعلاء ماكان درس من معالم الأبرار، ومطالع الأنوار، وقد رجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ماكانت موصوفة به من التقديس، وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى، ومناخ التعريس، وقد أقصي عن المسجد الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون الأقربون، والملائكة المقربون، وخرس الناقوس بزجل المسبحين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ماجمع الاسلام فيه شملاً، ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بألسنة عذبها(نصر من الله وفتح قريب)، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين، فذكر بها ماكاد ينسى من عهد المعراج النبوي، وأقامت بدلائلها براهين الاعجاز المحمدي.

عاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبطل بنص النصر قياس قسيسه، وفتح باب الرحمة لأهلها، ودخلت فيه الصخرة لفضلها، وباشرت الجباه بها مواضع سجودها، وصافحت أيدي الأولياء آثار القدم

النبوية بتجديد عهودها، وشهد مقام المعراج وموطىء براقه، ورأى نور الاسراء ومطلع إشراقه، ودنا المسجد الأقصى للراكع والساجد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد:«تقلص ظل الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه، فلما وقع الشرط وقع المشروط، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمه، وادلجت السيوف والآجال نائمة، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا انهم يظفرون به طيفا على النائم طارقا».

ومنه في وصف نقب السور:« فأخلي السور من السيارة، والحرب من النظاره، وأمكن النقاب أن يسفر للحرب النقاب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحل عقده بضربه الأخرق الدّال على لطافة أنمله، واسمع الصخرة الشريفة حنينه فاستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض.

ثم قال: واستقرّت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما يشفى بالماء غللهم، وملك الاسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان، لاجرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم، وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له من الائمة من توفيه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان، فكادت السموات للنجوم ينفطرن، والكواكب منها للطرب ينتثرن، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد، وكانت طريقها مسدودة، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة، وأقيمت الخمس، وكان التثليث يقعدها، وجهرت الالسنة بالله أكبر وكان سحر

الكفـر يقعدهـا، وجهـر بـاسم أمير المؤمنين في وطنـه الأشرف مـن المنبر فرحب بـه ترحيب من بـر، وخفق علماه في حفافيه، فلـو طار سروراً لطار بجناحيه، وكان الخادم لايسعى سعيـه إلا لهذه المنقبة العظمى، ولايقاسي تلك البـؤسى إلاّ رجاء هـذه النعمى، ولايحارب من يستظلمـه إلا لتكون الكلمـة مجموعـة فتكون كلمـة الله هي العليـا، وليفوز بجـوهر الآخـرة لا بالعـرض الأدنى مـن الدنيا، وكـانت الألسنة ربما سلقتـه فانضـج قلوبها بالاكتفـاء والاقتصار، وكانـت الخواطر ربما غلت عليه مـراجلها فأطفـأها بالاحتمال والاصطبـار، ومن طلـب خطيراً خاطـر، ومن رام صفقـة رائجة جاسر، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر».

ووصف فيـه يوم حطين فقـال:«وكان اليوم مشهـوداً، وكانـت الملائكة شهودا، وكـان الضلال صارخا وكـان الاسلام مولوداً، وأسر الملـك وبيده أوثق وثائقه، وأكد وصله بالديـن وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، مـادهموا قط بـأمر إلاّ وقـام بين دهمائهم يحرّضهـم، يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الـدفعة وداعه، لاجرم أنه يتهافت على ناره فـراشهم، ويجتمـع في ظل ظلامـه خشاشهـم، ويقاتلـون تحت ذلك الصليـب أصلب قتـال وأصدقـه، ويرونـه ميثاقـا يبنون عليـه أشد عقـد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافـر الخيل خندقه، ولم يفلت منهم معروف إلاّ القمص، وكـان لعنه الله مليـا يوم الظفر بـالقتال، ومليئـا يوم الخذلان بـالاحتيال فنجـا ولكن كيـف، وطار خـوفـا من أن يلحقـه منسر الرمـح وجنـاح السيـف، ثم أخـذه الله بعـد أيـام بيـده، وأهلكه لموعـده، وكـان لعدتهم فذلك وانتقل من ملك الموت إلى مالك، وبعد الكسرة مرّ الخادم على البلاد فطواهـا بما نشر عليها من الراية السوداء صبغـاً للبيضاء صنعاً الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها».

فصلٌ

قال العماد ومن قصائدي التي هنأت بها السلطان بفتح القدس وهو مخيم عليه:

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا
وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا

وأسأل عنكم عافيات دوارس
غدت بلسان الحال ناطقة خرسا

معاهدكم ما بالها كعهودكم
وقد كررت من درس آثارها درسا

وقد كان في حدسي لكم كل طارق
وما جئتم من هجركم خالف الحدسا

أرى حدثان الدهر ينسي حديثه
وأما حديث الغدر منكم فلا ينسى

تزول الجبال الراسيات وثابت
رسيس غرام في فؤادي لكم أرسى

حسبت حبيبي قاسي القلب وحده
وقلب الذي يهوى بحمل الهوى أقسى

أما لكم يا مالكي الرق رقة
يطيب بها مملوككم منكم نفسا

وإن سروري كنت أسمع حسه
فمذ سرت عنكم ما سمعت له حسا

وإن نهاري صار ليلاً لبعدكم
فما أبصرت عيني صباحا ولا شمسا

بكيت على مستودعات قلوبكم
كما قد بكت قدما على صخرها الخنسا

فلا تحبسوا عني الجميل فإنني
جعلت على حبي لكم مهجتي حبسا

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر
ولسنا نرى إلاّ أنامله الخمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضى
وبطشته الكبرى وعزمته القعسى
فلا عدمت أيامنا منه مشرقا
ينير بها يولي لياليها الدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم
عداتك جن الأرض في الفتك لا الانسا
فلا يستحق القدس غيرك في الورى
فأنت الذي من دونهم فتح القدسا
ومن قبل فتح القدس كنت مقدّسا
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وألبستها الدين الذي كشف اللبسا
وعادت ببيت الله أحكام دينه
فلا بطركاً أبقيت فيها ولا قسا
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة
بأن أذان القدس قد بطل النقسا
جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت
ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا
وكم لبني أيوب عبد كعنتر
فإن ذكروا بالباس لا يذكر عبسا
وقد طاب ريانا على طبرية
فيا طيبها مغنى ويا حسنها مرسى

وعكا وما عكا فقد كان فتحها
لاجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا وبيروت وتبنين كلها
بسيفك ألفى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وأرسوف ويبنى وغزة
تخذت بها بين الطلى والظبى عرسا
وفي عسقلان الكفر ذل بملككم
فمنظره بل أمره أربدّ وأرجسا
وصار بصور عصبة يرقبونكم
فلا تبطئوا عنها وحسوهم حسا
توكل على الله الذي لك أصبحت
كلاءته درعا وعصمته ترسا
ودمر على الباقين واجتث أصلهم
فإنك قد صيرت دينارهم فلسا
ولا تنس شرك الشرق غربك مرويا
خراسان والنهرين والترك والفرسا
وبعد الفرنج الكرج فاقصد بلادهم
بعزمك واملا من دمائهم الرمسا
أقامت بغاب الساحلين جنودكم
وقد طردت عنه ذئابها الطلسا

وهي طويلة وقد تقدّم بعضها في ذكر كسرة حطين، وللعماد أيضا من جملة القصيدة التي مدح بها حسام الدين بن لاجين وقد تقدّم بعضها:

قل للمليك صلاح الدين أكرم من
يمشي على الأرض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى
صور فإن فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لجب
وابعث إلى ليل انطاكية العسسا

وأخـــل ســـاحـــل هـــذا الشـــام أجمعـــه
مـــن العـــداة ومـــن في دينـــه وكســـا
ولا تـــدع منـــه نفســـا ولا نفســـا
فـــإنهم يـــأخـــذون النفـــس والنفســـا
نـــزلـــت بـــالقـــدس فـــاستفتحتـــه ومتـــى
تقصـــد طـــرابلســـا فـــانـــزل على قـــدســـا

ومن قصيدة أخرى له أنفذها الى الخليفة الناصر:

أبشـــر بفتـــح أميـــر المـــؤمنيـــن أتـــى
وصيتـــه في جميـــع الأرض جـــواب
مـــا كـــان يخطـــر في بـــال تصّـــوره
واستصعـــب الفتـــح لما أغلـــق البـــاب
وخـــام عنـــه الملـــوك الأقـــدمـــون وقـــد
مضـــت على النـــاس مـــن بلـــواه أحقـــاب
وجـــاء عصرك والأيـــام مقبلـــة
فكـــان فيـــه لفيـــض الكفـــر انضـــاب
نصر أعـــاد صـــلاح الـــديـــن رونقـــه
إيجازه ببليـــغ القـــول اسهـــاب

قـــرع الظبـــى بـــالظبـــى في الحرب يطـــربـــه
لا قينـــة صنـــع بـــاللحـــن مطـــراب
أحيـــا الهدى وأمـــات الشرك صـــارمـــه
لقـــد تجلى الهدى والشرك منجـــاب
بفتحـــه القـــدس لـــلاســـلام قـــد فتحـــت
في قمـــع طـــاغيـــة الاشراك أبـــواب
ففـــي مـــوافقـــه البيـــت المقـــدس للـــ
ـــبيت الحرام لنـــاتيـــه وإعجـــاب
والصخـــر والحجـــر الملثـــوم جـــانبـــه
كـــلاهما لاعتمار الخلـــق محراب

نفـى مـن القـدس صلبـانـاكما نفيـت
مـن بيـت مكـة أزلام وأنصـاب

وكثر مدح الفضلاء للسلطان عند فتح القدس، وقد ذكر العماد من ذلك جملة في أواخر كتاب البرق، فرأيت تقديم مااخترته منها هنا، وزدت عليه مالم يذكره، فمن ذلك قصيدة الحكيم أبي الفضل عبد المنعم ابن عمر بن حسان الاندلسي الجلياني منها

أبـا المظفـر أنـت المجتبـى لهدى
أخـرى الـزمـان على خبر بخبرتـه

فلـو رآك وقـد حـزت العلى عمـر
في قلـة التـل قضـى كنـه عبرتـه

ولـو رآك وأهـل القـدس في ولـه
أبـو عبيـدة فـدى مـن مسرتـه

غـداة جـزوا النـواصي في قمامتـه
وأعـولـوا بـالتباكـي حـول صخـرتـه

دارت بـك الملـة الحسنـى فنحـن على
عهـد الصحـابـة في استمـرار مـرتـه

وأنـت كـاسمـك صـديـق وصـاحبـه
الملـك المظفـر سـام في مبرتـه

وفي السـلالـة عثمان يـؤيـده
عـلا عليّ على ايثـار نصرتـه

وكـم لـديـك ذوو قـربـى رقـوا شرفـا
وكـم بعيـد رأى الـزلفـى بهجـرتـه

يشبـه الفتـح[٥٣] مـا بين البـزاة لقـى
ملـك الفـرنـج أخيـذا بين عترتـه

أمـا رأيـت معـالي يـوسـف بسقـت
حتـى رمـت كـل ذي ملـك بحسرتـه

أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه
وبات يطوي العدى في سدّ ثغرته

واستقبح الرجس ممنوّا بمشهده
فاستفتح القدس محشوّا بزمرته

لكن بأس صلاح الدين أذهلهم
بوقعة التلّ واستشراء سورته

يعمي الجوارح والفرسان وهو على
بدء النشاط عشيا مثل بكرته

يا فاتح المسجد الأقصى عليّ بهم
وقانص الجيش لا يحصى بقفزته

أبشر بملك كظهر الشمس مطلع
على البسيطة فتاح بنشرته

حتى يكون لهذا الدين ملحمة
تحكي النبوّة في أيام فترته

قال: وأنفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسن بن المجاور، الوزير العزيزي، قصيدة ، وعرضتها على السلطان بالقدس، وفيها ذكر الانكلتيز، وفتح يافا، وذكر الهدنة التي يأتي ذكرها في آخر الكتاب، فمنها وسيأتي الباقي المختار أيضا:

الوقت أضيق من سماع قصيدة
موسومة لصفات أغيد أهيف

الجدّ في هذا الزمان مبين
والهزل فيه مع الغواية مختف

بالناصر المهدي والهادي إلى
سبل الجهاد أبي المظفر يوسف

المستعين بربه والواثق الـ
منصور والمستظهر البر الوفي

شدّت قوى أركان ملة أحمد
وتجملت بجهاده في الموقف

ملـــك إذا أم الملـــوك جنـــابـــه
لاذو بـــأكـــرم مـــن يـــؤم وأشـــرف
وإذا أتـــوا أسرى إلى أبـــوابـــه
وقفـــوا بـــأعظـــم مـــن يصـــول وأرأف
مـــولى غـــدا اللـــذيـــن أكـــرم والـــد
حـــدب على أبنـــائه مترفـــرف
عـــزل الفـــرنجـــة ثـــم ولى جيشـــه
أعظـــم بـــه مـــن صـــارف ومصرف
قـــد أنصـــف التـــوحيـــد مـــن تثليثهـــم
وأقـــام في الانجيـــل حـــد المصحـــف
مغـــرى بتجـــريـــح الـــرجـــال لأنـــه
يـــروي أحـــاديـــث العـــوالي الـــرعـــف
ملـــك لـــه فـــي الحـــرب بحـــر تفقـــه
ولـــه غـــداة السلـــم زهـــد تصـــوّف
وعليـــه أنـــزل في الجهـــاد مفصـــل
فلـــذاك يقـــرأوه بسبعـــة أحـــرف
عـــزم وحلـــم انسيـــا مـــا كـــان مـــن
عـــزم ابـــن مـــرداس وحلـــم الأحنـــف
يـــا أيها الملـــك الـــذي لطبـــاعـــه
وسيـــوفـــه خلقـــا رضـــى وتعســـف
لله يـــوم عـــروبـــة إذا عـــربـــت
ســـاعـــاتـــه عـــن نصرك المتعـــرف
سنـــت سيـــوفـــك في الـــرؤوس ختـــانـــة
ذهبـــت بمهجـــة كـــل علـــج أقلـــف
آفـــاتهم وافـــت بـــأخـــذك منهـــم
يـــافـــا فكـــم مـــن حسرة وتـــأســـف
أو مـــا رأى الأعـــلاج حين دعـــوتها
بلســـان سيـــف في الكـــريهة ملحـــف

لم تستطـع عصيـان أمـرك بـل أتـت
منقـادة طـوعـا ولم تتخلـف
فـاستـدع جـارتها وثـن بـأختهـا
وكـذاك حتـى الأربعين ونيـف
مـا للسـواحـل غير بحـرك حـافـظ
بشبـا سنـان أو بصفحـة مـرهـف
هـذا الطـراز الأخضر استفتحتـه
فـزهـى بثـوب مـن عـلاك مسجـف
أحييـت ديـن محمـد وأقمتـه
وسترتـه مـن بعـد طـول تكشـف
وضبطـت ديـوان الجهـاد بعـامـل
مـن عـامـل وبمشرف مـن مشرفي
وبجهبـذ العـزم الـذي لا ينثنـي
وبنـاظـر الـرأي الـذي لم يطـرف
فخـذ الخراج مـن البسيطـة كلهـا
واستـأد فـرضي جـزيـة ومـوظـف
واقبـض على الـدنيـا بكـف زهـادة
وابسـط لـرحمتهـا جنـاح تعطـف
جـاءت جنـود الله تطلـب ثـارهـا
وصـدورهـا بـل عـن قليـل تشتفـي
فـانهض بها وتقـاض حقـك مـوقنـا
أن الإلـه بما تـؤملـه حفـي
هـم فتيـة الاتـراك كـل مجفجـف
يغشـى الكـريهة فـوق كـل مجفجـف
قـوم يخوضـون الحمام شجـاعـة
لا ينظـرون إليـه مـن طـرف خفـي
إن صبحـوا الأعـداء في أوطـانهم
تـركـوا ديـارهـم كقـاع صفصـف

أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا
لله در المصطفى والمصطفي

قلت: وذكرت بقوله «هذا الطراز الأخضر استفتحته» حكاية حسنة لائقة بالحال، حدثني به شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي قال: قرأت بخط شيخنا أبي افضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، قال: رأى انسان كأن شخصا ذا جهامة واقفاً على حائط بجامع دمشق يسمى النسر، وهو يقول:

ملك الصياصي والصواصي ناصر
للدين بعد إياسه أن ينصرا
وسيفتح البيت المقدّس بعدما
يطوى الطراز له ويقتل قيصرا

قلت :وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين

وقرأت بخط بعض أصحابنا قال :وجدت على حاشية كتاب يروى عن خطيب كان بالرقة، أنه رأى من ينشده هذا الشعر في النوم سنة احدى وثلاثين وخمسمائة، فذكر لبيتين وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين سنة، وقبل مولد صلاح الدين بسنة ،والمعني بالطراز الأخضر بلاد الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم، وغزة، وعسقلان، وعكا وصيدا، وبيروت، وجبيل، وغير ذلك، ولم يبق من الطراز في أثناء ذلك سوى صور بين صيدا و عكا؛ وهكذا كان الأمر على ماسبق بيانه فتح هذا الطراز أولاً ثم فتح البيت المقدّس، وكنى بقيصر عن الأبرنس الذي قتله بيده لأنه كان من رؤس الكفر وملوكهم وغلاتهم في معاداة الإسلام والله أعلم.

قال العماد: وكان فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر من أهل بغداد ينفذ إلي قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له

هذه القصيدة في الفتح و هي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمالهم له تسعين عاماً، حتى تجرد له سلطاننا فذكرها منه:

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم لهذا الفتح برهان

متى رأى الناس ما نحكيه في زمن
وقد مضت قبل أزمان وأزمان

هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما
له سوى الشكر بالأفعال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده
صيدا وما ضعفوا يوماً وما هانوا

كم من فحول ملوك غودروا وهم
خوف الفرنجة ولدان ونسوان

استصرخت بملكشاه طرابلس
فخام منها وصمت منه آذان

هذا وكم ملك من بعده نظر الاسـ
ـلام يطوى ويحوى وهو سكران

تسعون عاما بلاد الله تصرّخ والـ
إسلام أنصاره صم وعميان

فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم
بأمر من هو للمعوان معوان

للناصر ادّخرت هذي الفتوح وما
سمت لها هم الاملاك مذ كانوا

حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا
ل الناس داود هذا أم سليمان

في نصف شهر غدا للشرك مصطلما
فطهرت منه أقطار وبلدان

فأين مسلمة عنها وأخوته
بل أين والدهم بل أين مروان

وعدّ عما سواه فالفرنجة لم
يبدهم من ملوك الارض انسان

لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد
تنزلت فيه آيات وقرآن

ياقبح أوجه عباد الصليب وقد
غدا يبرقعها شؤم وخذلان

خزنت عند إله العرش سائر ما
ملكته وملوك الأرض خزان

فالله يبقيك للاسلام تحرسه
من أن يضام ويلفى وهو حيران

وهذه سنة أكرم بها سنة
فالكفر في سنة والنصر يقظان

ياجامعا كلمة الايمان قامع من
معبوده دون رب العرش صلبان

إذا طوى الله ديوان العباد فما
يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وللشريف النسابة المصري محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية، من قصيدة:

أترى مناما ما بعيني أبصر
القدس يفتح والفرنجة تكسر

وقمامة قمت من الرجس الذي
بزواله وزوالها يتطهر

ومليكهم في القيد مصفود ولم
ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر

قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

فتح الشآم وطهر القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد
ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها
فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده
ولأنت في نصر النبوّة حيدر
ملك غدا الاسلام من عجب به
يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه
فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث العيون
خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فان خطبت له
فيها السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلاّ طلى بسنابك
تحذى نعالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار إن تطأ الثرى
فيصدها عنه طلى وسنور
تمشي على جثث العدا عرجا ولا
عرج بها لكنها تتعثر

وقال أبو الحسن بن جبير الاندلسي:
أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر
فابشر فان رقاب العدا
تمدّ الى سيفك الباتر

وكــــم لـــك مــــن فتكــــة فيهــــم
حكــــت فتكـــــة الأســــد الخادر
وكسرت صليبهــــــم عنــــــوة
فــــلله درك مــــن كـــــاسر
وغيرت آثـــــارهـــــم كلهـــــا
فليـــس لها الـــدهـــر مـــن جـــابـــر
وأمضيـــــت جـــــدك في غـــزوهـــم
فتعســـا لجدّهـــم لعـــــاثـــــر
وأدبـــــر ملكهـــــم بـــــالشـــآم
وولى كـــــأسهـــم الـــــدابـــــر

جنـــودك بـــــالـــرعــــب منصـــورة
فنـــاجـــز متـــى شئـــت أو صـــابـــر
فكلهـــم غـــــرق هـــالـــــك
بتيـــار عسكـــرك الـــزاخـــر
ثـــأرت لــــديـــن الهدى في العـــدا
فـــاثـــر لله مــــن ثـــائر
وقمـــــت بنصر إلـــــه الـــــورى
فسماك بـــــالملـــك النـــــاصر
وجـــاهـــدت مجتهـــداً صـــابـــراً
فـــلله أجـــرك مــــن صـــابـــر

تبيـــت الملـــوك على فـــرشهـــم
وتـــرفـــل في الـــزرد الســـابـــر
وتـــؤثـــر جـــاهـــد عيـــش الجهـــاد
على طيـــب عيشهـــم النــــاضر
وتسهـــر ليلــــك في حـــق مـــن
سيرضيـــك في جفنـــك الســـاهـــر
فتحـــت المقـــدّس مـــن أرضـــه
فعـــادت إلى وصفهـــا الطـــاهـــر

وجئت الى قدسه المرتضى
فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذخر الله هذا الفتو
ح من الزمن الاوّل الغابر
وخصك من بعد فاروقه
بها لاصطناعك في الآخر
محبتكم ألقيت في النفوس
بذكر لكم في الورى طائر
فكم لهم عند ذكر الملوك
لمثلك من مثل سائر

وباقي القصيدة تقلم في أخبار سنة أربع وسبعين، وقال أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي:

أعيّا وقد غاينت الآية العظمى
لأية حال تدّخر والنثر والنظما
وقد شاع فتح القدس في كل منطق
وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما
حبا مكة الحسنى وثنى بيثرب
وأطرب ذياك الضريح وماضما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها
فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان إلا الداء أيا دواؤه
غير الحسام العضب لايحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسما
واسنة الاغماد توسعه لثما

سلوا الساحل المخشي عن سطواته
فما كان إلاّ ساحلا صادف اليما

وله من قصيدة أخرى في السلطان:

عصفت به ريح الخطوب زعازعا
فلقين طودا لا تخاف أناته

هو منقذ البيت المقدّس بعدما
طالت فما وجد الشفاء شكاته

بيت تأسس بالسكون وإنما
عند الزحاف تحركت سكناته

أمشتت الأعداء هي جحافل
عن شمل دين جمعت اشتاته

أوتيت عزماً في الحروب مسددا
لا زيغه يخشى ولا هفواته

أحسنت بالبيت العتيق ويثرب
ولك الفعال كثيرة حسناته

هذه سيوفك ترمات دونه
لبكائهن تبسمت حجراته

له فيه من قصيدة أخرى:

هو الفاتح البيت المقدّس بعدما
تحامته سادات الدنا ومسودها

فضيلة فتح كان ثاني خليفة
من القوم مبديها وأنت معيدها

وله من قصيدة في بعض مآرب السلطان:

السّت من القوم الأولى بسيوفهم
نوا صخرة البيت المقدّس مسجدا

وللعماد الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك الأفضل:

والقـــدس أعضــــل داؤه مـــن قبلكـــم
فـــوفيتـــم بشفـــاء ذاكَ المعضـــــل
درج الملـــــوك على تمنـــــي فتحـــــه
زمنــــا وغلتهـــــم بـــــه لم تبلـــــل
وأتـــى زمـــانكـــم فـــأمكـــن آخـــرا
مـــا قـــد تعـــذر في الـــزمـــان الأوّل
مـــا كـــان قـــط ولا يكـــون كفتحكـــم
للقـــــدس في الماضي ولا المستقبـــــل
أوجــدتـــم منـــه الـــذي عـــدم الـــورى
وفعلتـــم في الفتـــح مـــا لم يفعـــل
أيـــدي الملـــوك تقـــاصرت عـــن مفخـــر
طلتـــم بـــه فبلـــو البعـــض الأنمـــل
أحييتـــــم شرع الكـــــرام ولم يـــــزل
نصر المحـــق بكـــم وقهـــر المبطـــل

وله قصيدة في مدح الملك المؤيد:
وكـــم لبنـــي صـــلاح الـــديـــن فينـــا
على الاســـلام مـــن حـــق تـــأكـــد
وإن لهم على الأمـــــــــلاك طـــــــرا
بفتـــح القـــدس فضـــلا ليـــس يجحـــد

وله من أخرى في مدح الملك الظاهر غازي:
هـــم الملـــوك ذوو بـــأس ومكـــرمـــة
إن ســـالموا أمنـــوا أو حـــاربـــوا خيفـــوا
أغنـاهـم القـدس عـن قـول الـورى فتحـت
عكـــا وصيــــدا وبيروت وأرســـــوف

جيش الفرنج إذا لاقى سوابقهم
كأنه جبل بالريح منسوف

وقرأت على شيخنا أبي الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله من جملة قصيدة مدح بها بعض ولد السلطان أظنه الملك المحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين رحمهما الله

ملك به وأبيه يفتخر العلا
ويفوق فخرهما السها والفرقدا

ما يوسف ممن يقاس بحاتم
أنى وقد وهب الحصون وأصفدا

او ان يقال كأنه يوم الوغى
والروع كالاسد الهصور إذا عدا

أو من يشبه جوده بغمامة
أو من يقال لمثله عمر الردى

بل مالك الدنيا ومالىء رحبها
خيلا ورجلا ناصر دين الهدى

ومخلص البيت المقدس بعدما
رفع الصليب على ذراه ومجدا

ومن الملوك الصيد يلقاهم إذا
رفع السرادق راكعين وسجدا

وبه أتى البيت الحرام وفوده
من كل فج آمنين المردا

من بعد ما درست معالم سبله
دهرا وء ـر حر مها أن يقصدا

فصل

في صفة إقامة الجمعة بالأقصى شرفه الله تعالى في رابع شعبان ثامن يوم الفتح

وقد وهم محمد بن القادسي في تاريخه فيما قرأته بخطه، فإنه قال: فتح صلاح الدين بيت المقدس وخطب على المنبر فيه بنفسه وصلى فيه، ولبس خلعة سوداء ، ولم يكن السلطان هو الذي باشر الخطبة على ماسنذكره، وقد تقدم أن يوم الفتح وإن كان يوم الجمعة ، إلا أن الوقت ضاق عن إقامة فرض صلاة الجمعة فيه

قال العماد : لما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا، وتركوه للغلة هرياً، وقيل كانوا اتخذوه مستراحاً عدواناً وبغيا،وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً وسيعة وكنيسة رفيعة، فأوعز بكشف ذلك الحجاب، وكشف النقاب عن عروس المحراب، وهدم ماقدّامه من الأبنية وتنظيف ماحوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس للجمعة في العرصة المتسعة، ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر، ونقض ماأحدثوه بين السواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري، وعلقت القناديل، وتلي التنزيل،و حق الحق، وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعزل الإنجيل، وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلت البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغيابات، وانثابت الهدايات، وتليت الآيات، وأعليت الرايات، ونطق الأذان ، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبؤس، وطابت الانفاس والنفوس،وأقبلت السعادات، وأدبرت النحوس ،وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه وطلب الفضل من معدنه، وورد القرّاء وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد، وعبد الواحد،

ووحد العابد، وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد، والزاهي والزاهد،والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتجهد والساهد، والزائر والوافد، وصدح المنبر، وصدع المذكر، وانبعث المعشر، وذكر البعث والمحشر ، وأملى الحفاظ، وأبكى الوعاظ، وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدّثت الرواة، وروى المحدّثون وتحنف الهداة، وهدى المتحنفون، وأخلص الداعون، ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخصون، ولخص المفسرون، وفسر الملخصون، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، المتوشحون بالاصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة، فما فيهم إلا من خطب الرتبة، ورتب الخطبة، وانشأ معنى شائقاً، ووشى لفظا رائقاً ،وسوى كلاماً بالموضع لائقاً،و روى مبتكراً من البلاغة فائقاً، وفيهم من عرض عليّ خطبته، وطلب مني نصبته، وتمنى أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق بمنيته فيها أمنيته، وكلهم طال إلى الإنتهاء بها عنقه، وسال من الإلتهاب عليها عرقه، ومامنهم إلا من يتأهب ويترقب، ويتوسل ويتقرب، وفيهم من يتعرض ويتضرع ، ويتشوف ويتشفع، وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه، وضرب في أخماسه أسداسه، ورفع لهذه الرياسة رأسه، والسلطان لا يعين ولايبين، ولايخص ولاينص، ومنهم من يقول ليتني خطبت في الجمعة الأولى وفزت باليد الطولى،وإذا ظفرت بطالع سعدي، فما أبالي بمن خطب بعدي، فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان، وامتلأ الجامع، واحتفلت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لرقة القلوب المدامع، وراعت لجليه تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع، وغصت بالسابقين إليها المواضع، وتوسمت العيون،وتقسمت الظنون، وقال الناس: هذا يوم كريم، وفضل عميم، وموسم عظيم، هذا يوم تجاب فيه الدعوات، وتصب البركات، وتسال العبرات، وتقال العثرات، ويتيقظ الغافلون، ويتعظ العاملون، وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم

الـذي فيه انتعـش الإسلام وانتـاش، ومـا أفضل هـذه الطائفـة الحاضرة، والعصبـة الطاهـرة، والامـة الظـاهرة، ومـا أكـرم هـذه النصرة الناصريـة، والاسرة الإمـاميـة، والـدولـة العبـاسيــة، والمملكـة الأيـوبيـة، والـدولـة الصلاحيـة، وهل في بلد الإسلام أشرف مـن هذه الجماعة التـي شرفها الله بـالتـوفيق لهذه الطـاعـة، وتكلمـوا فيمـن يخطب، ولمن يكـون المنصـب، وتفاوضـوا في التفويـض، وتحدّثوا بالتصريـح والتعريـض، والأعلام تعلى، والمنبر يكسـى ويجلى، والأصـوات تـرتفع، والجماعـات تجتمـع، والأفـواج تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين مـن الضجيج مافي عرفات للحجيج، حتى حـان الزوال، وزال الإعتـدال، وحيعل الداعـي، وأعجل السـاعي، فنصب السلطان الخطيـب بنصه، وأبان عن اختياره بعـد فحصه، وأوعز إلى القاضي محيي الديـن أبي المعالي محمد بن زكي الديـن علي القرشي بأن يرقى ذلـك المرقى، وترك جباه الباقين بتقديمـه عرقى، فأعرتـه من عندي أهبة سوداء من تشريف الخلافة حتى يكمـل له شرف الإفاضة والإضافة، فـرقـى العـود، ولقـي السعود، واهتـزت أعطـاف المنبر، واعتـزت أطـراف المعشر، وخطب وانصتوا، ونطـق وسكتوا وأفصح وأعرب، وأبـدع وأغرب، وأعجز وأعجـب، وأوجز وأسهـب، ووعظ في خطبتيـه وخطب بمـوعظتيه وأبـان عن فضـل البيت المقـدّس وتقـديسه، والمسجـد الأقصى مـن أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، وإخراس نـاقوسه، وإخراج قسيسه، ودعا للخليفـة والسلطــان، وختـم بقــولـه تعـالى:(إن الله يــأمـر بــالعـدل والإحسان)[٥٤]ونزل وصلى في المحراب وافتتح ببسم الله الـرحمن الرحيم من أم الكتاب، فأم بتلك الأمة، وتم نـزول الرحمة، وكمل وصول النعمة، ولما قضيت الصـلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقـد الإجماع، واطرد القياس، وكـان قد نصب للوعـظ تجاه القبلة سرير ليفرعـه كبير، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجـا، فذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقـى، ومن هلك ومن نجا، وخوّف بـذي الحجة ذوي الحجا، وجلا بنـور عظاته من ظلـم الشبهات مادجا، وأتـى بكل عظة للراقـدين

موقظـة، وللظالمين محفظـة، ولأولياء الله مرققـة ولأعداء الله مغلظـة، وضج المتباكون وعـج المتشاكون، ورقت القلوب، وخفت الكـروب، وتصاعدت النعـرات، وتحدرت العبرات، وتاب المذنبـون وأنـاب المتحـوبون، وصـاح التـوابـون، ونـاح الأوابـون، وجـرت حـالات جلـت، وجلـوات حلـت، ودعـوات علت، وضراعـات قبلت، وفـرص مـن الولايـة الالهية انتهـزت، وحصص مـن العناية الربـانية أحرزت، وصلى السلطان في قبـة الصخرة، والأيدي إلى الله مـرفوعـة، والدعوات لـه مسموعـة، ثم رتـب في المسجد الاقصى خطيباً استمرت خطبته، واستقرت نصبته.

قلت: هـذه الفاظ العماد في هـذا الفصل مـن كتاب الفتـح، وذكره في كتاب البرق بعبـارة أخرى، تشتمل على فـوائد زائدة، وفي تكرار مـاتقدم أيضـاً بغير تلك العبـارة فـائدة، فإنها معـان جليلـة، كلما ذكرت جلـت، وكلما تكررت حلت.

فصل

قال العماد في كتاب البرق: لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح، تقدم السلطان في المسجد الاقصى ببسط العراص، واخلائها لأهل الاخلاص، وتنظيفها من الأدناس ، وكنس مافي أرجائها من الأنجاس ، وقد كان سبق أمره من مبدأ الامر بهدم ما هناك من أبنية الكفر، وإبراز المحراب القديم، وإعادة موضعه إلى الوضع الكريم، فقد كان الداويه بنوا غربيه داراً وأدخلوه فيها وخلطوه بمبانيها، واتخذوا منه جانباً مستراحاً للاعلال، وجانباً هريا للغلال، فأمر في ا لعاجل بكشف قناعه، ورفع الوضيع من أوضاعه، ونقل ماوقع من انقاضه، ونقض مااعتور ذلك الجوهر النفيس من اعراضه، حتى ظهر موضع المنبر والمحراب، واستظهر بإزالة ماقدّامه من الحجاب، واجتمع الخلق في ذلك الاسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع، وتعاونوا وتعانوا حتى كشفوه، ونظفوه ورشوه وفرشوه، وكان قد أمر باتخاذ منبر في تلك الأيام فنجروه وركبوه، ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العلل مزاحه، والهمم مراحه، والخواطر إلى وردها ملتاحة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء، وكل منهم قد سبق بخطبة الخطبة، وأمل الفوز بفضيلة تلك الرتبة، وأعد لذلك المقام مقالاً، ونشط بشقشقة فصاحته من قرم حصافته عقالاً، حتى إذا حيعل الداعي، وتعين الفرض على الساعي، حضر السلطان للصلاة من قبة الصخرة ، بادية على أساريره أسرار سروره بالأسرة، وامتلأت تلك العراض والصحون، واستعبرت للفرح بما يسره الله العيون، وآن لدين الله أن تقضى له الديون وتفك الرهون، ووجلت القلوب وخشعت الأصوات ، وحسنت الظنون ،و عين السلطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القرشي، الزكي بن الزكي، للصلاة والخطبة، وفرع تلك الرتبة، فصعد وسعد، وحمد و أحمد، وأدت المعاني الشريفة ألفاظه، ونبه الأقاصي والأداني إيقاظه، وجلا المسامع ، وجلب المدامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع

والنهج المتبوع، والشرط الموضوع، وذكر في الفتح البكر ماافتض به ابكار الاستعارات بأبدع البراعات ، وأبرع العبارات ، وصدح بالصدق، ونطق بالحق ، وفاز بالسبق، وحاز على فضلاء الغرب والشرق، فهو لنشر المعاني أضم خطيب، له بنشر المعالي أضمخ طيب، فأين قس في عكاظه، من قياس ألفاظه، وأين سحبان من سجعاته، وأين ابن نباتة من نباته، ولو عاشا لافتقراإلى فقره واحتقرا أعراضهما عند جوهره، ودعا لأمير المؤمنين، ثم لسلطان المسلمين، ونزل وقام إماماً أكمل بصلاته الفرض، وأرضى بسمت دعواته والطمأنينة في ركعاته وسجداته أهل السماء والأرض، وسر السلطان بنصبه ورفعه ، وامتلأ صدره حبوراً منه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعة أنوار الخطبة، في سواد الأهبة ، وعظمت أخطار المهابة في خواطر المحبة، وكرمت سرائر الزلفى إلى الله والقربة، ثم رتب السلطان بعده خطيباً يستمر إقامته للجمع والجماعات، وتستقر ملازمته لأداء الصلوات، ولما قضيت الصلاة تلك الجمعة، نصب سرير للوعظ أبقى تلك الأمة المجتمعة، وتقدم السلطان إلى زين الدين الواعظ ليفرع السرير، وينفع بعظاته الصغير والكبير، وحضر المجلس بمرأى منه ومسمع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع، فحقق ورقق وأشهد وأشهق، وخلب بعباراته الحلوة العبرات، وشار العسل بمعسول الإشارات، وبشر البشر بشارة البشارات، وذكر الفتح وبكارته، والقدس وطهارته، والدين وجسارته، والكفر وخسارته، والقدر وإعانته، والظفر وإبانته، والصخرة وإصراخها، والروعة وإفراخها، والنار وصراطها، والقيامة وأشراطها، والرحمة وبابها من باب الرحمة، والجنة وجناها لهذه الأمة، وماأعده الله لهذه الطائفة، وماأنزله من الأمن على القلوب الخائفة، ووصف ببلاغته مالايبلغ إليه نطق الالسنة الواصفة، ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله والخير ودلائله، والنجح ووسائله، والشرع ومسائله، والذنب وغوائله، وإحسان السلطان وفواضله، والبحر وساحله، والدين وحقه، والكفر وباطله، وكان يوماً راجحاً وسوماً رابحاً.

فصل

في إيراد ماخطب به القاضي محيي الدين رحمه الله

قال العماد وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب في أربع جمع كلها من إنشائه، وأودعها سر بلاغة عنيت بافشائه، وذكرت الخطبة الأولى ويد الفصاحة فيها طولى، افتتحها بهذه الآيات:

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)[٥٥](الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)[٥٦] (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)[٥٧] (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً)[٨٥] الآية (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب)[٥٩] (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى)[٦٠](الحمد لله الذي له مافي السموات وما في الأرض)[٦١] و(الحمد لله فاطر السموات والأرض)[٦٢]

والخطبة هي:

«الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الامور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على اظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له الأحد (الصمد) الذي (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله رافع الشك وداحض الشرك. وراحض الأفك.

الذي أسرى بـه من المسجـد الحرام إلى هذا المسجـد الأقصى. وعـرج به منه إلى السموات العلى إلى (سدرة المنتهى. عنـدها جنة المأوى. إذ يغشى السـدرة مـايغشـى. مـازاغ البصر ومـا طغـى) (٦٣) صلى الله عليـه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السـابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفـع عن هذا البيت شعـار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النوريـن جامع القـرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طـالـب مزلزل الشرك، ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان.

أيها الناس أبشروا بـرضوان الله الـذي هو الغـاية القصـوى، والدرجـة العليـا، ولما يسره الله على أيديكـم مـن استرداد هذه الضـالـة من الأمـة الضالة، وردّها إلى مقرها من الإسـلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مـائة عام، وتطهير هذا البيـت الذي أذن الله أن يـرفع وأن يذكـر فيه اسمه(٦٤) وإماطـة الشرك عن طرقه، بعـد أن امتد عليها رواقـه، واستقر فيها رسمه، ورفـع قواعده بالتوحيد، فـإنه بني عليه وبالتقوى فـإنه أسس على التقوى من خلفه ومـن بين يديه، فهو موطن أبيكـم ابراهيم، ومعراج نبيكـم محمد عليـه السلام، وقبلتكـم التـي كنتم تصلـون إليها في ابتـداء الإسلام، وهو مقر الأنبيـاء ومقصد الأولياء ومقر الرسل، ومهبـط الوحي، ومنزل تنـزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيـد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتـابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسـول الله صلى الله عليه وسلـم بالملائكة المقـربين، وهو البلـد الذي بعث الله إليه عبده ورسـوله، وكلمته التي ألقاها إلى مـريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالتـه وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عـن رتبة عبوديته، فقال تعالى: (لـن يستنكف المسيـح أن يكون عبـداً لله) (٦٥) وقال :(لقـد كفر الذيـن قالـوا إن الله هو المسيـح بن مـريم) (٦٦) وهو أول القبلتين وثاني المسجـدين وثـالـث الحرمين، لاتشـد الرحـال بعـد المسجـدين إلا إليـه، ولاتعقد الخنـاصر بعد الموطنين إلا عليه، ولـولا أنكم ممن اختـاره الله من عبـاده واصطفـاه مـن سكـان بـلاده، لما خصكـم بهذه الفضيلـة التـي

لايجاريكم فيها مجار، ولايباريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية. والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية. و الفتوح العمرية، والجيوش العثمانية. والفتكات العلوية. جددتم للإسلام أيام القادسية . والوقعات اليرموكية. والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية. فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء، وشكر لكم مابذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء . وتقبل منكم ماتقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء فأقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها. وقوموا لله تعالى بواجب شكرها. فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة. فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون وقرّ به عينا الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان. والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء. أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه. ونص عليه في خطابه. فقال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) الآية. أليس هو البيت الذي عظمته الملوك و أثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الهكم عز وجل ، أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب، أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان وغضب عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة العصيان، فأحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنوا اسرائيل، وقد فضلهم على العالمين ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين. وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى. وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى، فليهنكم إن الله قد ذكركم به فيمن

عنده. وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لاهـويتكم جنده. وشكركم الملائكة المنزلون على مـا أهديتم إلى هذا البيـت من طيب التوحيـد ونشر التقديس والتحميد، وماأمطتم عن طرقهـم فيه من أذى الشرك والتثليث. والاعتقاد الفـاجر الخبيـث، فالآن يستغفـر لكم أمـلاك السموات. وتصلي عليكـم الصلوات المبـاركات. فاحفظـوا رحمكم الله هـذه الموهبة فيكم. وأحـرسوا هذه النعمـة عندكـم بتقوى الله التـي من تمسـك بها سلم، ومـن اعتصم بعروتها نجـا وعصم. واحـذروا من اتباع الهوى. ومـوافقة الـردى. ورجوع القهقرى. والنكـول عن العدا، وخـذوا في انتهاز الفـرصة وإزالة مـابقي من الغصـة. وجاهـدوا في الله حق جهـاده. وبيعوا عبـاد الله أنفسكم في رضـاه إذ جعلكم مـن خير عبـاده. وإياكـم أن يستـزلكم الشيطـان. وأن يتـداخلكـم الطغيـان، فيخيـل لكـم إن هـذا النصر بسيـوفكـم الحداد. وبخيولكـم الجياد. وبجـلادكم في مـواطن الجلاد. لا والله (مـا النصر إلا من عند الله إن الله عـزيز حكيم) (٦٧). واحذروا عباد الله بعـد أن شرفكم بهذا الفتح الجليـل. والمنح الجزيـل. وخصكم بهذا الفتـح المبين. وأعلق أيديكـم بحبله المتين. أن تقترفـوا كبيراً من منـاهيه. وأن تـأتوا عظيماً مـن معاصيه، فتكونـوا (كالتي نقضت غزلها من بعـد قوة انكاثاً)(٦٨) (والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فـاتبعه الشيطان فكان من الغاوين)(٦٩) والجهاد الجهاد، فهو من أفضل عبـاداتكم. وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم. اذكروا أيـام الله يذكركـم، اشكروا الله يزدكـم ويشكركم. جـدوا في حسم الـداء. وقطـع شـافـة الأعـداء. وتطهير بقيـة الأرض التـي أغضبـت الله ورسـولـه. وأقطعوا فـروع الكفـر واجتثـوا أصـولـه. فقد نـادت الأيـام: بالثارات الإسلامية والملـة المحمدية. الله أكبر فتح الله ونصر . وغلب الله وقهر، أذل الله مـن كفر. واعلمـوا رحمكم الله أن هـذه فرصـة فانتهـزوها. وفريسـة فناجـزوها، ومهمـة فأخـرجوا لها هممكـم وأبرزوهـا. وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها. فالأمور بأواخرهـا. والمكاسب بذخائرها. فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول. وهـم مثلكم أو يزيدون. فكيـف وقد أضحى في

قبالـة الواحـد منهم منكـم عشرون. وقد قـال الله تعالى:(إن يكـن منكم عشرون صابرون يغلبـوا مائتين)[٧٠] أعاننـا الله وإياكم على اتبـا ع أوامره والازدجار بزواجـره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنـده (لأن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده)[٧١].

وتمام الخطبـة الثانيـة قريـب مما جـرت به العـادة، وقال بعـد الدعـاء للخليفة:

اللهم وأدم سلطاننـا عبدك الخاضع لهيبتك، الشـاكر لنعمتك المعترف بمـوهبتك، وسيفـك القاطـع، وشهـابك الـلامـع، والمحامـي عن دينـك المدافـع، والذابّ عـن حرمـك الممانـع، السيد الأجـل الملك النـاصر، جـامع كلمـة الإيمان، وقـامع عبـدة الصلبـان، صلاح الـدنيـا والديـن، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبـا المظفر يوسف بن أيـوب، محيـي دولة أمير المؤمنين، اللهـم عـم بـدولته البسيطـة، واجعـل ملائكتك برايـاته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفـي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عـزمه ومضاءه، اللهم أبق للإسـلام مهجته ، ووق للايمان حوزته ، وانشر في المغـارب والمشارق دعوته. اللهـم فكما فتحت على يده البيـت المقدّس بعـد أن ظنـت الظنون، وابتلي المؤمنـون. فـافتح على يـده أداني الأرض وأقاصيها، وملكـه صياصي الكفرة ونواصيها، فـلاتلقاه منهم كتيبة إلا مزقهـا ولاجماعة إلا فرقها، ولاطـائفة بعد طائفـة إلا ألحقها بمن سبقهـا، اللهـم اشكر عـن محمـد صلى الله عليـه وسلم سعيـه وأنفـذ في المشـارق والمغارب أمـره ونهيه، اللهـم أصلح بـه أوساط البـلاد وأطرافهـا وأرجاء الممالك وأكنـافها، اللهم ذلل بـه معاطس الكفار، وأرغـم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكـه على الأمصار، وأثـب سرايا جنـوده في سبل الأقطار، اللهـم ثبـت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الديـن واحفظه في بنيه. وبني أيوب الملوك الميامين، واشـدد عضده ببقـائهم، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهـم . اللهم كما أجـريت على يـده في الإسلام هـذه الحسنة التي

تبقى على الأيام وتتخلد على مر الشهور والأعـوام، فارزقه الملك الأبدي الـذي لاينفـد في دار المتقين، وأجـب دعاءه في قـولـه: (رب أوزعنـي أن أشكـر نعمتـك التـي أنعمـت علي وعلى والـديّ وأن أعمـل صـالحاً ترضاه)(٧٢)(وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)(٧٣) ثم ماجرت العادة به

فصل

في المنبر

قال العماد: لما فتحنا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حسنه وتتميمه، ووضع منبر رسمي في أول يوم قضي به الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق بحسنه لائق، وبجماله شائق، وبكماله فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة، وأودعه له من ذخائره عند الله حسنه، فأمر أن يكتب إلى حلب ويطلب فحمل وعمل على ماأمره به وامتثل، فجاء كالروض النضير، والوشي الحبير، عديم النظير، وكان من حديث احداثه ما أ لهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره إليه وانبعاثه، وقد أوقع في روعه من النور الفائض من ينبوع ضلوعه، أن البيت المقدس بعده سيفتح، وأن صدور المسلمين الحرجة لأجله ستشرح، وهو من أولياء الله الملهمين، وعباده المحدثين المكرمين، وكان بحلب نجار يعرف بالاخترينى، من ضيعة تعرف باخترين، لم يلف له في براعته وصنعته قرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النعت المهندم والنحت المهندس ، فجمع الصناع، وأحسن الإبداع وأتمه في سنين، واستحق بحق إحسانه التحسين، والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ماله دليل ،و ذكر جميل وأجر جزيل، لو كان إليه سبيل، وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فإن الفرنج عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولايقلون، أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا بالكفر الإيمان؟ وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما أصعب واتعب وقم القوم، ويقول من له قوّة اليقين وعرف أن الله كافل بنصرة الدين: اصبروا فلسر هذه الامة نبأ، وهو كما قال الله تعالى: (ويصنع الفلك وكلما مر عليه

ملأ) (٧٤) ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العباد، وأعبد الزهاد، وهو من الأولياء الأبرار والاتقياء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتح قريب، وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيب، ويزيده قوة عزمه جداً، ويمدّه بحياء الحياة الربانية مداً، وقد طهره الله من العيب، وأطلعه على سر الغيب، ونزهه من الريب، لنقاء الجيب، وشملت الإسلام بعده بركته، وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رباه ولباه وأحبه وحباه ،و هو الذي سن الفتح وسنى النجح، واتفق أن جامع حلب في الأيام النورية احترق فاحتيج إلى منبر ينصب فنصب ذلك المنبر، وحسن المنظر وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرقم، وشابه المحراب المنبر في الرسم، ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القدسي الاحسان

ولما فتح السلطان القدس تقدم بحمله، وصح به في محراب الأقصى تفريق شمله، وظهر سر الكرامة في فوز الإسلام بالسلامة، وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة

وقال العماد في موضع آخر من كتاب البرق : وكان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله في عهده عرف بنور فراسته فتح البيت المقدس من بعده، فأمر في حلب باتخاذ منبر للقدس، وتعب النجارون والصناع والمهندسون فيه سنين، وابدعوا في تركيبه الأحكام والتزيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزاينه ألوفاً ، وكان لترديد النظر فيه على الأيام ألوفاً، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً ، سيفاً في صوان الحفظ مقروباً، حتى أمر السلطان في هذا الوقت بالوفاء بالنذر النوري، ونقل المنبر إلى موضعه القدسي، فعرفت بذلك كرامات نور الدين التي أشرق نورها بعده بسنين، وكان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم : (والله يحب المحسنين).(٧٥)

قلت : وهـذا الذي نسبـه إلى نور الـدين رحمه الله مـن أنه كـرامة مـن كراماته لائق بمحلـه ومنزلته من الدين، وليس بالبعيـد من مثل ذلك ،و كان رحمه الله قد بدت لـه مخايل ذلك بما تسنى له من فتـح البلاد الشامية والمصرية، وقهر العدوّ بين يديه مـراراً، وكان فتح القدس في همته من أول ملكه، فإن لم يكن حصل له مباشرة فقـد حصل له تسبباً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بنوا على مـا أسسه لهم من الملك والتدبير، وهم أمـراؤه وأتباعه وأجنـاده وأشياعـه، ثم يحتمـل أن يكـون رحمه الله وقف على مـاذكره أبـو الحكـم بن بـرجان الأنـدلسي في تفسيره فـإنه أخبر عـن فتح القـدس في السنة التـي فتح فيها ،و عمر نـور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنـة، وقد رأيت أنا ذلك في كتابه ذكر في تفسير أول سورة الروم أن البيت المقدس استولت عليـه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة، وأشار أنه يبقـى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة، قال : ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة، فلم يستبعد نـور الدين رحمه الله لما وقف عليـه أن يمتد عمره إليه فهيأ أسبابـه حتى منبر الخطابة فيه تقرباً إلى الله تعـالى بما يبديه من طـاعته ويخفيـه ، وهذا الـذي ذكـره أبو الحكـم الأندلسي في تفسيره مـن عجائب مااتفـق لهذه الأمة المرحومة، وقـد تكلم عليه شيخنا أبـو الحسن علي بن محمـد في تفسيره الأول فقال: وقع في تفسير أبي الحكـم الأندلسي في أول سورة الـروم إخبار عن فتح البيـت المقدس وأنه ينزع مـن أيدي النصارى سنة ثـلاث وثمانين وخمسمائة. قال: وقال لي بعض الفقهـاء: إنه استخرج ذلـك من فـاتحة السورة. قـال: فأخـذت السورة وكشفـت عن ذلـك، فلم أره أخـذ ذلك مـن الحروف وإنما أخـذه فيما زعم مـن قولـه تعـالى (غلبت الـروم في أدنـى الأرض وهم مـن بعـد غلبهم سيغلبـون في بضع سنين) فبنـى الأمر على التـاريخ كما يفعـل المنجمون، ثـم ذكر أنهم يغلبون في سنـة كذا، ويغلبون في سنة كـذا على ماتقتضيه دوائر التقـدير، قال،وهذه نجامـة وافقت إصابة إن صح أنه قال ذلك قبـل وقوعه، وكان في كتابـه قبل حدوثـه وليس ذلك بمأخـوذ من الحروف ولاهو مـن قبيل

-٨٥٩٣-.

الكرامـات، أيضاً فإن الكرامـة لاتكتسب بحساب، ولاتفتقر إلى تـاريخ، ولـذلك لم يـوافق الصـواب لما أدار الحساب على القـراءة الأخرى الشـاذة التي هي بفتح الغين مـن (غلبت الروم) ويوضح ذلك أنـه قال في سورة القدر : لو علم الوقت الذي أنزل فيه القرآن لعلـم الوقت الذي يرفع فيه.

- ٨٥٩٤ -

فصل

قال العماد: وأما الصخرة المقدسة فإن الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة ، وأعادوا رسومها القديمة دريسه، وستروها بالأبنية، وعوّجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسوها صوراً هي أشنع من التعريه، وملؤوها بتصاريف التصاوير، ونبتوا في ترخيمها اشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة، ولا للعيون المدركة ملمساً ، ولامطمحاً، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبه بأعمدة الرخام منصبه، وقالوا محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكان فيها صور الأنعام منبتة في الرخام، والصخرة المقصودة المزورة بما عليها من الأبنية مستوره، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة، فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها ،و حسر لثامها ، وقشر رخامها ورحض وضرها، ونقض أبنيتها، ونقل حجرها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، فبانت من الشين، وبانت للعين،وحبيت بالقبل،و فديت بالمقل، فعادت كما كانت في الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، قد أساء الكفر في نحتها، فظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كل يوم في مزيد

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقليه، وقيل باعوها بوزنها ذهباً ، واتخذوا ذلك مكتسباً، ولما طهرت ظهرت مواضعها، وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها، فهي الآن مبرزة للعيون بحزها، باقية على الأيام بعزها، مصونة للإسلام في خدرها وحرزها.

وقال في البرق: ولما ظهـرت الصخرة وجدنـاها وقد أبقـت لها النوائب حزوزا، وأودعـت ضميرها من شر أهل الكفـر شراً مرموزاً، فإن الفـرنج نقلوا منهـا إلى بلادهـم قطعاً، وأبدعـوا فيها بدعـاً حتى قيـل إنها بيعت بوزنها ذهبـاً، وأفضى الأمر بها أن يكـون حجرهـا منتهباً، فغطاهـا بعض ملـوكهم إشفـاقاً عليهـا لئلا تمتـد يـد ضيم إليهـا ، فأبقـت حزوزهـا في القلوب حـزازات، وسار حديـث حادثهـا في الآفاق بروايـات وإجازات، وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياء الديـن عيسى فصانها بشبابيك من حديد، وثبت أركانها بكل تسديد.

وقال في الفتـح: ورتب السلطان في قبة الصخـرة إماماً حسنـاً، ووقف عليهـا داراً وأرضـاً وبستـاناً، وحمل إليهـا وإلى محراب المسجـد الأقصى مصـاحف وختمات، وربعـات معظمات، لاتزال بين أيـدي الزائريـن على كرسيها مرفـوعة، وعلى أسرتها موضوعة، ورتب لهذه القبـة خاصة وللبيت المقدس عامة قومة من العـارفين العاكفين القائمين بالعبادة الواقفين ، فما أبهج ليلها وقـد حضرت الجموع، وزهـرت الشموع، وبـان الخشوع ، ودان الخضـوع، ودرت من المتقين الـدموع، واقشعـرت مـن العارفين الضلـوع، فهنـاك كل ولي يعبـد ربـه، ويأمـل بـره، وكل أشعـث أغبر لايـؤبه لـه، لوأقسـم على الله لأبره، وهنـاك كمل مـن يحيي الليـل ويقومـه، ويسمو بـالحق ويسومـه، وهناك كـل من يختـم القـرآن ويرتلـه، ويطرد الشيطـان ويبطله ومن عرفته لمعرفتـه الأسحار، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأفكار، وماأسعد نهارهـا حين يستقبل الملائكة زوارها، وتلحق الشمـس أنـوارها، وتحمل القلوب إليها سرارها.

قال : وتنـافس ملوك بنـي أيوب فيها يؤثـرونه بها من الآثـار الحسنة، وفيها يجمع لهم ودْ القلوب وشكر الألسنـة، فما منهم إلا من أجمل وأحسن وفعل ماأمكن،وجلى وبين، وحلى وزين، وأتى العـادل أبو بكر بكل صنع بكر، وتقـي الديـن عمر بكـل ماعم وعمـر، ومن جملـة أفعالـه المشكورة،

ومكرمـاته المشهورة أنـه حضر يوماً في قبة الصخـرة ومعه من مـاء الورد أحمال، ولأجل الصـدقة والـرفد مـال، فانتهـز فرصـة هذه الفضيلـة التي ابتكرها ، وتـولى بيده كنس تلك الساحات والعـراص، وغسل جدرانها، ثم أتـى بمجامـر الطيب فتبخرت وتضـوعت، ثـم فرق ذلـك المال فيها على ذوي الاستحقـاق، وافتخر أن فـاق الكـرام بـالإنفاق، وجـاء الملـك الأفضل نـور الدين علي، بكـل نور جلي، وكرم ملي، وبسـط بها الصنيعة، وفرش فيها البسط الـرفيعة، وسيأتي ذكر مااعتمده مـن بناء أسوار القدس وحفر خنادقه، وأعجز بها أعجب من سوابـق معروفه ولواحقه، وأما الملك العزيز عثمان فإنه لما عاد إلى مصر ترك خـزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانـت أحمالاً بأموال ،وأثقالاً كجبال، وذخائر وافيـة، وعدداً واقيـه ، وكان مـن جملة مـاشرط على الفرنـج أن يتركوا لنـا خيلهم وعدتهم، فتـوفرت بذلك عـدد البلد، واستغنى به عما يصـل من المدد.

قال وأمـا محراب داود عليه السلام خـارج المسجد الأقصى، فـإنه في حصن عنـد باب المدينـة منيع، وموضـع عال رفيـع، وهو الحصـن الذي يقيم بـه الوالي، فـرتب السلطان لـه إمامـاً، ومؤذنين وقوامـاً،و هو مثـابة الصالحين، ومـزار الغادين والـرائحيـن، فأحيـاه وجدّده، ونهج لقاصـديه جدده، وأمـر بعمارة جميع المساجـد، وصون المشـاهد ، وانجاح المقـاصد، وإصفـاء الموارد للقـاصـد والـوارد، وكان مـوضـع هـذه القلعـة دار داود وسليمان عليهما السـلام، وكان ينتـابهما فيهما الأنام، وكـان الملك العـادل نـازلاً في كنيسة صهيـون وأجنـاده على بـابها مخيمون، وفـاوض السلطـان جلساؤه من العلماء والأكابر الأبرار والأتقيـاء الأخيار في أن يبنى مدرسة للفقهاء الشـافعية، وربـاطاً للصلحـاء الصوفيـة فعين للمدرسـة الكنيسة المعروفة بصندحنه عند بـاب أسباط، وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقـف عليهما وقوفاً، وأسدى بذلك إلى الطـائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ليضيفها إلى ماأولاه من العوارف.

فصل

قال البرق: وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ماأدخروه من الأثاث والقوت، وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الاثمان، وكان خروجهم شبيها بالمجان، لاسيما ماتعذر لثقله نقله، وصعب حمله، وكانوا كما قال الله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون*وزرع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين* كذلك وأورثناها قوما آخرين)(٧٦) ،فباعوا ماتهيأ لهم على البيع إخراجه رخيصاً، وأبقوا مالم يجدوا من تركه محيصاً ، وغلبوا على مافي الدور من الماعون والمذخور، أما الصناديق والأخشاب والرخام ومايجري مجراها مما توفرت منه الأنواع والأقسام، فإنها بقيت بحالها متروكه، ولمن يسكن تلك الأماكن مملوكه، وكانت قمامة وهي كنيستهم العظمى ومتعبدهم الذي يجمعون به الدين والدنيا، مفروشة بالبسط الرفاع مكسوة بالستور النسيج والحرير الممزوج من سائر الأنواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة والعين، ومصوغات الذهب واللجين، مصفح بالنضار، مثقل من نفائس الحلي بالأوقار، فأعاده البطرك منه عاطلاً، وتركه طللاً ماثلاً، فقلت للسلطان : هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم فما بال هذا المال وهو بألوف يحملونه في أثقالهم ؟ فقال : هم مايعرفون هذا التأويل وينسبون إلينا لما حرمناه التحليل، ويقولون إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان، وكانت المهلة أنه من عجز بعد أربعين يوماً عن أداء ماعليه من القطيعة ضرب عليه الرق بحكم الشريطة، ووفق الشريعة، فتولاهم النواب، بعد خروجنا من القدس، وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرقهم السلطان، وتناهبتهم البلدان، وحصل لي منهم سبايا نسوان وصبيان، وذلك بعد أن وفى ابن بارزان بالضمان وأدى ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير

ثمانية عشر آلفاً واعتقد أنه لم يبق غير فقير، وبقي بعد أدائه على ماذكرناه كثير، وأما النصارى الساكنون بالقدس فإنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولايزعجوا، ويؤمنوا ولايخرجوا، فأقروا بوساطة الفقيه عيسى وأقر من قسوس النصارى أربعة قوام لقمامة، فأعفاهم ولم يكلفهم الغرامة، وأقام بمدينة القدس وأعمالها منهم ألوف فشمروا وعمروا وعرّشوا وغرّسوا، فلهم منها مجان وقطوف، وكانت لأمراء الفرنج ومقدّميهم مجاورة للصخرة، وعند باب الرحمة، مقبرة وقباب معمرة، فعفينا آثارها، و رحضنا أوضارها.

وقال في الفتح: وأمر السلطان بإغلاق كنيسة قمامة، وحرّم على النصارى زيارتها ولا إلمامه، وتفاوض الناس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها وتعفية آثارها، وتعمية نهج مزارها، وقالوا: إذا هدمت، ونبشت المقبرة وعفيت وخربت أرضها، ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار، ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة، وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها وهدها ، فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر لامايشاهد من البناء، ولاينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في السماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام أقرّهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البنيان.

قال : وأقام السلطان على القدس حتى تسلم مابقربها من حصون، واستباح كل ماللكفر بها من مصون، ثم عمد إلى ماجمعه ففرقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عذله على بذله، واستكثروا ماأفاضه بفضله، فقال: كيف أمنع الحق مستحقيه، وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه، وإذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه، فإنه يخلصني من الأمانة ويطلقني من وثاقها فإن الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها، وقيل له: لو أدخرت هذا المال للمآل، فقال: أملي قوي من

الله الكافل بنجح الآمال، وجمع الأسراء المطلقين، وكانوا الوفا من المسلمين فكساهم ، وأساهم وواساهم، وأذهب أساهم، فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره، ناجياً من ضره وضرره.

وقال في البرق: سمعت الملك العادل يوماً في أثناء حديثه في ناديه، وهو يجري ذكر إفراط السلطان في أياديه، يقول : إني توليت استيفاء قطيعة القدس، فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار، فجاءني خازنه بكرة وقال: نريد اليوم مانخرجه في الإنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس شيء باق، فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال، ففرقتها على رجال الرجاء يد النوال.

فصل

قال العماد : وللحكيم أبي الفضل قصائد قدسيات طوال كثيرة الفوائد

قلت: قد وقفت على بعضها وتقدم قبل ذلك أن قال: لم أزل من أول ماولى الملك الناصر الأمر في مصر أعلم أنه مؤيد بعناية من الله سبحانه، فامتدحته في سنة خمس وستين بقصيدة تنيف على مائة بيت منها في التباشير:

لتظفرنّ بما لم يحوه ملك
أبا المظفر حظا خطه الأزل
دليل ذلك آراء لك اقترنت
بالحزم والعزم لم يخصص بها الأول

وفيها

قد ساد اسكندر أهل الزمان معا
في سن عشرين وامتدت له الحيل
وافى الثلاثين والاقطار أجمعها
طوع اله وملوك الأرض والملل

قال: ومدحته سنة سبع وستين عند قفوله من غزاة غزة بقصيدة منها:

أبا المظفر فاهنأ حظ منتخب
أخرى الزمان لدين كاد يتبتر
زهدت فيما سبى الأملاك منكدرا
علما بملك نعيم ما به كدر
وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها
وجئت تقدم حيث الهول والخطر

قال،ومدحته سنة ثمان وستين بقصيدة تنيف أيضاً على مائة بيت منها في التباشير:

أرى الـرايـة الصفـراء يـرمـى اصطفـاقهـا
بنـي أصفـر بـالـراعفـات اللهـاذم
فتسبـي فلسطينـا وتجبـي جـزائرا
وتملـك مـن يونـان أرض الأسـاحـم
وتعنـوا لها الأمـلاك شرقـا ومغـربـا
بـذا حكمـت حـذاق أهـل الملاحـم

قال: وبعثت إليه في غزة سنة اثنتين وثمانين وهو على حمص بقصيدة هنأته فيها بالعافية منها:

فيـا ملكـا لم يبـق للـديـن غيره
وهـت عمـد الاسـلام فـاشـدد لها دعما
فشـؤم فـريـق الشرك في الشـام طـائر
فقـص جنـاحيـه بـأقصـى القـوى قصما
خصصـت بتمكين فعـم العـدا ردى
فـإنهم يـأجـوج أفـرغ بها ردمـا
إذا صفـرت مـن آل الأصفـر سـاحـة الـ
ـمقدّس ضـاهـت فتـح أم القرى قـدمـا
فـذا المسجـد الأقصـى وهمتـك العلى
وعـزمتـك القصـوى ورميتـك الصمـى
فما هـو إلاّ أن تهم وقـد أتـت
فتـوح كما فـاض الخضـم الـذي طما
وإن أنـت لم تـرد الفـرنـج بـوقعـة
فمـن ذا الـذي يقـوى لبنيـانها هـدمـا
ومـا كـل حين تمكـن المرء فـرصـة
ولا كـل حـال أمكنـت تقتضي غنما
وليـس كفتـح القـدس منيـة قـادر
ومـا أن تلقـاهـا سوى يـوسـف جـزمـا

قال: وأنشأت قصيدة أخرى في سنة اثنتين وثمانين، وحضرت بها بين يديه منها:

الله أكبر أرض القدس قد صفرت
من آل الاصفر ذاحين به حانوا

أسباط يوسف من مصر أتوا ولهم
من غير تيه بها سلوى وامنان

لهم فلسطين إن يخرج عداتهم
عنها وإلا عدت بيض وخرصان

حتى بنيت رتاج القدس منفرجا
ويصعد الصخرة الغراء عثمان

واستقبل الناصر المحراب يعبد من
قد تم من وعده فتح وامكان

وجاز بعض بنيه البحر تجفل من
غاراته الروم والصقلاب واللان

حتى يوحد أهل الشرك قاطبة
ويرهب القول بالثالوث رهبان

ولابن أيوب في الافرنج ملحمة
دلت عليها أساطير وحسبان

ومن أحق بملك الارض من ملك
كأنه ملك في الخلق حنان

ثم قال : وأما القصيدة الفتحية الناصرية فأولها:

في باطن الغيب ما لا تدرك الفكر
فذو البصيرة في الاحداث يعتبر

مالي أرى ملك الأفرنج في قفص
أين القواضب والعسالة السمر

والاسبتار إلى الداوية التأموا
كأنهم سد يأجوج اذا اشتجروا
والنفس مولعة عجبا بسيرتها
وفي المقادير ما تسلى به السير
يا وقعة التل ما أبقيت من عجب
جحافل لم يفت من جمعها بشر
ويا ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا
تهوّدوا أم بكأس الطعن قد سكروا
ويا ضريح شعيب ما لهم جثموا
كمدين أم لقو ارجفا بها كفروا
حطوا بحطين ملكا كافيا عجبا
في ساعة زال ذاك الملك والقدر
أهوى اليهم صلاح الدين مفترسا
وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر
أملى عليهم فصاروا وسط كفته
كسرب طير حواها القانص الذكر
وأنجز الله للسلطان موعده
ونذره في كفور دينه البطر
وعاين الملك الابرنس في دمه
فمات حيا وحيى وهو يعتذر
رأى مليكا ملوك الارض تتبعه
والنجم يخدمه والشمس والقمر
إذا بدا تبهر الأعيان هيبته
يختفي وهو في الأذهان مشتهر

تقدّم الجيل في أخرى الزمان به
على صدور علا من قبلنا صدروا

أما رأيتهم فتوح القادسية في
أكناف لوبية تجلى وذا عمر
والحق يعرس والطغيان منتحب
والكفر يطمس والايمان مزدهر
هذا المليك الذي بشرى النبي به
في فتنة البغي للاسلام ينتصر
أنسى ملاحم ذي القرنين واعترفت
له الرواة بما لم ينمه اثر
أعين اسكندر بالخضر وهوله
عون من الله يستغني به الخضر
وصنع ذي العرش ابداع بلا سبب
فلا تقل كيف هذا الحادث الخطر
بينا سبايا تجلى في دمشق إذا
ملك الفرنج مع الاتراك محتجر
ازاءه زعماء الساحلين معا
مصفدين بحبل القهر قد أسروا
يتلوهم صلبوت سيق منتكسا
وحوله كل قسيس له زبر
ونحن في بذا وذا طير صحيفته
بفتح عكا التي سدت بها الثغر
تغزو أساطيلنا منها صقلية
فتذعر الروم والصقلاب والخزر
من ذا يقول لعل القدس منفتح
إليك بل سفر يعقوب له السفر
أبو المظفر ينويها فخذ سفنا
من باب عكا الى طرطوس تنتشر

يسبي فرنجة من أقطارها وله
مع المجوس حروب قدحها سعر
وبعض أبنائه بالقدس منتدب
وبعضهم رومة الكبرى له وطر
برايـة تخرق الأرض الكبيرة في
جمع تقول له الاجسام لاوزر
قالوا أطلت مديحا فيه قلت كما
بدأت فالصب للمحبوب مدّكر

وأما القصائد التي له فمنها التائية له، وقد تقدم ذكرها، ومنها القدسية الكبرى عددها مائة واثنان وخمسون بيتا أولها

تصاريف دهر أعربت لمن اهتدى
وبسطه أمر أغربت من تمردا
لسرعة فتح القدس سر مغيب
وفي صرعة الافرنج معتبر بدا
أتوا كجبال أبرمت لأسارنا
فسقناهم فيها قطينا مجددا
وساموا تجارا تشترينا غواليا
فبعناهم بالرخص جهرا على الندا
وجروا جيوشا كالسيول على الصوا
فاضت غثاء في البطاح ممددا
وقالوا ملوك الأرض طوع قيادنا
إذا الكل منهم في القيود معبدا
وقد أقطع الكند العراق موقعا
فأودع سجنا وسط جلق مؤصدا
وأقسم أن يسقي بدجلة خيله
فما ورد الاردنّ إلا مصفدا

فكم واثق خجلان قهقه خصمه
وكم سائق عجلان قهقر مقعدا
أتى الكند من اسبان يحمي قمامة
فكان تقضى ملكه قبل يبتدى
فما عقد الرايات إلا محللا
ولا حلل الرايات إلا معقدا
ووقعة يوم التل إذ قبضت به
جبابرة الافرنج حيرى وشردا
عليهم من البلوى سرادق ذلة
ومن ذل مات نفسه فتقيدا
ترى المنسر الديوى يلقي سلاحه
وينساق ما بين السبايا ملهدا
يباعون أسرابا شرائح أحبل
كشكة عصفور من الريش جردا
فتلقى نصارى جلق في مأتم
يسرونها إلا شجى وتنهدا
ألم تر للسلطان صدق نذره
دم الغادر الابرنس فاقتيد اربدا
وباشر بالقتل وسط خبائه
وعاينه الكند المليك فارعدا
وضاقت بنفس القمص الأرض مهربا
فأدركه الموت المفاجىء مكمدا
وما طرق الاسماع من عهد آدم
كملحمة التل التي ثلت العدا
آتوا واديا مازال ينفي خبائثا
ويصفي بعقبى الدار طائفة الهدى

-٨٦٠٧-

به جثمت أصحاب ليكة وهي في

ذراه ذا فيه شعيب تأيدا

أرى الله فيه معجز النصر مخلصا

لأمر صلاح الدين في الناس مخلدا

واعدى جنود الرعب تردي عداته

وسلم جميع المسلمين مجندا

ومن عجب خمسون ألف مقاتل

سبتهم جيوش ليس فيها من ارتدى

وللرشيد بدر النابلسي:

هذا الذي كانت الآمال تنتظر

فليوف لله أقوام بها نذروا

بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت

في سالف الدهر أخبار ولا سير

حين به حان هلك المشركين فيا

لله طيب العشايا منه والبكر

الآن قرت جنوب في مضاجعها

ونام من لم يزل حافاله السهر

يابهجة القدس إذ أضحى به علم الـ

ـلاسلام من بعد طيّ وهو منتشر

يانور مسجده الأقصى وقد وقعت

بعد الصليب به الآيات والسور

شتان مابين ناقوس يدان به

وبين ذي منطق يصغي له الحجر

الله أكبر صوت تقشعر له

شم الذرى وتكاد الأرض تنفطر

يــا مــالــك الأرض مهــدهــا فما أحــد
سـواك مـن قـائم للمهـد ينتظـر

مـا اخضر هـذا الطـراز الســاحلي ثمـرا
الا لتعلـو بـه أعـلامـك الصفـر

أضحـى بنـو الأصفـر الانكـاس مـوعظـة
فيهـا لأعـدائك الآيـات والنـذر

صاروا حـديثـا وكـانـوا قبـل حـادثـة
على الـورى يتقيهـا البـدو والحضر

سلبتهـم دولـة الـدنيـا وعيشتهـا
حتـى لقـد ضجـرت مـن وفـدهـم سقـر

هـذا الـذي سلـب الأفـرنـج دولتهـم
وملكهـم يـا ملـوك الارض فـاعتبروا

مـراكـز مـا اختطـاهـا الخوف مـذ مـائة
عـامـا ولا ريـع أهلـوهـا ولا ذعـروا

ولا أصرح بـأسماء البـلاد فقـد
أسهبـت والقـائل المنطيـق يختصر

يغنيـك مجمـل قـولي عـن مفصلـة
في لفظـة البحـر معنـى تحتـه الـدرر

وهي طويلة وله من قصيدة أخرى:

المم بـدار النـاصر الملـك الـذي
في كفـه للجـود سبعـة أبحـر

فـإذا مـررت بملكـه وفتـوحـه
فـاسخـر بما يـروى عـن الاسكنـدر

وإذا بصرت بجـاشـه وجيـوشـه
فـاحـث التراب على ذؤابـة سنجـر

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة:

كسرت على كسرى لعدلك دولة
قصرت مهابتها تطاول قيصر

أهدى صلاح الدين للاسلام اذ
أردى قبيل الكفر مالم يكفر

رب الملاحم لم يؤرخ مثلها
العلماء قدما في قديم الاعصر

خلعت عليه خلعة الملك التي
زيدت بهاء بالطراز الاخضر

راياته صفر يردن وتنثني
حمرا تمج نجيع آل الأصفر

لم لم تدن شوس الملوك له وقد
ملك السواحل في ثلاثة أشهر

واستنقذ البيت المقدّس عنوة
من كان ذي نجس بكل مطهر

وأريتهم لما التقى الجمعان بال
بيت المقدس هول يوم المحشر

ورددت دين الله بعد قطوبه
بالمسجد الأقصى بوجه مسفر

واعدت ما أبداه قبلك فاتحا
عمر فأنت شريكه في المتجر

حتى جمعت لمعشر الاسلام بي
ن الصخرة العظمى وبين المشعر

فلصخرة البيت المقدس كفؤها ال
حجر المفضل عند أفضل معشر

فكأنه انسان عين صورة
يلقاك اسوده بمعنى أنور

فصل

في حصار صور وفتح هونين وغير ذلك

قال العماد: ثم إن السلطان مازال مقيما بظاهر القدس يحقق الآمال، ويفرق الأموال، حتى وردت كتب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان نائب السلطان بصيدا وبيروت. وهما مجاورتان لصور، فكتب يحرض السلطان على حصار صور، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وأخذ صوب عكا وسبقه إليها الأفضل وتقي الدين، وودع السلطان ولده العزيز ورده إلى مصر، فكان آخر عهده به، واستصحب السلطان أخاه العادل، فوصلا إلى عكا مستهل رمضان فأصلح من شأنها، ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان وخيم بإزاء السور بعيداً منه على النهر، ومعظم البلد في البحر وهي مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة، وكان المركيس الذي في صور قد حفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، وبنى بواشيره وأحكم في ا لتعميرتدبيره، واستظهر بتكثير العدد والعدد، واغتنم اشتغال السلطان بفتح القدس، فأقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوماً حتى تلاحقت الأمداد، وكثرت العدد وآلات الجهاد، ورتبت المنجنيقات، ثم حول السلطان مضاربه إلى تل قريب من السور يشرف منه، ثم حاصرهم وقابل كلا من الملوك بجانب يكفيه منهم الافضل والعادل وتقي الدين فحاصروهم وضايقوهم، ووصل في تلك الأيام من حلب الملك الظاهر غازي ولد السلطان بعسكره الحلبي، فاستظهر السلطان به واستدعى الاسطول المصري، وكان بعكا فجاء منه عشرة شواني، وكان للفرنج في البحر مراكب وحراريق، وفيها رماة الجروخ والزنبوركات يرمون من دنا من البحر، فلما جاء اسطول السلطان استطال عليها وأبعدها، فأحاط بهم المسلمون وقاتلوهم براً وبحراً، فبينما هم في أحلى ظفر واهنأ ورد وصدر، إذ ملك الفرنج خمسة من شواني

المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي ومتوليه بدران الفاسي، وألقى جماعة أنفسهم في البحر من ناج وهالك، وذلك أنهم سهروا تلك الليلة بازاء مينا صور إلى السحر، ثم غلبهم النوم فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم، فأصبح المسلمون وقد انثلموا، وأتاهم من الأمر مالم يعلموا، ونفذ السلطان إلى المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت، وخاف عليها لقلتها أن يستولي عليها عبدة الطاغوت، فنجا منها شيني رئيس جبيل والباقون نظروا إلى الفرنج وراءهم، فألقوا أنفسهم في الماء وخرجوا إلى البر على وجوههم، ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت فخرجت يوماً وقت العصر مستعدة للقتال، فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على ا لكافرين ، وأسر مقدم كبير لهم، وظن أنه المركيس فسلمه السلطان إلى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه، وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم أن المركيس بعد في الحياة، فطال حصاره حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين لأنهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم، فاشاروا على السطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال، وتقل الأموال، وكان البرد قد اشتد عليهم، وكان رأي السلطان والاتقياء من الأمراء كالفقيه عيسى،و حسام الدين طمان، وعز الدين جرديك النوري الثابت الجنان الثبات إلى الفتح لئلا يضيع ماتقدم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقال السلطان قد هدمنا السور، وقاربنا الأمور فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا، ولاتعجلوا فاظهروا الموافقة وفي أنفسهم مافيها، فلم يصدقوا القتال، وتعللوا بأن الرجال جرحى والعلوفات قد قلت، فلم يسع السلطان بعد ذلك إلا الرحيل. فأمر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لئلا يناله العدو، ورحل في آخر شوّال وهو أوّل يوم من كانون الأول. وسار تقي الدين إلى دمشق على طريق هونين. واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين، ورحل السلطان إلى عكا فوصلها في ثلاث مراحل لأنه سلك طريق الناقورة وهي طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب

المثل، لا يعبر بها إلا جمل جمل، فعبرت بها الاثقال والاجمال في اسبوع، وكان عين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثقل، وخيم السلطان عند التل، وسار العادل إلى مصر، والظاهر إلى حلب وبدر الدين دلدرم الياروقي إلى بلاده.

قال: وفي مدّة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخي عز الدين جاولي أنه استشهد في عفر بلا تحت حصن كوكب، كبسه الفرنج فيها ليلاً، وذلك أنه كان قد بقي على السلطان بعدما فتح من بلاد العدو من جملة أعمال طبرية والغور حصنا صفد وكوكب، وكان في صفد جمهرة الداوية، وفي كوكب جمهرة الاسبتارية، فاحتاج السلطان في فتحها إلى المطاولة، فوكل بصفد جماعة يعرفون بالناصرية مقدمهم مسعود الصلتي، ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين محموداً، فأقام في حصن عفربلا، وهو قريب من حصن كوكب، ونغص على المقيمن فيها المطعم والمشرب، وضيق عليهم المذهب، إلى أن دخل الشتاء فاختلت الحراسة، واعتلت السياسة، فلما كانت ليلة آخر شوال، وكانت ليلة باردة ماطرة حرس أصحاب سيف الدين حتى ضجروا، فغلبهم النعاس فما استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة، فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا، وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين، ودخلوا بها كوكب، وكان هذا الأمير محمود ذا دين متين ومكان من النسك مكين، وهو يسهر أكثر ليله متهجداً، وقد جعل منزله مسجداً، فجمع بين التهجد والجهاد، وكان كثير الاجتهاد، فاغتم السلطان بمصابه، وزاد تألماً إلى مابه.

وتقدّم إلى صارم الدين قايماز النجمي أن يرابط كوكب في خسمائة فارس، ففعل ولم يزل بها إلى أن فتحت كما سيأتي.

قال: وفتحت هونين والسلطان محاصر صور، وكان لما فتح تبنين قد

امتنعت عليه هـونين، فوكل بها من رابطهـا وضايقها حتى طلبـوا الأمان، وجاء خبرها إلى السلطان وهو على صور، فنفـذ الأمير بدر الدين دلدرم، ففتحتها وخـرج الفرنـج منها سـالمين آمنين، وكان بقـي أيضاً مـن عمل صيدا قلعة أبي الحسن وشقيـف أرنون، وأقام السلطان بظاهر عكـا ناظراً في أمـور رعيتــه، ثـم دخلهـا وسكـن بـالقلعـة وسكـن الأفضــل بـرج الداوية،وولى عكـا عز الدين جرديك، ووقـف دار الاسبتار نصفين نصفاً على الفقهـاء، ونصفـاً على الصـوفية، ووقـف دار الاسقـف بيمارستـانـا، ووقف على كل من ذلـك كفايته، وأظهر به عنايتـه، وسلم جميع ذلك إلى قاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وهو في ذلك مصيب.

فصل

في ورود رسل التهاني من الآفاق وقدوم الرسول العاتب من العراق

قال العماد: ووردت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق وكلهم يهنىء السلطان بما أفرده الله به من الفضيلة، وأقدره عليه من نجح الوسيلة، وهو فتح القدس الذي درجت على حسرته القرون الأولى، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى، فما منهم إلّا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه، ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه، ويخطب بصداقته، ويتقرب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشقاء والشقاق، فمن جملتهم رسول صاحب الري، ورسول المستولي على ممالك همذان، وأذربيجان، واران، فما من يوم يمضي وشهر ينقضي إلا ويصل منهم رسول، ويتصل به رسول.

وذكر العماد في البرق أنه وصل إلى السلطان وهو بعكا رسول أتابك مظفر الدين قزل أرسلان وهو عثمان بن أتابك ايلدكز المستولي على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان، ثم ذكر من خرقه في كرمه شيئاً كثيراً، ثم قال: وهذا كله لايكون في بحر سلطاننا جدولاً ، وكان السلطان مذهب المذهب، ظاهر المحفل والموكب، قد خصه الله بالصدر الأرحب والنصر الأغلب، عزمه إلى الجهاد مصروف، وخلقه بالمعروف معروف، وهمه بالسماح مشغوف، مايفتتح بالسيف في البلاد يهبه لمن يضرب معه بالسيف في الجهاد، وللخالق تقواه، وللمخلوقين جدواه، وإنما يريد للآخرة دنياه، فلاجرم ختم الله بالحسنى عقباه.

قال: ولم يكن في الملوك السالفة أمضى منه عزماً، وأجدى فضلاً، وأعم جدوى، وأكمل جهدا في الجهاد، واملك جلدا على الجلاد، فإنه

باشر بنفسه الحرب، ومارس الصعب، وقذف بالحق حين حققه على الباطل فأزهقه، ولاحد ولاعد لما في سبيل الله من نفائس والأموال أنفقه، ومن أول هذا العام إلى منتهاه لم يجف لورده لبد، ولم ينضب من ورده عد ولم يقر له جنب بل لقي في فصلي القيظ والقر مضض الحر وعض البرد، بحر وجهه الكريم، وقضى حق الدين موفيا بصدق غرامه حق الغريم، وكل ماتم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل، إنما تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره واستظهاره بظهور الإسلام وشد ظهوره، وأنشد العماد للقاضي الفاضل في وصف أسيافه:

ماضيات على الدوام دوامي ... هي في النصر نجدة الاسلام

في يمين السلطان ان جردتها ... أشبهها صواعق في غمام

تنثر الهام كالحروف فما أشـ ... ـبه هذي السيوف بالاقلام

في محاريب حربه البيض صلت ... وركوع الظبى سجود الهام

وذكر من كلامه في التوسط بين الأصدقاء: «ما ادخل بينكم إلا كدخول المرود في الاجفان، يرد إليها ماذهب منها من النور والغمض، أو كالنسيم بين الأغصان يعطف بعضها على بعض».

قال العماد: ووصل أخي تاج الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة برسالة في العتب على أحداث ثقلت، وأحاديث نقلت، ووشايات أثرت، وسعايات في السلطان شعثت، وذلك في شوّال ونحن على حصار صور، وسبب ذلك أنه لما تم الفتح الأكبر، وخص وعم النجح الأظهر، وقطع دابر المشركين، وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين أمرني السلطان بإفشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق، فقلت هذا فتح كريم، ومنح من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون

مبشر دار الخلافة بما أنزلـه الله علينا من الرحمة والـرأفة إلا من هو عنـدنا أجل وأجلى، وأعلم وأعلى، وأجمع لفنـون الفضائل، وأعرف بأداء الـرسائل فلا يـرفع العظيم الا بالعظيـم الرفيع، فـإن الشريف يتضع شرفه بمقـارنة الوضيـع، فقال هـذه نصرة مبتكرة، وموهبـة مبشرة، بدرت ونـدرت فنحن نعجـل بها بشيراً، ونؤخـر لـلاجـلال كما ذكر ت سفيراً وكـان في الخدمـة شاب بغـدادي من الأجناد، وقـد هاجر لـلاسترفاد، وتـوجه بعد وصـوله، وتنبـه بعـد خموله، فسأل في البشـارة إلى بغـداذ، وزعـم أنه يـداوم إليهـا الاغذاذ، وشفع له جماعة من الأكابـر، حتى حظي بأشرف البشائر، فقلت: هذا لايحصل لـه وقع، ولايصل إليه نفع، والواجـب أن يسير في مثل هذا الخطير خطير، ويسفـر في هـذه النصرة الكبرى كبير، ثـم سـار المنـدوب وشغلـت عن ارسـال سـواه الفتـوح والحروب، ولما فتح البيـت المقـدس أرسـل ببشارتـه نجـاب ونفذ بها كتـاب، ووصـل البشير الجندي فحقـروه وماوقـروه، فإنه كان عنـدهم منظوراً بعين الاحتقار، فنظـروه بتلك العين، وحبـوه بما يليق بـه من الـرقـة والعين، ونقم على السلطـان إرسال مثلـه، وتسمج المنـدوب بكلام أخـذ عليه، وبـدرت منه أحـاديث نسبـت إليه، وقال في سكره وحالـة نكره مانعرض عن ذكره، فخيـل وموّه، وتنكر وتكره وظـن أن لكلامـه أصلاً وللفظـه منا وصـل، وانهيت إلى العـرض الأشرف مقالاته، وعلمت جهـالاته، وتجني على السلطان بإرسالـه، وطرق إلى هداه ماانكروه مـن مقال المذكور وضلالـه، ووجد الاعداء حينئذ إلى السعـاية طريقـاً، وطلبوا الشمـل استسعادة بالخدمـة تفريقـاً، واختلقوا أضـاليل، ولفقوا أباطيل، وقالوا هذا يزعم أنـه يقلب الدولة، ويغلب الصولة، وأنه ينعـت بـالملك النـاصر، نعـت الإمـام النـاصر، ويـدل بماله مـن القـوة والعساكر، فـاشفق الـديوان العـزيز على السلطـان من هـذه، وبرز الامـر المطاع بارسال أخي وانفاذه، وقالوا: هـذا تاج الدين أخو العماد تكفل لنا في كشـف سر الأمـر بـالمراد، فإن أخـاه هنـاك مطلـع على الاسرار، وهـو منتظـم في سلك الاوليـاء الأبرار، وعـوّل عليه الـديوان في السفـارة ، ورد

معه جواب البشارة، وكتب له يذكره بموجبات مقاصد العتب، ومكدرات موارد القرب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينة، فسار الأخ إلى دمشق، وكان قد عاد المندوب نادباً عادياً، جاحداً للنعمة شاكياً ، وقال: أخو العماد قد وصل بكل عتب وغضب، ولفظ فظ ومعه الملامات المؤلمات، فقلت له: اسكت واصمت، وقلت للسلطان: سمعاً وطاعة لأمر الديوان، فإن اظهار سر العتب لك من غاية الإحسان، فقال: نعم ماقلت، ولما قرب أخي أصبحت لقدومه انتخي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله، وتقدم لجلالة قدومه بإجلاله، وتلقاه الملوك الحاضرون: العادل. والمظفر. والافضل. والظاهر،ثم ركب وتلقاه بنفسه، وخصه من تقريبه بأنسه، ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصارع الكفار، ثم نزل وأنزله بالقرب، ثم أحضره وقد أخلى مجلسه لي وله وحده، فأدى الأمانة في مشافهته، ووجه مقاصده في مواجهته، وأحضر التذكرة، وقد جمعت المعرفة والنكرة، فقرأتها عليه وكانت في الكتب غلطة عدت من الكاتب غلطة، وخيلت سقطه، وجلبت سخطه، وقال: إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ، فقد أمكن إيداع هذه المعاني في أرق منها لفظاً وأرفق، وأوفى منها فضلاً وأوفق، معاذ الله أن يحبط عملي، ويهبط أملي، وامتعض وارتمض، ثم أعرض عما عرض، ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارق الاستسعاف،و قال : أما ما تمحله الأعداء، وعدا به المتمحلون، فما عرف مني إلا الاعتراف بالعارفة، وذكر السلطان أياديه السالفة في الفتوحات، وإقامة الدعوة العباسية بمصر واليمن، وإزالة الادعية وإبادة الأعداء، وفتح البيت المقدس، قال: وأما النعت الذي أفكر ونبه على موضع الخطأ فيه وذكر، فهذا من عهد الإمام المستضيء، والآن كل مايشرّفني به أمير المؤمنين من السمة فإنه اسمى لي من الذي هو اسمي وأشرف، وأرفع وأعرف، وماعزمي إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين، وقطع دابر المنافقين والمشركين، ثم ندب مع أخي

من سار في خدمته لزيارة القدس، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل مافي النفس، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى، ومضى مامضى، وكان جماعة من الملوك والأمراء كالعادل ومظفر الدين قد وبخوه لما قيل في حقه وأرادوا أن يغضبوه فما غضب بل غاض غيظه ونضب، وتلقى ذلك بصدر رحيب، ولفظ مصيب.

قلت: ووقفت على كتاب كتبه الصاحب قوام الدين بن زيادة من الديوان العزيز ببغداد إلى السلطان صلاح الدين، وكان قوام الدين يومئذ استاذ الدار العزيزة، يقول فيه: «لولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشح به، والمنافسة فيه، لما جوهر بالعتاب، ولارفع دونه الحجاب، بل كان يترك معه الأمر على اختلاله، ويدمل الجرح على اعتلاله، وقد ذكرت الأسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كماله ليرعيها سمعه الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل، وينصف في استماعها، والاجابة عنها غير عارج على الجدل ولامؤتم بالمراء المذمومين عقلا وشرعا بل يحمل قولي هذا على سبيل المماحضة والانتصاح وصدق النية في رأب التنائي والاصلاح، فان إيجار الدواء المقر لايتهم فيه الطبيب المجتلب للعافية»

ثم ذكر من تلك الأمور: «أن من انتفى من العراق بسبب من الأسباب، لجأ إلى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه، وكان الأدب يوجب إبعاد من أبعد عنه، وتقريب من قرّبه إليه» ثم قال: «وإن مما أضحك بثغر الاستعبار ماانتهى عن العوام وأشباه الانعام وطغام الشام، من الخوض في المذاهب، والانتهاء في التشنيع إلى اختلاف كل كاذب.

ومنها: ماجرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج، وارهاج تلك الفجاج، والاقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سعير الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السيرة القاسطة، واحياء بدع القرامطة،

ومانفر منه كل طبع ، ومجه كل سمع، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عنان أخيه فيما يقرّض سوابقه وأواخيه.

ومنها: ماقضى الناس منه العجب وفورق فيه الحزم والأدب، وهو ماأوجب التلقب الذي استأثر به أمير المؤمنين»

ثم قال: «وقد ساوق زمان الدولة العباسية ثبتها الله خوارج دوخوا البلاد، وأسرفوا في العناد، وجاسوا خلال الديار، وأخافوا المسالك واستضاموا المالك، واقتحموا من الشقاق أشق المهالك، فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللقب، ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام، الذي يصلح للمولى على العبد حرام ومنها مكاتبة كل طرف يتاخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والأكراد ومراسلتهم ، ومهاداتهم، وقرع أسماعهم بما يعود باستزلال أقدامهم، وفل عزائمهم، وهم لايعرفون إلا أنهم رعية للعراق، وخول للديوان يرثون الطاعة خالفاً عن سالف»

ثما قال في آخر الكتاب: «وهذا كله لاأقوله انكاراً لجلائل مقامات صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين، فإنه أدام الله علوه رجل وقته ونسيج وحده، والمربى على من سلف من صنائع الدولة، وعلى من يأتي من بعده، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفى، واستكفي فكفى، وطب فشفى، فكيف يجوز له بسعادته أن يهجن مساعيه الغرّ المحجله، ويخرج من مكانته المكرمة المبجلة ويبطل حقوقه الثابتة المسجلة»

ثم قال: «فقد علم كل من نظر في التواريخ والآثار، ونصحته بصيرته في التبصر والاعتبار، أن هذا البيت العظيم مازال يرفع الأقدار الخاملة، فينزون عليه بطراً فيغار الله له منتصراً، ويعقبه عليهم اظفاراً، وظفرا،

كدأب آل طولون، وآل سامان، وآل بويه، وآل سجلوق، (وقروناً بين ذلك كثيراً)[٧٧] ،فمن الـذي زلزلوه فثبـت، ومن الذي حصـدوه فنبت، وأي نار أوقدوها فما خبت » .

ثم قال في آخره: «اللهم قد بلغت، وللـرأي الصلاحي مايزيد علوّه إن شاء الله تعالى».

وذكر ابـن القادسي أن الجنـدي الذي أرسلـه صلاح الـدين بـالبشارة يعرف بـالرشيد بـن البوشنجي، قـال: وكان صبياً كثير الادبـار، مشمراً في دروب بغداد، ثم تـوجه إلى الشام هارباً من الفقـر، فحين وصل إلى بغداد رسولاً قامت القيـامة بمراسلته، وكتب إلى صلاح الديـن بالانكار عليه، وقيل له: أما كـان في أصحابك أميز من هذا ترسله إلى الـديوان، فاعتذر صلاح الديـن، ووصلت كتبه بالاعتـذار، وقبل عذره، وأما ابـن البوشنجي فإنه حين وصولـه إلى الشام أكثر الكلام عند صلاح الديـن، فأنكر عليه، فلما مضى الاسبوع جاءته نشابة فذبحته.

فصل

في باقي حوادث سنة ثلاث وثمانين

فيها قتل الأمير شمس الدين بن المقدّم، وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها، قال العماد: وكـان السلطان لما فرغ من فتح القدس ودنـا موسم الحج قال الموفقون: نحرم من المسجـد الأقصى إلى المسجد الحرام، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلـة فتح بيت المقدس في هذا العـام، فالحج والجهاد ركنـا الاسلام، فـاجتمع جمع جـم من أهـل ديار بكـر والجزيرة والشـام، وسـار بهم الأمير شمس الـدين بـن المقـدم شيخ أمـراء الاسلام الكـرام، فوّدعه السلطان على كره من مفـارقته، واستمهله ليحج في السنة الأخرى على مرافقته، فقال مـامعناه: إن العمر قد فرغ والأمر قـد بلغ والشيب قد أنذر، والفـرض قد أعـذر فاغتنم فـرصة الإمكـان قبل أن يتعـذر، فمضى والسعـادة تقـوده، والشهادة تـروده، حتـى وصـل إلى عـرفات، ومـاعـرف الآفـات، وشاع وصـوله، وذاع قفـوله، وضربـت طبولـه وسالـت سيولـه، وجالـت خيوله، وضربـت خيامه، وخفقـت أعلامه، فلما أصبحـوا نقرت كالعادة نقـاراته، ونعرت بوقاتـه، فغاظ ذلك أمير الحاج العراقـي، فركب إليه في أحزابه فأوقـع به وبأصحابه وأبلاهم بجراحـه ونهابه، وجرى حكم الله الذي كان الطبل أوكـد اسبابه، وقتل جماعة من حـاج الشام وجرحوا، وهتكت أستـارهم وافتضحوا، ونقـل أمير الحاج طاشتكين شمس الـدين ابن المقدم إلى خيمتـه، وهو مجروح وفيه روح، وحمله معـه إلى منى فقضى ودفن بالمعلى، وتم ذلك بقضاء الله وقـدره في تقلب حوادث الدهر وغيره، وارتاع أمير الحاج بما اجترمـه، وكيف لم يـراقب الله وأحـل حرمـه، وكيف عـدا على الحاج العائذ بـالله وسفـك دمـه، فكتب محضراً على مـااقترحـه بعذره فيما اجترحـه، وألزم اعيان الحاج من سـائر البلاد بوضع خطـوطهم على ماعينه من المراد، فكتبوا مكـرهين غير مشتهين، وكان عذره أنه أنكر عليـه ضرب الطبل فـأبى، فلما انتهـت الحالـة إلى الخليفة أنكـرها انكـاراً

شـديداً، ونسبهـا إلى طيش طـاشتكين، ولم يجد له رأيـاً سديـداً فلا جـرم اتضع عنده قدره، واتضح له وزره، ووهى أمره، وادخرهاله حتى نكبه بها بعـد سنين، وحبسه بها وأطـال سجنه ، ثـم عفا عنـه بعد مـدّة مديـدة، وشدّة شـديدة، وولاه حـرب بلاد خوزستـان وخراجهـا، وولى امارة الحاج غيره، ولما وصل إلى السلطان خبر استشهاد ابـن المقدم وجماعته، لامه على ترك الحزم واضـاعته، فـاحتسبه عند الله غـازياً شهيـداً، ساعيـاً إلى الجنة بقدمه سعيـداً، وأقام ابنه عز الديـن ابراهيم في بلاده، مقامـه، وأقر عليه انعامه.

وقال محمـد بن القادسي في تـاريخه، ونقلته مـن خطه: أراد أمير الحاج بـالشام وهـو ابـن المقدم أن يـرفع علماً على الجبـل بـالموقف فمنعـه أمير الحاج طاشتكين، وجرت بينهما مراجعات أفضت إلى الخصومة، بين حاج العراق وحـاج الشام، ونهب البعـض البعض، وجـرت جراحـات، فجرح ابـن المقدم ولم يغير العـادة في ذلـك، ومات ابـن المقـدم بمنى في اليـوم الثـاني، ووصلت النجـابة مـن مكة فـأخبروا بما جرى مـن أصحاب ابـن المقدم، وقد شهد الشهود بذلك من الحجاج، فقرىء ذلك بجامع القصر الشريف.

قال: وفي ثاني شوّال من هذه السنة تـوفي أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن عبد الله سبط ابن التعاويذي الشاعـر، وكان كاتبا بديوان المقاطعات، وخدم بيت ابن رئيـس الرؤساء وأضر في آخر عمره، ومولـده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسمائه.

قال: وفي :خامس رمضان توفي الفقيه الحنبلي أبو الفتح نصر بن فتيان ابن مطر المعروف بـابن المنى، وكان فقيها زاهداً صالحاً عـالماً، مولده سنة احـدى وخمسمائة، وتفقه عليـه جماعة مـن أئمة الحنـابلة، كـالحافظ عبـد الغني بن عبد الـواحد بن سرور وأخيه ابراهيم، والشيـخ الموفق عبد الله

-٨٦٢٣-

ابن أحمد بن قدامــة، ومحمد بن خلف بن راجح، والنـاصح عبد الر حمن ابن نجــم بن عبد الـوهاب، وعبد الـرزاق بن الشيخ عبـد القادر الجيلي وغيرهم.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين

قال العماد: خرج السلطان من عكا فنزل على كوكب في العشر الأوسط من المحرم، فحاصرها وصابرها أياماً فلم يتمكن منها لمنعتها وحصانتها، ورآها تحتاج إلى طول مصابرة ومرابطة، ولم يكن معه جميع أمرائه وأوليائه، وإنما كان في خواصه، فوكل بها قايماز النجمي، ووكل بصفد طغرل الجاندار، كل واحد منهما في خمسمائة، وسير إلى الكرك والشوبك سعد الدين كمشبه الأسدي، وكانت هذه الحصون الأربعة ضيقة المسلك صعبة المدرك

قال: ثم إن السلطان اشتغل بلقاء الرسل الواصلين، من جملتهم رسول صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين محمد بن قزل أرسلان، وكانوا خائفين على آمد أن يسترجعها منهم السلطان، لأنها كانت لهم من مواهبه كما سبق، فاستوثقوا بالوصلة باحدى بنات العادل، وكان العادل قد وكل أخاه السلطان في ذلك لما سار إلى مصر، وقدم رسولهم في ذلك، فتمت الوصلة بينهما.

قال: وأوّل من وصل والسلطان بكوكب اختيار الدين حسن بن غفراس مدبر دولة قليج أرسلان بالروم، وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلى والديباج والوشي، في يديه زنود، وخواتم مرصعة بزينة ثقيلة بجواهر ويواقيت ثمينة، وفي عقودها درة يتيمة، وفي يده عمود من العسجد، وكل عدّته تبرها مجوهر، وكان إذا شاهده السلطان تبسم وعامله بخلعه، وقال: هذا سافر بنضاره لينظر، وبديناره ليبصر.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما دخلت سنة أربع وثمانين، رأى السلطان الاشتغال بأخذ هذه الحصون الباقية التي لهم مما يضعف قلوب من في صور ويهيىء أمرها ، فاشتغل بذلك، ونزل رحمه الله على كوكب في أوائل

المحرم، وكان سبب بداءته بكوكب أنه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن يدخل إليهم قوة أو حماة، فخرج الفرنج ليلاً وأخذوا غرّتهم وكبسوهم بعفربلا، وقتلوا مقدّمهم، وكان من الأمراء يعرف بسيف الدين أخي جاولي، وأخذوا أسلحتهم، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن كان معه من خواصه بعكا، فإنه كان قد أعطى العساكر دستورا، ولقي في طريقه شدّة من الثلج والبرد، فحملت السلطان مع ذلك الحمية على النزول عليها، وأقام يقاتلها مدّة.

قال: وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته، فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين، وكانت وقعة ابن المقدم، وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طاشكتين على ضرب الطبول والدبدبة، فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدّم ، وكان من أكابر أمراء الشام، وكان كثير الغزاة فقدّر الله أنه جرح بعرفة يوم عرفة، ثم حمل إلى منى مجروحا فمات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم، ودفن بالمعلى، وهذا من أتم السعادات، وبلغ ذلك السلطان قدّس الله روحه فشق عليه.

قال: ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته، والجمع بين زيارة النبي ﷺ وزيارة ابراهيم عليهما الصلاة السلام، فوصلت إلى دمشق، ثم خرجت إلى القدس، فبلغه خبر وصولي فظن أني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده، وبالغ في الاكرام والاحترام، ولما ودعته ذاهبا إلى القدس خرج إليّ بعض خواصه وأبلغني تقدّمه إليّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل، وانصرفت إلى القدس الشريف يوم رحيله عن كوكب، ورحل رحمه الله لأنه علم أن هذا الحصن لايؤخذ إلا بجمع العساكر عليه، وكان حصنا قوياً، وفيه رجال شداد من بقايا السيف، وميزة عظيمة، فرحل إلى دمشق، وكان دخوله إليها في سادس

ربيع الأوّل ، وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إلى دمشق عائداً من القدس، فأقام رحمه الله في دمشق خمسة أيام، وكان له غائبا عنها أربعة عشر شهرا.

قال: وفي ذلك اليوم الخامس بلغه خبر الفرنج أنهم قصدوا جبيل، واغتالوها فخرج منزعجا ساعة بلوغ الخبر، وكان قد سير إلى العساكر ليستدعيها من سائر الجوانب، وسار يطلب جبيل، فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك، وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين إلى حلب قاصدين الخدمة للغزاة، فسار نحو حصن الأكراد في طلب الساحل الفوقاني ، ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الأكراد ، ثم سير إلى الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة انطاكية لحفظ ذلك الجانب، ففعلا وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بخدمة السلطان في هذه المنزلة، ووصلت إليه رحمه الله في هذه المنزلة فإنه كان قد سير إليّ إلى دمشق يقول تلحقنا نحو حمص، فخرجت على عزم المسير الى الموصل متجهزاً لذلك، فوصلت إليه امتثالاً لأمره، فلما حضرت عنده فرح بي وأكرمني ، وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدّة مقامي فيها بجميع آدابه وأحكامه ، فقدّمته بين يديه فأعجبه وكان يلازم مطالعته، ومازلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافعني عن ذلك ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت، ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناؤه عليّ وذكره إياي بالجميل ، فأقام في منزلته تلك شهر ربيع الآخر أجمع، وصعد في أثنائه الى حصن الأكراد وحاصره يوماً يجسه به، فما رأى الوقت يحتمل حصاره ، واجتمعت العساكر من الجوانب ، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين ، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر، وتقوية للعساكر بالغنائم، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر إنّا داخلون إلى الساحل ، وهو قليل الأزواد، وهو محيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر ، ثم سير إليّ مع الفقيه عيسى، وكشف لي أنه

-٨٦٢٧-

ليس في عـزمه أن يمكنني من العـود إلى بلاذي، وكان الله تعالى قـد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحب الجهاد فأجبته إلى ذلك وخدمته من تاريـخ مستهل جمادى الأولى، وهـو يوم دخولـه الساحـل الأعلى، وجميع ماحكيتـه من قبل إنما هو روايتـي عمن أثق بـه ممن شاهدوه ، ومـن هذا التاريـخ ماأسطـر إلاّ ماشـاهدتـه ، أوأخبرني به مـن أثق بـه خبراً يقارب العيان، والله الموفق.

فصل

قـال العماد: كان جماعـة مـن أهـل الحزم وأولي العزم قـد أشـاروا على السلطـان لما فتـح عكـا بتخـريبها وتعفيـه آثـارهـا، وأن يبقـى المرابطـون المحامـون مكانها فـلا نأمـن عود الفـرنج إليهـا، وتملكها وأن تبنـى قلعة القيمون، فكاد يجيب فقيل لـه هذه مدينة كبيرة، وعمارة كثيرة، وأشير عليه بتبقيتها وأن تعمـر وتحصن، فـولى أمر عمارتها وتـدبيرها الأمير بهاء الـدين قراقوش،و هو الذي أدار السور على مصر والقـاهرة، فاستدعاه من مصر وأمره أن يستنيـب في تلك العمارة، فقـدم عليه وهو بكـوكب ففـوض إليه عمارة عكا، فشرع في تجديـد سورها وتعلية أبـراجها، وكان قـدم من مصر ومعه أساتيذ العمل وأنفاره ودوابه وأبقاره.

قال: ولما رتب السلطان على كوكـب رحل مستهل ربيع الأول، ودخل دمشق في سادسه، وكان العسكر الغـائب على مواعدة المعاودة في الربيع، وأنه يجتمع على حمص بـالجميع، وكان طريـق السلطان على بحيرة طبرية مـن شرقيها، وتجنـب عقبه فيـق لاستصعاب رقيهـا، ولما قارب السلطـان دمشق تلقاه الناس أحسن لقاء، فقـد كانوا متعطشين إلى رؤيته ومتشوقين إلى طلعته، لأنه غاب عنهم سنة وشهـرين وخمسة أيام، فكسر فيها الكفر ونصر الإسلام وفتح فيها الأرض المقدسة وأشباههـا من البلاد التي كانت بأوضار الكفر منجسه، فأصبحت بـالإيمان مؤسسه، فلما استقر قر اره أمر بانشـاء الكتب لاستدعـاء الأجناد من الجهـات للجهاد من سـائر البلاد، وابتـدأ بـالجلـوس في دار العدل، وبحضرتـه القـضاة والعلماء مـن أهـل الفضل.

قـال: وكـان السلطـان قـد ولى دمشق بـدر الـديـن مـودود المعـروف بالشحنة ، وهو أخو عز الدين فـرخشاه لأمه، وفوض إليه في هذه الأيام ولايـة الديـوان، وكـان مع الصفـي بـن القابـض، فبقيـت معه الخزانـة

وحدهـا، وكان الصفي قدبنى للسلطان داراً مطلة على الشرفين بـالقلعة، وأنفق عليهـا أموالاً كثيرة، وبالغ في تحبيرهـا وتحسينها، وظن أنها تقـع من السلطان بمكان، فما أعارها طرفاً ولا استحسنهـا، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الـديوان، وقال مايصنع بـالدار من يتوقـع الموت، وماخلقنـا إلا للعبادة والسعـي للسعادة، ومـاجئنا دمشـق لنقيم، ومانروم أن لانريم.

قال:ثم هم بـالغزاة فبدأ بزيارة القاضي الفاضـل، وكان مقيماً بجوسق ابن الفـراش بالشرف الأعلى في بستانـه، فاستضاء بـرأيه فيما يريـد فعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، فأقام عنده إلى الظهر، ثم ودعه ورحل.

قلت: ومـا أحسن ماقـال ابن الـذروي في الآراء الفاضلية مـن قصيدة مدحه بها:

لـرأيـك هـذا النصر للـديـن ينتمـي
فـلا ينتحلـه كـل عضـب ولهذم

وإن كـان فيـه لـلأسنـة والظبـى
مسـاعـدة فـالفضـل للمتقـدّم

تشير على الاسـلام منـك فـراسـة
لها حـزم طـب واحتراز منجـم

وتحميـه ألفـاظ لـديـك كـأنها
قـواطـع بتراً ونـوافـذ أسهـم

ألا حبـذا فتـح نشرت لـواءه
وقلـت لخيـل الله يـا خيـل أقـدمـي

وقمـت وقـد نـام الأنـام منـاجيـا
بمـولاي نـجّ المسلمين وسلـم

فصل

في دخول السلطان رحمه الله الساحل الآخر وفتح مايسره الله تعالى من بلاده

قال العماد: ثم رحل السلطان فسلك في جبل يبوس إلى عين الجر إلى الدلهمية على البقاع واتى بعلبك، وخيم بمرج عدّوسة، ثم رحل على سمت اللبوة ثم أتى الزراعة، ووصل الخبر بوصول عماد الدين صاحب سنجار في جموعه وجنوده ونزوله على قدس من عمل حمص على نهر العاصي، ولما تراآى موكبه لموكب السلطان تقابل القمران وتقارن النيران، واجتمع السعدان وسعد الجمعان، فخيم السلطان عند مخيمه، وسأل أن يزوره السلطان بموكبه، فأجاب دعوته، ثم رتب السلطان يوماً لحضوره عنده وتهاديا وتصافيا، وكان أيام المشمش، وقد وصل من دمشق فأفرح قدومه، وطلعت في ابراج الاطباق نجومه، كأنها من التبر مصوغه، وبالورس مصبوغه، صفركأنها ثمر الرايات الناصرية، حلا منظرا وذوقاً، ولو نظم جوهره لكان طوقاً كأنما هو خرط من الصندل، وخلط با لمندل، وجمد من الثلج والعسل، وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس والتناجي بما في النفوس، وتكرررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده، واتفقوا على عرقا وعقرها والنزول بعقرها، وانها إذا ملكت ملكت طرابلس فأقاموا بقدس إلى آخر الشهر حتى اجتمعت الجموع، ووصلت قبائل العربان، ثم سار السلطان أوّل ربيع الآخر، وخيم بقرب حصن الأكراد على البقيعة، ثم شن الاغارة على نواحي الحصن وصافيتا والعريمة وتلك الحصون، فاستخرج مافيها من المخزون، وفتح حصن يحمور وسامه الدمور، ولم تزل الاغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر الشهر، فوصل قاضي جبلة منصور بن نبيل وجماعة معه فأشار على السلطان بقصدها، وتكفل بفتحها، وفتح اللاذقية، وتلك الحصون والمعاقل الشمالية، وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه ابرنس أنطاكية

وعـوّل عليه فيهـا، وقال: إن الاشتغـال بطرابلـس مع احتراسهـا يذهـب الزمان، ويفوّت الامكان، والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم، مؤملون أن يتبدل شقاؤهم منـك بالنعيم، فأصغى السلطان إلى قـوله، وأصفى له ورد طـوله، وكـان قـد وصل إليـه مقـدمو جبـل بهراء، فـوفر لهم رواتبـه وأجرى، فندبوا إلى أتباعهم وكتبوا إلى أشياعهم.

فصل
في فتح انطرطوس

قال العماد: وأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل، فرحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى، فسرنا في أجام مؤتشبه، وآكام معشبه، وحزون وسهول وشعاب وتلول، حتى خرجنا إلى ساحة الساحل، ونزلنا بها وسرنا الساحل الساحل في ثلاث مراحل، حتى وصلنا إلى انطرطوس سادس الشهر فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، فأخلى الفرنج البلد وما خرجوا إلى الحصر، واجتمعوا في برجين عظيمين هما لأنطرطوس كالقلعتين، ونقلوا إليهما من الأموال ماقدروا عليه، فحصر مظفر الدين كوكبري أحد البرجين حتى أنزلهم بالأمان، ثم نقبه من أساسه، وألقاه على أم راسه وعجل دماره، ورمى في البحر أحجاره، وملك جميع مافيه، وامتنع البرج الآخر وفيه الداوية وشوكتهم ومقدّمهم الذي أسر يوم حطين، وأطلق لما سلم ماشترط عليه من البلاد، ثم اجتمع بأصحابه في هذا البرج وقوّاه بآلات الحصر، فامتنع فتحه فاشتغل المسلمون بتعفية البلد وإخفائه.

وقال القاضي ابن شدّاد: دخل السلطان الساحل على تعبية لقاء العدوّ، ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أوّلاً ومقدّمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط، والميسرة في الآخر، ومقدّمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار على الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل فبتنا تلك الليلة في بلد العدوّ، ثم رحل في صبيحة السبت. ونزل على العريمة، فلم يقابلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد ووصل إلى انطرطوس فوقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاجتياز إلى جبلة، فاستهان بأمرها، فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر، فلما استتم

نصب الخيم حتى صعد الناس السور، وغنم العسكر جميع من بها ومابها، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم، وترك الغلمان نصب الخيم، واشتغلوا بالكسب والنهب، ووفى بقوله رحمه الله فإنه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بأنطرطوس إن شاء الله تعالى. وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً وحضرنا عنده للهنا بها جرى ومد الطعام وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقيين الحصار فسلم أحدهما إلى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه، وأخذ من كان فيه، وأمر السلطان باخراب سور البلد، وقسمه على الامراء وكان البرج الآخر حصيناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والمقاتلة فيه، وخندقه فيه الماء، وفيه جروخ كثيرة تجرح الناس عن بعد، فرأى السلطان تأخير حصره والاشتغال بما هو أهم منه، فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه، وخرّب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم وأمر بوضع النار في البلد فانحرق جميعه، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير، وأقام عليها يخربها إلى رابع عشر الشهر، وسار يريد جبلة، وعرض له ولده الظاهر في اثناء طريق جبلة ومعه العساكر التي كانت بتيزين.

فصل

في فتح جبلة وغيره.

قال القاضي ابن شدّاد: وكان وصول السلطان إلى جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، ومااستتم نزول العسكر حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع، وبقيت القلعة ممتنعة ونزل العسكر محدقاً بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة، فقوتلت قتالاً يقيم عذراً لمن كان فيها، وسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية.

وقال العماد: بعد فتح انطرطوس وصل إلينا رجال حماة، فرحل السلطان يوم الاثنين رابع عشر الشهر ونزل على مرقيه، وقد أخلاها سكانها فخيم فيها أهل الاسلام وطاب لهم فيها المقام، وكانت الطريق إلى جبلة على الساحل ضيقة المسالك صعبة المراحل، وهناك للفرنج الاسبتار حصن يقال له المرقب، مأهول معمور ولاطريق له إلا تحت تله، واتفق أن طاغية صقلية لما أشجاه ماتم على الفرنج في الساحل جهز أسطولاً يشتمل من الشواني على ستين قطعة يحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعه، وقدّم عليها طاغية يقال له المرعريط، فوصل وماضر ولا نفع، فإن فرنج الساحل مارفعوا به رأساً وتضجروا منه وكان في عشرة آلاف رجل يحتاجون إلى ميرة وكلف كبيرة، فسار إلى صور، ثم رجع إلى طرابلس، وتردد في البحر وتلدّد وأبلس، واضطرب أشهراً لايظهر له رأي ولايرى له مظهراً، فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على الساحل إلى جبلة جاء بالشواني وصفها على موازاة الطريق، ومباراة المضيق، وفيها الرماة، فأمر السلطان بنقل الجفاني إلى هناك وتصفيفها وتكثير ستائرها، وأجلس الرماة من ورائها فمازال الأمر على ذلك والرماة ترمي وتصمي،

وعامة المسلمين في سلوك ذلك المضيق حتى خفت الأثقال، وعبرت الأحمال، وخلص المسلمون من ذلك الشق بغير مشقة، وجازوا على مدينة يقال لها بانياس، وقد انجلى عنها الناس، فخيم المسلمون فيها، ثم أصبحوا على الرحيل فاعترضهم نهر عريض عميق مافيه طريق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر وفيه قنطرة واحدة فتنكبها السلطان بالجحفل، ومضى يميناً إلى الجبل وأبعد حتى عبر فوق رأس العين، واختلطت العساكر بالنهر من الجانبين، وتزاحمت الاثقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونزل السلطان قبل وصول الأثقال على بلدة وهي بلدة كاسمها بلدة وهي بليدة من غربي النهر على شاطىء البحر، وجانباها الآخران بخندق فيه البحران، وقد أخلاها أيضاً أهلها، وتفرق شملها، وأصبح السلطان يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى على جبلة فتسلمها المسلمون في الوقت وذلك أن قاضيها كان قد سبق ودخلها، وقرن بالنجح للمسلمين أملها، فلما وصلوها أعلى الأعلام الناصرية على سورها، وخلص المسلمون بها من مساكنة الكفرة، وتحصن الفرنج بحصنيها، واحتموا بقلعتها، فما زال قاضي جبلة يخوفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط أن يسترهنهم إلى أن يردوا من انطاكية رهائن جبلة من المسلمين، فضبط عنده جماعة من رؤوس الفرنج والمقدمين، حتى أعاد صاحب انطاكية الرهائن التي عنده ففك بها رهائنه، وتولى قاضي جبلة الأمر فاستخرج ذخائر الكفر ودفائنه، واستنظفهم من كل سلاح وعدة وخيل وقوّة، وجاء مقدمو الجبل سامعين مطيعين، وفي الجبل على سمت طريق حماة حصن يعرف ببكسرائيل، وكان أهل الجبل استعادوه من الفرنج منذ سنين، فتسلمه السلطان أيضاً منهم، ثم سلم جبلة إلى سابق الدين عثمان صاحب شيزر، وبجل قاضي جبلة وشرفه، وحبس عليه ملكاً نفيساً ووقفه، وصرفه في املاك آبائه وحكمه في ولاية حكمه وقضائه.

فصل

في فتح اللاذقية

قال القاضي ابن شدّاد :وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مسوّر، وله مينا مشهور، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، فنزل السلطان رحمه الله يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى محدقاً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد، واشتد القتال وعظم الزحف والنزال وارتفعت الأصوات وقوي الضجيج إلى آخر النهار، وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فإنه كان بلد التجار، وفرق بين الناس الليل وهجومه، وأصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهداً في أخذ النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ماحكي لي من ذرعه عشرين ذراعاً عرضهأربعةأذرع، فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا بتحاذفون بحجارة اليد، فلما رأى عدوّ الله ماحل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرّر لهم قاعدة الأمان، فأجيبوا إلى ذلك وكان السلطان رحمه الله متى طلب منه الأمان لايبخل به، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب، فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جبلة إليهم واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بأنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم، ورقى عليهم العلم الإسلامي المنصور في بقية يوم السبت، وأقمنا عليها يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى.

وقال العماد:رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأولى، فبات بالقرب منها، وصبحناها يوم الخميس وقد لاذ

أهلها بقلاعها، وهي ثلاث قلاع متلاصقات، على طول التل متناسقات، كأنهن على رأس جبل راسخ وذروة أشم شامخ، فسهل لنا فرعها، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها، فطلبوا السنجق الناصري ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة، فلما أصبحوا صعد إليهم قاضي جبلة وأنزلهم بالامان، وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدّة وذخيره وأسلحة وميره، وخيل ودواب كثيرة، وامنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم وأطفالهم، وخفوا من أثقالهم، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وتمسكوا بحبل العصمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية، ثم ولى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطي، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وهز إلى إحسانه أعطافه وأمنه بعد ماأخافه.

قال: ورأيته بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية متناسقة المغاني ومتناسبة المعاني في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، أمكنتها محرّمة، وأروقتها مرخمة، وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة مهندمة وصفوفها عالية وقطوفها دانية، وأسواقها قصية، وآفاقها مضية، وارجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة، لكن العسكر شعث عمارتها، واذهب نضارتها، ووقع من عدّة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوهوا وجوه الأماكن، ومحوا سنا المحاسن.

قال: وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة، باجزاء الأجزاع مرصعة، وبألوان الرخام مجزعه، وأجناس تصاويرها متنوعة، وأصول تماثيلها متفرعة، وهي متوازية الزوايا متوازنة البنايا، قد تخيرت بها أشباح الأشباه، وصوّرت فيها أمواج الأمواه، وزينت لأخوان الشيطان، وعينت لعبدة الأوثان والصلبان،و لما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوّهوا أعلامها، وجروا لثامها وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسى لهد أساسها، وأفاضوا عليها لباس إبلاسها، وحكموا بعد الغنى بإفلاسها، فافتقرت وأقفرت، وخربت وتربت، ثم لما طابت النفوس، وتجلى عن البلد بفتحه

البؤس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس،، وهي متشوهة متشعثه متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبثة.

قال: ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت، ولكنها زاد سروري بأنها عادت للاسلام مرابع، ولشموسه مطالع، فلو بقيت بحليتها وحالتها بعدما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت، وكما أفاقت فاقت، ورغب في أعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن حباً للوطن، ولما أراد السلطان الرحيل دخل المدينة ورد إلى سكانها السكينة، ودار خلال ديارها، وخرق أسواقها في سائر أقطارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانيها وشوانيها، وأقاصيها وأدانيها، وشكر الله على تمكينه من ملكها وتخصيصه بملكها.

وفي كتاب عمادي إلى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال: «وهذه اللاذقية مدينة واسعة، وخطة جامعة، معاقلها لاترام، واعلاقها لاتستام، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها، وأزيدها أعمالاً وضياعاً وأزينها، ومافي البحر مثل ميناها، ولا للمراكب الواردة مثل مرساها، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس، فعادت بالاسلام دار نعيم»

قال: وكانت شواني صقلية قد قابلت في البحر اللاذقية، طمعاً في امتناعها، فلما خابت خبت نارها، وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلها حنقاً عليهم كيف سلموا البلدة وسمحوا ببذلها، فكان ذلك مقتضياً لبقاء ساكنيها بالجزية تؤديها، ولما وقف السلطان على شاطىء البحر بعساكره، طلب مقدم تلك الشواني أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه، فأمنه فصعد وعفر وكفر، وتروى ساعة وتفكر، وقال مامعناه :أنت سلطان عظيم، وملك رحيم، وقد شاع عدلك وذاع فضلك، وقهر

سلطـانك، وظهـر احسـانك، فلـو مننـت على هذه الطـائفـة الساحليـة الخائفـة، لملكت قيـادهـا إذا أعـدت إليها بـلادهـا، وصـاروا لك عبيـداً وأطاعـوك قريبـاً وبعيداً ، وإلا جـاءك من وراء البحـار في عدد الأمـواج أفواج بعـد أفواج، وسار إليـك ملوك ذوي الاقاليـم من سائر الاقـانيم، وهؤلاء أهون منهـم فاتركهم واصفح عنهـم، فقال له السلطان: قـد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قـائمون في طاعته بالفـرض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتـح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض ذات الطول والعرض، لتوكلنا على الله في اللقـاء، ولم نبال باعداد الأعداء، فصلب على وجهه وركب بكربه، ولم يغن خطابه عن خطبه.

فصل

في فتح صهيون وغيرها

قال القاضي ابن شداد: رحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد السابع والعشرين من جمادى الأولى طالباً صهيون، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع ، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء، ونصب عليها ستة مجانيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولايبلغ. وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة، وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقد وقع فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنه النصر والفتح المبين، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضر بها منجنيق ولده الملك الظاهر، وكان نصبه قبالة جهة قريبة من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة جيدة عظيمة تمكن الصاعد في السور من الترقي إليه منها.

ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، عزم السلطان على الزحف، وركب وتقدّم وتواترت المنجنيقات بالضرب، وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وماكان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الربض، واشتدّ الزحف وعظم الأمر وهجم المسلمون الربض، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدر وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضم من كان في الربض إلى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم، ونهب الباقي، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، فأمنهم

السلطان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم، ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير ديناران، فسلمت القلعة و أقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وبلاطنس وغيرهما من القلاع والحصون، تسلمها النواب فإنها كانت تتعلق بصهيون.

وقال العماد: كان الطر يق إلى صهيون في أودية وشعاب، ومنافذ صعاب، وأوعاث وأوعار، وانجاد وأغوار، فقطعنا تلك الطريق في يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذروة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها، ويدوران حواليها، والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق وسور وثيق ماإليه لسوى القضاء والقدر من طريق، والقلعة ذات أسوار خمسة، كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سغاب وأسد غضاب، وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع وهي ممتنعة علينا بالركن الأمنع، والسمّو الأمتع، ونقل السلطان خيمته إلى جانب الجبل وأقام الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين، ونهج بهما من جانب الوادي إلى ردّ الاعادي طريقين، وكان له بفتح هذه القلعة الجد العالي، والجد المتوالي فإنه اتصل بنا قبل الوصول إلى جبلة من طريق حماة، وقد استصحب الكماة الحماة، ومعه الرجال الحلبية، والمنجنيقية والجرخيه والجانداريه والخراسانية، واستصحب الحجارين والحدّادين والنجارين، فأظهر على صهيون اليد البيضاء، وأنار في الفضائل واضاء، وكان نازلاً على جانب الوادي مقابل الحصن، وشرع الجدار في الانقضاض، وأصبحنا يوم الخميس و للجلاميد وقوع، وللسور سجود وركوع، ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي والحنايا سهام المنايا تصمي حتى قتل وجرح أكثر مقاتلة الحصن، وهان بهادب فيه من الوهن، وأصبحنا يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، وبحر الحرب في أمواجه الزاخرة، وتطرق أصحابنا من قرنة خفيت عليهم من الخندق لم تحكم عمارتها، كأن الله أعماهم عنها حتى

يسلك الحتف إليهم منها، فتعلقوا في الصخور، وتسلقوا السور، وملكوا عليهم ثلاثة أسوار، واحتووا على كل مافيها من ذخائر وغلال، ودواب وأبقار، وازدحم الفرنج في القلة، وتفادوا من الخوف لا من القلة، وصاحوا الأمان، وبذلوا الإذعان، ونادوا: مكنونا من السلامة، وتسلموا المكان، فلما امنوا على المال والنفس، حتى قرّرنا عليهم مثل قطيعة القدس، وأغلقت دونهم الأبواب، وسيرت إليهم النوّاب، وما استقرّ خروجهم حتى استخرج القرار وجبي الدرهم والدينار، وعم الصغار الكبار والصغار، وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندرا، ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب بوقبيس، فأحكمه وحصنه، وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد، ويوم الأحد قلعة الجماهيريين، ويوم الاثنين، حصن بلاطنس، وندب إلى كل حصن من تسلمه وسلكه في سلك الفتوح ونظمه.

قال: وبفتح صهيون حصل الأمن على اللاذقية، وقوى الأمل في فتح انطاكية، فإنه قفل محكم على بابها، وسبب قوي من أسبابها، ففتح الرتاج، ووضح المنهاج.

فصل

في فتح بكاس والشغر والسرمانية

قال القاضي ابن شدّاد: ثم رحل السلطان وسرنا حتى أتينا بكاس، وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول بذلك المنزل على شاطىء العاصي يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة وهي على جبل مطل على العاصي فأحدق بها من كل جانب، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى يوم الجمعة أيضاً تاسع جمادى الآخرة، ويسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ماكان فيها، وكان لها قليعة تسمى الشغر قريبة منها يعبر إليها منها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من سائر الجوانب، ورأوا أنهم لاناصر لهم، فطلبوا الأمان، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشره، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، يسر الله فتحها، فأذن في ذلك ، وكان تمام فتحها، وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشرة، ثم عاد السلطان إلى الثقل، وسير ولده الظاهر إلى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشرة فقاتلها قتالاً شديداً وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها أيضاً يوم الجمعة ثالث عشرة الشهر المذكور.

قال: فاتفق فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية في أيام الجمع، وهو علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان، حيث يسر الله له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات. قال: وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية لم يتفق مثلها في تاريخ .

وقال العماد: سار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية

ونزل على العاصي في طاعة الله على تل كشفهان، فتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر، وحوّل خيمة خفيفة إلى الجبل لحصار قلعة الشغر، وهي تلة شامخة من أعلى التلل مطلة على واد عميق، وكان الكفار قد أخلوا بكاس من الرعب واجتمعوا بقلعة الشغر، وهي عالية حصينة منيعة لاتصل المجانيق إليها، فاستصعب السلطان أخذها وخاف من طول أمرها، فبينما هو مفكر في ذلك والفرنج قد داخلهم الرعب، فارسلوا في طلب الأمان واستمهلوا ثلاثة أيام، فكبر المسلمون وفرحوا وأصبحوا يوم الجمعة والشغر شاغر، والكفر صاغر ، فتسلمها المسلمون وتصرفوا فيها وفيما تحويه من ذخائر وعدد ودواب وانعام، وأنعم السلطان بها وبقلعة بكاس، وتلك الاعمال على غرس الدين قليج، وكان هذا قليج قد تسلم كفر دبين، وهو معقل حصين يسكنه الأرمن في ذلك الصقع، وبذل في استخلاصه غاية الوسع، فولاه السلطان تلك الحصون، وحاط بإيالته أمرها المصون، وعاد إلى مخيمه يوم السبت، وهو حسن السمت، كريم النعت.

قال: وكان الملك الظاهر عند اشتغالنا بفتح قلعة الشغر، قد نزل على سرمانية مضايقا لها بالحصر فتسلمها يوم الجمعة ثالث عشري الشهر، وذلك بعد قطيعة قررها وقبضها، ولما أخرجهم منها دخلها فأبطل عمارتها وعطلها وهدم بنيانها، وهدّ أركانها، ومابرح حتى سواها بالأرض، وخلط طولها بالعرض.

قال: وهذه ست مدن وقلاع فتحت في ست جمع تباع: جبلة واللاذقية وصهيون وبكاس والشغر وسرمانية. وأطلق بها الأنفس والنفائس العانية، فقد كان في هذه المعاقل من أسارى المسلمين عدّة، لولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشدّة، وهذا اقليم جبلة واللاذقية، هو عين انطاكية التي فقئت، ونحرها الذي عنه حلئت، ولم يبق لأنطاكية

-٨٦٤٥-

مـن الحصون سـوى ثلاثـة: القصير، وبغراس، ودربسـاك، وقد أصبحـت معدومة الأطراف،قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف.

فصل

في فتح حصن برزيه

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان جريدة إلى قلعة برزيه، وهي قلعة حصينة في غاية القوّة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الفرنج والمسلمين، يحيط بها أودية من سائر جوانبها، وذرع علو قلتها، فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ثم حرر عزمه على حصارها بعد رؤيتها، واستدعى الثقل فنزل تحت جبلها، وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها، وركب القتال عليها، من كل جانب وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين فقسم العسكر ثلاثة أقسام، رتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار، ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر، بحيث لايفتر القتال عنها أصلاً وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار، فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا عنه، وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه، وركب وتحرك عدّة خطوات وصاح في الناس فحملوا حملة الرجل الواحد، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الأسوار، وهجموا القلعة وأخذت عنوة، واستغاثوا الأمان وقد ملئت الأيدي منهم (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا)(٧٨) ونهب جميع ماكان فيها، وأسر جميع من كان بها، وكان قد أوى إليها خلق عظيم، وكانت من قلاعهم المذكورة، وحصونهم المشهورة، وكان يوماً عظيماً ، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين، وعاد السلطان إلى الثقل وأحضر بين يديه صاحب القلعة، وكان رجلاً كبيراً

منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً، فمن عليهم السلطان ورق لهم، وأنفذهم إلى صاحب انطاكية استمالة له، فإنهم كانوا يتعلقون به زمن أهله.

وقال العماد: وصف للسلطان قلعة برزيه، وأنها لحصن أفامية متاخمة، وله مناصفة مقاسمه، وأن المسلمين من جوارها في جور وفي حور بعد كور ، ووصفوا علوها، فركب السلطان إليها وأشرف عليها فألفاها كما وصفوها، وبالغوا فيها وماانصفوها، فنصب عليها المجانيق فوقعت أحجارها دونها، ولم يتحرك سكونها، وكيف تهدّد الخنساء بصخر، والعنقاء بصقر، وحجر الجبل بحجر ، ومدار الفلك بمدر. فلما رأى السلطان ذلك قوي رأيه على أن يفرق العسكر ثلاث فرق، ويتناوبون على قتالهم زحفاً ليتعبوهم ويضجروهم فإنهم عدد محصور عما قليل تفنى عدّتهم، وتفل عدّتهم، ففعل ذلك وكانت النوبة الأولى لصاحب سنجار، والثانية للسلطان وخواصه،ثم امتزجت الثالثة بالثانية، وعادت رجال النوبة الأولى وتناصرت أنصار الله على النزال لاستنزال النصر، واحمدوا عاقبة الصبر في الحصر، فطلب العدوّ الأمان، وأرسلوا إلى السلطان، وكان أصحابنا خالطوهم وباسطوهم وأحاطوا بهم، وهناك جماعة من دهاة العسكر أشاعوا للناس أن السلطان يؤمنهم، فرجع العالم عنهم ولم ينالوا منهم، فلما ردّ السلطان رسولهم ولم يؤمنهم ساقوا أولئك السبايا قدامهم كما يسوقون أغنامهم، وخانوا اخوانهم، وراموا حرمانهم، وتفرقوا بالسبى أيدي سبأ، وسافروا بها من العسكر إلى البلاد وباعوها في سوق الكساد، وتسلم السلطان حصن برزيه ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وولاه الأمير عز الدين ابراهيم بن الامير شمس الدين محمد بن المقدّم، وهو صاحب حصن أفامية مناظر برزيه، وهو على الثغر وما بين الاثنين بحيرة تحجز الجانبين، وصيادوها المسلمون بأفامية، فخلص للاسلام الثغر وسكن الدهر.

قال: وكانت صاحبة حصن برزيه زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، وقد سبيت وخبيت، فما زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها، وزوجها وابنة لها، وبجماعة من أصحابها، وصهرها، وكانت امرأة ابرنس انطاكية، تعرف بدام سبيل في موالاة السلطان عيناله على العدو، تهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا، فلما فتح حصن برزيه وحصل في أسره هذه الجماعة، وافترقت بهم أيدي المسلمين تتبعهم السلطان وخلصهم من الأسر، وأنعم عليهم وجهزهم وسيرهم إلى انطاكية لأجل امرأة الابرنس، فشكرته على ذلك ودامت مودّتها ونفعها للمسلمين.

وفي بعض كتب البشائر العمادية: «آخر مافتحناه حصن برزيه الذي تضرب بحصانته الأمثال، ولاترقى إلى ذروة تمنيه الآمال، وقد أخذناه بالسيف عنوة، وفتحناه ضحوه، فيالها من ضحوة ليوم الثلاثاء أظلمت على أهل التثليث، والهى الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحديث هذا الفتح الحديث، ولو وكلنا الله إلى اجتهادنا في الفتح لتعذر، ولكنه سبحانه سهل ويسر»

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: «وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزيه وهو الذي تضرب به الأمثال، وتضرب عنه الآمال، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال، ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الأوجال، بل من خطوات الآجال، وكان للكفر درعاً حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال فعظمت المنة السلطانية عند أهل الإسلام، ودعوا بأن يفلج الله حجة سيفه الد الخصام، وقد كان الناس يعدّون مواهبه ممالاتحصى، فقد تحققت بها فتوحاته فهي أيضاً لاتحصر، فمرحباً بفتوح يقول غائبها: الحمد لله،وحاضرها: الله أكبر، ومابقي المملوك يستبطيء خبر أنطاكية، فقد ألقت الأرض افلاذها، وقد ولدت لكرمه ذهبها، ولنصره فولاذها، ولم نر في نعم الله مثلها نعمة كريمة وجيهه، ولانعرف

بعدها للزمن سيئة ولاكريهة، إلا أنا نرجع في معرفة قدرها واخلاص شكرها إلى مارضيه الله شكراً ممن نجاه من أهوال يوم القيامة، وأدخله دار المقامة، بأنهم قالوا: (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن)(٧٦) (الحمد لله الذي صدقنا وعده)(٨٠) (الحمد لله الذي هدانا لهذا)(٨١) (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)(٨٢) فرضي بالحمد منهم، ورضي عنهم، وأثنى عليهم بأنهم اختتموا به، وافتتحوا، وقدّسوا به وسحبوا، وثقلت به موازين أعمالهم،فرجحوا ونجحوا، ونحن نقول: الحمد لله على بهجة الدنيا بمولانا ونضرتها، وعلى عزة الملة به ونصرتها، وعلى بهجة القلوب به ومسرتها، وعلى غنى الأيدي به وميرتها، وعلى روعة قلوب الأعداء به وحسرتها (وإن تُعدوا نعمة الله لاتحصوها)(٨٣) وفتوح مولانا من تلك النعم، وإن قصرنا في شكرها فما نقصر في ذكرها، وإن عجزنا عن حصرها، فما نعجز عن المعرفة بفضل قدرها، وتلك النعم بحمد الله منتظمة العقود، مطردة السعود، متوافية الرسل، عامرة السبل خارقة العوائد قارنة المساعي بالمساعد، كادت العيون قبل وقوعها تلحظها، وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها، فما يشرح صدر من خبرها، فيسمعه ذو صدر إلا إنشرح، ومايسأل الناس هل فتح الملك الناصر، وإنما يقال ماسم البلد الذي فتح؟ فمن عند مولانا الجنان، ومن عندنا اللسان، وعليه الجهد، وعلينا الحمد، فهي فتوح كثمرات الجنة، لامقطوعة ولاممنوعة، وأعمالها المبرورة إلى الله مرفوعة.

ومن قصيدة للشهاب فتيان الشاغوري وقد تقدم بعضها:

لما ملكت حصون انطاكية
يئس الصليب وحزبه من مظهر

أرديت كل مثلث متكبر
بموحد متواضع ومكبر

برزت إلى برزيه عزمتك التي
مدّت يداً عن مطلب لم يقصر

فتنــــاولتــــه بــــأيــــدهــــا مــــن بــــاذخ

في الافـــــق ذي مثــــــل يــــــروع مسير

فــــانهض لصـــــور فهـــي أحســـن صـــورة

في هيكــــل الــــدنيــــا بــــدت لمصــــوّر

مــــاســــور صــــور عــــاصــم منــــه وهــــل

ســـور المعـــاصـــم عـــاصـــم لمســـوّر

فصل

في فتح حصن دربساك

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب، وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية، يسر الله فتحها، فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات، وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها، وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها. قال: ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين، واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان واشترطوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير، ورقي عليهم العلم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشر رجب، وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر، وسار عنها من الغد بكرة السبت.

وقال العماد: ثم عبر نهر العاصي إلى شرقيه عند شقيف دركوش، وهو ثغر على الغزاة للإسلام منيع، فجزناه وخيمنا على جسر الحديد أياما، حتى استكمل العسكر راحاته وتكامل ونحن بقرب انطاكية، وقد صوّبنا إليها عزائمنا الناكية، ثم قلنا قدامها حصون وحماها بحمايتها مصون، فإذا ذهبت معاقلها، جاءتها غوائلها، فنزلنا على دربساك، وهو حصن للداوية وقد اعتصموا بعصمته، وامتنعوا بمنعته، فنصبنا عليه المنجنيقات، فما زالوا يجالدون ويتجلدون إلى أن ضاق بهم الخناق، وتسلق النقابون إلى الباشورة وهدوا بالنقب برجاً، ووسعوا للزحف نهجاً فطلبوا الأمان وفدوا أنفسهم بألوف فأومنوا على أنهم يخرجون بهوانهم، وثياب أبدانهم، ويدعون كل مافي الحصن من خيل وعدّة وذخيرة وغله

واثاث وقماش وذهب وفضة، وأمهلوا ثلاثة أيـام، ثم أخرجوا من ديارهم، وتسلم الحصن يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب.

في بعض الكتب العمادية: «هذه المكاتبة مبشرة بالفتح الأهنى والنصر الأسنى، وهو فتح دربساك الذي لم يكـن لأنطاكية إلا به الامتساك، وقد قص الآن جناحها، وقل سلاحها، وحـق قرحها وبطل اقتراحها، وخرجت بـاخراج حصـونها مـن ولايتهـا أرواحها، وقـد بقيـت غـرضاً للعسكـر، وعرضا بلا جوهر، وشبحاً بغير روح، وصدراً غير مشروح، والكفر مفجوع بـالنفس والبلـد، والأمل والـولد، ونحـن لاراحة لنـا إلا في هذا التعـب، ولاأرب لنا في غير هـذا الأرب، ولااجتهاد لنا إلا في الجهاد، ولامغـزى لنا غير الغزاة، ومانـرجو من الله إلا انجاز العدات في جميـع العداة، أصبحنا يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المثلثين، وبـان صباح الموحدين وأبينا أمانهم إلا أن يفـدوا نفوسهـم، وينـزعـوا من الحرب لبـوسهـم، ويخلعـوا بأسهـم ويلبسوا بوسهـم، وينجوا بثياب أبدانهم، وقد أدّوا خمسـة آلاف دينار من أثمانهم.

فصل

في فتح بغراس

قال القاضي ابن شدّاد: وهي أيضاً قلعة منيعة أقرب إلى انطاكية من دربساك، وكانت كثيرة العدة والرجال، فنزل العسكر في مرج لها، وأحدق العسكر بها جريدة، مع أنا احتجنا في تلك المنزلة إلى يزك يحفظ من جانب أنطاكية، لئلا يخرج منها من يهجم على العسكر، فضرب يزك الإسلام على باب أنطاكية، بحيث لايشذ عنه من يخرج منها.

قال: وأنا ممن كان في اليزك في بعض الأيام، لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيه عليه السلام. ولم نزل نقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان. على استئذان أنطاكية، ورقي العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان.

وقال العماد: ولما فتحت دربساك لم يبق لنا همة إلا بغراس، وقد شارف رجاء أكثر الناس في فتحه الياس، وهو حصن حصين، ومكان مكين، هو للداوية وجار ضباعها، وغاب سباعها، وهو بقرب أنطاكية حصارها وحصاره سواء، ومالدواء داويته دواء فنزل العسكر بين أنطاكية وبينه، يتقاضون منهما للدين دينه، ويشنون الغارات، ويسنون النكايات، ولايبرحون بازاء أنطاكية صفا يرمون، لأهلها فتحا وحتفاً يتناوبون على سبيل اليزك، ويدعون العدا إلى المعترك، وليس بينهما إلا النهر، فصعد السلطان جريدة إلى الجبل، وأمر بنصب المجانيق حولها على تلك التلل، ونقل إليها أحواض الماء وروايات، وبث في النواحي سراياه، وفرق على الجميع عطاياه، وأقمنا عليه اسبوعاً نجري إليه من كل منجنيق من فيض الحجارة ينبوعاً، ونحن نفكر فيما يكون، ومتى تتم الحركة وفيم السكون، وهذا بيكار يطول، وتعب لايزول، إذ رأينا باب الحصن وقد

فتح وخرج من الحصن من أخذ الامان لأهله، وسلم الحصن بما فيه من الأموال، وقدّر مافيه من الغلة تخمينا باثني عشر ألف غرارة، وسلمها السلطان مع دربساك إلى صاحب عزاز علم الدين سليما ن بن جندر، وكتبت عليه جميع مافي القلعتين من الموجود من المكيل والموزون والمعدود، وكانت الغلة بانطاكية غالية السعر، فقلت: كأني بمن تولى القلعة وقد باع الغلة وشفى من فقره بها الغلة، ثم أشار بتخريبها وهدمها، ولم يلترم بحكمها، وقال: ابقاؤها غرر، وحفظها على المسلمين ضرر وخطر، فجاء الأمر على ماحسبته بعد سنين، وعاد اخلاها بمضرة المؤمنين، فإنه أظهر ذلك الوقت أنه أخلاها، وأنه للتخريب خلاها، فجاء إليها مقدّم الأرمن ابن لاون فدخلها، وأتم غاراته وكملها، وذلك سنة سبع أو ثمان وثمانين، وهذان الحصنان دربساك وبغراس كانا لأنطاكية جناحين، ولطاغية الكفر سلاحين، فتم للسلطان فتح هذه الحصون المذكورة مع أبراج ومغارات وشقفان كثيرة، حتى خلص ذلك الإقليم، وتم الفتح العظيم، وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد، والصوامع جوامع، والمذابح لعبدة الشيطان مصارع.

فصل

في عهد الهدنة مع صاحب أنطاكية وعود السلطان

قال العماد: كان السلطان قد عزم على قصد أنطاكية، فرأى همم الأجناد، لاسيما الغرباء قد ضعفت، ونياتهم في الجهاد قد فترت. وتشوّقوا إلى البلاد والراحة من جهادهم، وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك، وعلم أنه إن قصد غلب، فنفذ أخا زوجته رسولاً إلى السلطان متذللاً يطلب الهدنة على أنه يطلق من عنده من أسارى المسلمين، وهم جمع كبير، فعقدها معهم مدة يسيرة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى انقضاء أيار، فيكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها، فيستريح فيها الأجناد، ويعودون بعدها إلى فرض الجهاد، فتم كتاب الهدنة وتوجه شمس الدولة ابن منقذ لتخليص الاسرى وانقاذهم منه.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي بقية ذلك اليوم يعني يوم فتح بغراس، وهو ثاني شعبان عاد السلطان إلى المخيم الأكبر، وراسله أهل انطاكية في طلب الصلح، فصالحهم لشدة ضجر العسكر، وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين أهل أنطاكية لاغير، على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم، وكان إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم من ينصرهم، وإلا سلموا البلد إلى السلطان، ثم رحل عنه يطلب دمشق، وسأله ولده الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه فدخلها حادي عشر شعبان، فأقام بقلعتها ثلاثة أيام، ثم سار إلى دمشق فاعترضه ابن أخيه تقي الدين وأصعده إلى قلعة حماة، وبات بها ليلة واحدة فأعطاه جبلة واللاذقية، وسار إلى بعلبك وأقام ببرجها يوماً ودخل حمامها، ثم أتى دمشق فأقام بها حتى دخل شهر رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه، وكان قد بقي له من

القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها صفد، وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال العماد: وودع السلطان عماد الدين صاحب سنجار والعساكر الغريبة، وأتحفهم بالتحف العجيبة، وارتاح إلى العبور على أرتاح. ووصل إلى جانب حلب وقد خرج كل من بها للتلقي مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقي، وشاهدنا من النظارة عيوناً للمحاسن ناظرة، ووجوها ناضرة، وقلوبا حاضرة، وألسنا شاكرة، وأيديا في بسطها إلى الله للابتهال بالدعاء متظاهرة، فأقام بقلعتها أياماً يسيرة، وألفى ولده الظاهر قد سار فيها أحسن سيرة. ثم سار منها على طريق المعرّة وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا المغربي عند مشهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فتبرك

بزيارة الميت والحي، ثم وصل إلى حماة فنزل بقلعتها، ومعه أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وهو عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا، وكان للسلطان في جميع الغزوات مصاحبا، وعلى معاضدته مواظبا، وماحضر معنا على بلد أوحصن إلا فتحناه، وكان السلطان يستوحش لغيبته، ويأنس بشيبته، وكان بجنب السلطان جالساً، ولنظره عليه حابساً ، وكانت قلعة حماه ذات تل منبطح، فلما تولاها تقي الدين رفع تلها وعمق خندقها وحصنها، فطلع السلطان تلك الليلة إلى القلعة، وسر بما رأى من الحصانة والرفعة، ووقف الملك المظفر لعمه وجرى في الخدمة على رسمه، وأصبح السلطان راحلاً، ولم يقم بحمص وجاء إلى بعلبك على طريق الزراعة واللبوة ووصل إلى دمشق قبل رمضان، وأشير على السلطان بأن يريح عسكره، فقد أحمد في عامه مورده ومصدره، وأربح في سبيل الله متجره، فقال: إن القدر غير مأمون، والعمر غير مضمون، وللفرص أوقات وللدهر آفات، وبقيت مع الكفر هذه الحصون، وإن لم نبادرها اختل أمرنا المصون، لاسيما صفد وكوكب فإنهما للداوية والاسبتارية في وسط البلاد، والثغور الإسلامية بهما

-٨٦٥٧-

واهية السـداد، فنخرج ونشتـو عندهما، ونقصـد قصدهما، فـإذا فتحناهما خلصت هذه البلاد، وصفت الأوراد.

قـال: فما لبث السلطـان ولامكـث، ولانقض عهـد عـزمه على الغـزاة ولانكث، وقال: لانبطل الغزوه ولانعطل هذه الشتوه.

فصل

في فتح الكرك وحصونه

قال العماد: ووردت البشرى بنحج الدرك، في تسليم حصن الكرك، وذلك أنهما في مدّة غيبتنا في بلاد انطاكية، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية، وكان الملك العادل أخو السلطان مقيما بتبنين في العساكر، محترزاً على البلاد من غائلة العدو الكافر، أقامه السلطان هنالك عند توجهه إلى البلاد الشمالية، لقصد جبلة واللاذقية، فأقام بتبنين مقوياً للأمراء المرتبين على الحصون، حافظاً على الدهماء بحركته في الأمور عادة السكون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلاً، وبأهله منكلاً، قد غلق رهنه وبقي حصاره معضلاً، وأمره مشكلاً، حتى فنيت أزوادهم، ونفدت موادهم، ويئسوا من نجدة تأتيهم، وأمحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم، فتوسلوا بالملك العادل، وأبدوا له ضراعة السائل، فما زالت الرسالات تتردد، والاقتراحات تتجدد، والقوم يلينون والعادل يتشدد، حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة، وخلصوا بإقامة عذرهم عند قومهم من الملامة، وتسلم سعد الدين بعدها الحصون التي بقربها كالشوبك، وهرمز، والوعر، وسلع.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها، وخلصوه بها من الأسر، وكان أسر في وقعة حطين المباركة.

وكتب العماد في بعض البشائر: «سلم حصن الكرك وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز، وقد نصب اشراك شركه منه على طرف الاجتياز، فأذقناه عام أوّل كأس الحمام، وتملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام، واضطر الكفر في إسلامه إلى الاسلام، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام».

-٨٦٥٩-

وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان شفاعة: «أدام الله سلطان مولانا الملك الناصر وثبته، وتقبل عمله بقبول حسن وأنبته، وأخذ عدوّه قائلاً أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكبته، خدمة المملوك هذه واردة على يد فلان، خطيب عيذاب، ولما نبابه المنزل منها، وقل عليه المرفق فيها ، وسمع بهذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرها، وحصل لمن جرت على يده أجرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، ساريا في ليلة أمل كلها صباح فلا يسأل عن صبحها، وقد رغب في خطابة الكرك، وهو خطيب، وتوسل بالمملوك في هذا الملتمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام، ومن عيذاب إلى الكرك وهو عجيب، والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف ولطف الله تعالى بالخلق بوجود مولانا لطيف، ورأيه أعلى إن شاء الله تعالى»

- ٨٦٦٠ -

فصل

في فتح صفد

قال القـاضي ابن شـدّاد: ثم سـار في أوائل رمضان مـن دمشق يـريد صفد، ولم يلتفت إلى مفـارقة الأهل والوطـن والولد، في هذا الشهـر الذي يسافر الإنسـان أين كان ليجتمع فيـه بأهله، فأتـاها وهي قلعة منيعـة قد تقاطعت حـولها أودية من سائر جـوانبها، فأحدق العسكـر بها، ونصبت عليها المجـانيق، وكـانت الأمطار شـديدة، والـوحول عظيمـة، ولم يمنعه ذلك عن جدّه، ولقد كنت ليلة في خـدمته وقد عين مواضع خمسة مجانيق حتى تنصـب، فقال في تلك الليلة: مـاننام حتى ننصب الخمسـة، وسلم كل منجنيق إلى قوم ورسله تتواتر إليهـم يخبرونه ويعرفونهم كيف يصنعون حتى أطلنا الصباح وقد فرغت المنجنيقـات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فـرويت لـه الحديث المشهـور في الصحاح، وبشرتـه بمقتضاه وهـو قولـه صلى الله عليه وسلم: «عينـان لاتمسهما النار عين بـاتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله»

قال المؤلف: أخـرج الترمذي هذا الحديث، وقال: وهو حـديث حسن غريب.

قال: ولم يزل القتال متواصلاً بالنـوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوّال.

وقـال العماد: لما خرج السلطـان من دمشـق صحبه الفـاضل، وجعـل طريقه على مـرج برغوث، وعبر مخاضة الأحزان، وجـاء إلى صفد، وقد لان مـن فيها مـن الفرنـج وزادهم نفـد، فنزل عليـه في العشر الأوسط مـن رمضان، فضايقها ونصب المجانيق عليهـا إلى أن سلمها مقدمها في ثامن شوّال بـالأمان وراح إلى صور وقـد كانـوا عدموا القـوت، ووجدوا الموت

الموقوت، وعلموا أنهم إن لم تخرج صفد من أيديهم دخلت أرجلهم في الأصفاد، فتبرؤوا من الجذاذ والجلاد، وإنها كانت في عين الاسلام قذى، لايتوقع منها على الأيام إلا مضرة وأذى، فسهل الله صعبها، وأوطأ هضبها، وكشف عن البلاد كربها، وقذف في قلوب أهلها رعبها، فخرجوا مذعنين، واستسلموا مسلمين، وتبرؤوا من حصنهم، ونزلوا بهوانهم ووهنهم، وأحضروا رهائنهم للإستمهال في نقل متاعهم، وندموا على ما كان من امتناعهم.

قال: واجتمع الفرنج بصور ونحن نضايق حصن صفد، وقالوا: متى فتحت صفد فإن كوكب لاتمتنع، وأملنا عن حفظها ينقطع، والرأي أن نجرد لها نجدة لعلها تثبت إلى أن توافينا من البحر ملوكنا، فسيروا مائتي رجل فتفرقوا في تلك الأودية يكمنون في الشعاب والهضاب، واتفق أن أميراً من أصحابنا خرج متقنصاً فوقع أحدهم في قنصه، وحصل طائر منهم في قفصه، فاستغرب وجوده في ذلك المكان فهدّده وتوعده وأقامه للعذاب وأقعده حتى دل على مكمن ذئابه، فما أحسوا إلا بصارم الدين قايماز النجمي وأجناده إلا وقد نزلوا عليهم في آكام ذلك الشعب ووهاده، فتلقطوهم من كل غار ووجار، ولم يهتد أحد من أولئك الضلال إلى نهج فرار، فما شعرنا ونحن على صفد للحصار،حتى وصل صاحب قايماز بالأسارى مقرنين في الاصفاد، مقودين في الاقياد، وكان فيهما مقدمان من الاسبتار، وقد أشفيا على البتار، فإن السلطان رحمه الله ماكان يبقي على أحد من الاسبتارية والداوية، فأحضرا عند السلطان للمنية، فأنطقهما الله بما فيه حياتهما، وناجيا بما به نجاتهما، وقالا عند دخولهما: مانظن أننا بعدما شافهناك يلحقنا سوء فعرفت أن بقاءهما مرجو، فمال إلى مقالهما، وأمر باعتقالهما فإن تلك الكلمة حركت منه الكرم، وحقنت منهما الدم، وفتح الله علينا صفد ثامن شوال. حين فرغنا من صوم ست منه بعد صوم رمضان، وجمعنا بين فضيلتي الصوم

والجهاد، وسلمت قلعة صفد إلى شجاع الـدين طغرل الجاندار، واستبشرنا بانعكاس ماأحكمه الكفار.

فصل

في فتح حصن كوكب

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار رحمة الله عليه يريد كوكب، فنزل على سطح الجبل، وجرد العسكر، وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نشاب العدوّ، وبنى له حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه، والنشاب يتجاوزه، ولايقدر أن يقف أحد على باب خيمته إلا أن يكون ملبساً، وكانت الأمطار متواترة، والوحول بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة عظيمة، وعانى شدائد وأهوالاً من شدة الرياح وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلوّ مكانه، وجرح وقتل جماعة، ولم يزل راكباً مركب الجد رحمه الله حتى تمكن النقب من سورها، ولما أحس العدوّ المخذول بالنقب، وقد تمكن من السور علم أنه مخذول مأخوذ، فطلب الأمان فأمنهم وتسلمها في منتصف ذي العقدة، ونزل إلى الغور إلى الثقل، وكان قد أنزل الثقل من شدة الوحل والريح في سطح الجبل.

وقال العماد: وجئنا إلى كوكب، فوجدناها في مناط الكوكب، كأنها وكر العنقاء، ومنزل العوّاء، قد نزلتها كلاب عاوية ونزغت بها ذئاب غاوية، وقالوا : لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار، وخلصه إلى الأبد من العار، ولابد من عود الفرنج إلى هذه الديار فنتشدد للانتظار.

ثم وصف القتال بالرمي والمنجنيق، والنقب والتعليق والحفر والتعميق، والحصر والتضييق، ثم قال: وكان الوقت صعباً والغيث سكباً وتكاثرت السيول، وتكاثفت الوحول، ودامت الديم لدموعها مريقة، وبقيت الخيم في الطين غريقة، وكنا في شغل شاغل من تقلع الأوتاد وتوتد الاقدام، ووهي الاطناب ووقوع الخيام وقد عادت الخيام

مناخل الانـداء، والانوار معدومة لـوجود الأنواء، وماء الشرب مفقـود مع سيـول الماء، والرواحـل في الطين باركـة وهي للعلـف تاركـة، والطريـق زلقة، وهـي مع سعتهـا ضيقة، فنقـل السلطان خيمتـه إلى قرب المكـان لتقريب وجوه الامكان، وبني له من الحجـارة ماصار نه كالستاره، ونزلت الاثقال والخيم إلى أسفل التل بالغور، وأقام السلطان على محاصرة الحصن ومصـابرتـه، ونحن نـركب إليـه من الخيـام بكرة وعشيـة للسلام، وتنفيـذ المهام، حتـى بلغ الـرجال أماكـن النقوب، وتمكـن لهم المطلوب، فشرع الكفرة في التذلل، وسلموا الحصن بالأمـان، وعرضه على جماعة فلم يقبل ولايته أحـد سوى قـايماز النجمي على كـره منه، وذلـك في منتصف ذي القعدة، ونزل السلطان إلى المخيم بالغور.

ومن كتاب فـاضلي إلى سيف الاسلام باليمن عـن السلطان: «مما تجدد بحضرتنـا فتح كـوكـب، وهي كـرسي الاسبتاريـة ودار كفـرهم، ومستقـر صـاحب أمـرهم، ومـوضع سـلاحهم وذخـرهم، وكـان بمجمع الطـرق قاعـداً، وللملتقى السبل راصداً ، فتغلقـت بفتحه بلاد الفتح واستـوطنت، وسلكت طرقها وأمنت، وعمرت بـلادها وسكنت، ولم يبق في هذا الجانب إلاصور، ولولا أن البحر ينجـدها والمراكب تردها لكان قيـادها قد أمكن وجماحها قـد أذعن، وماهـم بحمد الله في حصن يحميهـم، بل في سجين يحويهم، بل هم أسارى، وإن كانوا طلقاء، وأمـواتاً وإن كانوا أحياء، قال الله تعالى: (فـلا تعجل عليهـم إنما نعدّ لهم عـدا)[٨٤] ،وكان نـزولنا على كوكب بعد أن فتحنا صفد بلد الداويـة المصونة، وفتحنا الكرك وحصونه، والمجلس السـامي أعلـم بما كان على الإسـلام من مـؤنته المثقلـة وقضيته المشكلـة، وعلتـه المعضلة، والله تعـالى المشكـور على مـاطوى مـن كلمـة الكفر، ونشر من كلمة الإسلام، فإن بـلاد الشام اليوم (لايسمع فيها لغو ولاتأثيراً إلا قيلا سلامـاً سلاماً)[٨٥] فـ(ادخلوها بسلام)[٨٦] وكان نزولنا على كوكـب والشتاء في كـوكبه، وقد طلـع من الأنـواء في موكبـه والثلوج تنشر على الجبال طـي ملائهـا، والأودية قـد عجت بمائهـا وفاضـت عند

امتلائهـا، فشمخت أنوفهـا سيولاً، وخـرقت الأرض وبلغت الجبـال طولاً والأوحـال اعتقلـت الطـرقـات، ومشـى المطلـق فيهـا مشيـة الأسير في الحلقات فتجشمنـا العناء نحن ورجـال العسآكر، وكابـرنا العدوّ والـزمان وقد تحرّز الحظ المكابـر، وعلم الله النية فأنجدها بفعلهـا، وضمير الأمانة فأعـان على حملها، ونزلنـا من رؤوس الجبـال منازل كان الاستقـرار عليها أصعب مـن ثقلها» ثم قـال: «والآن فالمجلس السـامي يعلم أن الفـرنج لايسلـون عما فتحنـا، ولايصبرون على مـاجـرحنـا، وأنهم لعنهـم الله أمـم لاتحصى، وجيوش لاتستقصى، ويد الله فـوق أيديهم، و(سيجعل الله بعد عسر يسرا)(٨٧) وماهم إلا كلاب قد تعـاوت، وشياطين قد تغاوت وإن لم يقذفـوا من كل جانـب استأسدوا واستكلبوا، وكـانوا لباطلهم الـداحض أنصر منا لحقنا الناهض، وقد كتب المستخـدمون بالاسكندرية، وصاحب قسطنطينيـة، والثغور المغـربية ينـذرون بـأن العدوّ قـد أجمع أمراً، وحـاول نكراً، وغضبـوا زادهم الله غضباً، وأوقـدوا ناراً للحرب جعلهـا الله عليهم حطباً، وسلـوا سيوفـاً للبغي لايبعـد أن يكونـوا أغمادها، وتـواعدت جموع ضـلالتهـم أخلـف الله ميعـادهـا، وأمـا نحـن فبـالله نـدفـع مـانطيـق، ومالانطيق، وإليه نرغب في أن يثبت قلوبنـا إذا كادت تزيغ قلوب فريق، ونحـن الآن نستنجد أخـانا ونـدعوه إلى مـالـه دعينا، ونـؤمل مـن الله أن ينصرنـا دنيا ودينـا، ونـرجـو أن يمدنـا بنفسـه سريعـاً وبعسكره جميعـاً، وبذخـره الذي كان لمثلـه مجموعاً، وأن يلبيهـا دعوة إما أن يطيـع بها ربه لأنها دعوتـه، وإما أن ينصر بها نبيه صلى الله عليـه وسلم فـإنها شريعته، وإما أن يعين بها أخاه فإنها شدّة الاسلام لاشدّته، هذا وإن كان المجلس قد قعد عنا ولم يعدنا في مرض الاجسـام، فلا يقعد عنا في مرض الإسلام، فالبدار البدار، فـإن لم يكن الشام له بدار فما اليمن لـه بدار،والجنة الجنة فإنها لاتنـال إلا بإيقاد الحرب على أهل النـار، والهمة الهمة، فـإن البحار لاتلقى إلا بالبحـار، والملوك الكبار لايقف في وجوههـا إلا الملوك الكبار، وفي هذه السنـة ننزل على أنطاكيـة، وينزل ولدنـا المظفر تقي الـدين على

اطـرابلس، ويستقـرّ الـركاب الملكـي العـادلي بمصر لأنها مـذكورة عنـد العدوّ أنها تطـرق، وأن الطلب على مصر والشام منـه يفرق، ولاغنـى عن أن يكون المجلـس السيفي بحرا في بـلاد الساحـل يزخر سـلاحاً، ويجرد سيفاً يكون على مافتحنا قفلاً، ولما لم يفتح بعد مفتاحا، ومايدعى للعظيم إلا العظيم، ولايـرجى لموقـف الصبر الكريم إلا الكـريم، هـذا والأقدار جارية، ومشيئة الله ماضية، فإن يشـأ ينصرنا على العدد المضعف، بالعدد الأضعف، فإنا لانـرتاب بأن الله تعالى مافتح علينـا هذه الفتوح ليغلقها، ولاجمع علينـا هذه الأمـة ليفرقهـا، وإنما يـؤثر أن يتسـاهم آل أيـوب في ميراثهم منـه مواقف الصبر، ومطـالع النصر، ولايسرنـا أن ينقضي عمره في قتـال غير الكافـر، ونزال غير الكفـر المناطـر، فـإنما هي سفـرة قاصـدة. وزجرة واحـدة ، فإذا هـو قد بيـض الصحيفة والـوجه والـذكر، فليحضر وليشاهد أولاد أخيه يستشعرون لفراقه غماً، قد عـاشوا ماعاشوا ولايعرفون إن لهم مع عمهم عماً».

وله إليـه من كتاب آخر وكـأنه بعد اعتذاره عـن الحضور: «المولى على حسب اختيـاره إن سار فمثله من سـار وسر، وقاد الجيش وجـرّ، ونفع الولي وضر العـدوّ الذي أضر، وإن أقـام فالعـذر الذي أقعـده، واشفاق السلطان عن نصره الذي ردّه عن وجهـه، والرأي الذي ردّده، فلا يكن في صدره مـن الأمريـن حرج، ولايخف استقصـار عزمـه إن ركد أو خـرج، فمكانه مكـانه من القلب، وودّه ودّه، وله من اللسـان حمده، وهو سيف الاسلام إن ضرب فبحدّه، أو صين ففي غمده لازال المولى منوها باسمه، ومرفها في جسمه، ومجرداً سيـف عزمه، وسعيداً بحكم التوفيـق، فلا خرج التوفيق عن حكمه».

ومن كتاب عمادي إلى الديوان بفتح الكـرك والشوبك وصفد وكوكب يقول فيـه: « والآن فقد خلص لنا جميـع مملكة القدس وحدهـا في سمت مصر من العـريش، وعلى صوب الحجاز مـن الكرك والشوبـك، وتشتمل

على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور. وفتح أيضاً جميع اقليم انطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن، وحدّه من أقصى بلاد جبلة واللاذقية إلى بلاد ابن لاون، وبقيت أنطاكية بمفردها والقصير من حصونها، ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها، ولم تخل عما كانت عليه حالها سوى طرابلس، فإنها لم يفتح منها إلا مدينة جبيل، وقد سحبت عليها المهلة الذيل، ومعاقلها باقية، وليس لها من عذاب الله الواقع واقية، والخادم الآن على التوجه إليها وعزم النزول عليها ،و أنه قدرتب الجانب القبلي، والبلد القدسي، وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والأموال ، وآلات العدد، والعدد المتواصل الممدد، ورتب فيها ولده الأفضل عليا لحمايتها وحفظ ولايتها، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ولما فرغ السلطان من شغل القلاع ونزل إلى الوهاد من التلاع، تجدد للأجل الفاضل عزم مصر، فركب السلطان معه للوداع، ثم تحول إلى صحراء بيسان وأقام بها إلى مستهل ذي الحجة، ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل، وسلكا طريق الغور إلى القدس ووصله يوم الجمعة ثامن الشهر، وهويوم التروية، وصلى الجمعة في قبة الصخرة، وعيد بها يوم الأحد عيد الأضحى، وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها، ونظم أسباب أحكامها، ثم أذن للعادل في العود إلى مصر لمساعدة ولده العزيز، وودّعه وأعطاه الكرك، وأخذ منه عسقلان.

قال ابن شداد: ورحل على سمت عكا بعسكره موفقا في مورده ومصدره، فما عبر ببلد إلا قوى عدده وكثر عدده، وانفصل العماد عن خدمته إلى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبه الامكان، ومازال منفصلاً عنه إلى أن وصل السلطان دمشق بعد شهرين مستهل صفر من السنة الجديدة.

وفي هذه السنة في الثالث والعشرين من رمضان توفي الأمير مجد الدين مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقد، وكان مولده بشيزر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة فبلغ عمره ستاوتسعين سنة.

وفيها في الثامن والعشرين من جمادى الأول توفي الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمذاني ببغداد، صاحب المصنفات على صغر سنه، منها: العجالة، والناسخ وغيرهما، ومولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

قال العماد : ووصل كتاب من مصر ونحن على حصار صفد أن إثني عشر رجلاً أعلنوا بشعار أهل القصر ودخلوا من باب زويلة إلى قرب الصياقلة مجذوبي السيوف لادالة الدولة الزاهقة، ونصرة الدعوة الباطلة، وهم ينادون يال علي، وفي زعمهم أنهم يقبلون بالصولة، ويقلبون بالباس لباس الدولة، ويخالون أنهم إذا ثاروا أثاروا، وإذا داروا أداروا، فما اكترث بهم مكترث، ولاانبعث إليهم منبعث، فلما تحققوا أنهم لامجيب لهم ولاداع تفرّقوا في الدروب واضمحلوا، وكانوا عقدوا على الوفاءفانحلوا، ثم أخذوا ووقذوا، واعتقلوا ولم يستنقذوا، ولما علم السلطان بهذا الأمر عراه الهم، وتضجر بمن على بابه من وفود مصر وقال: إلى متى نتحمل منهم هذا الوهم، فطردهم وردعهم وردهم، وكان قد وفد إلى باب السلطان جماعة من أولاد الوزراء المصريين، والأمراء بها المقدمين، ومن أهل المعروف بالمعروفين، ووافق ذلك دخول الفاضل إليه فأخبره بالخبر، فقال له: يجب أن تشكر الله على هذه النعمة، فقد عرفت بهذا طاعة رعيتك، وموافقة نياتهم لنيتك، أليس لم يلب دعوتهم أحد، ولم يكن من ورائهم مدد، فطب نفساً ، وزد عند الله أنساً، فقال السلطان: كان الملوك قبلي تخافهم وتهرب منهم الرعية، وتتوقع منهم البلية، والآن فقد تكاثروا علينا، وتوافدوا إلينا حتى اضجرونا وأملونا ونفرونا، فاذا ركبنا أو نزلنا تعاورونا بالقصص، وساورونا بالغصص، فقال له: أنت أولى بشكر الله على هذه العارفة: كان بمصر من صاحب القصر وأشياعه، وخدمه وأتباعه، وأمرائه وخواصه، وذوي استخلاصه وجهاته والزامه،كل من كان يرتع الخلق في رياض انعامه، وكان بالشام في كل بلد وال وصاحب له على أهله نعم ومواهب، وملوك يلوذ بهم الاقارب والأجانب، واليوم أنت سلطان الجميع، وقد ردّ الله الآمال في تلك الصنائع كلها إلى مالك من حسن الصنيع، وقد اجتمع أولئك المتفرقون على بابك، ووفدوا إلى جنابك، فلا يجدون بعد الله إلاّ جودك، فأكرم وفودك، فأغرورقت بالدموع عيناه، وبالسماح يداه، وأقسم أنه ما عاش

لايرد قاصداً ولايصدّ وافداً ،وتقدم في الحال بقضاء حقوق الوافدين، وانجاح آمال القاصدين.

قلت: وكتب إلى السلطان في هذا المعنى أبو الفتح سبط التعاويذي من بغداد:

فلا يضجرنك ازدحام الوفود
عليك وكثرة ما تبذل

فانك في زمن ليس فيه
جواد سواك مفضل

وقد قل أهله المنعمون
وقد كثر البائس المرمل

وما فيه غيرك من يستماح
وما فيه إلاّك من يسأل(٨٨)

وقرأت رقعة بخط الفاضل: «المملوك ينهي وصول فخر الكتاب الجويني، وقد كاد يهلك من لهب الحر والمشقة في السير، وكيف يكون حال ابن السبعين مع المرض اللازم والقولنج الدائم، ونحافة الأعضاء وضعف القوة واستشعار انقطاع الرزق الذي هو نظير انقطاع العمر، وما أظن أن الله أجرى على يد المولى ولافرح عدوّا له بأن ينقطع رزق مثل هذا البقية الحسنة والضيف الراحل، والأديب الفاضل في أيام مولانا التي هي تاريخ الكرم، ومواسم النعم». وفي آخرها: «ومما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته اقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار بشهادة الله، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار» وفوق الرقعة بالخط الصلاحي: «وقفت على رقعة القاضي الفاضل، ومايقطع لأحد رزق إن شاء الله تعالى، بل هي علالات نحن مثل الغريم المنكسر نرضى لذا ببال ذا، و على الجملة ماتقدمت بقطع رزق أحد والورقة قد علمت أكتب فيها الذي لها ولغيرهما إن شاء الله تعالى». وكان في آخر

الرقعة ذكـر الجمال الخيفي، وكأنه كـان له مثل حاجـة الجويني، رحـم الله الكل أجمعين.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

قال العماد: والسلطان في عكا نافذ الأمر، نابه القدر، فأحكم أمرها، وكشف ضرها واستحضر جماعة من مصر يحمي بهم الثغر، فما انفصل حتى وصلوا واتبعوا أمره وامتثلوا، وتقدم إلى بهاء الدين قراقوش باتمام العمارات وولى حسام الدين بشارة، وعوّل عليه في الولاية، والحفظ والحماية.

وقال القاضي ابن شداد: أقام بعكا معظم المحرم يصلح أحوالها، ورتب فيها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والاطناب فيه، ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق فدخلها مستهل صفر.

قال العماد: وولى مملوكه فارس الدين كشتغدي شهرزور وأعمالها، وكان قد تزوج بأخت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق، فولاه ذلك لقرب الولاية القفجاقية من الشهر زوريه، وقصد حصول المناصرة بحكم المصاهرة.

قال: وحكم السلطان بدر الدين مودوداً في ولاية دمشق، وجدّد له منشوراً بانشائي وفيه: «وقد قلدناه أمر دمشق وجهاتها، وأعمالها، والعشري والزكوات وكل مايجري في الديوان ومايبتاع للخزانة، وولاية المرج والغوطة ومايضاف إليها من الاعمال،وولاية الجبل ووادي بردا ويبوس وتولي الشحنكيات وحفظ الطرقات».

ثم رحل السلطان إلى طبرية فألحقها بمعدلته العمرية، ثم وصل وأقام بدمشق شهر صفر، ووجه الدين به قد سفر، وعز من آمن وذل من كفر، وبدأ بحضور دار العدل، وحكم بالشرع المطهر.

ووصل في ثاني عشر صفر رسول الديوان ضياء الدين عبد الوهاب

ابن سكينة، والـوزير يومئذ معـز الدين بن حـديدة، يأمر بـالخطبة لولي العهـد عدة الـدين أبي الفضـل نصر محمد بـن الامام النـاصر، فاستقبلـه السلطان وأولاده وأمـراؤه وأجناده، وخطـب له بـذلك يـوم الجمعة ثـالث عشر صفر خطيـب دمشق ضياء الـدين أبو القاسـم عبد الملك بـن زيد الدولعـي، فلما انقضت الخطبـة وعاد الـرسول سير السلطـان معه رسـوله ضياء الديـن القاسم بن يحيى الشهرزوري، وسيرت معـه الهدايا والتحف السنـايا، وأسـارى الفـرنـج الفوارس، وعـددهـا النفـائس، وتاج ملكهـم السليـب والملبـوس والطيـب والصليـب. وهــو الـذي كـان فـوق القبـة بالصخرة المقـدسة، ليدل على تطهير ما كان هناك مـن الأسباب المدنسة، وسار الضياء ان رسـولهم ورسول السلطان، ودخلا بغداد وأسـارى الفرنج على هيئتها يـوم فراغها راكبـة حصنها في طوارقهـا وبيارقها وأدراعهـا، قد نكست بنودها، واتعست أنوفها، وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها.

قلت: وقال ابن القادسي: قدم ابـن الشهرزوي ومعه صليب الصلبوت الذي تعظمه النصـارى فدفن تحت عتبة باب النـوبي الشريف يتبين منه شيء قليل، وكان من نحـاس وقد طلي بالذهب، فجعل يـداس بالأرجل ويبصـق النـاس عليـه، وذلـك في سادس عشر ريبـع الآخـر، كـذا قـال صليب الصلبوت، وقد نص العماد في البرق على أنه الصليب الذي كان فوق الصخرة وهذا غير ذلك، والله أعلم.

ثـم إن الخليفـة النـاصر اعتقـل ابنه هـذا بعـد مـدّة في سنـة احـدى وستمائة، وأراده على خلع نفسه مـن ولاية العهد ففعل وأشهـد على نفسه بذلك، ثم قضـى الله سبحانه أن عادت إليه ولاية العهـد في أواخر عمره، فخطب له بذلك، ونقش اسمه على الـدينار والدرهم، إلى أن توفي الناصر سنـة اثنتين وعشريـن، وتـولى بعـده فأقـام نحـو تسعـة أشهـر ، وتلقـب بالظـاهر، ثم تـوفي وولي ابنه المستنصر المنسـوب إليه المدرسة ببغـداد، ثم تـوفي سنـة أربعين، وولي ابنـه المستعصـم بـالله وهـوالخليفـة الآن، والله المستعان.

فصل

في فتح شقيف ارنون

قال القاضي ابن شداد: وهو موضع حصين، قريب من بانياس، خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع الأول، فسار حتى نزل في مرج فلوس، ونزل من الغد يوم السبت في مرج برغوث، فأقام به والعساكر تتابع إلى حادي عشر، ورحل إلى بانياس ومنها إلى مرج عيون، فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه، ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب، فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف، والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد، وصاحب الشقيف يرى مايتيقن معه عدم السلامة، فرأى أن اصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته، فنزل بنفسه وماأحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده أناة، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلم إليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق فإنه لايقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج، واقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وأنه يمكن من الاقامة بموضعه، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور، ويأخذ مغل هذه السنة، فأجيب إلى ذلك كله، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت ويناظرنا في صحة دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه، ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل مافعله من المهلة غيلة

لأنه صادق في ذلك وإنما قصد به تدفيع الزمان، وظهرت لذلك مخايل كثيرة من الخوض في تحصيل الميره، وإتقان الأبواب، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع من دخول نجدة وميرة إليه، وأظهر أن سبب ذلك شدة حمو الزمان، والفرار من وخم المرج، فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فماطله السلطان، وماآنسه وقال: نفكر في ذلك ونجمع الجماعة، ونأخذ رأيهم، ثم وكل به من حيث لايشعر إلى أن كان من أمره ماسيذكر.

قال: وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشوبك، وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدّة سنة حتى فرغت أزوادهم وسلموه بالامان.

وقال العماد: كان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، وقد أكمل في حفظه الاحتياط، فنزل إلى خدمة السلطان وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر أنه محترز من علم المركيس لعنه الله بحاله ، فلا يسلم من جهله وحينئذ يسلم الموضع بما فيه ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه، ويخدمه على اقطاع يغنيه، وعن حب أهل دينه يسليه، فأكرمه وقربه، وقضى أربه، وأجابه إلى ما سأله، وقبل منه عزيزاً مابذله بذله، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة ووجد إليه سكوناً وسكينة، فشرع أرناط في إزالة وهنه ، وترميم مستهدمة وتوفير غلاله، وتدبير أحواله ونحن في غرة من تحفظه، وفي سنة من تيقظه، وكان يبتاع من عسكرنا الميرة، ويكثر فيه الذخيرة، وقد أضمر الغدر، وظن أن له النصر، والسلطان حسن الظن به، يحمل صدق الواشي به على كذبه، وكان انتهاء المدة يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة، وأقام السلطان بالمرج ينتظر انسلاخ الهدنة وتسليم الحصن، وخاف إن فارقه أن تجيء امداد الفرنج اليه، وكان مشفقا أيضا من جانب أنطاكية لانتهاء أشهر هدنتها، فكتب إلى تقي الدين بالمقام في تلك الخطة، وسير بذلك

الفقيه عيسى الهكاري، ولم يستدع إلا صاحب آمد قطب الدين سكمان ابن قرا أرسلان، فجاء في أمداده وأعداده، ولازم السلطان فلما قرب انتهاء مدّة صاحب الشقيف أحضره السلطان فتضرّع، وقال: إن قومي إلى الآن لم يخلصوا من صور، وقد أنعمت فأتمم وسأل أن تكون المهلة سنة، فعرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب، فكلمه بإيناس وما ردّه بياس، فأرخى طوله، وأرجى أمله، وأمر السلطان بتحويل الخيم إلى ظهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقي من الهدنة يومان، فتضور صاحب الحصن فقيل له تقيم عندنا في كنف الأمان، فبكى وتألم من ضبطه وانكشفت سريرته الغادرة، فأمربحمله إلى الشقيف حتى يسلمه ووكل به وحفظ من حيث لايعلم، وقيل لعله يحسن ولايحوج إلى المقابحة ويسلم، وقيل له قد بقي يومان من المدة تقيم حتى تنتهي وتسلم، فأبدى ضرورة وضراعة وقال: سمعاً وطاعة، وكان له ملقى وملق، وفي لسانه ذلق، وماعنده من كل ماتفرق فرق، وقال: أنا أنفذ إلى نوابي في التسليم، وهو قد تقدّم إليهم بالوصية والتعليم، فأظهروا عصيانه، وقالوا يبقى مكانه، فقيد وحمل إلى قلعة بانياس، وبطل الرجاء فيه وبان الياس، ثم استحضر في سادس رجب وهدده وتوعده، فلما لم يفد خطابه، ولم يجد عذابه، سيره إلى دمشق وسجنه ورتب عدة من الأمراء بملازمة حصر الحصن في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم.

فصل

وفي مدة مقام السلطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف أرنون ، اجتمعت الفرنج وجرت لهم مع المسلمين وقائع.

قال القاضي ابن شداد: كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان أنه إن أمر الملك من بها بتسليمها أطلقه، فأمرهم بتسليمها وسلموها، فطالبه الملك باطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد، أطلقه من انطرسوس واشترط عليه أن لايشهر في وجهه سيفاً أبداً، وأن يكون مملوكه وطليقه، فنكث لعنه الله وجمع الجموع وأتى صور يطلب الدخول إليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت، وكان المركيس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد وصرامة عظيمة، فقال له: إنني نائب الملوك الذين وراء البحر وماأذنوا لي في تسليمها إليك، وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعاً على المسلمين وتجتمع العساكر التي بصور وغيرها من الفرنجية على المسلمين، وعسكروا على باب صور، ولما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وهي الأرض التي نحن عليها، فركب السلطان نحو اليزك فوصل وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض إليهم يزك الاسلام وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلوا ، ورموا في النهر جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الاخرش، وكان شجاعاً باسلاً مجر باً للحرب ممارساً فتقطر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني، ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا عليه فقتلوه، وفي يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأولى ركب السلطان يشرف على القوم على عادته ،

فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وحرص رحمه الله في ردهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم فإن المكان كان حرجاً ليس للراجل فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر ، وناوشوا العدوّ، وعبر منهم جماعة إليهم وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع لهم من الفرنج خلق عظيم وهم لايشعرون، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيداً منهم ولم يكن معه عسكز فإنه لم يخرج للقتال، وإنما ركب مستشرقاً عليهم على العادة في كل يوم، ولما بان له الوقعة، وظهر له غبارها، بعث إليهم من كان معه ليردوهم، فوجدوا الأ مر قد فرط، والفرنج قد تكاثروا، حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفراً عظيماً، وأسروا جماعة وعدّ من قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفرنج أيضاً عدة عظيمة وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدّم الألمانية، وكان عندهم عظيماً محترماً، واستشهد في ذلك اليوم من المعروفين من المسلمين الأمير غازي سعد الدين مسعود بن البصار، وكان شاباً حسناً شجاعاً، واحتسبه والده في سبيل الله، ولم تقطر من عينه عليه دمعة، على ماذكره جماعة لازموه.

قال: وهذه الوقعة لم يتفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المدة، ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين من هذه الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرّر معهم أنه يهجم على الفرنج، ويعبر على الجسر، ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ، فلما صمم العزم على ذلك، رحل الفرنج عائدين إلى صور ملتجئين إلى سورها، فرأى رحمه الله أن يسير إلى عكا ليلحظ مابني من سورها ويحث على الباقي، فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون، فمضى إلى عكا فرتب

أحوالها، وعـاد إلى العسكر بمـرج عيون منتظراً مهلـة صاحـب الشقيف، ولما كـان يوم السبـت سادس جمادى الآخـرة بلغـه أن جماعة مـن رجالـة العدوّ يتبسطـون، ويصلون إلى جبـل تبنين يحتطبون، وفي قلبـه من رجـالة المسلمين وماجرى عليهـم أمر عظيم ، فرأى أن يقرر قاعـدة كمين يرتبه لهم وبلغه أنهم يخرج وراءهـم أيضا خيل تحفظهـم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثـم أنفذ إلى عسكر تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عـابرين على تلك الـرجالة، وأن خيل العـدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهـة عينها لهم، وأن يكـون ذلـك صبيحـة الاثنين ثامـن جمادى الآخـرة، وأرسـل إلى عسكر عكـا أن يسير حتى يكـون وراء عسكر العـدو حتى إن تحركـوا في نصرة أصحـابهم قصدوا خيمهـم، وركب هـو وجحفلـه إلى الجهة التـي عينهـا لهزيمـة عسكـر تبنين حتـى قطـع تبنين، ورتـب العسكـر ثمانيـة أطلاب، واستخرج من كل طلب عشريـن فارساً وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهـروا إليهم ويناوشـوهم، وينهـزموا بين أيديهم حتـى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلـك وظهر لهم مـن الفرنـج معظم عسكـرهم يقـدّمهم الملـك لعنه الله، وجـرى بينهـم وبين هذه السريـة اليسيرة قتـال شديـد، والتزمـت السرية القتال وأنفـوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهـم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الخبر بالسلطـان في أواخر الأمر، وقد هجم الليل فبعـث بعوثـاً كثيرة فعاد الفـرنج نـاكصين على أعقابهم، وقتـل من الفـرنج عشرة أنفـس، ومن المسلمين ستـة: اثنان مـن الترك، وأربعة مـن العرب منهـم الأمير زامل، وكـان شاباً حسن الشبـاب يتقدم عشيرتـه، وكان سبب قتله أنـه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفـرسه فتقنطرت به أيضاً وأسر هو وثلاثـة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكـر قتلوهم خشية الاستنقاذ. وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة.

قال: ومن نـوادر هذه الوقعة أن مملوكـاً من مماليك السلطـان يقال له أيبك أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجـراحاته تشخب دماً، وبات ليله أجمع على تلـك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثـاء فتفقده أصحابـه فلم

يجدوه فعرّفوا السلطان فقده، وأنفذ من يكشف عن حاله فوجدوه بين القتلى فحملوه إلى المخيم، وعافاه الله، وعاد السلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر فرحاً مسروراً.

وقال العماد: اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الأسر، وقالوا: نحن في جمع جم خارج عن الحصر، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر فثربنا للثار، وأعرنا من هذا العار، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، واتفقوا أنهم يقصدون بلداً إسلامياً من الساحل، ويقيمون عليه والمركيس يمدّهم من صور بالمدد والعدد، ثم جاء الخبر أنهم على قصد صيدا للحصر، وقد جسروا على عبور الجسر، ووقعت عليهم اليزكية فردوهم، ووقع في الأسر من سباعهم سبعة، فحملوا إلى سجن دمشق، ثم ذكر قتلهم للغزاة المطوعة على الجسر، وقال: لم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكره، وأذاقونا بعد أن حلالنا جنا الفتوحات مرارة هذه المرة، فأيقظنا الله من رقدة المغره، وأخذ الناس حذرهم، وقالوا: بهذا وعد الله حيث قال: (فيقتلون ويقتلون)[٨٩] وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمتثلون، ثم ذكر وقعة الكمين. قال: وكان مع المسلمين أربعة من أمراء العرب، فحملوا كما وصاهم السلطان على عزم الطراد ليقصدوا الكمين، وسلكوا أسفل الوادي، وإنما الطريق أعلاه، ولاخبرة لهم بتلك الأرض، فعرف الفرنج أنهم ضائعون فطاردوهم وردّوهم إلى المضيق، وأنفت العرب من الهزيمة فاستشهدوا، قال: وكان معهم مملوك للسلطان يقال له أيبك الساقي فاعتزل إلى صخرة واحتمى بها، ونكب كنانته ورماهم بنشابها، وهم لايقدرون على الاقتحام إليه بالخيل، فرموه بالزنبورك، حتى كثرت فيه الجراحات، وظنوا أنه قد مات، ووصل الخبر إلى المسلمين فأدركوهم، ووقفوا على الشهداء وقبروهم، وجاؤوا إلى أيبك فوجدوا فيه الروح فنقلوه إلى الخيام، وهم يظنون إنه لاخلاص له من الحمام، وكان في أجله باقية. فمن الله عليه بالعافية.

فصل

في نزول الفرنج خذلهم الله على عكا

قال القاضي ابن شداد: ثم بلغنا بعد ذلك أن الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النواقير يريدون جهة عكا، وأن بعضهم نزل باسكندرونه، وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك، ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف لاقصد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب فوصل قاصد أخبر أن الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصه، ووصل أوائلهم إلى الزيب، فعظم عنده ذلك، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه، وتقدم إلى الثقل أن سار بالليل، وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائراً إلى عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو، وسير جماعة على طريق تبنين يستشرفون العدوّ ويواصلون بأخباره، وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له مينة صبيحة الثلاثاء وفيه بلغنا نزول الفرنج على عكا، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه، واشتد حنقه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً، وسار السلطان جريدة من المينة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية فإنه كان واعدهم إليه، وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير،وسار من الخروبة إلى تل كيسان في أوائل مرج عكا،

فنزل عليه وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية، فكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو، وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية، واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لايخرج منها أحد إلا يجرح أو يقتل، وكان عسكر العدو على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، قال: ومارأيت من نقصهم عن ذلك، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك، ومددهم من البحر لاينقطع. وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة، والمسلمون يتهافتون على قتالهم، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والأمراء من الأقطار تتابع، ووصل تقي الدين من حماه ومظفر الدين بن زين الدين، وفي اثناء هذه الحال توفي الحسام سنقر الخلاطي وفاة بأسها شديد، وكان شجاعاً ديناً، فأسف المسلمون عليه.

ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا، بحيث منعوا من الدخول والخروج منها، وذلك سلخ رجب، فعظم على السلطان وضاق صدره وثارت همته العالية في فتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة، فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة، فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة، وانتشر عسكر العدو إلى أن ملكوا التلول، وكانت ميسرة عسكرهم إلى البحر الحلو آخذة إلى البحر الملح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا، واتصلت الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل، وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين في السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الأخرى، وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالي عكا، فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، والتفت

السالمون منهم إلى خيامهم و هجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم، ووقف اليزك الاسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذي جدّده، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة، واليزك بين الطريق وبين العدو، ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا، ورقي على السور، ونظر إلى عسكر العدو وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقي الدواب وأخذ الراحة، ولم يعودوا إلى القتال، وأصبحوا يوم الاحد فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو من ورائه، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب، ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان رحمه الله تعالى يعاني هذه الأمور كلها بنفسه، ويصافحها بذاته لايتخلف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شدّة حرصه، ووفور همته كالوالدة الثكلى، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الاحد لم يتناول من الغداء إلّاشيئاً يسيراً لفرط اهتمامه، وفعلوا ماكان عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان، عزم العدو على الخروج بجموعهم، فخرج راجلهم وفارسهم، وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين في نفوسهم ولاخارجين من راجلهم، والرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً حتى قاربوا خيام اليزك، فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا بأجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد، فعاد العدو ناكصاً على عقبيه والسيف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح، والعاطب طريح، يشتدون هزيمة يعثر جريحهم بقتيلهم، ولايلوي الجماعة منهم على قبيلهم، حتى لحق بخيامهم من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياماً، وكان قصاراهم أن يحفظوا

نفوسهم، ويحرسوا رؤوسهم ، واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها.

قال: وكنت ممن دخل ورقى على السور، ودام القتال بين الفئتين متصلاً الليل مع النهار حتى كان الحادي عشر من شعبان، ورأى السلطان رحمه الله توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم، فنقل الثقل إلى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو، وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان، وكان من شجعان المسلمين ودفن في سطح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان، وبلغ السلطان أن جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم، فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة وأحضروا رؤوساً عدة بين يديه، وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان، وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيمة قتل فيها جمع عظيم من الطائفتين، وطال الأمر بين الفئتين وما يخلو يوم عن قتل وجرح وسبي ونهب، وأنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا: إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد أن يصطرع صبيان: صبي منا، وصبي منكم، فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الفرنج، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض، وأخذه أسيراً فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين، وقالوا: هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه.

قال: ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر، ومازال يسبح وهم حوله يردّونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون.

قلت: وذكر العماد كل هذه الوقائع والنوادر في كتابه بألفاظه المسجوعة، وقال: كان من رأي السلطان أن يسايرهم في الطريق ويواقعهم عند المضيق، ويقطعهم عن الوصول، ويدفعهم عن النزول، فإنهم إذا نزلواصعب نزالهم، وأتعب قتالهم، وقالوا: —يعني أمراءه— بل نمضي على أسهل الطرق، فسار الثقل من الليل على طريق الملاحة، وسرنا على جب يوسف إلى المينه، وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا، ونزل يوم الأربعاء على جبل الخروبة، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر محيطين بها للحصر، وضرب الملك العتيق خيمه على تل المصلبة، وربطب مراكبهم بشاطىء البحر فكانت كالآجام المؤتشبه، ثم عبر السلطان بجيشه ونزل بمرج عكا على تل كيسان، وصرنا محاصرين المحاصرين، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط، واستشطنا منه وهو مستشيط، واحدقنا بأولئك الكفرة إحاطة النار بأهلها، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها، ورتبنا بالزيب والنواقير رجالاً يصدونهم عن سبلها ،ودمنا نصدّهم ونصدمهم، ونوجدهم في البحر ونعدمهم، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرّز وذلك في آخر رجب لانسلاخه، و الاسلام ينادينا باستصراخه، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد اتفقت الآراء على أن يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدعوات على المنابر الإسلامية، فأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم فكدر عليهم صفو مشاربهم وقلل مضاء مضاربهم وهم في مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون وفي مواطنهم ثابتون، كالبنيان المرصوص مافيه خلل، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل، وكالسور المحيط ماعليه متسلق وكالجبل الأشم مافيه متعلق، فزحفنا إليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا، وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز، وحملوا من الغد من جانب البحر شمالي عكا فانهزم الفرنج إلى تل المصلبين نحو القبة، وثبتوا عند الوثبة،

وانفتح لنا طريق عكا فدخلها الرجال، وحملت إليها الغلال، والفرنج قد رهبوا ولو قدروا لهربوا، وأصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة، فتوقفوا عن تمام العزيمة، ولو أنهم استمروا لباد العدو بصرعه، فإن للصدمة الأولى في الروع روعه، فبلع العدو ريقه، ووجد إلى الجلد طريقه، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات، وضربوا الجروخ وفوقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها وكانوا في عدد الرمل ومدد النمل، وهم في كل يوم في ازدياد، والبحر يمدهم بالامداد، وشرعوا في حفر الخنادق، وسد المضائق ونصب الطوارق والسلطان ساهر للمسلمين في ليلهم قائم بأمرهم في نهارهم، ومن كتاب فاضلي في بعض الوقعات: «فاستدارت بهم رجال الجاليشية تقذف شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيور نشابها، وتجنيهم من القنا والنشاب ثمر الردّا متشابها، وقد ارتفع الاسلام إلى درجات سيذكر أمرها، وانخفض الكفر إلى دركات سيمر ذكرها، فالنصر خافق علمه، وكتاب البشارة قد استمد قلمه، وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي، فتأهبت الخواطر لمعاني المسار، واعدت ألفاظه البشرى المهداة إلى كافة البشر من الاستبشار، فإن الفرنج محصورون، والنازل المحصور كالمركب المكسور، والنصر قد أعرب لعسكر الاسلام والكفر جار ومجرور .

فصل

في المصاف الاعظم على عكا وهي الوقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وختمت بالحسنى

قال القاضي ابن شداد: لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة، فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم، واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمول مستور بثوب أطلس مغطى يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه وهم يسيرون بين يدي الملك، وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها، وامتدت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها، وملكوا رؤوس التلال، فكان طرف ميمنتهم إلى النهر، وطرف ميسرتهم إلى البحر، وأمر السلطان الجاووش أن ينادى في الناس: يالـلاسلام وعساكر الموحدين، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة، وامتدت الميمنة إلى البحر كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً، وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا على تعبية الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لايحتاجون إلى تجديد ترتيب ، وكان هو في القلب، وفي ميمنة القلب ولده الأفضل ثم ولده الظافر ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البكنكري، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين صاحب الحصن، ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس، ثم قايماز النجمي ،و جموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر، وأما أوائل الميسرة فكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدّميهم ، والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية، ومجاهد الدين يرنقش مقدّم عسكر سنجار وجماعة

من المماليك، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره، وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكوج ورسلان بغا، وجماعة الأسدية الذي يضرب بهم المثل وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى وجمعه، هذا والسلطان رحمه الله تعالى يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال، ويدعوهم إلى النزال، ويرغبهم في نصرة دين الله، ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار، ومضى فيه أربع ساعات، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين وأخرج لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة، وتكاثروا على تقي الدين، وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يتعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً فأمده بأطلاب عدّة من القلب حتى قوي جانبه، وتراجعت ميسرة العدو، واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب، ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم، قال: ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة ولايسبقونها وهم يسيرون خبباً وجاءت الحملة على الديار بكرية كما شاء الله تعالى، وكان بهم غرة عن الحرب، فتحركوا بين يدي العدو وانكسروا كسرة عظيمة، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية، فإنهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من العدو إلى خيم السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك، وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس، وابن رواحة رحمهما الله تعالى، وأما الميسرة فإنها ثبتت فإن الحملة لم تصادفها وأما السلطان رحمه الله فإنه أخذ يطوف على الأطلاب ينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد، وينادى فيهم: ياللاسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف، ويتخرق الصفوف، وآوى إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام، وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم إلى الأقحوانة قاطع جسر

طبرية، وتم منهـم قوم إلى دمشق، وأما المتبعون لهم فـإنهم أتبعوهم إلى العياضيـة فلما رأوهم قد صعدوا الجبـل رجعوا عنهم وجاؤوا عـائدين إلى عسكرهـم،فلقيهم جماعـة من الغلمان والخربنديـة والساسـة منهزمين على فعـال الخمـل فقتلوا منهـم جماعـة، ثـم جاؤوا على رأس السـوق فقتلـوا جماعة، وقتل منهـم جماعة، فإن السوق كان فيه خلـق عظيم، ولهم سلاح وأما الـذين صعدوا الخيـم السلطانية فـإنهم لم يلتمسوا شيئاً أصـلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرنـاه وهم ثلاثة نفر، ثم رأوا ميسرة الإسـلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لم تتـم، فعادوا منحـدرين مـن التـل يطلبون عسكـرهم، وأمـا السلطـان فإنـه كان واقفـاً تحت التل ومعـه نفر يسير وهـو يجمع النـاس ليعودوا إلى الحملـة على العدو ،فلما رأى الفـرنج نـازلين على التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولـوا ظهورهـم واشتدوا يطلبون أصحابهم، فصاح في الناس وحملـوا عليهم وطرحوا منهم جماعة واشتـد الطمع فيهم وتكاثـر الناس وراءهم حتى لحقـوا أصحابهم والطرد وراءهـم، فلما رآهم منهزمين والمسلمين وراءهم في عدد كثير ظنوا أن مـن حمل منهم قد قتل، وأنـه إنما نجـا منهم هـذا النفـر فقـط، وأن الهزيمـة قد عـادت عليهـم فاشتـدوا في الهرب والهزيمة، وتحركـت الميسرة عليهم وعـاد الملك المظفـر بجمعـه من الميمنـة، وتحايا الـرجال وتـداعت، وتـراجع النـاس من كـل جـانب وكـذب الله الشيطان ونصر الايمان، وظـل النـاس في قتل وطـرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهـزمون السالمون إلى عسكر العـدو، فهجم المسلمون عليهـم في الخيام ، فخرج منهـم أطلاب كـانوا أعدوهـا خشية من هذا الأمر مستريحة، فردوا المسلمين، وكان التعـب قد أخذ من الناس والخوف والعـرق قد ألجمهـم، فتراجـع النـاس عنهم بعـد صـلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهـم فرحين مسرورين، وعاد السلطـان وجلسوا في خدمته يتـذاكرون من فقد منهـم، فكان مقدار من فقـد منهم من الغلمان والمجهولين مـائة وخمسين نفراً، ومـن المعروفين استشهـد في ذلك اليـوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى رحمه الله، ولقـد رأيته وهو جالس يضحك

والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لايوم العزاء، وكان قد وقع هو من فرسه رحمه الله وأركبه، وقتل عليه جماعة من أقاربه، وقتل في ذلك اليوم الأمير مجلي يعني ابن مراون، وزاد العماد: والحاجب خليل الهكاري.

ثم قال القاضي: هذا الذي قتل من المسلمين وأما العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطىء النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف، ولما تم على المسلمين من الهزيمة ماتم رأى الغلمان خلوا الخيام عمن يعترض عليهم فإن العسكر انقسم إلى منهزمين، ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد، ورأوا الكسرة قد وقعت فظنوا أنها تتم وأن العدو ينهب جميع مافي الخيم، فوضعوا أيديهم في الخيم ونهبوا جميع ماكان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا، فلما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ماقد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع في الكتب والرسل في رد المنهزمين، وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبه فيق فردوهم وأخبروهم بالكرة للمسلمين، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان، وجمع الأقمشة في خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي، وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم إلى أن كل من عرف شيئاً وحلف عليه يسلم إليه، وهو يتلقى هذه الأحوال بقلب صلب، وصدر رحب، ووجه منبسط ورأي مستقيم، واحتساب لله تعالى، وقوة عزم في نصر دينه.

وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمه وقد قتلت شجعانهم، وقعدت ملوكهم، وطرحت مقدموهم، وأمر السلطان أن خرج من عكا عجل يسحبون القتلى إلى طرف النهر ليلقوا فيه.

قال: ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل أنه أخذ خيطاً، وكان

كل ما أخذ قتيل عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسراً، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدّهم فإنهم ولي أمرهم غيره، وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه، وأقاموا في خيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم، وتشذب من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة، فإنه مارجع منها إلا رجل معروف خاف على نفسه والباقون ذهبوا في حال سبيلهم، وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، وأقام المنادية في العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه، واجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته حتى أن الجالس في أحد الطرفين لايرى الجالس في الطرف الآخر، وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء فحضر الخلق وصار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف عليه وأخذه من الحبل والمخلاة إلى الهميان والجوهرة، ولقى من ذلك مشقة عظيمة، ولايرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها، ولقد حضرت يوم تفرقه الأقمشة على أربابها فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان.

قال: وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون نائرتها، أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخرّوبة خشية على العسكر من أراييح القتلى وآثار الوقعة من الوخم، وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضربت له خيمة عند الثقل، وأمر اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر، ثم أمرهم بالاصغاء إلى كلامه، وكنت من جملة الحاضرين، ثم قال: بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا، وقد وطىء أرض الاسلام، وقد لاحت لوائح النصرة عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولابد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا

ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ،و الرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين، —يعني— الثاني من الشهور الشمسية، فانفصلت أراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر، وتكليفهم أمراً على خلاف ماتحمله القوى لاتؤمن غائلته، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ونستعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة، وكان بالسلطان رحمه الله التياث مزاجي قد عراه من كثرة ماحمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ماقالوه ورآه مصلحة فأقام يصلح مزاجه، ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان.

قال: وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون، وشاورهم فيما يصنع، وكان رأيه رحمه الله أن قال: المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول إليهم وخيف على البلد منهم، وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد، وكان الأمر كما قال والله لقد سمعت منه هذا القول ،وشاهدت الفعل كما قال.

وقال العماد: عبأ السلطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نصرته، وهو يمر بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحض على حظ الأبد، ويحث على الجلاد والجلد، قال: وكنت في جماعة من أهل الفضل، قد ركبنا في ذلك

اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة، ونحن على بغال بغير أهبة قتال، فرأينا العسكر مولياً، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخلياً فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل، ووجدنا ساكنها قد أجفل، فسقنا إلى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه، وكل منا ذاهل عن شبعه وريه، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق، وهو غير مفيق، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرج على طريق، ووصل جماعة من الفرنج إلى خيمة السلطان وجالوا جولة، ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم فانحدروا عن التل واستقبلهم أصحابنا، فركبوا أكتافهم، وحكموا في رقابهم أسيافهم، وكان ميسرتنا عسكر سنجار والأسدية فما زالوا ولازالوا بل وصلوا وصالوا، وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت الرياح بالجبال، وعاد من كان من الميمنة مثل تقي الدين وقايماز النجمي والحسام بن لاجين، ومن ثبت من أبطال المجاهدين، فلم يفلت من الأعداء إلا أعداد، ولم ينج من آلافها إلا آحاد، وفرس منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدم الداوية الذي كنا أطلقناه، وذكر أنهم في مائة ألف وعشرين ألفاً حين سألناه، ثم ضربنا عنقه —وقال في الفتح: وعشرة آلاف ــ قال العماد: ومن العجب أن الذين ثبتوا منا لهم لم يبلغوا ألفاً، فردوا مائة ألف وآتاهم الله قوة من بعد ضعف، وكان الواحد يقول: قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين، وتركتهم مصروعين، وكان السلطان من الثابتين في تلك الجولة، والكابتين لأهل الصولة، وقد بقي وحده عند تولي المسلمين، ولاشك أن الله أنزل ملائكته المسوّمين.

حكى بعضهم قال: كنت منهزماً من فارس مدجج قد لز بقربي حصانه، وهز لصلبي سنانه فأيست من البقاء، ثم أبطأت عليّ طعنته فالتفت فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى ومابالقرب أحد، فعرفت أنه نصر إلهي وصنع رباني.

قال: وعاد السلطان إلى مضاربه. وأمر بمواراة الشهداء ومن جملتهم

الفقيـه أبو علي بـن رواحه، وكـان ،غزيـر الفضـل قد أكمـل الشجاعـة والرجـاحة، وهو شـاعر مفلق وفقيـه محقق، مـن ولد عبد الله بـن رواحه الصحابي الأنصـاري، في الشهادة والشعر معرق، فطـرفه الأعلى يوم مـؤته مع جعفر الطيار، وطرفة الأقرب يوم عكا في لقاء الكفار.

قال في البرق: وكان السلطان قد أنعم عليـه في حلب بمزرعة، وكتبت توقيعـه، وأراد الله تعويقه إذ قـرب إلى الآخرة طـريقه، وحملت تـوقيعه إلى السلطـان تلـك الليلـة ليعلـم فيه فما علـم وراجعتـه في معنـاه فسكـت وماتكلم، وكان ساعة الوقعة راكبـاً معنا ثم قال: وقوفنا يطول فمضى إلى خيمته يتودع فلما علـم باندفاعنـا ساق وراءنا فقطع عمـره قبل أن يقطع الوادي، وكان قـال لنا لما أصبح: رأيت رجلاً يحلـق رأسي في المنام، فقلنا له: هذا من أضغاث الاحلام، فنقله الله بعد ساعة إلى دار السلام.

قلت: وليس هـو من أولاد ابن رواحة الصحـابي، ذاك لم يعقب، وإنما في أجداده من اسمه رواحة، وقد بيناه في التاريخ، والله أعلم.

قال: ومنهم اسماعيل الصوفي الأرمـوي المكبس، وشيخ من الحاشية في بيت الطشـت، وغلام في الخزانة أمين على البيـت، وآخرون صودفـوا عند التـل فجـاءتهم السعادة، وفجـأتهم الشهـادة وهـؤلاء سوى مـن وقـع في الوقعة، وذهب قبل الـرجعة، وأجمع السلطان وذووا الآراء على أنه يصبح القوم، فتفقدوا العسكر فإذا هو قـد غاب لما بان من الأمر وراب، وذلك أن غلمان العسكـريـة والأوبـاش ظنـوا أن تلك الفـورة هـزيمـة، فنهبـوا الاثقال وعدّوها غنيمـة، فمن عاد إلى رحله وجده منهوبـاً مسلوباً، وكان في ظنه أنـه فرغ مـن لقاء خطـب فلقي خطـوباً، وأصبحنـا وإذا العسكر مفترق والثابـت قلق والآمـن فرق، والغنـي معدم، والجريء متنـدم، فهذا خلف ماذهـب من ماله ذاهب، وهذا لمن طلـب الطريق بأثقالـه طالب، فتفتر ذلك العـزم، وتأخـر ذلك الحكـم، وانتعش الفـرنج في تلـك المدة

وانتشلوا من تلـك الشدة، وجاءتهم في البحر مراكب أخلفـت من عدم، وبنت ماهدم، وشكونا نتـن رائحة تلك الجيف فحملت على العجل إلى النهر ليشرب من صديـدها أهل الكفر، فحمل أكثر مـن خمسة آلاف جثه حملت إلى النار قبل يوم البعثـة، وأشير على السلطان بالانتقال إلى الخروبة عنـد خيم الأثقـال المضروبة، فسـار إليها رابـع رمضان، وأمـر أهل عكـا باغـلاق أبوابها، وإحكام أسبـابها، فوجد الفرنـج بذلك الفـرج، وشرعوا في حفـر خنـدق على معسكـرهـم حـوالي عكـا مـن البحـر إلى البحـر، وأخرجـوا ماكان في مـراكبهم من آلات الحصر، وفي كل يـوم يأتينا اليـزكية بخبرهم، وبما ظهر مـن أثرهم، والجد في تعميق الخندق وتتميـم حفرهم، فكان من قضاء الله أنـا أغفلناهم، وأمهلنا هم بل أهملنـاهم حتى عمقوا الحفور، ووثقوا مـن ترابها السور، فكانـوا يخندقون ويعمقون ويعملـون من تراب الحفـر حولهم سـوراً ، فعاد مخيمهـم بلداً مستـوراً معموراً، فملـؤوه بالستائر، ومنعـوه من الطير الطائر، وبنوه وأسسوه وستروه وتـرسوه، ورتبوا عليه رجالاً، ولم يتركـوا إليه لواغل مجالاً، وتركـوا فيه أبواباً وفـروجاً ليظهروا منهـا إذا أرادوا خـروجـا، ولما فـرغـوا مـن هـذا الأمـر اشتغلـوا بـالحصر، وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا، وبان ضعف رأي الانتقال فإنه بعدما أضحك أبكى.

وجاء كتاب من الفـاضل إلى العماد جواباً عن كتابـه المخبر فيه بوقعة مرج عكا يقول فيه: «وعرفت مـاجرى على قضيته، فسبحت الله تعالى فإن من عجائب قدرته سلامة سيدنـا على ضعف حركته، والأمر كان عـظيماً، والمدفـوع أعظم، والسـلامة كـانت غـريبة إلا أن نقـول ولكن الله سلـم، والسلطان أعزه الله إذا سلـم فكل الناس قد سلموا، وإذا وجـد وقد عدم الناس كلهـم فقد وجدوا وماعـدموا، وكل جوهـر بالإضافة إليـه عرض ، وهـو جوهـر بـالحقيقة مـاعنـه من كـل جـوهر عـوض» ومـن كتاب لـه إلى السلطان أ وّله:(ثم أنزل الله سكينته على رسولـه وعلى المؤمنين)(٩٠)

الآيـة (ومـارميت اذ رميـت ولكن الله رمـى) [٩١] ورد الكتاب بخط
مـــــــــــولانـــــــــــا مـــــــــن
معترك حربه وجـلاده وتوفيق جهاده،قبل أن تضـع الحرب أوزارها، وهرع
الناس إلى المجلس العادلي والعزيزي يسقعـون الأخبار، ويستوضحون من
وجوهها الأنوار، ويسألون كيف كانت عـاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل النار،
ويشكرون الله على سلامـة أديانهم، وقلوبهم وأبدانهم، وسـلامة سلطانهم،
وماأدراك ماسلامـة سلطانهم، ونصرة كلمة ايمانهم، ودلائل الخير لاتخفى،
وقد يقـرأ الكتاب ومـايلمح قارئه منـه حرفا، وتصـوّر الناس الأمـر الذي
وقاهم الله شره وكفاهـم أمره.

فصل

في باقي حوادث السنة بمرج عكا وغيره

قال العماد: وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صورمقلعا محتويا على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة ورزمةمن الحرير، وجاءت حظوة حلوة، وغنيمة صفوة، وقد كان انكسر نشاطهم، وانقبض انبساطهم، فلما عثروا بالمركب انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون، ويمسون على القتال ويصبحون، وندم الفرنج على تلك الحركة، فإنها أفضت بهم إلى الهلكة، فإنهم ماداموا رابضين، وعلى يد الصبر قابضين ، يتعذر الوصول إليهم، والدخول عليهم.

وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف:«والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك همم المؤمنين في تسكين ثأرهم، وتخريب عامرهم، ومادام البحر يمدّهم والبر لايصدهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيرة أهل اليقين، وماينقضي عجبنا من تظافر المشركين، وقعود المسلمين،فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمنآد، فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا،وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلا جارى جاره في مضمار الانجاد، وبارى نظيره في الجدّ والاجتهاد، واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح، ومافعلوا مافعلوا ولا بذلوا مابذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم، والنخوة لمعتقدهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل إذا سلك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك،يخرج بلد عن يده، وتمتدّ يد إلى بلده ،والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنواوفشلوا وغفلوا

وكسلـوا ولزمـوا الحيرة، وعدمـوا الغيرة، ولو انثنـى والعياذ بـالله للاسـلام عنان، أو خبا سنا ونبا سنان لما وجـد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق وقربها، من لدين الله يغار، ومـن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي الحميـة من الأقاصي والأداني، على أنا بحمد الله لنصره راجون، ولـه باخلاص السرّ وسرّ الخلاص مناجـون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون».

قال العماد: وكان السلطـان قد كتب إلى مصر يستدعي بـأخيه العادل في رجـال، فقدم علـه منتصف شـوّال،وكتب أيضـا في طلب الاسطـول المصري، فقـدمت خمسـون قطعـه مع حسـام الديـن لـؤلؤ منتصـف ذي القعـدة، فجاءت فجـأة على مراكـب الفـرنج وبغتتهـا وسحقتها وبـددتها وكسبتهاو سلبتهـا، وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما مـن أموالهم ورجـالهم وغلالهم، قال: وهذا لؤلؤ قد اشتهـرت بالكفر فتكاته، وشكرت في العدوّ نكاياته، وقد تفرد بغزواته لم يشاركـه فيهاأحد، وهو الذي ردّ الفرنج عن بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق المجـاز، ولم يترك منهم عينا تطرف، ولم يبق لهم دليـلا يعرف، وغزواته مشهـوره وفتكاته مـذكوره، وأمواله مبـذولة وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلولة.

قال: ونقل السلطان الى البلد في المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم، وعددهم وأزوادهم، واستظهر البلد أيضا بـرجال الأسطول، وكانوا زهاء عشرة آلاف، هذا ورجـاله المسلمين يتطـرقون إليهم ليـلا، ويذيقـونهم من القتل والأسر والسرقة والإسار.

قال: ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العدّة، وتقوية النجـدة بكل مايمكنه من أسباب البـاس والشدة، سير من أحمال النفط الأبيـض—مع عزة وجوده— مـاوجده ، ومن التراس والرمـاح من كل جنـس أحكمه وأقومه وأجـوده، وكتبنا في شكره:«وصل السـلاح وتم

للاسلام من قروح الكفر الاقتراح ، فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العدد، ومن العجب أن تفنى العدة وما يفنى العداة، وتنمو على الحصاد كأنها النبات، فالبحر يمدهم والكفر إلى الردى يردهم»

ومن كتاب إلى الديوان:« قد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه، وبسط الكفر جناحيه وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روّعت الروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ورامح ونابل، فما أثر ذلك في نقصهم، ولا أرث إلاّ نار حرصهم، وليس هذا العدّو بواحد فيضجع فيه التدبير ويأتي عليه التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر، وجميع من في ديار الكفر، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلد ولا جزيرة ولا خطة صغيرة ولا كبيرة ، إلاّ جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرز ساكنها وبرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ونقضت خزائنها، وانفضت معادنها، وحملت ذخائرها، وبذلت أخائرها، ونثلت كنائن كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها، وتصلبت للصليب السليب، وتعصبت للمصاب المصيب، ونادوا في نواديهم بأن البلاد هي بلادهم، وأن اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم، وإنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الاسلام وهبت له ذنوبه، وذهبت عنه عيوبه، ومن عجز عن السفر سفر بعدّته وثروته من قدر، فجاؤوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد،وتواصلت منهم الامداد»

قال:« ووصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لاسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للاشقياء، وانهن لايمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لايتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة مافوقها قربة، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة».

قال:«وأبق من عسكرنا من المماليك الأغبياء، والمدابير الجهلاء جماعة جذبهم الهوى، واتبعوا من غوى، فمنهم من رضي للذة بالذلة، ومنهم من ندم على الزلة، فتحيل في النقلة، فإن يد من لايرتدلاتمتدّ، وأمر الهارب إليهم لاتهامه يشتدّ، وباب الهوى عليه يستدّ، وماعند الفرنج على الغرباء إذا أمكنت منها العزب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيفين من فرجها فرج». قال:ووصلت أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر، وافرة الوفر، وفي جماعتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم، وغلمانهم وأشياعهم، وهي كافلة لكل مايحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة، وهم يركبون بركباتها ، ويحملون بحملاتها، ويثبون لوثباتها، وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وقوانس، وهن في زي الرجال يبرزون في حومة القتال ويعملن على أرباب الحجى، وهنّ ربات الحجال، وكل هذا يعتقدن أنه عبادة، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ويجعلنه لهنّ عادة، فسبحان الذي أضلهنّ، وعن نهج الهدى أزلهنّ».

وفي يوم الوقعة طلعت منهنّ نسوة لهنّ بالفرسان أسوة، وفيهنّ مع لينهنّ قسوة، وليس لهنّ سوى السوابغ كسوة، فما عرفن حتى سلبن وعرّين، ومنهنّ عدّة سبين واشترين، وأما العجائز فقد امتلأت بهنّ المراكز وهن يشدّدن تارة وتارة يرخين، ويحرضن وينخين، ويقلن إن الصليب لايرضى إلا بالإباء، وإنه لابقاء إلا بالفناء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء، فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجال والنساء».

قال: وفي آخرهذه السنة ندب السلطان الرسل إلى الاقطار والأمصار للاستنفار والاستنصار، وبث الكتب وكتب بالبث، وحث الرسل وراسل بالحث، وسرّح عدنان النجاب إلى سيف الاسلام باليمن، وشرح في الكتاب إليه ماجرى من حوادث الزمن، ووصف له جلية الحال، وطلب منه الإعانة بالمال، وكوتب مظفر الدين قزل أرسلان بهمذان

ببعث مادنا منه عزمه ودان، وحكم على كل ملك بحجة الايمان، وهدى الى محجة الاحسان، ووصل الى السلطان رسول ابن أخيه لأمه ركن الدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، وهو آخر السلاطين السلجوقية يتظلم من عمه قزل أرسلان، ويطلب من السلطان إعانته، فاعتذر السلطان بما هو عليه من شغل الجهاد مع الكفار، وأرسل رسولاً في السفارة بينه وبين عمه جمال الدين أبا الفتح اسماعيل بن محمد ابن عبد، لكونه نسيب العماد، وكتب إلى صاحب إربل وإلى حسن بن قفجاق ونائبه بشهرزور بالتوفر على خدمته، والارتياد لمصلحته، واشياعه ومعونته.

قال: وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين سنقر الخلاطي أخص مماليك السلطان وأخلصهم، وقد قدّمه على مماليكه، وكانت وفاته ليلة الاثنين والعشرين من رجب.

قال: وفي ثالث عشر شعبان توفي الأمير حسام الدين طمان صاحب الرقة، وهو من المجاهدين المجتهدين، والأتقياء المتجهدين، ولما حضرته الوفاة تأسف من موته على فراشه،وطلب حصانه ليركبه وينتقل سعيدا شهيداً إلى معاده من معاشه.

قال: وفي تاسع عشر شعبان توفي الأمير عز الدين موسك بن جكر، وهو ابن خال السلطان، وهومن أكابر أقاربه، ومقدّمي كتائبه، وكان للقرآن حافظا، وعلى الإحسان محافظا، ولقضاء حقوق الناس ملاحظاً، ولم يزل للسلطان في هذه الغزوات ملازما، وعلى قمع جمع الكفر عازما، ولما اشتدّمرضه استأذن في الدخول إلى دمشق ودفن بجبل قاسيون.

قال: وفي حادي عشر رمضان توفي بدمشق القاضي شرف الدين بن أبي عصرون،ومولده في أوائل سنةاثنتين وتسعين وأربعمائة، فبلغ عمره

ثلاثا وتسعين سنة ونصفا، وأضر قبل وفاته مدّة عشر سنين، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بدمشق قبالة داره بينهما عرض الطريق، وكان شيخ المذهب، وقد ختمت به الفتيا، وأوحشت غيبته الدين والدنيا.

قال: وفي تاسع ذي الحجة توفي الأمير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري في العسكر بمنزلة الخروبة، وكان صاحب أسد الدين شيركوه، ومضى معه إلى مصر حين ملكها، ثم اختص بالسلطان بعده،وتولى حله وعقده، ودرّت بوساطته وشفاعته للناس أرزاق، ونقل إلى القدس فدفن بظاهره، ولقد كان من الأعيان،ومن أهل الجدّ في نصرة الايمان ، فنقله الله إلى الجنان.

قال: وفي هذه السنة أقطع السلطان مملوكه مجاهد الدين إياز ولاية شهرزور وأعمالها، وولى جمال الدين بن المحسن نقابة الاشراف بدمشق.

قال: وفي عاشر جمادى الأولى منها، كان مولد ناصر الدين محمد بن الملك العزيز بمصر، الذي اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه في محّرم سنة خمس وتسعين، وورد بذلك إلى السلطان جدّه كتاب كريم فاضلي من مصر نسخته:« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام رشاده وارشاده، وزاد سعده واسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده واعداده، واشتدّ باعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده، حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده، وينهي ان الله وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولداً مباركا عليا، ذكراً سوياً، براً ذكيا، تقيا نقيا، من ذرية كريمة(بعضها من بعض) (٩٢) ، ومن نبت شريف كادت ولاته تكون ولاة في السماء، ومماليكه تكون ملوكاً في الأرض، وكان مقدمه الميمون في ليلة الأحد أولى العدد، وبه وبآله يعز الله أهل الجمعة ويذل أهل الأحد »ثم ذكر باقي الكتاب

فصل

في ورود خبر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد:ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وصل من حلب كتب من ولده الظاهر، يخبر فيها أنه قد صح إن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا الف، وقيل مائتان وستون ألفا، يريد البلاد الاسلامية، فاشتدّ ذلك على السلطان وعظم عليه، ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة، فاستندبني لذلك، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار،وصاحب الموصل، وصاحب إربل واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد، فسرت حادي رمضان، ويسر الله تعالى الوصول في الجماعة، وابلاغ الرسالة إليهم فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم، وسير صاحب الموصل علاء الدين ابنه بمعظم عسكره، ووعد الديوان بكل جميل، وعدت إليه خامس ربيع الأوّل سنة ست وثمانين، وسبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم وتأهبهم للمسير،فسر بذلك.

وقال العماد في كتاب الفتح: ونمى الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قصد العبور إلى بلاد الإسلام، وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام، وفيهم ستون ألف فارس مدّرع، ومعهم ملوك وكنود، وكل شيطان لربه كنود، وكتب صاحب قلعة الروم مقدّم الأرمن وهو في قلعته على الفرات، وبين أهل الذمة في المأمن يبدي تنصحا واشفاقا وتخوفا على البلاد واحتراقا، ويقطع أن الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عشرة، وأبرق في كتابه وأرعد، وأبدع في خطابه وأبعد، ولاشك أنه إلى جنسه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا النبأ، قيل إنه عظيم، وورد هذا الخبر، وخيل إنه أليم، كاد الناس يضطربون على أنهم يصدّقون ويكذبون ، ومن طرف

كل حبل من الرأي يجذبون، وقلنا: إن وضح هذا الخطر، وصح هذا الخبر، فالمسلمون يقومون لنا ولايقعدون ، ويغضبون لله ولا يرضون أنهم لايعضدون، على أن الله ناصرنا، ومؤازرنا ومظاهرنا، وحققنا باظهار القوّة لمن استوحش التأنيس ، وبثثنا بالارسال إلى بلاد الروم عيونا وجواسيس، وندبنا رسل الاستنصار، وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الأمصار والأقطار، وقلنا ماهذه المرّة الى مرّه، لايسيغها إلاّ كل مرّ أبيّ، وماهذه الكرة مثل كل كرة، ولايحضرنا إلا كل كميش كمي.

قال: وعوّل السلطان على ارسال القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف ابن رافع بن تميم، ليكون كتابه إلى الديوان العزيز مع رسول كريم، وقال له: ماأحتاج أوصي، وأنت توفي القول وتستقصي، وجعل له إلى كل طرف في طريقه رسالة، وأودعه إليه مقالة، فسار ووصل إلى حلب والقاضي ضياءالدين بن الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عاد، وذكر أنه قد بلغ المراد، فما هذا الرسول الرائح، ووصل وهو مغتاظ وتغير عليّ، ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين إليّ، ثم اجتمع بالسلطان وندّمه على ماقدّمه، وأعلمه بما عمله وعلمه، وقال له: الشغل قد فرغ، والقصد قد بلغ، وقرّر مع السلطان أمراً ، وعاد على النجب إلى بغداد، وصادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد، فلم يسفر أمر سفارته عن سداد، وقيل: جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره، ونندبه فيما نتخيره.

وقال في كتاب البرق: وصل الخبر بخروج ملك الألمان من بلاده في مائتي ألف دارع، وفي راجل في دبيب رجل الدبا، في عدد رمل اللواء، وأقام بمحشرهم القيامة، واستثارهم لثار كنيستهم بالقدس قمامة، وساروا في شهور حتى وصلوا قسطنطينية، وكان ملك الروم يكتب إلينا بأخبارهم ونبأ خروجهم من ديارهم، ويقول: أنا لا أمكنهم من العبور، فلما جاؤوا لم يقدر على منعهم، فصدّعنهم الأزواد، وحرمهم الإسعاد، وعبروا الخليج وقد كثرت أمدادهم، وقلت أزوادهم، ولما وصلوا إلى

حدود بلاد الاسلام، وسلكوا في الأودية والآجام والوهود والآكام، تسلمهم تركمان الأوج، وتراكم الثلوج وشتا الكلاب في كلب الشتا، واحتاجوا إلى أكل الدواب، واحراق عددهم لإعواز الأحطاب، وعدموا العلف، وماوجدوا الخلف، ومناهل الزلال جامدة، وهم بالبلاد جاهلون، ومن البلاء ناهلون، لايقطعون في يومين فرسخا، وقد أذهب الله عنهم البركة، وصعب عليهم الحركة، وخرج الامر عن حسابهم، وهم كل يوم في نقص أنفسهم ودوابهم، وكانوا يدفنون من اعلاقهم النفيسة، وعددهم الكريمة الرئيسة، مايعجزون عن نقله، ولايخفون بثقله، فاتخذوا لأسرارها من اضلاع تلك الشعاب، وصدور تلك الوهاد والهضاب ضمائر لاتبوح بها أبداً، ولاتطلع على مكنونها ومدفونها أحدا، هذا وبحرهم عباب الموج، وهباب الفوج، فلما خلصوا بعد أشهر كأنهم زخروا بموج سبعة أبحر، هذا وقدنقص شطرهم، وانقطع ظهرهم، لكنهم عرضوا في الستين ألف مدّرع مدجج مقنع، ذلك وقد باد أكثر راجلهم، وترجل معظم أبطال باطلهم، وسيأتي باقي أخبارهم.

قلت: ومن قصيدة للحكيم أبي الفضل الجلياني:

يامنقذ القدس من أيدي جبابرة
قد أقسموا بذراع الرب تدخله

فاكذبوا كذبهم في وصف ربهم
وصدّق الوعد ما أمّونا تحوّله

أما رأيت ابن أيوب استقل بما
يعيي الزمان وأهليه تحمله

هاج الفرنج وقد خار والفتكته
فاستنفروا كل مرهوب تغلغله

لما سبى القدس قالوا: كيف نتركها
والرب في حفر منها تمثله

فكم مليك لهم شق البحار سرى
لينصروا القبر والأقدار تخذله

وكـم تـرحـل منهـم فيلـق بفـلا
إلى الخوامـع ألقـاه تـرحلـبـه
استصرخـوا الأهـل والعـدوى تمزقهـم
واستكثـروا المال والهيجـا تنفلـه
هـم الفـراش لهيـب الحرب تصرعـه
كلما الـج صـد مـا جـل مقتلـه
سيـف امـام فلسطين يـرى امـا
خلـف البحـار لقـد أمهـاه صيقلـه
كـم أعـدّوا وكـم قـد فـل جمعهـم
مـن غير ضرب ولا طعـن يـزيلـه
وإنما اسـم صـلاح الـديـن يـذكـر في
جيـش العـدّو فيسبيهـم تخيلـه

ثم دخلت سنة ست وثمانين

قال العماد رحمه الله: والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة في خيامه المضروبة على الحالة المحبوبه، وعنده العادل والأفضل والمظفر، وعكا محصورة، وانقضت هذه السنة، وهو على مرابطة المحاصرين لعكا، واتفق في أوائل هذه السنة وقبلها انصراف العساكر الغريبة إلى بلادها البعيدة والقريبة لهجوم الشتاء وتوالي الأنداء والأنواء، وحالت الوحول عن الركوب والنزول، وكانت نوب اليزك مترتبة، والأحوال متهذبة، وربما ركب السلطان يوماً للقنص بالبزاة، ثم يعود لانتهاز فرصة الغزاة، ثم وقعت وقعة الرمل، وذلك أنه ركب يوما في صفر فتصيد، وطاب له قرب القنص فأبعد، واليزكية على الرمل وساحل البحر، فخرج الفرنج في وقت العصر في عدد لايدخل في الحصر، وتسامع أصحابنا بهم، فزحفوا اليهم، وحكموا عليهم، وطردوا عليهم إلى خيامهم، وأخذوا من خلفهم وأمامهم ، ولهم في كل دفعة من العدّو قلائع ، وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع، حتى فني النشاب وبقى الانتشاب، وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب، والفرنج لايعجزهم إلا الرما ولايهتكهم إلا الاصيا، فلما أنسوا بخلوا الجعاب، تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب، وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا إلى النهر، وكادت تعبث بهم يد القهر، فتبث من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، واستشهد جماعة من الشجعان، وذلك أنهم لما ردّوا والفرنج قلعوا فرسانا، وصرعوا أقرانا، فنزلوا بعد فرسهم بسلب لبسهم، فمرّت بهم الحملة في الأوبه، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة، وأظلم الليل وافترق الجمعان، وكثر التأسف على من فقد، ومنهم الحاجب أيد غمش المجدي.

قال: ومن عجائب هذه الوقعة أن مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر عثر به جواده، فقبض من أسره على شعره ليجذبه وسل آخر سيفه

ليضربه، فضرب يد قابض شعره فسيبه، واشتدّ سرا سنقر يعدو ، وهم خلفه فلم يدركوه، وعاد السلطان من الصيد وقد انفصل الأمر.

قال: وفي يوم الأحد خامس عشر ربيع الاوّل تسلم شقيف أرنون بالأمان، وكان الحصار قد استمر عليه حتى فني زاده، وصاحبه أرناط في الأسر، فسلمه بخلاصه وصار إلى صور.

قال:واغتنم السلطان هيجان البحر، وحضور مراكب الاسطول من مصر، فما زال يقوّي عكا بتسيير الغلات والقوّات إليها في المراكب، وملأها بالذخائر والأسلحة والكماة، فلما سكن البحر عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها، ودبت عقاربها وأفاعيها، وشدّت مراكبنا في موانيها، وانقطع خبر البلد، وامتنع عليه دخول المدد، فانتدبت العوّام بالسباحة، وحملهم على ذلك من السلطان السماحة، حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتب وطيور، ونكتب إليهم، ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها،وكان في العسكر من اتخذ حماما يطوف على خيمته، وينزل في منزلته، وعمل لها برجا من خشب، وهوادي من قصب، ويدرّجها على الطيران من البعد، وكنا نقول: ماهذا الولع، بما لاينفع حتى جاءت نوبة عكا فنفعت، وشفت الغليل ونقعت، وأتت بالكتب سارحة شارحة، وكنا نطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها لكثرة الارسال، ولقد عطب عوّامون، فما ارتدع الباقون، ومنهم من سلم مراراً من القوم فاجترأ وأنس بالعوم.

فصل

في قدوم الملوك وحريق الأبراج

قال العماد: ولما انقضى الشتاء،وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الاسلامية من البلاد، فكان أوّل من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم بن المقدّم، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتركمان،فرحل السلطان وتقدّم وعزم على طلب العدّو وصمم، ونزل على تل كيسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأوّل، ورتب عسكره فكان تقي الدين في آخر الميمنة، والعادل في آخر الميسرة، والأفضل في أوّل ميمنة القلب، وأخوه الظافر في أوّل الميسرة على الجنب، ثم وصل الظاهر في عساكرحلب، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي صاحب دارا وغيرهم من الملوك والمقاتلين، ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاوّل، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، ووصل معه حملان من النفط الطيار ، وحملان من القنا الخطار وتوقيع بعشرين ألف دينار، يقترض على الديوان العزيز من التجار، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق بالنار، فاعتد السلطان بكل ماأحضره ، وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى ردّ التوقيع وقال كل مامعي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان ، وأركب الرسول معه مراراً وأراه مبارك النزال، ومعارك القتال، حتى يشهد بها يشاهد، ويبين له المجتهد المجاهد، وأقام طويلا ثم استأذن في العود فرجع.

وقال القاضي ابن شداد: قبل السلطان جميع ماوصل مع الرسول، واستعفى من الرقعة والتثقيل بها. قال: وفي ذلك اليوم بلغ السلطان أن

الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد، فقاتلهم قتالا شديدا إلى الليل، وخاف أن يهجم العدّو البلد، فانتقل إلى تل الحجل في خامس عشر ربيع الاوّل للقرب، قال: وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوّام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدّوبعض الخندق، وقد قوي عزم العدّو على منازلة البلد ومضايقته، فجدّد السلطان الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول، وفي سحر ليلة سابع عشري ربيع الاوّل وصل ولده الظاهر، وفي آخر ذلك اليوم وصل مظفر الدين، وكان السلطان رحمه الله مايقدم عليه عسكر إلاّ ويعرضهم ويسير بهم إلى العدّو، وينزل بهم في خيمته ويمدّ لهم الطعام وينعم عليهم بها تطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرمين، قال: وكان العدّو قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب وحديد، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ماذكر بحيث لاتنفذ فيها النيران، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على الأسوار، وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة مايزيد على خمسمائة نفر على ماقيل ويتسع سطحه لأن ينصب عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد مالايمكن شرحه، وأيس الناس من البلد بالكلية، وتقطعت قلوب المقاتلة فيه، وكان قد فرغ عملها، ولم يبق إلاّ جرّها قريب السور، وكان السلطان رحمه الله قد أعمل فكره في إحراقها واهلاكها، وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين، وباحثهم في الاجتهاد في احراقها، ووعدهم عليه بالاموال الطائلة، والعطايا الجزيلة، وضاقت حيلهم عن ذلك، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي فذكر أن له صناعة في احراقها، وأنه إن أمكن من الدخول إلى عكا وحصل له الأدوية التي يعرفها أحرقها فحصل له جميع ماطلبه ودخل الى عكا وطبخ تلك الأدوية مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب البرج الواحد يوم وصول الملك الظاهر بقدر فاشتعل

من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء، فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير، وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب، فبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثاني، والثالث بالثالث فاحترقا كالأول، وركب السلطان والعساكر وسار إليهم وانتظر ان يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله ﷺ:« من فتح له باب خير فلينتهزه»، فلم يظهر العدّو من خيامهم ، وحال بين الطائفتين الليل، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لايخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النصر والظفر بهم، والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار، وهو ابن أخي نور الدين رحمه الله وصهره وزوج ابنته، فلقيه السلطان بالإحترام والتعظيم، ورتب له العسكر في لقائه،وسار به حتى أوقفه على العدّو، وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدّم له من التحف والللطائف مالا يقدر عليه غيره، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر، وفي سابع جمادى الأولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، فلقيه السلطان وأنزله إلى جانب عمه عماد الدين. وفي تاسع جمادى الأولى وصل ابن صاحب الموصل، وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، نائبا عن أبيه، ففرح السلطان به فرحا شديدا وتلقاه من بعيد هو وأهله، واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة، وكارمه مكارمة عظيمة، وقدّم له تحفا حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظاهر، وفي أواخر الشهر وصل صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين علي، فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعنى في الميسرة.

وذكر العماد قدوم هؤلاء الملوك بمعنى ماتقدّم قال: وكان الفرنج مذ نزلوا على عكا صمموا على الاقامة والحصر، فشرعوا في بناء الأبراج العظام العالية، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافية،' واقطاع الحديد، وبنوا ثلاثة أبراج عالية في ثلاثة مواضع من أقطار البلد، وكل برج لابد له في أركانه من أربع اسطوانات عاليات غلاظ جافيات، طول كل واحدة خمسون ذراعا ليشرف على ارتفاع سور البلد، وبسطوها على دوائر العجل، ثم كسوها بعد الحديد والوثوق الشديد بجلود البقر والسلوخ، وكل يوم يقربونها، ولو ذراعا على حسب التيسير في تسييرها، وسقوها بالخل والخمر، وكشفوا من جوانبها الثلاثة سور البلد وشرعوا في طم الخندق، وجاء عوّام من عكا فأخبر السلطان فركب بالعسكر ولازمهم من الجمعة إلى الجمعة يقاتلهم صباح مساء ليشغلهم، فافترقوا قسمين فريق للقتال وفريق أخر مع الأبرا ج، فأشفى البلد وبقي له رمق ضعيف، ورميت الأبراج بكل قارورة نفط فما أثرت، ولم نشعر يوم السبت الثامن والعشرين من ربيع الأوّل بالأبراج إلاّ وقد اشتعلت، والتهبت ووقعت، وكانت آية من قدرة الله ظهرت، وذلك أنه كان بعكا شاب من أهل دمشق يعرف بعلي ابن عريف النحاسن، وكان أبدا يجمع آلات الزراقين مولعا، ولتحصيل عقاقيرها متتبعا، وكل من عرفه عذله وانكر عمله، وكان قد ألف منها مقادير وقدورا، وملأ بالغيظ من أهل تلك الصناعة صدورا، ولم يكن النفط من صناعته، ولكن الله وفقه لسعادته، فلما كان يوم حريقها جاء إلى الأمير قراقوش وهو مغتاظ واخلاقه فظاظ غلاظ، وقال: أتأذن لي في تصويب المنجنيق لأحرق البرج واللهولي التوفيق، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وقال صناع: هذا الشغل قد خاروا وحاروا، وبعد ما انجدوا أغاروا، فقال الناس: دعه وشأنه، ومايدريك أن الله وفقه وأعانه، فرمى ابن العريف إلى البرج الأوّل قدور نفط خالية من نار حتى عرف انه سقاه وروّاه، ثم رماه بقدر محرقه، وأردفها بأخرى مزهقة، فتسلطت النارعلى طبقاتها، فأضرم على أهل

السعير سعيرا(وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٩٣) ثم أحرق الثاني والثالث، فاجتمع عليه الأصحاب يفدّونه ومن الأولياء يعدّونه، وحملوه بعد ذلك إلى السلطان فلم يقبل عطاء، وقال: عملته لله فما أريد به من سواه جزاء، وقيل احترق في البرج الأوّل سبعون فارسا بعدّتها فحبطت أعمالهم وخابت آمالهم، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر وأظهروا القدر بظهور القدر وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها، ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسبكت، وكشفوا عن الستائر التي تهتكت، فأخذوا ماوجدوا، وحصلوا مانشدوا.

قال: وكان السلطان قد كتب بالاستظهار من شوانى الاسطول والاسراع به في الوصول، فوصل الخبر بوصوله يوم الخميس ثامن الشهر، فاستظهر به الأسطول الأوّل الذي بالثغر ، فركب السلطان بجميع كتائبه، وأحاط بالكفر من جميع جوانبه واشتغل الفرنج عنا بهادهمهم في البحر، فجدّوا في الامر، وجهزوا اسطولا بعدد الرجال وعدد القتال ، وخرجوا لتلقي الأسطول الواصل، وقابلوا الحق بالباطل، وجاءت شواني المسلمين فنطحت وطحنت، وأخذت مركبا للعدّو برجاله، وأخذوا لنا قطعة، ومازالت الحرب قرعة وقرعة، وصرعة وصرعه، حتى دخل الليل فتحاجز الفريقان، وتفرّق الاسطولان، وكانت المقتلة في الكفر شديدة والسطوة مبيدة.

وقال القاضي ابن شداد: لما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظهرت في البحر قلوع كثيرة، وكان رحمه الله في نظرة الاسطول من مصر فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله، فعلم أنه هو ، فركب والناس في خدمته وتعبأ تعبية القتال ، وقصده مضايقة العدّو ليشغله عن قصد الأسطول، ولما علم العدّوبالاسطول استعدّ له وعمر اسطوله لقتاله ومنعه من دخول عكا، ولما خرج اسطول العدّو واشتدّ

السلطـان في قتالهم مـن خارج، وسـار الناس على جـانب البحـر تقويـة للأسطول وايناسا له ولرجـاله التقى الاسطولان في البحـر، والعسكران في البر واضطـرمت نـار الحرب واستعـرت، وباع كـل فريـق روحـه براحتـه الأخروية، وجرى قتال شديد أقشع عن نصرة الاسطول الاسلامي، وأخذ منـه شيني وقتـل من بـه،ونهب جميـع مافيـه، وظفـر من العـدّو بمركـب أيضا، كـان واصلا مـن قسطنطينية، ودخـل الاسطول المنصـور إلى عكا، وكان قـد صحبه مراكـب من الساحل فيهـا مير وذخائر، وطابـت قلوب أهل البلد بـذلك، وانشرحت صدورهم، فـان الضائقة كانـت قد أخذت منهم، واتصل القتـال بين العسكرين من خـارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل، وعاد كـل فريق إلى خيمه، وقـد قتل من عدّو الله وجـرح في ذلك اليوم خلق عظيـم، فإنهم قاتلوا في ثلاثـة مواضع، فإن أهـل البلد اشتدّوا في قتـالهم ليشغلـوهــم عـن الأسطـول أيضـا، والاسطــولان مقـابـلان، والعسكر من البر يقاتلهم، وكان النصر بحمد الله للمسلمين.

قال العماد: وقتلنـا منهم مـدّة مقامنـا على عكا سنتين أكثـر من ستين ألف، ورزأنـاهم بكل حتـف، وكلما أبادوا في البر، زادوا من البحـر، وكم جسروا وخسروا، وقتلـوا وأسروا، وهزمـوا وكسروا، وخلفهـم خلف، ويقـوم مقام مائتهـم ألف، وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم، وقطعنـا أرزاقهم ووصلنا آجالهم.

- ٨٧١٥ -

فصل

فيما كان من أمر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد: تواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان، وأنه انتهض للقائه جمع عظيم من التركمان، وقصدوا منعه من عبور النهر، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه، وعدم مقدّم لهم يجمع كلمتهم، وكان قليج أرسلان يظهر اشفاقه، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر من الفساد ماكان أضمره ووافقه وأعطاه رهائن معه على أنه ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون، وأنفذمعه أدلة يدلون به وعراهم في الطريق جوع عظيم وأعوزهم الزاد وقل بهم الظهر حتى أنهم ألقوا بعض أقمشتهم، ولقد بلغنا والله أعلم أنهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات وسلاح عجزوا عن حملها، وجعلوها بيدرا واحدا وأضرموا فيها النار لتتلف ولاينتفع بها أحد، وأنها بقيت بعد ذلك رابية من حديد، وساروا على هذه الحال حتى وصلوا إلى طرسوس، فأقاموا على نهر ليعبروه وأن ملكهم الملعون عنّ له أن يسبح فيه، وكان ماء شديد البرد، وكان ذلك عقيب مانالہ من التعب، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتدّ به إلى أن قتله، ولما رأى ماحل به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته، ولما مات أجمعوا رأيهم على أنهم سلقوه في خل، وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القدس الشريف ويدفنوه فيه، وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه، فإن ولده الأكبر كان خلفه في بلاده، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه، واستقر قدم ولده الحاضر في تقدّمه في العسكر، ولما أحس لافون بما جرى عليهم من الخلل وماحل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم، مارأى أن يلقي نفسه بينهم فإنه لايعلم كيف يكون الأمر، وهم فرنج وهو أرمني،فاعتصم عنهم في بعض قلاعه المنيعة، ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكاغيكوس، وهو مقدّم

الأرمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات، ومعنى هذا الاسم الخليفة، ونسخة الكتاب:«كتاب الداعي المخلص الكاغيوس مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر، جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، من أمر ملك الألمان وماجرى له عند ظهوره، وذلك أنه أوّل ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر غصبا، ثم دخل أرض مقدّم الروم وفتح البلاد ونهبها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطارا ذهباً وخمسين قنطارا فضة، وثياب أطلس مبلغا عظيما، واغتصب المراكب، وعدى بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، وردّ الرهائن وبقي ثلاثة أيام سائراً وتركمان الأوج يلقونه بالاغنام والابقار الخيل والبضائع، فتداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع القتال بين التركمان وبينهم، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر، ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به ملك الألمان وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردّهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيما من المسلمين والفرس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان، فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل، وقبل وصوله إلى هذه البلاد أنفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده ومالقيه في طريقه، وأنه لابدّ يجتاز بهذه الديار اختياراً أوكرها، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك خاتمه وصحبته ماسأل، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه، وكانت الوصية معهم أن يحرّفوه على بلاد قليج أرسلان إن أمكن، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب وعرّفوه الاحوال أبى الانحراف، ثم كثر عليه

العساكر والجموع ونزل على شط بعض الأنهر وأكل خبزاً ونام ساعة وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج وكان أمر الله أنه تحرّك عليه مرض عظيم من الماء البارد، فمكث أياما قلائل ومات، وأما لافون فكان سائراً يتلقى الملك، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدّموا اليه وأخبروه بالحال، فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك، وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه، وتأكدت قواعده، وبلغه هرب رسل لافون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال: إن أبي كان شيخا كبيراً وانما قصد هذه الديار لأ جل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك وعاينت المشاق في هذه الطريق مع من أطاعني، والا كنت بدأت بقصد دياره واستعطف لافون، واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة، وفي الجملة هم في عدد كثير، ولقدعرض عسكره فكان في اثنين وأربعين ألف مجفجفاً وأما الرجالة فلا يحصى عددهم، هم أجناس متفاوتة، وخلق غريبة، وهم على قصد عظيم، وجدّ في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة، ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم عليه، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه، وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه، وكل ذلك كان حزنا على بيت المقدس، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدّة طويلة وحرّموها على أنفسهم ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الاكابر ذلك، وهم على الذل والشقاء، والتعب على حال عظيم».

وقال العماد: لما قاربوا بلاد عز الدين قليج أرسلان نهض إليهم ابنه قطب الدين ملك شاه،فوقع بينهم الحرب، ثم اندفع عنهم إلى مدينة قونية، فساقوا وراءه ودخلوها وحرقوا أسواقها ونزلوها، فنفذوا إلى

السلطان قليج أرسلان: إنـا لم نصل لأخـذ بلادك، وإنما ثـرنا لثـأر بيت المقدس، ونفذوا اليه هدايا وطلبوا الهدنـة فهادنهم، فتقوّوا من تلك البلاد بما أرادوا من العدد والأزواد، وأنفذ قليج الـدين أرسلان وابنه يعتذران الى السلطـان مـن تمكينهـم ثـم العبـور، وانهم غلبـوا على ذلـك، ثـم ان الالمانيةطلبـوا من قليج أرسـلان إنفاذ جماعـة من الأمراء معهـم يمنعونهم مـن لصوص التركمان حتـى يصلوا إلى بـلاد الأرمن، فنفـذ معهم خمسـة وعشرين، ووافـق ذلك غرض قطب الـدين، فإنـه كان كارها لجماعـة من المقدّمين فتقـدّم إليهم بـأن يكونـوا في صحبة ملـك الألمان فحملهم على الخطر وأوقعهم في الغرر، وورّطهم في الضرر، فإنهم ماقدروا في الطريق على دفـع كـل سارق، وقـد تبعهـم اللصـوص حتـى وصلوا إلى بـلاد الأرمـن ومقدّمهم لافون بـن أصطفان بن لاون، فأخذوا أولئك الـرهائن وقيدوهـم وجعلوهم في الاسر وجـرّدوهم، فمنهم من خلص بعـد حين بمال جزيل، ومنهـم مـن بقي مـأسـورا حتـى أتـاه اليقين، ووصل مقـدّم الأرمـن إلى خـدمته، ودخـل في طـاعتـه، وهداهـم لمقصـده، وقـام لهم بالضيـافـات والعلوفات، وذلـك في طرسوس، فتمكنوا بها ليريحوا النفـوس، فعن لملك الالمان أن يسبح في النهر لإماطـة مابه من الوضر، فعرض لـه مرض سلك بـه في سقـر، وقيـل: لما عبرت جموعـه النهـر ازدحموا والتطـم الموج بهم واقتحموا، وطلب هو موضعا يعبر فيه وحده، ويتبعه من بعده، فنزل على مخاضـة ذات مخافة، لايخلـو مـن هجمها مـن آفـة، فجرى إليهـا، واجترأ عليهـا، فجـذبتـه سـورة الماء إلى شجرة شجـت رأسـه ومجت أنفـاسـه، وأخرجـوه ونفسه على الخروج، وعمـره على الدروج، فتسلـم مالـك ملك الألمان بآله وأحمالـه إلى جهنم، وجلس ابنه مكـانه، واتبع شانـه، واستتبع رجاله وفرسانه، وقيل عـرض عسكره في نيف وأربعين ألف كمي، وانقطع عنه ابـن لاون واختلف عليه أصحاب أبيـه ميلا منهم إلى أخيـه، وساروا على سمـت انطـاكيـة في فـرق ثلاث كـأنهم مـن المرض قـد نبشـوا مـن أجداث، وأكثـرهم حملـة عصيّ وركاب حمير، وكـل بالأرض التـي يسلكها

غير خبير، فتبرم بهم صاحب أنطـاكية، وثقلت وطأتهم المفـاجئة، وحسن لهم طريق بلاد حلب فلم يروا ذلـك الصوب من أرب، وطلب منه الملك قلعة انطاكيـة لينقل إليها ماله وخزائنـه وأثقاله، فأخلاها لـه وسلمها اليه طمعا في مـاله، وأمـوال رجالـه، وكان على ماحـدسه فـإنه لم يعـد إليها، واستولى الابـرنس بـأنطاكية عليهـا، وجاءت فرقـة منهم ليـلا إلى حصن بغـراس، وظنـوا أنـه في أيـدي أجناسهـم الأنجـاس، ففتـح والي القلعـة البـاب، وأخـرج الاصحاب، وتسلـم تلـك الأمـوال بأحمالها والصنـاديـق بأقفالها، وأسر منهـم وقتل كثير، وخرج بعد ذلك أهل جلـب وجندها إلى طرقهم، وفرقـوا بين فرقهم والتقطوهم من الخمر والغيـاض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة، ولايرى من رفقائهـم إغاثة، فهانت الألمانيةبعد تلك المهابـة في الأنفس، وباعـوهم في الاسواق بـالثمن الأبخس، ولما تكـامل وصول السالمين إلى أنطاكيـة، سلكوا إلى طريق طرابلس جبلـة واللاذقية، فخرج عليهـم رجالها فقتلـوا منهم وأسروا، فما وصلـوا إلى طرابلـس إلاّ في خف ولم يسـف بمن جاء مـع الملك غير ألف، وجـاؤوا إلى النازلين على عكا فغرقـوافي لجهم، وخمدوا في وهجهم، ثم هلك على عكـا بعد انقضاء مدّة، واقتضاء شدّة، بتاريخ ثاني عشر ذي الحجة سنة ست وثمانين.

وقال في الفتح: وجبـن الملك عن السير على الطريـق لما لقيت جموعه في طرقاتهم من التفـريق، فركب البحر في عدد يسير لايـزيد على الألف، برعب قلب وقصور يد ورغم، أنـف، واختلط مع الفرنج على عكا فسقط وسخط حكمه، وهلك بعد قليل، ولم يحظ بنقع غليل،

وقـال القاضي ابـن شدّاد: مـرض ولد ملـك الألمان الذي قـام مقامـه مرضـاًعظيماً، وأقام بمـوضع يسمـى التينات مـن بلاد لافـون، وأقام معـه خمسة وعشرون فـارساً وأربعون داوياً، وجهـز عسكره نحو أنطاكيـة حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فـرق لكثرتهم، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغـراس ومقدّمها كند عظيـم عندهم، وان عسكر بغـراس مع

قلته أخذ منهم مائتي رجل نهبا وقهراً، وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد، وقلة الخيل والظهر ، والعدد والالآت، ولما اتصل هذا الخبر بالنوّاب في البلاد الاسلامية أنفذوا إليهم عسكرا يكشفون أخبارهم، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم، وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس، ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول: هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة، قال: ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ماوجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا إلا النادر، فسألتهم عن ذلك، فقالوا: أقمنا بمرج وخم أياما وقلت أزوادنا وأحطابنا، فأوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها،ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية، وطمع لافون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تأخر معه،ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض.

قال:ولما تحقق السلطان وصول ملك الالمان إلى بلاد لافون وقربه من البلاد الاسلامية، جمع عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدّو المقابل بباقي العسكر المنصور، فكان أوّل من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين ابن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما،ثم مجد الدين صاحب شيزر، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب، وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرض عرض له، وكذا بدر الدين شحنة دمشق، ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لايالة الطريق، وكشف الأخبار، وحفظ مايليه من البلاد، وسار بعده الملك المظفر لحفظ مايليه من البلاد وتدبير أمر العدّو المجتاز، ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها، فأمر رحمة الله عليه الملك العادل فانتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن

زين الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم إلاّ أن المرض كان سليما بحمد الله تعالى، وكان المرض عند العدّو أكثر وأعظم، وكان مقترنا بموتان عظيم، وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطاً للعدو.

قال العماد: وتقدّم السلطان بهدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلهما إلى بيروت وفي بعض الكتب السلطانية:« قد عرفنا خبر العدّوالمشؤوم الواصل من جانب الروم، وهذا أوان تحّرك ذوي الحميه، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية، وانهم في كثرة مستنون في طريق العثرة، والسيل اذا وصل إلى الجبل الراسي وقف، والليل إذا بلغ إلى الصبح المسفر انكشف، فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين، وأين المسلمون وحاشى أن تكونوا للاسلام مسلمين، وأين المقدّمون في الدين، ومعاذ الله أن لايكونوا في نصرته على الموت مقدمين، ولولا التقيد بهذا العدّو الرابض لأطلقت أعنة النهضة إلى العدّو الناهض، ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين واراءة الملاعين وجوه حتفهم ملء العين».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد:« ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه، ويخرج منه للمسلمين ماهو أمر من أجاجه، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكه، فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفا عوضه في البحر، فالزرع أكثر من الحصاد، والثمرة أنمى من الجذاذ، وهذا العدّو المقابل قاتله الله قد زرّ عليه من الخنادق دروعا متينة، وأستجن من الجنانات بحصون حصينة، فصار محصوراً ومتمنعا حاسرا ومتدّرعا، مواصلا ومنقطعا، وعددهم الجم قد كاثر القتل، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل، لشدة ماقطعها النصل، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في

استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لافي شجاعتهم، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية في الصحبة البدرية، «اللهم إن تهلك هذه العصابة» ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة، وقد حرّم باباهم لعنة الله عليه وعليهم كل مباح، واستخرج منهم كل مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحداد وحكم عليهم أن لايزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة،فياعصبة محمد عليه السلام أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا فإنا والمسلمون عندك ودائعه، ومامثل الخادم نفسه في هذا القول إلاّ بحالة عبد لو أمكنه لو وقف بالعتبات ضارعا، وقبل ترابها خاشعا، وناجاها بالقول صادعا، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر، ولو أمن من عدّو الاسلام أن يقول قولا آخر لسافر، ولولا أن في التصريح مايعود على العدالة بالتجريح لقال مايبكي العيون، وينكي القلوب، ولكنه صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب: ربّ إني لاأملك إلا نفسي، وهاهي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة، وولدي وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم، وهان عليّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم، ونقف عند هذا الحد ولله الأمر من قبل ومن بعد».

فصل

في الوقعة العادلية على عكا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة

قال القاضي ابن شداد:علم عدّو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سار كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدّو فأجمعوا رأيهم، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة، فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم العادل، فلما بصر بهم صاح صائحهم، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها، وركب السلطان ونادى مناديه: ياللاسلام، وكان رحمه الله أول راكب، ولقد ركب من خيمته، وحوله نفر يسير ثم خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة لولدهاوالثاكلة لواحدها، ثم ضرب الكوس فأجابته كاسات الأمراء من أماكنها، وركب الناس وسارع الفرنج في قصد الميمنة حتى وصلوا إلى المخيم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر، ودخلوا في وجاقه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا إلى خيمة الخاص وأخذوا من شرا بخاناته شيئا، وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي، وعز الدين جرديك النوري ومن يجرى مجراه، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في المخيم ويشتغلوا بالنهب، وكان كما ظن فانه عاثت أيديهم في الخيام ، والاقمشة والفواكه والطعام، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى خيامهم هاربين، وعلى أعقابهم ناكصين، وسيف الله يقتل فيهم، وصاح صائح السلطان في الناس: ياأبطال الموحدين هذا عدّو الله قد أمكن الله منه، وقد داخله الطمع حتى غشّي خيامكم بنفسه، فبادر إلى اجابة دعوته أهل حلقته

وخاصته، ثم عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي، وتتابعت العساكر وتجاوبت الأبطال، وقامت سوق الحرب فلم يكن إلاّ ساعة حتى رأينا(القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) (٩٤) وامتدوا مطروحين من خيام العادل إلى خيامهم، أولهم في الخيم الاسلامية وآخرهم في خيم العدّو صرعى على التلول والوهاد، وكان مقدار ماامتد فيه القتلى بين المخيمين فرسخاً، وربما زاد على ذلك، ولم ينج من القوم إلاّ النادر.

قال: ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي، واجتهدت أن أعدهم،فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم، وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فإن السلطان كان قد أمر الناس أن لايستبقوا أحداً ، هذا كله في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلاّ وقد نجز الأمر، وقضي القضاء على العدو لبعد المسافتين ، وكانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر، فإن العدو ظهر في قائم الظهيرة، وانفصلت الحرب بعد العصر، وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم الى مخيمهم على ماقيل، ثم إن السلطان أمر الناس بالتراجع، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين، ولما أحس جند الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين العدو من الوقعة فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السور خرجوا إلى مخيم العدّو من البلد، وجرى بينهم مقتلة عظيمة، وكانت النصرة والحمد لله للمسلمين، بحيث هجموا خيام العدّو ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام، ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك واختلف الناس في عدد القتلى منهم، فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف، وقال آخرون: سبعة آلاف ولم ينقصهم حازر عن خمسة آلاف، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أوّلها في خيم العادل وآخرها في خيم العدّو، ولقد لقيت انسانا عاقلا جندياً يسعى بين

صفوف القتلى، ويعدهم فقلت له: كم عددت؟ فقال: إلى هنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلا، وكان قد عدّ صفين، وهو في الصف الثالث لكن مامضى من الصفوف أكثر عدداً من الباقي.

قال: وجاء من الغد نجاب له عن حلب خمسة أيام بكتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدّو الشمالي خرجوا للنهب بأطراف البلاد الإسلامية، ونهض العسكر الحلبي إليهم وأخذ عليهم الطرق، فلم ينج منهم أحد إلاّ من شاء الله.

قال: وجاء في ليلة ذلك اليوم من اليزك من ذكر أن العدّو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع منهم حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم، ولم يزل العدّو من حينئذ مكسور الجناح منهاض الجانب حتى وصلهم كند يقال له كندهري، وسيأتي ذكره.

وقال العماد: لما شاع عند الفرنج خبر وصول الألمانية قالوا: إذا وصل ملكهم، ونكى في المسلمين انكسر ناموسنا وتطأطأت عنده رؤوسنا، فذكر الوقعة بمعنى ماتقدم إلى أن قال: ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ماسره، وعرف لطف الله وبره ونصره، وعاين هناك مصارع الأعداء، ومشارع البلاء، وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الأرض، وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض، وكل صف يزيد على ألف قتيل، وشاع القتل في الفرنج في كل قبيل، وكانت هذه النوبة بلا نائبة، وتلك الغزوة بلا شائبة، وقتل منهم زهاء عشرة آلاف، ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة نفر، واغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسرة.

قال: ولماعرفت بالواقعة، والنصرة الجامعة، صدرت ثلاثين أو أربعين كتابا بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات، وقلت: إذا نزل السلطان

وجـد الكتب حـاضرة، ورأى البشـارة شـائرة، وركبت أنـا والقـاضي بهاء الدين ابن شـداد لمشاهدة ماهناك من أشـلاء صرعى وأجساد، فما أعجل ماسلبوا وعرّوا، وفروا وفروّا، وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم، ورأينا امرأة مقتولـة لكونها مقـاتلة، وسمعنـاها وهـي خامـدة بالعبرة قـائلة، ومـازلنا نطوف عليهـم ونعبر ونفكر فيهـم ونعتبر حتى ارتـدى العشاء بـالظلام، فعدنـا إلى الخيام، واطلنا الوقـوف على تلك الطلول الـدارسة، واستبشرت الوجوه بتلـك الأوجه العابسه، وحزرناهـم بعشرة آلاف قتيل، لاحزر تكثير بل حـزر تقليل، وكان الـذين حملوا وهـزموا وقتلـوا أقل من ألـف، فقتلوا أضعافـا مضاعفة وعـدموا ممن وراءهـم مساعـدة ومساعفة، وحكـي من نوادر هـذه الوقعـة أن فرنجيـا عقر فجثـا للصرعة فعثـر به راكـب برذون فعرقب الفـرنجي فرسه بسيـف في يده، فنزل بحده مستنـا في جدده وقتل ذلك الفـرنجي، وروى مـن دمه الهنـدي، وحل مـن وسطه ثمانين دينـارا فانقلـب ربحاً ماعـده خساراً، وامتـلأت الأيدي بالأسـلاب والأكساب، وحصل من العدد مالم يكـن في الحساب، وبيعت الزرديات ذوات الأثمان بالرخص.

قال: وشرع الفـرنج في الخداع والمراسلة، وسألـوا في الصلح وأذن لهم السلطـان في الخروج للنظـر إلى اولئـك الصرعـى بتلـك المروج،وهـي قـد تورمت، وانتنت، وجـافت وحميت الشمس على جيفها وحافـت، وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت، فساءهم ماسرنا، ونفرهم ماأقرّنا.

فصل

قال العماد: وكان الرأي بعد هذه ا لنصرة أن نرد عليهم الكرة مرة بعد مرة إلى أن يهلكوا حسرة، ويبيدوا فلا يبقى لهم جمرة، فاشتغل السلطان بها جاء من المكاتبات بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الألمان، فجاءت للفرنج نجدة من البحر، ومدد أضعاف مانقص منهم من العدد والعدد، فأضحوا كأن لم ينكبوا، وثبتوا مكانهم ولم يثبوا، ووصل اليهم المعروف بالكندهري، ففرّق الأموال واستخدم الرجال، وأنفق في عشرة آلاف رجل ،وأظهر أنه يخرج إلى لقاء عسكر الاسلام، فتحوّل السلطان الى منزلة الخروبة ليوسع عليهم الدائرة، ونصب الكند على عكا منجنيقات كثيرة، فأحرقها المسلمون، وقتل منهم من الفوارس سبعون، وأسر عدّة معروفون، ثم نصب منجنيقين فأحرقا أوّل شعبان، وكان الكند قد أنفق على أحدهما ألفا وخمسمائة دينار، ومن جملة من وقع في الأسر فارس كبير فما أمهلوه حين أخذوه، حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال ولم يعرفوا بالحال فأخرجوه إليهم قتيلا فأكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلا، وباتوا يندبونه نوحاً، ويذيعون سر تقدّمه فيهم بوحاً، وحين وقعت أعينهم عليه قتيلا ضربوا بنفوسهم الأرض، وحثوا على رؤوسهم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة، وكتموا أمره ولم يظهر أحداً على سره، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون، هذا والكتب متواصلة من عكا الينا ومنا إليها على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سارقة من العدو.

قال العماد: ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية، والخطبة فيه، وأنه مستمر على المودّه ، راغب في المحبة، ويعتذر عن عبور الملك الألماني، وأنه قد فجع في طريقه بالأماني، ونال

مـن الشدة، ونقـص العدة مـا أضعفه وأوهـاه، وأنه لايصـل إلى بلادكـم فينتفـع بنفسه أو ينفـع، ويكون مصرعـه هنـاك ولايرجـع، ويموت بها بـه كـاده، وأنـه قـد بلـغ في أذاه اجتهاده، ويطلـب رسـولا يـدرك بـه مـن السلطان سـولا، فأجيـب في ذلك إلى مراده، ووقـع الاعتداد بها ذكـره من اعتداده.

وقـال القاضي ابـن شدّاد: كـان بين السلطـان وبين ملك قسطنطينيـة مراسلـه ومكاتبـه، وكان وصـل منه رسـول الى الباب الكـريم السلطـاني بمـرج عيون سنـة خمس وثمانين في رجـب في جـواب رسول كـان أنفـذه السلطان بعد تقريـر القواعد، واقامة قانون الخطبـة في جامع قسطنطينية، فمضى الرسـول وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وإكـرام زائد، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعـاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينيـة يومـا عظيما من أيـام الاسلام، وشـاهده جمع كبير مـن التجـار، ورقـي الخطيب المنبر واجتمـع إليـه المسلمـون المقيمـون بها والتجار، وأقام الدعوة الاسلامية العباسيـة، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبر بانتظام الحال في ذلك فـأقام مدّة ولقد شاهدته يبلغ الـرسالة ومعه ترجمان يترجـم عنه وهـو شيخ مـن أحسن مـايفرض أن يكـون من صـور المشايـخ، وعليه زيهم الـذي يختص بهم، ومعـه كتاب وتـذكرة والكتـاب مختوم بذهب، ولما مات وصل خبر وفاتـه إلى ملك قسطنطينية، فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك، ثم وصف القاضي الكتاب، وعبر عنه بألفاظه.

وقـد عبر العماد عن معـانيـه فأغنـى عـن ذلك، ثـم قـال: وكان مـن حديـث ملك الالمان أنـه بعد أن استقـرت قدمـه في أنطاكيـة أخذهـامن صاحبهـا وتحكم فيـه، وكان بين يـديه فيهـا ينفذ أوامـره، وكان لـه أموال برفقته، فأخذها منه غيلة وخديعـة وأودعها في خزانته، وسار عنها خامس عشري رجب، نحـو عكا في جيوشـه، وجموعه على طـريق اللاذقيـة حتى

أتى طرابلس، وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الأصل في تهييج الجموع، وذلك أنه صوّر القدس في ورقة عظيمة، وصوّر فيه صورة القمامة التي يحجون إليها، ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوّر القبر، وصوّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشفة وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم فإنها أصل دينهم،فهاج بذلك خلائق لايحصي عددهم إلا الله تعالى، كان من جملتهم ملك الألمان، وجنوده فلقيهم المركيس لكونه أصلا في استدعائهم إلى هذه الواقعة، فلما اتصل به قوّى قلبه وبصره بالطرق، وسلك به الساحل خوفا من أنه إذا أتى على بلاد حلب وحماه نازلهم المسلمون من كل جانب، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم، واختلف حزر الناس لهم، ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ماذكر بمائتي ألف، فانظر إلى صنيع الله مع أعدائه، ولما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجد في اعقابهم نيفا وستين فرساً قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها إلا العظام من شدّة الجوع وضعف الخيل، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تتخطفهم من حولهم نهباً وأسراً وقتلاً حتى أتوا طرابلس،

فأقام بها حتى استجم عسكره، وأرسل إلى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه فوجموا من ذلك، لأن المركيس صاحب مشورته، وكان الملك كي وهو ملك الساحل بالمعسكر، هو الذي يرجع إليه في الأمور، فعلم أنه مع قدوم الملك الألماني لايبقى له حكم، وفي أواخر شعبان نزل الملك الألماني في المراكب هو وعسكره فثارت عليهم ريح اهلكت منهم ثلاثة

مـراكـب، وسار البـاقـون إلى صـور، ثـم وصل إلى عكـا في نفـر يسير في سادس رمضـان، وكان لقدومه وقـع عظيم عندهم، ووصـل خبر وصولهم إلى طرابلس ثامن شعبان، والسلطان ثـابت الجأش راسخ القدم لايزعزعه ذلك عـن حراسة عكا والحمايـة لها، ومراصدة العسكر النـازل بها، وشن الغارات والهجوم عليهـم في كل وقت، مفوّضا أمـره إلى الله تعالى، معتمداً عليه منبسط الوجـه لقضاء حوائج الناس، مواصلاً ببره مـن نفذ إليه من الفقـراء والفقهـاء والمشايـخ والأدبـاء، ولقـد كنت إذا بلغنـي هـذا الخبر تأثـرت حتى إذا دخلت عليـه أجد عنده مـن قوّة النفس وشـدّة البأس مايشرح صدري، وأتيقن معه نصر الاسلام وأهله.

فصل

في إدخال البطس إلى عكا

قال ابن شدّاد: كان رحمه الله قد أعدّ ببيروت بطسه، وعمرها وأودعها أربعمائة غرارة من القمح، ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن ان يدخلها مركب للمسلمين، وكان قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة، فركب في بطسه بيروت جماعة من المسلمين، وتزيوا بزّي الفرنج، حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد، وعلقوا الصلبان وجاؤوا قاصدي البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدّو، فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أولم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا:لم نأخذ البلد بعد، فقالوا: نحن نرّد القلوع إلى العسكر ووراءنا بطسة أخرى في هوائها فأنذروهم حتى لايدخلوا البلد، وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها، فاشتدّت البطسة الاسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت مينا البلد وسلمت ولله الحمد، وكان فرجا عظيما فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب.

قال: وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش، وهو والي البلدوالمقدّم على الأسطول، وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد إلا قدر يكفي البلد إلي ليلة النصف من شعبان لاغير(فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها)[٩٥] لخاص ولاعام خشية الشيوع والبلوغ إلى العدّو فتضعف به قلوب المسلمين، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والأدام والمير وجميع

مايحتاج إليه في الحصار، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء، فأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية، ولججت في البحر تتوخى النوتية بها الريح التي تحملها إلى عكا، فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان، وقد فنيت الأزواد، ولم يبق عندهم مايطعمون الناس في ذلك اليوم، وخرج عليها أسطول العدّو يقاتلها والعساكر الاسلامية تشاهد ذلك من الساحل والناس في تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بسلامتها إلى البلد، والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال، ويدعو إلى ربه بنصره، وقد علم من شدّة القوم مالم يعلمه غيره، وفي قلبه مافي قلبه والله يثبته، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب، والله يدفع عنها والريح تشتدّ والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين، والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى مينا البلد، وتلقاهم أهل عكا تلقي الامطار عن جدب، وامتاروا بما فيها، وكانت ليلة بليال، وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان.

وقال العماد: كان السلطان قد أمر نوّاب الاسكندرية بتجهيز بطس كبار وتعميرها من كل ميرة وغلة وتسييرها إلى عكا، فأبطأت عن الميقات وأضر بالمقيمين بالبلد إعواز الأقوات، فافكر فيما يتعجل به الغرض، فكتب إلى متولي بيروت عز الدين سامة فجهز بطسة كبيرة،ملأها ميرة، وغلة كثيرة، وأركبها جماعة على زي الفرنج ممسوحي اللحى، ممسوخي الحلى، وأصحبهم صلبانا وخيل بهم رهبانا، وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة، وهي بساحل بيروت منبوذة، فأمر السلطان بترميمها وتتميمها، فملئت بالشحوم واللحوم، وأربعمائة غرارة غلة، وأحمال من النشاب والنفط، ورتب فيها ر جال مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشتبه ببطس العدّو في البحر، فشدّوا زنانير واستصحبوا خنازير، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين، والى محادثتهم

ومجاذبتهم منبسطين، ولما حاذوا بها عكا صوّبوا بها نحوها والريح تسوقها، والفرنج من مراكبها تقول: ماهذه طريقها، وهي كالسهم النافذ قد سدّد فوقها، فدخلت الثغر واجتزأ البلد بها نصف شهر، وظهرت رابع عشر رمضان من ثبج البحر ثلاث مراكب، كأنها ثلاث هواضب، فجاءت فجأة أعلامها كالأعلام، طائرة كالسهام، ولم تبال بمراكب العدّو فخرقتها، وقربت من سفينة فغرقتها، وعبرت وعين الكفر عبرى، وامتلأ الثغر بها وأثرى.

فصل

قال العماد:ووصل ملك الألمان، ورام أن يظهر بمجيئة وقعا، ويبدي به نفعا، فدبوا في راجل كرجل الدبا، وخيل أغصت الوهاد والربى، وقربوا من تل العياضيه، وعليه خيم اليزكية، والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصرية، والعصبة الموصلية، فثارت إليهم، ودارت عليهم، وركب السلطان، وتقدّم إلى تل كيسان، ولم يزل الحرب إلى أن جن الظلام، وكف الكفر، وسلم الاسلام، وكانت الدائرة على الكفرة.

قال القاضي: وقتل منهم وجرح خلق عظيم، والسيف يعمل في بقيتهم وهم هاربون حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم وهو لايعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه، وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان، وجرح جماعة كثيرة.

ومن كتاب إلى بغداد:«قد بلي الاسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفين الأهل والديار، وركبوا اللجج ووهبوا المهج كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالاً لأمر مركيسهم وغيرة لمتعبدهم وحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم، وتحرقاً على قمامتهم، ولايطلبون مع شدّة الاملاق مالاً، ولايجدون مع كثرة المشاق ملالا، بل يتساقطون على نيران الظبى تساقط الفراش، ويقتحمون الردى متدرّعين الصبر متثبتي الجأش، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات، وسرن إلى الشام في البحر والبر متجهزات، وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل، والتزمت بمؤنتهم فصودف مركبهابقرب الاسكندرية فأخذت برجالها، وأراح الله شر احتفالها، ومنهن ملكة وصلت مع ملك الالمان، وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات، يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات، وقد وجد في الوقعات التي جرت عدّة منهن بين القتلى، وماعرفن حتى

سلبن، وإن البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم، وقال: من لايتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محرم، لامنكح له ولامطعم، فلأجل هذا يتهافتون على الورود، ويتهالكون على يومهم الموعود، وقال لهم:إني واصل في الربيع، جامع على الاستنفار شمل الجميع، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول إن لله أهلا وولد، فهذا شرح هؤلاء وتعصبهم في ضلالتهم ولجاجتهم في غوايتهم، بخلاف أهل الاسلام، فإنهم يتضجرون ولايصبرون، بل يتفللون ولايجتمعون، ويتسللون ولايرجعون وإنما يقيمون ببذل نفقة، واذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة، ليعلم أن الاسلام من عند الله منصور، وان الكفر بارادة الله محسور ومدحور.

قال القاضي: ولما عرف ملك الألمان ماجرى على أصحابه من اليزك الذي هو شرذمة من العسكر، رأى أن يرجع إلى قتال البلد، ويشتغل بمضايقته، فاتخذ من الآلات العجيبة، والصنايع الغريبة، ماهال الناظر إليه وخيف على البلدمنه، فمما أحدثه آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة فتهدمه بتكرار نطحها، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال تسحب ذلك إلا أن رأسها محدّد على مثال السكة التي يحرث بها، ورأس الكبش مدّور هذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها وهي تسمى سفودا، ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة، واعدّوا في البحر بطسة غائلة، وصنعوا فيها برجا بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات، ويبقى طريقا إلى المكان الذي ينقلب عليه يمشى عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه به.

قال: ونصب العدّو على البلد منجنيقات هائلة، حاكمة على السور،

وتواتـرت حجارتها حتـى أثرت فيـه أثرا بينا، وخيـف من غـائلته فـأخذ سهمان من الجرخ العظيم، وأحـرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلـة من النار، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيـه، واجتهد العدّو في إطفاء النار، فلم يقدر على ذلـك، وهبت ريح شديـدة فاشتعل اشتعـالا عظيما، واتصلت لهبته بالآخر فـأحرقته، واشتدت ناراهما بحيث لم يقـدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتـال في إطفائهما، وكـان يومـاً عظيماً اشتد فيـه فرح المسلمين، وغم الكافرين».

قال:«ومن نوادر هـذه الوقعة ومحاسنها، يعني نوادر مـاجرى في القتال على عكا، أن عواما مسلما كان يقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكتب والنفقات على وسطـه ليلاً على غـرة من العـدّو، وكان يغـوص ويخرج من الجانب الآخر مـن مراكب العدّو، وكـان ذات ليلة شد على وسطه ثـلاثة أكياس فيهـا ألف دينار، وكتبا للعسكـر، وعام في البحر فجرى عليـه أمر أهلكه، وأبطـأ خبره عنا، وكانـت عادته إذا دخل البلـد طار طائر عـرفنا بوصوله، فابطأ الطائر فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحـر في البلد وإذا البحـر قد قـذف إليهم ميتـا غريقـا فافتقـدوه فوجـدوه عيسى العـوام، ووجدوا على وسطـه الذهـب، ومشمع الكتـب، وكان الذهب نفقة للمجاهديـن، فمارؤي من أدّى الأمانة في حال حياته، وقـدر الله له أداءهـا بعـد وفـاته إلا هـذا الـرجـل، وكان ذلـك في العشر الأواخر من رجب أيضا».

وقال العماد: فقد —يعني عيسى—ولم يسمـع له خبر ولم يظهر له أثر، فظنت به الظنون، وماتيقنت المنون، وكانـت له لاشك عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حـاله وهي مجهلة محتملة، فـوجد في عكا ميتا قـد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مماقالوا، فذهب اليقين من الظنون بباطلها.

- ٨٧٣٧ -

فصل

في احراق ماحوصر به برج الذبان وتحريق الكبش

قال القاضي:وفي الثاني والعشرين من شعبان، جهز العدّو لعنه الله بطساً متعددة لمحاصرة برج الذبان، وهو برج وسط مبني على الصخرعلى باب مينا عكا، تحرس منه المينا، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدّو، فأراد العدّو أخذه ليبقى المينا بحكمه ويمنع من دخول شيء من البطس إليه، فتنقطع الميرة عن البلد، فجعلوا على صواري البطس برجاً وملؤوه حطباً ونفطا على أنهم يسيرون البطس فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصاري، وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه، وجعلوا في البطسة وقوداً على أ نهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الاسلامية، ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية، ويهلك مافيها من الميرة وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لايصل إليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح، حتى إذا أحرقوا ماأرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو فأمنوا وأحرقوا ماأرادوا إحراقه، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور، وكان طمعهم مشتدا حيث كان الهوا مسعدا لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به من على البرج فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم، كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة إلاّ من شاء الله تعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت معدّة لإحراق بطسنا، ووثب أصحابنا عليها فأخذوها إليهم وأما البطسة التي فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيماً فانقلبت، وهلك جميع من بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى، وأندر العجائب في نصرة دين الله ولله الحمد، وكان يوما مشهودا.

وقال العماد: وعند مينا عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان، وهو في حراسة المينا عظيم الشان، وهو منفرد عن البلد محمي بالرجال و العدد، وقصد الأفرنج حصاره قبل مجيء ملك الألمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها، ومراكب عظام الآلات أبرزوها، ومكر مكروه، ودبردبروه، وأحد تلك المراكب قد ركب برج فوق صاريه، لايطاوله طود ولا يباريه وقد حشي حشاه بالنفط والحطب، وضيق عطنه بسعة العطب حتى إذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته أعدى إليه بآفاته، ورميت فيه النار فاحترق واحترق من الأخشاب والستائر مابه التصق، واستولت النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها، ولم يقربوا منها، وأوقدت بطسة الحطب التي من ورائها، وعادت على الفرنج فالتهبوا، وحمى عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا، وانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا، والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يغرقوا، واحتمى برج الذبان فلم يطر عليه من بعدها ذباب، ولم يفتح للعدّو في الكيد له باب.

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن:« ومن حديث هذا البرج أنه يحيط به البحر من جوانبه، وهو قفل مينا الثغر على مراكبه، وقد رفعناه وأعليناه، وبالعدد والرجال قويناه فعمدوا إلى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقالا كأنه سلم، وهو في مقدمها مركب مقدم، وقد جعلوها بحيث إذا قرب إلى البرج ركب رأس السلم على شراريفه، وصعد الرجال إليه في تجاويفه، وتعبوا في ذلك أياما، وأشبعوه توثيقا واحكاما، حتى إذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط، وتوالت امطار البلايا من الجروخ والمنجنيقات على أولئك الرهط، ثم عمل الفرنج برجاً عاليا في أكبر مركب وحشوه بالحطب، وعملوا على رأس صاريه مكاناً يقعد فيه الزراق، وقدموه إلى برج الذبان، وسلطوا على جوانبه النيران، فأهب الله

من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس، وكبت الفرنج على الوجوه والرؤوس.

قال القاضي: وفي ثالث رمضان زحف العدّو على البلد في خلق لايحصى فأهملهم أهل البلد حتى نشبت مخالب اطماعهم فيه، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا ان يلصقوها بالسور، وتحصل منهم في الخندق جماعة عظيمة، فأطلقوا عليهم الجروخ والمجانيق والسهام والنيران، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدّو من كل جانب، وكبسوهم في الخنادق فهربوا ووقع السيف فيمن بقي في الخندق منهم، ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فأحرق حريقاً شنيعاً، وظهرت له لهبة نحو السماء، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر، وسرت نار الكبش بقوتها إلى السفود فاحترق، وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة في الاسل[٩٦] فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة، وألقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام، وبلغنا من البلد أنه وزن ماكان عليه من الحديد، فكان مائة قنطار بالشامي، والقنطار مائة رطل، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثال السفود الذي يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطح به السور فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أ حسن أيام الاسلام، ووقع على العدّو خذلان عظيم، ورفعوا ماسلم وآلاتهم، وسكنت حركاتهم التي ضيقوا فيها نفقاتهم، وقال العماد: واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، في رأسها شكل عظيم، يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت[٩٧] الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فلم يبق للنار إليها سبيل، ولا للعطب عليها دليل، وملؤوها

بالكماة والرماة وسحبوها وقربوهـا فجاءت صورة مزعجة، وبلي البلد منها بالبـلاء الأفظع، وقالوا: مـافي دفعها حيلة ولا مطمع ونصبـوا على صوبها مجانيق، ورموا بـالحجارة الثقيلة ذلك النيـق، فأبعدت رجالها مـن حواليها ثم رموها بحزم الحطـب حتى أحرقوا مابين القرنين، وقذفوهـا بالنار فباتوا يطفئـونها بالخل والخمـر وقـد تمكنـت النار مـن أضـلاعهـا، ثم خسفهـا المنجنيـق وخرج مـن بالثغـر فقطعـوا رأس الكبش، واستخـرجوا مـاتحت الرمـاد من العـدد بالنبش، وقـدر مانهب مـن الحديد بمائة قنطـار، وعلم الفرنـج أن أعمالهم حبطت، وآمـالهم هبطت، وكـان ذلك في ثـالث عشر رمضـان، وفيه قـدم الظـاهر صـاحب حلـب والأمجد صـاحب بعلبـك، وسابـق الدين عثمان صـاحب شيزر، وعزالـدين بن المقـدم والامير حسام الدين حسين بن باريك، وجماعة من الأمراء والخواص والمماليك.

فصل

في حوادث أخر متفرقات

قال العماد: ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب أنطاكية أغار على غرة بشر وشره، فرتب أصحابنا له كمينا، ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا، فقتلوا أكثر رجاله وأفلت وباله في وباله.

قال القاضي: خرج عليه نواب الملك الظاهر، فقتل من عسكره خمسون نفراً وأسر منهم خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيح حتى اندفعوا وسار إلى بلده.

قال: وفي أثناء العشر الأوسط ألقت الريح بطستين، فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدّو، فغنمها المسلمون، وكان العدّو قد ظفر لنا ببركوس فيه رجال أراد الدخول إلى البلد فأخذه، فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابراً له.

قال العماد: وفي هذا التاريخ ألقت الريح إلى ساحل زيب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء، وفيهما امرأة محتشمة غنية محترمة، فأخذتا وأخذوا وأخذت، وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت.

قال: وفي تاسع عشر الشهر رحلنا إلى منزلة تعرف بشفرعم، وسببه أنه كثر المستأمنون من الفرنج وأخبروا أنهم في عزم الخروج الى المرج هائجين إلى الثأر، ثائرين إلى الهيجاء فاستشار السلطان أمراءه فقالوا: الصواب أن نفسح لهم عن هذه المروج، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج، فنصبحهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر، فخيمنا هناك ورحبت المنازل وعذبت المناهل،وعادت معالم تلك المجاهل، وحللنا

التلال والآكام، وركزنا بتلك الأعلام الأعلام، ونزلنا لمقام الشتا مستعدين، ولأسباب التوقي من الأمطار مستنجدين.

قال: ومرض زين الدين صاحب إربل في شهر رمضان، وتوفي في الثامن والعشرين منه.

قال القاضي: وكان استأذن في الرواح فلم يؤذن له، فأستأذن في الانتقال إلى الناصرة فاذن له، فأقام بها أياما يمرض نفسه، ثم توفي وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده، وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته.

قال العماد: وكان كريماً أريحياً، جواداً سخيا، وبكرنا إلى مظفر الدين نعزيه في أخيه، وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء، مهتم بالاحتياط على ماخلفه أخوه وتركه من الأشياع والأشياء، وهو جالس في مخيم أخيه المتوفى، وقد أشرف على حفظه وأوفى، وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم، وعجل عليهم وما أغفلهم، منهم: صارم الدين بن بلداجي متولي خفيتان(٩٨)، كان ليتسلم منه المكان، وكذلك كل حاضر له حصن ليحصل له من طاعته أمن، وخاطب في اسباب ولاية إربل وأعمالها، وأن يستقل ببلادها وأموالها ، ورغب في شهرزور واستضافتها لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها، وأنه ينزل على حران والرها وسميساط والموزر، ويجعل كل مافي يده من الأعمال في الموفر، ويخدم بخمسين ألف دينار، يحضرها نقدا، ويلتزم بها على الميثاق عقداً، فاجيبت رغبته، وأصيبت طلبته، وعقد لواؤه، ونجح رجاؤه، وأراد سرعة الرحيل، فاستمهل إلى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين، فوصل يوم الأحد ثالث شوال وأضيف إليه مااستعيد من مظفر الدين من الأعمال، وكتب منشور إربل، وكتاب إلى صاحب الموصل فيه:« لاشك في إحاطة العلم

بانتقـال زين الـدين إلى جوار الله ومقـر رحمته، مجاهـداً في سبيله، شـاكراً لنعمته، وهـو من السعداء الـذين أنـزل الله تعالى فيهم: (ومـن يخرج من بيته مهاجـراإلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقـد وقع أجره على الله) (٩٩) فما أفجع القلوب بمصابه، وماأنكى في النفـوس أفول شبابه، ولقد كانت الهمة متـوفرة على تـربيته واعلاء درجتـه، ولكن الله تعالى استـأثر بـه قبل ظهـور حسن الآثـار في ايثاره، وبلي بـدره التم بسراره، وأصبـح في ضمير البلى مـن أسراره، وهذه إربـل مـن انعام البيـت الكـريـم الأتابكـي على البيـت الزينـي مذ سبعين عـاما، لم يحلـوا لعقـد انعامهـم بها نظامـاً، ولم يزيدوا أحكامـه إلا احكاما وإبراما، ومارأى أن يخرج هـذا الموضع منهم، وأن يصدف بـه عنهم، والأمير الأجل مظفر الـدين كبير البيت وحـاميه، والمقدم في الولايةبمقتضى وصية أبيه، وقد أنهض ليسد مسد أخيه».

قال: وكان الملك المظفر تقي الديـن متوليا منذ سنين أعمال ميافارقين، فطلـب من عمـه تفويـض كل مـاوراء ا لفرات إليـه والاعتماد فيه عليـه، فأنعم عليه بذلـك فأقام عندنا بالمنزلة المظفـرية إلى أن يؤذن له في المضي إلى تلك الولاية، وسير نوابه إليها لابقاء رعاياها على شيمة الرعاية.

قـال : ولما أحـس العسكـر الشرقـي بالشتـاء أبـدوا خلـق السـآمـة، وضجروا من الاقامـة، وأماعماد الدين صاحب سنجار فإنـه عرف كراهية السلطـان لفراقـه، فلم يجر إلا على وفـاقه، وأمـا صاحـب الجزيرة سنجـر شاه، فإنه استطال المقام وأباه، ودخـل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل يده وودعه من غير سـابقة الاستئذان، فأغضبه انفصالـه، وساءه ارتحاله، وكان تقـي الديـن واصلاً فلقـي صاحب الجزيـرة عنا فـاصلا، فـردّه عن طريقه، وجد في تعويقه، ورجع به إلى الرضى، وعفا الله عما مضى.

قال القـاضي: ترددت رسلـه ورقاعه إلى السلطـان في طلب الـدستور، والسلطان يعتذر بـأن رسل العدّو متكررة في معنـى الصلح ولا يجوز أن

تنفض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السلطان وهو ملتاث الجسم وقبل يده وخرج وسار من ساعته، وتبعه أصحابه، فلما بلغ السلطان صنيعه كتب إليه:« إنك أنت قصدت الإنتماء إلي في الابتداء فبسطت يدك وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أهلك، فقبلتك وآويتك ونصرتك، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام، فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المديدة وقلقت هذا القلق، وتحركت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدّو، فانظر لنفسك وأبصر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات»،وسلم الكتاب إلى نجاب فلحقه قريبا من طبرية فقرأ الكتاب، ولم يلتفت وسار، فلقيه تقي الدين عند عقبة فيق فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له في الرواح، ففهم تقي الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فأمره بالرجوع وقال: أنت صبي ولاتعلم غائلة هذا الأمر، فقال: مايمكنني الرجوع، فقال: ترجع من كل بد من غير اختيارك، وكان تقي الدين شديد البأس مقداماً على الأمور ليس في عينه من أ حد شيء، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه، وسأل السلطان الصفح عنه ففعل، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه فأذن له فأقام في جواره إلى حين ذهابه.

وقال العماد في الفتح: وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام، وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام، وتقرر ملاله، وتكرر سؤاله، فكتب إليه السلطان:

من ضاع مثلي من يديه
فليت شعري ما استفادا

- ٨٧٤٥ -

فلما قرأ هذا البيت ما راوح في الخطاب ولا غادى

وقال في البرق: وفي مستهل ذي القعدة أذن لعلاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل، ونعت بالملك السعيد لما تفرس فيه من أمارات السعد، وأقام بعده عمه عماد الدين وابن عمه معز الدين سنجرشاه وهما صاحبا سنجار والجزيرة، وحبوا بالحباء الوافر والعطايا الغزيرة، ومافارقا إلاّ في السنة الأخرى في ثالث صفر.

قال: وغلت الأسعار عند الفرنج حتى بلغت الغرارة أكثر من مائة دينار، والسعر من الزيادة لديهم في استعار، وبلوا بأمور صعبة، وهرب إلينا منهم عصبة بعد عصبة، فاستأمنوا إلينا لفرط جوعهم جميعهم، ولما شبعوا عندنا لم يرغبوا في رجوعهم، فمنهم من أسلم فحسن إسلامه، ومنهم من خدم فوافق استخدامه، ومنهم من حن إلى إلفه، فرجع القهقرى إلى خلفه.

فصل

كان القاضي الفاضل رحمه الله تعالى في هذه الأوقات بالديار المصرية يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الاسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع اجوبته بأحسن عباراته، مشيرا وناصحا ومسليا، وباحثا عن مصالح الاسلام متقصيا، فمن بعض كتبه: « المملوك ينهى أن الله تعالى لاينال ماعنده إلاّ بطاعته، ولاتفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان باديه، والمظالم في كل موضع فاشيه، وقد طلع إلى الله تعالى منها مالا يتوقع بعدها إلاّ مايستعاذ منه، وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس مايكون بمشيئة الله له حجة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه، بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبه ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الاجساد، وتتصدع بذكرها الأكباد، والمملوك لايتعرض لتفصيل مابلغه من ظهور المنكرات في أتباعه، وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتهما وتفقدهما في أشتيه القدس العظيمة الجليلة المثلجة لايؤمن سقوطها، وافتضاح القدرة في العجز عن اعادتها، والمرمة أقرب تناولاً من الانشاء والتجديد، ولا شبهه أن مولانا عز نصره في اشغال شاغلة وأمور متشددة، وقضايا غير واحدة ولا متعددة، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا، وأضجرتهم الايام فما ضجروا، وأي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود، وصبر في طلب جنتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام، فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يعجل في الامور الخطيرة، ولايقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة، فالمولى إذا أقبل كان واحدا، وإذا أدبر كان مقوما بجميع الخلق، ولايطمع بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرملة التي كان وقوعها من الله سبحانه

أدباً لاغضباً وتوفيقا لا اتفاقـا، ولايكره المولى أن تطول مـدة الإبتلاء بهذا العدّو، فثوابه يطـول وحسناتـه تزيد، وأثـره في الاسلام يبقـى، وفتوحـاته بمشئية الله يعظـم موقعهـا، (والعاقبـة للتقوى) [١٠٠] (ولينصرن الله من ينصره) [١٠١] واللهتعـالى يشكـر لمولانـا جهـاده بيـده، وبـرأيـه وبـولـده، وبخاصته، وبعامة جنده، وبالأعـداء في أعدائه كجهاده بصاحب صيدا في الفـرنج، فهـو جهاد قـد أربى فيـه رأي المولى فرجـح والحديد يفلـح، وأكيد ماقوبل به العدّو سلاحـه، وأسرع جناح طار لقنصه جناحه، ودولة مولانا كالبحر كرما وظهور عجائب، وكالسماء مطرا وأسنة كواكب».

ومن كتاب آخر:« المملوك يقبل الأرض بين يـدي مولانا الملك الناصر، لطـف الله بقلبه، وحمل عنـه، وروّح سره، ووصل الـراحـة به، ونسـأل أن يرحمه لنا الـذي رحمنا به، فقد بلغـت منا الحناجر القلـوب، وقد وقفت في طرقنـا الذنـوب، وبينما نحن ننتظـر من كتـب المولى مايستـدل به على أن قلب المولى قد طاب، وقصد العدّو قد خـاب، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا لـلاكباد مفتتا للقلوب ولو أنها جماد»، ثم ذكـر البطس الذي تقدم ذكـرها الـواصلة إلى عكـا ليلة نصـف شعبان فقـال:« وبينا نحـن نعتقد أن البطس في عكـا، وصل الخبر بأنها في دمياط، ويـوم وصل الخبر بـانها في دميـاط نحـن على انتظـار خـروجهـا منـه، وكتـب البطـائق بالاستحثاث والاستعجال، وتحذيرهم من تمادي المقام وماتيقنا أخرجت أم هي بـلقية، كأن الـريح في بيت ماخـرجت منه مـن هاتين الجمعتين، ولها من تـاريخ خـروجها مـن الاسكندريـة وإلى تاريـخ تسطير هذه الخدمـة خمسـة عشر يومـا والعيـون ممدودة، والأيـدي مـرفوعـة بـأن يفرج الله عنـا وعنكم بـوصولها، فمن شبع في هـذه الأيام فما واسى المسلمين، ومـن نام مـلء عينه، فما هـو مـن أخـوة المؤمنين، والمملوك شفيـق على البطـس في وقـت الـدخـول حـذر أن يعترض العدّو طـريقهـا، فيحـول بينهـا وبين الـوصـول، فينكـس المراد بها، ويحدث مــن المضرة بحـرمـانها أضعـاف

مـايحدث مـن النعمـة بـالفرج المسير فيهـا، وآكـد هـذه الحال في نفس المملوك وقـوفه على كتـب أصحابنـا من عكـا، وقد وقـع لهم هذا الـواقع الذي وقع للمملـوك من خوفهم عليهـا، واستبعادهم دخولها ،فـالمملوك وكل من يعرف الأمر إلا كـأهل الصراط، رب سلم رب سلم، فنسأل الله سبحـانه أن لايكلنـا إلى أنفسنـا فنعجـز، ولا إلى الناس فنضيـع، ومجهـود أهـل الأرض قـد انتهى وبقـي مـايفعلـه الله، والخير منتظر منـه، والفـرج بالقوت قد سير في البحر من خمسة عشر يوما، والفرج بالنفقة قد سير في البر من عشرة أيـام، والله يامولانـا ما تنجـز شيء من هذه الأمـور إلاّ بأن تضرب الوجوه بالشوك، وتستحلب الحجـارة وينبه النوام، وتبح الأصوات مـن التذكـار، وتحفـى الأقـلام من الكتـابـة، ويخضـع لمن يلزمـه الشغـل كالخضوع لمن لايلـزمه، والله المستعان، فليخلص المولى نيتـه في الاستعانة، والأعوان قليل.

وقـد كـانـوا اذا عـدوا قليـلا
فقـد صـاروا أقـل مـن القليـل »

ومن كتاب آخـر:« وماتجدد للعدّو من الشروع في آلات الحصـار لعكا، ومـا أرجـف بـه مـن النجـدتين الفـرنجيتين الـواصلـة والبعيـدة وافتراق العسـاكـرفي هذا الـوقـت للضرورة، والتماس العسكـر الشرقي الـدستـور للضجر، وحـاجة المولى مـن الانفاق إلى مـالايسعه التـدبير، ويضيق عنـه الامكان، ومطـالبة الغني بالـزيادة مع الغنـى والضعيف بأكثر ممـا يحتاج إليـه وضيـاع فرصـة، واختـلاف رأي بين المتشـاور من الجماعـة، وجـود الألسنة بالآراء، وبخـل الأيدي بالمعونة، وانفـراد المولى بالتعب، واشتراك النـاس في الراحـة، ومابتلي بـه المسلمـون من مـرض أظهروه ليكـون لهم عذراً في القعود، وكتمـه على نفسه لئلا يجلب لأصحابنـا ضعف النفوس، فهـذه الأمـور وإن كـانت شـدائد، وزائدات على العـوائد، فقـد ألهم الله مولانـا فيها سعة الصـدر، وحسن الصبر، ليشعـره أن صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجـر، ولو لم يعرف المملوك غير الله ينصرهـا، وغير مولانا

يباشر النصرة ويحضرها، فليس إلا التجرد للدعاء، والتجلد للقضاء، فلا بد من قدر مفعول، ودعاء مقبول، ومن الامثال المنظومة:

نحن الذين إذا علوا لم يبطروا
يوم الهياج وإن علوا لم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها، وأن يسلم على يدينا القدس ثم ينصره، ثم معاذ الله أن نغلب على النصر، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر، وإذا كان ماتقدم الله اليه المماليك قبل المولى لابدمنه وهو لقاء الله سبحانه فلأن نلقاه والحجة لنا، خير من أن نلقاه والحجة علينا، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر بصره، وتملأ صدره (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون والله معكم) (١٠٢) وهذا على دين ماغلب بكثره، ولانصر بثروه، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف، (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) (١٠٣) ، واشتدّي أزمة تنفرجي، والغمرات تذهب ثم لاتجيء، والله تعالى يسمع الأذن مايسر القلب، ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم، فإنه مابتلى إلاّ بذنب».

ومن كتاب آخر:«يامولانا اعلم أن الله تعالى قد فعل لك مافعله لنفسه، ودل على لطفه بك كما دل على قدرته، فإنه تعالى خلق من غير مادّة، وأقام السماء بغير عمد وكذلك فعل الله بك خلقك بغير شبيه في الملوك: كرماً ، وديناً، وسهل لك من مصر مالاً من غير جهة، وحمى منها بلاداً بغير جند، وسكن رعية بغير ولاة فاشكر الله، ولاتحتقر خدمة من يبيع الأنفاس، والنوم والراحة اجتهاداً فيما يريحك، ويخفف عنك ثم لايريد العوض منك إنما يريده من الله عنك، لأن خدمتك طاعة والوجوه التي وقعت الاشارة إليهاخضنا فيها وفي غيرها فما وجدنا أكثر مما بلغنا إليه، يامولانا ليس لك في مصر إلا الثغور، وماعملت في هذه السنة

إلا بقدر ثمن حمال ماسير اليك من الأساطيل إن الله آخذ بيد الكريم، والمعونة بحسب المؤونة فليهن المولى العافية من الحساب، فشتان: مابين حساب من كنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله، وحساب من قال بيده هكذا وهكذا في سبيل الله» ومن كتاب آخر« وما في نفس الملوك شائبة إلا بقية هذا الضعف الذي بجسم مولانا ، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا.

بنا معشر الخدام منا بك من أذى
وإن أشفقوا مما أقول فبي وحدي»

ومن كتاب آخر:« إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولوأطعناه لما عاقبنا بعدّونا، ولو فعلنا مانقدر عليه من أمره، لفعل لنا مالانقدر عليه إلا به فلا يستخصم أحد إلاّعمله ولا يلم إلاّنفسه، ولايرج إلاّربه، ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأصول أن تحصر ، ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، ولانأمن أن يكلنا الله إليها والنصربه، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا فلولا أنها مسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق».

وفي كتاب آخر وصف فيه الملك العزيز عثمان بن السلطان ثم قال:«ولو شاهد مولانا اليوم شخصه الكريم، وصورته الجميلة، ونفسه الطاهرة، ونظرته المطرقة، وصفحته الحييه، وسكون حركاته الموزونة، لخلع عليه فؤاده، ووهبه عينه ورقاده، ولقد يرد المولى عرصات القيامة وثواب فراقه له لوجه الله أعظم من ثواب جهاده في سبيل الله، وإن إيمانا صبّره عن ذلك الولد الكريم لكريم، وإن إيمانا أسلى عن ذلك الملك لعظيم».

ومن كتاب آخـر:«وعسكرنا لايشكو والحمد لله منـه خوراً، وإنما يشكو منه ضجـراً، والقوى البشريـة لابد أن يكـون لها حد، والاقـدار الالهية لها قصد، وكـل ذي قصد خـادم قصدها، وواقـف عند حـدها، وإنما يـذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقـت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع مـن أبطاله قال الله تعالى: (فاعـف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) (١٠٤) يامولانـا أليس الله تعالى اطلع على قلـوب أهل الأرض فلـم يـؤهـل، ولم يستصلـح، ولم يختر ولم يسهـل، ولم يستعمـل ولم يستخـدم في إقامـة دينـه وإعلاء كلمتـة وتمهيد سلطـانـه، وحماية شعـاره وحفظ قبلة موحـديه إلاّ أنت، هذا وفي الأرض من هو للنبـوة قرابه، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومـن له في العدد كثرة، فأقعدهم وأقامـك، وكسلهم ونشطـك، وقبضهم وبسطـك، وحبب الـدنيا إليهـم، وبغضها إليك، وصعبهـا عليهم وهونها عليك، وأمسـك أيديهم، وأطلق يدك، وأغمـد سيوفهـم وجرد سيفـك، وأشقاهـم وأنعم عليـك، وثبطهم وسيرك، ولـو أرادوا الخروج لأعدّوا لـه عـدة (ولكـن كره الله انبعـاثهـم فثبطهم وقيل اقعدوا مـع القاعدين) (١٠٥) نعم و أخرى أهـم من الأولى انه لما اجتمعـت كلمة الكفر من أقطـار الأرض،وأطراف الدنيـا، ومغرب الشمس ومـزخر البحر مـاتأخر منهـم متأخـر، ولا استبعد المسافـة بينك وبينهم مستبعـد، وخرجوا من ذات أنفسهـم الخبيثة لاأموال تنفـق فيهم، ولا ملوك تحكـم عليهم، ولاعصا تسـوقهم، ولاسيف يـزعجهم (مهطعين إلى الـداع) (١٠٦) سـاعين في أثـر السـاعـي (وهـم مـن كـل حـدب ينسلون)(١٠٧)ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يامولانا كما قال أبقاك الله:

ولســـــت بملـــــك هـــــازم لنظيره
ولكنـــــك الاســـــلام للشرك هـــــازم

هـذا: وليس لـك من المسلمين كـافة مسـاعدة،إلا بـدعوة، ولامجاهـد معـك إلا بلسانـه، ولا خـارج معـك إلاّ بهمّ، ولا خارج بين يـديـك إلا بالاجـرة، ولا قانـع منك إلا بـزيادة تشترى منهـم الخطوات شبرا بـذراع،

وذراعا بباع، تدعوهم إلى الله وكأنها تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة وكأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم، والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل: لم لانتباعد عن المنزلة، وآخر لم لانميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ماكان فيه حظ، ومشير لمستقبل مايلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة، وماكأنها طليعة الجيش، ولا قفل الدار، ولاخرزة السلك، إن وهت تداعى السلك وأنبت في يد الملك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف المخذل، والتجلد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر.

ولكن مولانا صفيحة وجهه
كضوء شهاب القابس المتنور
قليل التشكي للمهم نصيبه
كثير الهوى شتى النوى والمسالك

ولا شبهة أن المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، ومامراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسر عليه، وحببه إليه فرب ممتحن بنعمة، ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومرحوم من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لايتغير لمولانا أبقاه الله وجه عن بشاشه، ولاصدر عن سعة، ولالسان عن حسنه، ولا ترى منه ضجره، ولا تسمع منه نهره، فالشدّة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا عز نصره بطرا، فلا حدث له ساعات الامتحان ضجرا، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه يحفظهما:

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى
وما منهما الا سقانا به الدهر
فما زادنا بغيا على ذي قرابة
غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر (١٠٨)

والمملوك يسمـع بأن مولانـا عز نصره على مـايعهده من سعـة صدره، أسر منه بها يسمعــه من بشائر نصره ويـاليتني كنـت معهم، وماذا كـانت تصنـع الأيام إمـا شيبا مـن مشـاهدة الحروب، فقـد شبنا والله مـن سماع الأخبـار، أوغرمـايمكـن خلفـه من الـوفـر، فقد غـرمنـا في بعـد مولانـا مالاخلـف له مـن العمر، أومـرض جسم فخيره مـاكان الطبيـب حاضره، ولقد مرضنا أشدّ المرض لفراقه، إلا إن التجلد ساتره».

ومن كتاب آخـر:« المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسـلام هو قلب المولى فيروّحه ولايحمله ويشغله بها يثقله، ويوصي المولى بقلوب المسلمين، وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله من علـم أنه لاتوفيه رواتب الحياة اشتغل قلبـه، واستطار لبـه، وضعفت نفســه، فيحسب المولى مـن جهاده تفقـد جسمه، وآلات مطعمـه، وترويـح خطراتـه،فقد بلـغ من حملـه على نفسه مايخشى على مـولانا الإثم فيه، وانها نتجشم كل مشقـة لتسلم منه، ونحـن في ضرّ قد مسنـا، ولانرجـو لكشفـه إلا من ابتلى بـه، وفي طوفـان فتنه، (ولاعـاصم اليـوم من أمـر الله إلا من رحـم) (١٠٩) ولنا ذنـوب قد سدّت طريـق دعائنا، فنحن أولى بـأن نلوم أنفسنا، ولله قدر لاسـلاح لنا في دفعه إلا أن نقول: لاحول ولا قوة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال (قل الله ينجيكـم منها ومـن كل كـرب) (١١٠) وقـد جمع العدّو لنـا، وقيل لنـا اخشوه فقلنـا (حسبنا الله ونعم الـوكيل) (١١١) متنجزيـن بذلك مـوعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل فما نرجـو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس لنـا إلا الاستعانـة بـالله فما دلنا الله في الشـدائد إلاّ على الـدعاء لـه،وعلى طروق بـاب كرمـه، وعلى التضرع إليه (فلـولا اذ جاءهـم بأسنـا تضرعوا ولكـن قست قلـوبهم) (١١٢) ونعـوذ بالله مـن القسـوة، ومـن القنوط مـن الرحمة، ومـن اليأس مـن الفرج، فـانه لاييـأس منه إلا مسلـوب الرشـد، مطرود عـن الله مقطوع الحظ منه، ولاحيلـة إلا بترك الحيلة، بل قصـد من تمضي أقداره بـلا حيلة، سبحانه وتعـالى إن علـم الله من جند مـولانا أنهم

قد بذلوا المجهود، فقد عذرهم فيعذرهم المولى، وإن علم أنهم قد ذخروا قوة وقصروا في نصرة كلمة الله، فيكفيهم مقت الله، والمملوك يذكر المولى بصبره، وبرحب صدره، وبفضل خلقه وبتقواه لربه، وبمداراة مزاجه وببر القلوب الإسلامية وببر جسمه، (وإن كان كبر عليك اعراضهم) الآية إلى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) (١١٣) والمولى أولى بهذا البيت

لابطر إن تتابعت نعم
وصابر في البلاء محتسب

قيل للملهب: أيسرك ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره العجز، ولابدّ أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لاراد لحكمه، فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجري وهو ساخط موزور، فيصطلي نار الشدّة أعاذه الله منها، ولايجد راحة الثواب، وفر الله حظه منه، ومن شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى، واستغاث بقادر، ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولايقطع الظهور التي لاتشتدّ إلاّ به، ولايضيق صدور الا تنفرج إلاّ منه، وماشرد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السرى إلاضائقة القوت بعكا، ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس واعفاؤها من الفكرة، فقد علم مولانا المباشرة أنه لايدبر الدهر إلاّ رب الدهر، ولاينفذ الأمر إلاّ بصاحب الأمر، وأنه لايقلّ الهم إن كثر الفكر.

قد قلت للرجل المقسم أمره
فوض إليه تنم قرير العين

وكل مقترح يجاب اليه إلا ثغراً يصير نصرانيا بعد أن أسلم، أوبلدا يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يامولانا هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى

فيهـا: يـاخيــل الله اركبـي، وهـذه السـاعـات التــي تـزرع الشيـب في الرؤوس،وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصـدور بمائها بل بنارها هي نعمـة الله عليك، وغـراسـك في الجنـة، ومحملات محضرك (يـوم تجد كـل نفس ماعملـت من خير محضرا) (١١٤) وهي مجوّزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميـزان، وهي درجـات الرضـوان، فاشكـر الله عليها كما تشكـره على الفتوحـات الجليلة، واعلم أن مثوبـة الصبر فوق مثوبة الشكـر، ومن ربط جـأش أمير المؤمنين عمر بـن الخطاب رضي الله عنه قـوله: لـو كان الصبر والشكـر بعيريـن مـابـاليت أيهما ركبـت، وبهذه العـزائم سبقـونـا وتركـونا لانطمـع في اللحاق بـالغبار، وامتـدت خطاهـم ونعوذ بـالله من العثار، مااستعمـل الله في القيام بالحق إلاّ خير الخلق، وقد عـرف ماجرى في سير الأوّلين وفي أنبـاء النبيين، وإن الله تعـالى حـرض نبيـه ﷺعلى أن يهتدي بهداهـم، ويسلك سبيلهـم، ويقتدي بأولي العـزم منهم، ومـاتغلو الجنة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه مـن عباده إلاّ من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا، وكان ماقد كان لم يكن ويذهب التعب ويبقى الأجر،وإنما يقظـات العين كالحلـم، وأهم الـوصايـا أن لايحمل المولى هما يضعـف بـه جسمه، ويضر مـزاجـه، والأمـة بنيـان وهو أبقـاه الله تعـالى قاعـدته، والله يثبت تلك القـاعدة القائمة في نصرة الحق، وممـا يستحسن مـن وصايـا الفرس: إن نـزل بك مـافيه حيلـة فلا تعجـز، وإن نزل بـك ماليس لك فيـه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع، ورب واقع في أمـر لو اشتغل عـن حمل الهم بـه بـالتـدبير فيـه مـع مقـدور الله لانصرف همه، وكفـى خطبة(وماتشاؤون إلا أن يشاء الله) (١١٥) هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعهـا، وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلـب مـولانا لم يجد فيـه ثقـة بغيره، ولا تعـويـلا على قوة إلا على قـوتـه، فهنالـك الفرج ميعاده، واللطف ميقـاته، فلا يقنط مـن روح الله، ولايقل متى نصر الله، وليصبر فـإنما خلق للصبر، بل ليشكـر فالشكر في مـوضع الصبر أعلى درجـات الشكر، وليقـل لمن ابتلي: أنـت المعافى، وليرض عـن

الله سبحانه فإن الراضي عن الله هو المسلـم الراضي، فأما أخبار فتنة بلاد العجـم، فسبحـان مـن ألحق قلـوبهم بألسنتهـم،(قـل الله ثـم ذرهـم في خوضهم يلعبون) (١١٦)".

وكتب السلطـان الى القاضي الفاضل كتـابا من بلاد الفـرنج يخبره عما لاح له مـن امارات النصر ، ويقول « مـا اخاف الا من ذنوبنا أن يـأخذنا الله بها» فكتب اليه الفـاضل : « فأمـــا قول المولى إننـا نخاف أن نؤخذ بذنوبنـا فالذنوب كانت مثبتـة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثـام كانت مكتوبـة ثم عفـي عنها بهذه السـاعات وعفيـت، فيكفي مستغفـر لسان السيـف الاحمر في الجهاد، ويكفـي قارعـا لابـواب الجنة صـوت مقارعـة الأضداد، ولعين اللـه موقفك، وفي سبيل اللـه مقامك ومنصرفك،وطـوبى لقدم سعـت في منهاجك، وطوبـى لوجه تلثـم بمثار عجاجك، وطـوبى لنفـس بين يديـك قتلـت وقتلت، وإن الخواطـر تشكـر اللـه فيك وعـن شكرها لك قد شغلت»٠

فصل

كان بلغني أن السلطان رحمه الله لما اشتدأمر الفرنج على عكا ، أرسل إلى ملك المغرب يستنجده عليهم ليقطع عنه مادتهم من جهة البحر، وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه فإن العماد والقاضي لم يتعرض له في كتبهما، غير ان العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ماكان أرسله لأجله، وسيأتي ، وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها، ثم أراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه، ماكنت أرومه فنقلته على وجهه.

قال : نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل، ونقلته من خطه لابن منقذ يأمره فيه بالسفر الى المغرب بأمر الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله ، يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حصر الفرنج خذلهم الله عكا بعد كسرة حطين، وفتح بيت المقدس ، والكتاب الذي سير الى المغرب، والهدية التي حملت يأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير الاجل الاسفهسلار الاصيل ، العالم المحترم شمس الدين ، عدة الاسلام ، جمال الانام ، تاج الدولة ، أمير الملة، صفوة الملوك والسلاطين ، شرف الأمراء، مقدم الخواص أدام الله توفيقه، ويسر طريقه وانجح مقصده ، وأعذب مورده، وحرس مغيبه ومشهده، وأسعد يومه وغده، يستخير الله سبحانه، ويتوجه كيفما يسر الله إلى الجهة الاسلامية المغربية ، حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها ، ويستقرىء في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم ، وأشغالهم وأفعالهم ، ومايحبونه من القول نزره أو جمه،ومن اللقاء منبسطه

أومنقبضـه، ومـن القعود ، مجالسهـم مخففـة أومطـولة ، ومـن التحيـات المتهاداة بينهم ماصيغتـه وماموقعه، وهل هي السنـن الدينية ، أو العوائد الملوكيـة ، ولايلقه الا بما يحبه، ولا يخاطبـه الا بما يسره ، والكتاب قـد نفذ اليه ولم يختم لتعلم ماخوطب به، والمقصود أن تقص القصـص عليه من أول وصولنـا إلى مصر ، وماأزلنا مـن البدع بها، وعطلنا مـن الإلحاد فيها، ووضعنا مـن المظالم عنها ، وإقـامة الجمعة، وعقـد الجماعةفيها، وغـزواتنا التي تـواصلت إلى بـلاد الكفار مـن مصر، فكانـت مقدمـة لملك الشـام الاسلامـي باجتماع الكلمة علينـا، ومقدّمة لملك الشـام الفرنجي بـانقياد المسلمين لنا، واتفاق الملوك المجاورين على طـاعتنا، وتفصيل ماجرى لنا مع الفرنج مع الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم ، وجعلها الله تعـالى مقدّمات لما سبـق في علمه من أسبـاب دمارهم ، ومـا أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس ،و تلك على الاسلام منة اللـه العظمى إلى غير ذلـك من أخـذ الثغور وافتتـاح البلاد واثخـان القتل فيهم والأسر لهم، واستنجاد بقيتهم لفـرنج المغرب وخروج نجداتهم وكثـرتها وقـوتها،ومنعتها وغنـاهـا وثـروتها، ومسـارعتها ومبـادرتها ، وإنـه لايمضي يـوم إلاّعــن قـوة تتجـدّد ومبرة تصـل، وأمــوال واسعـة تخرج ، ومعــونـات كثيرة تحمــل وإن ثغـرنــا حصره العــدوّ، وحصرنـا نحــن العدّو،فما تمكـن من قتال الثغر ، ولاتمكـن من قتالنا ، وخنـدق على نفسه عدة خنـادق، فماتمكنا مـن قتالـه ، وقدّم الى الثغـر أبرجـة أحرقهـا أهله، وخرج مـرّتين الى عسكرنا فكسر العـدو الكثير أقله، فـانه اغتنم أوقـاتا لم تكن العساكر فيها مجموعة، وارتاد سـاعات لم تكن الأهب فيها مأخوذة ، وأقـدم على غرّة استيقظـت فيها نصرة اللـه لنـا وخذلانـه لهم، فقتل اللـه العدو القتل الذريع ، وأوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت احدى الحركتين عـن عشرين ألـف قتيـل من الكفـار ، خرجـت أنفسهـا إلى مصارعهـا، وهمدت أجسامها في مضاجعها ، والعـدو وإن حصر الثغر فإنه محصور ، ولو ابـرز صفحته لكـان باذن اللـه هو المثبـور المكسور، وتـذكر مـادخل

الثغر من اساطيلنا ثلاث مرات ، واحراقها لمراكبهم ، وهي الاكثر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الاطهر.

وإن أمر العدو مع ذلك قد تطاول، وخطبه قد تمادى ، ونجدته تتواصل، ومنها ملك الالمان في جموع جماهيرها مجمهرة ، وأموال قناطيرها مقنطرة ، وإن عساكرنا لو أدركته لما استدرك ، ولولا سبقه لها بالدخول إلى انطاكية لتلف وهلك ، وتذكر أن الله قصم طاغية الالمان، وأخذه أخذة فرعونية بالاغراق في نهر الدنيا الذي هو طريقه إلى الاحراق في نار الآخرة ، وإن هذا العدّو لو أرسل الله عليه أسطولا قويا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه ، لأخذنا العدو إما بالجوع أو الحصر، أ و برز فأخذنا بيد الله تعالى التي بها النصر، فإن كانت الاساطيل بالجانب المغربي ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال في اللقاء فارهة ، وللمسير غير كارهة، فالبدار البدار ، وأنت أيها الامير فيها أوّل من استخار الله وسار، وإن كانت دون الاسطول موانع إما من قلة عده، أومن شغل هناك بمهمة أو بمباشرة عدّو إما تحصن منه العوره، أو قد لاحت منه الفرصة، فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة، ولا انواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال ، وما رأينا أهلا لخطابنا ، ولا كفؤ ا لانجادنا ، ومحقوقا بدعوتنا ، ولا ملبيا بنصرتنا إلا ذلك الجناب ، فلم ندعه إلا لواجب عليه ، والى ما هو مستقل به ومطيق له ، فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس في العدوة القصوى شجرتها فينال من في العدوة الدنيا جناها، فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر، ولا يعين الاسلام الاسلام ، وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدّو جاره، والجار أقدر على الجار ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار، ولانه بحر ، والنجدة بحرية، ولا غرو ان يجيش البحار البحار، وإن سئل عن المملوكين بوز با وقراقوش وذكر مافعلا في اطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال ، فيعلمهم ان المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه

المماليك والأمراء ، ولا مـن المعدودين في الطواشيـةوالأولياء وانما كسدت سوقهما وتبعتهما ألفـاف أمثالهما ، والعـادة جارية أن العسـاكر إذا طـالت ذيولها ، وكثرت جموعها ، خرج منهاوانضاف اليهـا، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هـذان المملوكان ممن إذا غـاب أحضر، ولا ممن إذ ا فقد افتقد، ولا يقـدّر في مثلهماأنه ممـن يستطيع نكـاية ، ولا يـأتي بما يوجـب شكوى من جناية ، ومعاذ اللـه أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الارض ، ان أريد الا الاصـلاح ما استطعت ، وان سئل عـن النوبة المصرية ومـا فعل بجندها ، فليعلمهم الأمير أن القوم راسلـوا الكفار وأطمعوهـم في تسليم الديار ، فأشفى الاسلام على أمر شـديد، وكاد يقرب على الكفار كل أمر بعيد، فلم يعـاقب الجيش بل أعيـان المفسدين ، فقوبلـوا بمايجب، وكانوا دعاة كفـر وضلال ومحاربين للّه بما سعوا في الارض مـن فساد، فأمـا بقية الجيش وإن كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضا فإنهم اقتصر بهم على أن لايكونوا جندا، ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه وشملته آمنة تسكنـه، وأما الهديـة المسيرة على يد الامير فتفصيلهـا يرد في كتـاب الامير الاجل الاسفهسلار العالم الكبير مجد الدين سيـف الدولة، أدام اللّه علوه، مقـرونـا بالهديـة المذكـورة ، ومـع قـرب الشتـاء فلم يبـق الا الاستخـارة والتسمية ، ومبـادرة الوقـت قبل أن يغلـق البحر انفتـاح الأشتية ، واللّـه سبحـانه يـوفق الأمير ، ويسهـل سبيله ، ويهدي دليلـه، ويكلأه بعينـه ، ويمده بعونه ، ويحمل رحله ، ويبلغـه أهله، ويشرح له صدره، وييسر له امره إن شاء اللّه تعالى .

وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة

فصل

في نسخة الكتاب الى ملك المغرب والهدية

العنوان :

بلاغ الى محل التقـوى الطاهر، ومستقرّ حـزب اللّه الظاهر مـن المغرب أعلى به الله كلمة الايمان ، ورفع به منار البر والاحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف ين أيوب

أما بعـد : فالحمد للـه الماضي المشية، الممضي القضية ، البر بـالبرية ، الحفي بـالحنفية ، الـذي استعمل عليها مـن استعمر بـه الارض ، وأغنى من أهلهـا من سـأله القـرض، وأجزل أجـر من أجـرى على يده النـافلة والفـرض، وزان سماء الملـة بـدراري الذراري التـي بعضهـا مـن بعـض، وصلى اللّه على سيدنـا محمد الذي أنزل عليـه كتابا فيه الشفـاء والتبيان ، وبنى الاسـلام بأمتـه التي شبههـا صاحبهـا بالبنيـان ، وعلى آله وصحبـه الـذين اصطفـاهم وطهـرهم ، فنصروه وظـاهـروا رسولـه صلى الله عليـه وسلم فنصرهم وأظهـرهم ، وبسر بهم السبيل ، ثم السبيـل يسرهـم ، وان اللـه بهم (لذو فضـل على النـاس ولكـن اكثرهـم)[١١٧] (ربنـا اغفر لنـا ولاخواننا الـذين سبقونا بالايمان ولاتجعـل في قلوبنا غلا للذيـن امنوا ربنا انك رؤوف رحيم)[١١٨] وهذه التحيـة الطيبة الكريمـة الصيبة، الـواجبة الرد، الموجبة للقصد، العذبة الـورد، المتنفسة عن العنبر والورد، وقاده على دار الملـك ومـدار النســك ، وجـل الجلالـة ، وأصـل الاصــالـة ورأس الريـاسة، ونفس النفـاسة ، وحكم الحكم ، وعلـم العلم ، وقائم الـدين وقيمه، ومقدّم الاسـلام ومقدّمه، ومقتضى دين الـدين ومثبت المتقين على

اليقين ، ومعلي الموحدين على الملحدين ، أدام الله له النصرة، وجهز به تيسير العسرة ، وردّ له الكرةوبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الالفة، ومهد له درجات الغرفة ، وعرفه في كل مايعتزمه صنعا جزيلا جميلا ولطفا حفيا جليلا ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو (اشد وطئا وأقوم قيلا) (١١٩) ،تحية استنير منها الكتاب ، واستنيب عنها الجواب وقد حفز لها حافزان أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنا إلى ان تتيسر الاسباب ، والآخر مرام عظيم ماكره اذا استفتحت به الابواب ، وكان وقت المواصلة ، وموسم المكاتبة هناءة بفتح البيت المقدس ، وسكون الاسلام منه الى المقيل والمعرّس ، ومافتح الله للاسلام من الثغور ، وماشرح لأهله من الصدور ، وماأنزله عليهم من النور ، ولم يخل المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر، وملاحظات أنوار ذلك البدر، ومطالعات تلك الجهة التي هي وان كانت غربية فإن الغرب مستودع الأنوار ،وكنز دينار الشمس ، ومصب أنهار النهار، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار (ان في ذلك لعبرة لاولي الأبصار)(١٢٠) ولم تتأخر المكاتبة الا ليتم الله ما بدأ من فضله ، وليفتح بقية مالم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله ، والمفتتح بيد الله من الشام مدن وأمصار وبلاد كبار وصغار ، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل وللاسلام معاقر، ولبني الكفر مصانع، ولبني الاسلام مصارع والباقي بيد الكفر منها ثغر طرابلس ، وصور ، ومدينة انطاكية يسر الله أمرها ، وفك من يد الكفر أسرها ، وإذا أمن المؤمن على هذه الدعوة رجي ايجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها ، فالدعاء أحد السلاحين ، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين ، بعد أن كسر العدّو الكسرة التي لم يجبر بعدها، وألجىء الى حصونه التي للحصر أعدها، وكان يومها كريما ، ولطف الله فيها عظيما ، قبضت كل حاجة في النفس ، وأغنت المسلمين ، فأما العدّو بعد يومها ، فكأن لم يغن بالامس ، وكانت على أثر غزوات قبلها ، فما الظن بالمجهزة بعدالنكس ،

ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فرع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب، فأجابوا رجالا وفرسانا، وشيبا وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا اليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ماعونا وذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم، بل خرج كل يلبي دعوة بطركه، ولا يحتاج الى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على اسمائها ، واتت العزيمة بحمد الله على اشخاصها عند لقائها، ومنهم ملك الالمان خرج في جموع برية من الله تعالى برية، ملأت الفجاج وازدحمت فأنفذها العجاج ، ومنهم من ركب ثبج البحر فركب الاجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشية الرجاج ، لينصر دينا مشبه الزجاج ، يقبل للكسر ولا يسرع اليه الجبر، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة والى قاع كفر، وجلب الكفار الى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملؤوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب مابين أقوات وأطعمة، وآلات وأسلحة وشكة وجنة، وحديد مضروب وزبرة ، ونقدي ذهب وفضة إلى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة لاتشرق شارقة إلا طلعت على العدّو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ماأكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ووفور مادّة، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر مامنعهم البر، وبطروا لما كثروا، ونظروا فإنهم لايستطيعون أن يلقوا ويصحروا ويستطيعون أن يحصروا على ان ينحصروا ، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده ، ويصل إلى المقاتل مايحتاجه من أسلحته وازواده ، وبمن يكثر به من مقاتلته واجناده، فانقطعت مادّة عكا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر، فخندقوا على نفوسهم ، وحثوا التراب على رؤوسهم، وعقدت عدتهم مائة ألف أويزيدون ، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون، فاتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها،فنفذت عمارتنا إلى الثغر، وأوصلت إليه الأقوات التي حمل منها البحر

مالايحمله الظهر، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الاسلام في صدور الكفر . ومالقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة ، فعدد مراكبهم كبيرا ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمه، والقليل مع العزم الصادق كثير، واستمر مقام العدّو محاصراً للثغرمحصوراً منا أشد الحصر ، لايستطيع قتال الثغر، لانأمن خلفه ولا يستطيع الخروج الينا خوفا من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول اليه لأنه قد سوّر وخندق وحاجز من وراء الحجرات وأغلق ، ولما خرج ملك الالمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم إلى الشام ، فكان العود لأمة أحمد صلى الله عليه وسلم أحمد، قويت به نفوسهم وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا انه يزعجنا من مخيمنا ،ويخرجنا من خيمنا ، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية ، فسلك ذات الشمال ،متوعرا فيها محتجزاً عن لقائها مظهرا أنه صريع داء ومابه غير دائها ،وكان أبوه الطاغية ملك الالمان شيبة اللعن اللعين ، قائد جيشه إلى سجن سجين ، قد هلك في طريقه غرقا، وخاض الماء فخاضه الماءشرقا ، وبقي له ولد هو الآن المقدّم المؤخر وقائد الجمع المكسر، وربما وصل بهم إلى عكا في البحرتهيبا ان يسلك البر، ولوسبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى انطاكية لأخذوه أخذا سريعا ، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه لافي النهر صريعا ، ولكن للّه المشيئة في البرية، والطاغية إنما يمشي إلى البلية، فإنه لولا احتجار مقيمهم بالخنادق، واحتياز واصلهم بالمضائق لكان لنا ولهم شأن ، وكان ليومنا في النصرة الكبرى بحول اللّه ثان لا يثنيه من العدو ثان ، ولما كانت حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغرّ المحجلة له المؤمرة المؤملة الكاسفة لكل معضلة ، الكاشفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة ، والآثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمه ، والسير به معملة وعاملة ، وكل بجهاده قد سكن إلا السيوف في

اغمادها ، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادهـا، لايزال في سبيل اللّه غاديا ورائحـا ، ومـواجهـا ومكـافحا ، ومما سيـا ومصـابحـا، يجوز لجة البحـر بالمجـاهديـن ملوكا على الأسرة ، وغـزاة تصافح وجـوهها السيـوف ، فلا يخمد نور الاسرة بذود الفرق الكافـرة ، ولو ترك سبيلها لملأ قراره كل واد، (كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله) (١٢١) ولولاه لأخمد شرارة كل زناد. كان المتوقع من تلـك الدولة العالية ، والعزمة الغاديـة مع القدرة الوافية، والهمة المهـدية الهادية، أن يمـد غرب الاسلام المسلمين بـأكثر مما امـد به غرب الكفـار الكافـرين ، فيملأهـا عليهم جواري كـالاعلام ، ومـدنا في اللجج سوائر كأنها الليالي مقلعة بـالأيام تطلع علينا معشر الاسلام امالا، وتطلع على الكفـار آجالا ، وتردنـا إما جملة وإمـا أرسالا ، مسوّمـة تمدها ملائكـة مسوّمة ومعلمـة، تقدم حيازيمهـا إقدام حيزوم تحت أصحـابه، وإنما هي منه عزمه، كانـت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمـة ، ولما استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء فصرخنا به في هذه التحيـة ، فقد تحفل السحاب ، ولاتمطر إلى أن تحركها أيـدي الرياح ، وقـد ينزل النصرة فلا تظهـر الى أن تضرع اليها ألسنة الصفاح،وسير لحضـور مجلسه الأطهر ومحله الأنـور ، الأمير الاجل المجـاهد الأمين الأصيـل، شمس الـديـن نور الاسـلام والمسلمين، سفير الملـوك والسـلاطين ، أبـو الحزم عبـد الـرحمن بـن منقـذ ، كتـب اللّـه سلامته،وأحسـن صحابته ، وما اختير للوفادة إلا مـن هو اهلها، ولا حمل الوديعـة إلا منّ هـومحلها،ولا بعـث لنهج الصلـة إلا من هـو مفتاحهـا ، ولأداء الامانة إلا مـن هو أ هلها ، ومهما استوضـح منه، وسئل عنه، فـإنه على نفسه بصيرة ، ومـن البيان ذو ذخيرة، وفي العـربية ذو بيـت وعشيرة، والمشاهدة له أوصف، على ا ن تلك الجلالـة ربما ذعرت البيان فأخلف، وماأجـدره بأن يصادف بسطـة على بساطـة، ونظرا يأذن لـه في القول على اختصاره، وتوسطه وافـراطه، فكل هو به واف، وكل هـو للفهم الكريم كاف، واللّـه تعالى يجعل هـذه العزمةمنـا في استنهاض العـزمة منه بـالغة

مبلغا يسر أ هل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه ، من الذين اتخذوا إلها من دونه ، والسلام الصادر عن القلب السليم ، والودّ الصميم ، والعهد الكريم، على حضرة الكرم العلية ، وسدّة السيادة الجلية، سلام مودّة ماوفد الغرب قبلها مثلها ، ورسالة ماخظرت إلى أن انفذت وراءها المحبة رسلها، وليصل السلام رحمة اللّه وبركاته، ورضوانه وتحياته إن شاء اللّه تعالى.

وكتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ،والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد نبيه واله وسلامه .

الهدية ختمة كريمة في ربعة مخيشة ، مسك ثلاثمائة مثقال ، عنبر عشر قلائد عددها ستمائة حبة. عود في عشرة أمناء. دهان بلسان مائة درهم واحدة . قسي بأوتارها مائة وقوسان . سروج عشرون . نصول سيوف هندية عشرون. نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مجلدة سبعمائة سهم.

وكان اقلاعه من الاسكندرية في شيني عمارته مائة وعشرون . في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة ،ووصل إلى طرابلس أوّل البلاد في الخامس والعشرين من شوال ،وأقام بها إلى ذي القعدة ،وتوجه الى البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي حفص ، ودفع كتاب السلطان اليه يوم الخميس سابع ذي الحجة، وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة ، وفي هذا النهار حملت هدية السلطان إلى خزانته،وكان انفصاله من مراكش عاشر المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ووصل الى الاسكندرية في الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين .

فصل

لم يحصل من جهة سلطان الغرب ما التمس منه من النجدة ، وبلغني أنه عز عليهم كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين على جاري عادتهم ، وقد كان سلطانا عادلا مظهرا للشريعة غازيا توفي في سنة خمس وتسعين، وفيه يقول شاعره:

أهل لأن يسعى إليه ويرتجى
ويزار من أقصى البلاد على الوجا
ملك غدا بالمكرمات مقلدا
وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره
وتعطرت منه الرياح تأرجا
وجد الوجود وقد دجى فأضاءه
وراءه في الكرب العظام ففرجا

وفيه يقول ابن عمه سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أبو الربيع من قصيدة أولها :

هبت بنصركم الرياح الأربع
وجرت بسعدكم النجوم الطلع
ان قيل من خير الخلائف كلها
فإليك يا يعقوب تومى الاصبع
ان كنت تتلو السابقين فانما
أنت المقدّم والخلائف تبع

وقدمدحه أيضا شمس الدين بن منقذ هذا المرسل اليه من جهة السلطان بقصيدة منها:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته
إلى بحر جود ما النعماه ساحل

إلى معــــدن التقـــوى إلى كعبــــة الهدى
إلى مــن سمــت بــالــذكــر منــه الأوائل
إليـــــك أميرا لمسلمين ولم تـــــزل
إلى بـابـك المأمـول تـزجـى الـرواحـل
قطعــت اليــك البر والبحــر مــوقنــا
بــأني بـذاك القطــع بــالنجـح كـافـل
فما راعنــــي مــــن وجبــة البر رائع
ولا هــالنـي مـن زاخـر البحـر هـائل
ومـن كــان غــايــات المعــالي طــلابــه
يهون عليـــه كــــل أمــــر يحاول
رجــوت بقصــديــك العلى فبلغتهــا
وأدنــى عطــايــاك العلى والفضــائل
فــلا زلــت للعليــاء والجود ثــانيــا
تبلغــك الأيــام مــا أنــت آمــل

وابن منقذ هذا من أهل بيت أدب وشعر، وله على ماوجدت بخط بعض الثقاة :

تصرّم عمــــري في التغــرّب والنــوى
وأفنــى ارتحالي طــارفي وتــــلادي
وأخلقـــت الايــام بــــرد شبيبتـــي
وأصلــد مــن وقــع الخطــوب زنــادي
وأشغلنــي الحرص الموكـــل في الـــورى
عــن العمــل المنجــي ليــوم معــادي
فــلا راحــة الأخــرى تيقنــت نيلهــا
ولا أنــا في الــدنيــا بلغــت مــرادي

وله على لسان بعض غلمانه:

ورب قميــص دعــاني إلى احــــــ
ـــــتمال الــرثــاثــة منــه العــدم

أقطـــــب وجهـــــي لــــه كلما
تهلــــل لي ضـــاحكـــاً وابتســـم

ومن كتاب فـاضلي الى بعض اخوانه :« وأما الاخبار المغـربية وإخلال جـانبهـا ، وضعـف مطلـوبها وطالبهـا فـإذا نجـزت الظلماء الى المغـرب فبحق، كما ان الانوار النـاصرية قد تناصرت في الشرق ، فاللـه يسعد بلاد الدنيا بالانخراط في سلك ملكه ، ويمكن مـن مؤمنها حكم عدالته ومن كـافرهـا سيـف فتكته ، واللـه يجزيها الخير عـن نيتهـا في الخير، ويكتـب سلامة عزمها في طرق النفع أينما يممت السير».

ثم اني وقفت على كتاب فاضلي للسلطان يشعر بـأن الرسالة المغربية لم تكـن برأي الفـاضـل ، ولاهو مختـار لها.صـورتـه:«المملوك يقبـل الارض بالمقام العـالي المولوي الملكي الناصري ، جعـل له الله في الدنيـا والآخرة المقام العـالي، وأبقى دولتـه التي هـي الايام بـالحقيقة والايـام قبلها هـي الليـالي ، وينهـي ان الظـاهـر ان المملــوك عنـد المولى ليس مـن أ هـل الاتهام،وان له ولله الحمد اثارا في دولتـه تشهد بها الايام، واثـار السيوف طـاحت وبقيـت اثـار الاقـلام،والرسـالـة المغـربية ليس المملـوك مشيرا بتركها،ولا كـارها لسفر رسـولها، ولا مستبعداً مصلحـة قريبة منهـا، لكن على وجهها ، وقـد نجزت الهدية المغربيـة على ما أمر به، وكتـب الكتاب على مامثل ، وفخم الخطاب والوصـف فوق العادة ، وبما لايمكن مخاطبة مخلوق بـأكثر منـه،وعند وصـول الامير نجم الـدين مـن المخيم المنصـور فاوضه المملـوك في أنه لايمكن الا التعريض لا التصريح بما وقـع له أنه لاتنجح الحاجة إلا به من لفظة أمير المؤمنين ، وأن الـذين أفاضوا في هذا الحديث وأشـاروا به مـاقالـوه نقلا ، ولا احـاطوا بـه قياسـا ، ولا عرفـوا مكاتبة المصريين قديما، وآخر ماكتب في أيام الصالح بن رزيك فخوطب فيـه أكبرأولاد عبد المؤمـن وولي عهـده بـالامير الأصيل النجـار، الجسيـم الفخار ، وعـادت الاجوبة الى ابن رزيـك وهو وزير سلطـان مصر الذي

اتباع مـولانا اليوم مـائة مثله، مترجمة بمعظـم أمره ، وملتزم شكـره ، هذا والصالح يتوقـع ان يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يـديه، وماهو الا ان يهرب مملوكـان طريدان منـا فيستوليـان على أطراف بلاده، ويصـل المشار اليه بـالامر من مـراكش الى القيروان في ستـة اشهر فيلقاهـم فيكسرا مرة، ويتماسكا أخـرى، واعلم الامير نجم الديـن بذلك فأمسـك مقدار عشرة أيام، ثـم أنفذ الامير المذكـور اليه على يـد ابن الجليـس بأن الهديـة أشير عليه بأن لايستصحبها ، وان استصحبهـا تكون هدية برسم مـن حواليه، وان الكتاب لايـأخذه الا بتصريـح أمير المؤمنين ، وان السلطان عـزنصره رسم له ذلـك ، والملك العادل دامت قدرته بـأن لايشير الا به ، وانه اذا لقـي القوم خـاطبهم بهذه التحيـة عن السلطـان ابقـاه اللّه مـن لسانـه فأجـابه المملوك بأن الخطـاب يكفي ، وطريق جحـدنا له ممكن والكتـابة حجة تقيد اللسـان عن الانكار ، ومتى قرئت على منبر من منـابر المغرب جعلنـا خالعين في مكـان الاجماع ، مبايعين مـن لاينصره اللّـه ولا شوكـة فيه، ولايحل اتباعـه، مرخصين الغالي ، منحطين عن العـالي ،شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين، مطيعين لمن لاتحل طاعته، متقلدين لمن لاتصـح ولايتـه، فتفسـد عقـود الاسلام وينفتـح بـاب يعجـز وارده عـن اصدار ، بل تمضي وتستشـف الامور وتكشف الاحوال، فـان رأيت للقوم شوكة ولنا زبده،فعدهم بهذه المخاطبة ، واجعـل كل مانأخذه ثمنا للوعد بها خـاصة ، فـامتنـع وقال: أنـا أقضي اشغالي وأتـوجـه إلى الاسكندريـة وانتظـر جواب السلطـان عز نصره ، ومـايفوت وقـت وإلى أن أنجز أمـر المركب ، وارتـاد الركاب فسير المملـوك النسخة وان وافقـت فينعم المولى على المملـوك بترجمة يلصقهـا على مـاكتبـه،ويـأمـر نجـم الـديـن بتسلـم الكتاب، على ان ابن الجليس حدثه عنه انـه ممتنع من السفر إلا بالمكاتبة بها، فأما الذي يترجـم به المولى عز نصره فيكون مثل الذي يـدعى به على المنبر لمولانا وهـو: الفقير الى الله تعـالى يوسف بـن أيوب، أدام اللـه غنى مولانـا بالفقـر الى ربه، واذا كتب الصـالح ابن رزيـك اليهم مـن السيد

الأجل الملك الصالـح قبح ان يكتب اليه مولانا أبقـاه الله «الخادم» وهذا مبلغ رأي المملـوك ، والمؤمن لايـذل نفسه، وقـاسم الارزاق يـوصلها وان رغم مـن جرت على يـده ، وان كان مـولانا أعـز الله نصره يقـول: أنت غافل وغائب، ومـاتعرف ما الاسلام فيه ، فلو حضرت وعـرفت ماشققت الحديث ، فجواب ماتكتب:بعد سنتين فما يتخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسيء الظن بـالله ، واذا كانت لنـا إن شاء الله أخذت خـالية ممن نطلـب الآن مواسـاته، واذا كـان المملوك مستجهـلا وغير مستنصح وللضرورة حكمها . والأحـوال المملوك غائب عنهـا ، فالمفهوم مـن الأمر أن يتولى من الكتابة ترتيـب المقاصد ، وتحرير الالفاظ ، وتنضيد الخبر عما اجراه الله تعالى على يد مولانا عـز نصره ، والثاني المطلوب فقد فعل هذا كله في النسخة ، وبقيت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها، والمملـوك وعقبـه مستجيرون بـاللـه تعـالى ثـم بـالسلطـان عـزنصره مـن تعريضهـم لكدر الحيـاة وتوقع الخوف ومعـاداة من لايخفـى عنه خبر ولا تقال به عثـرة، ويكفي ان المولى انعم بخطه في كتابـه الى المملوك ، وفيها ماهـو بخط حضرة سيدنـا الاجل عماد الدين الكـاتب الاصفهاني حـرسه الله تعالى لماوصى بأن لايناظر في الخطاب ماصرح باللفظة، فهي اما تقية فالمملوك اولى بها، واماستهانة فنفس الملك لاتقاس بنفس المملوك ، فان كـان ولابد فـالنسخة بين يـديه، والمقصـود فيهـا من زيـادة هذه اللفظـة مايحتاج الى تعليـم ، والكتاب الذين يستقلـون بكتابة النسخة معـدومون، وقد ناب المملـوك عنهم، والكتاب الذيـن يستقلون بالتبييض مـوجودون فينوبـون عن المملـوك في التبييض ، والافكيـف يسير رسول بكتـاب من مصر بـلا خط سلطـان ، وبغير حضرته كتـب ولا بهديه سـار، وبمحضر من البغاددة والمغـاربة يعلمون أن الكتاب كتـب بمصر ، ويشهدون بما لم يـروه ومالم يقـرؤوة مـن الخطاب ، ولـو وصل مـن المولى أدام اللـه أيامـه كتا . مختوم وسير ولم يعلـم مافيه لانقطع فضـول كثير وحمدت أراجيف شنيعة، ولا يعتقـد المولى أن المملوك يعظـم القصص فما لـلألسنة والاعين

شغل إلاّالسلاطين وأفعالهم واقوالهم ، ولا للخلق خوض إلا في أوامرهم وأحوالهم، ولو علم المملوك أن هذا الذي استعفى منه يضره بحيث ينفع المولى أبقاه اللّه لهان عليه، ولكنه مضرّة بغير منفعة ، وتعرّض لماتذم عاقبته، أويبقى على ا لخوف منه ، وذلك مما لايقتضيه حسن عهد المولى، وفضل رأفته فمقصود المولى ابقاه اللّه تحصيل تبييضها بين يديه ، وربما حصل استنارة، وامنت المكاره فيه، وغمضت العيون عنه وشحت الأيام عليه، طالع المملوك بذلك».

فصل

وللقاضي الفاضل رحمه الله من كتب أُخر مايشرح لنا بعض ماتقدم ، ومالم يذكره أحد من أرباب السير منها قوله: «كتاب بغداد كتاب بارد، غث جامد، مافيه مقصود لقاصد ، ولا صلة ولا عائد، ونحن نطلب الذهب الحار فيضرب في حديد بارد» ومنها فيما خرّب من البلاد الفرنجية المغنومة :«خراب البلاد في هذا الوقت الضيق لاشبهة في تقويته لنفس العدّو واضعافه لأنفس المسلمين ، وكان من يسمعه يفجأه من بديهة اليأس مايقطع وجأه. المولى يعلم أن العدو أخذها من المصريين في تمام ستين سنة وخفضوها بالانحصار مرة وبالهدنة مرةأخرى وبالقتال مرات، وبولاة سوء لوكان فيهم خيرا لما عجزوا عنها ، ونحن قد حملنا عن العدو المؤنة بتخريب البلاد التي كان العدّو يريد أن يحاصرها وينازلها، وينصب المنجنيق والبرج عليها، ويخاف النجدة أن تصلها، وقوّة الاسلام أن تثوب اليها، ويتوقع أن يبدهه المصاف قبل النزول عليها ، فعرّفناه أنه قادم على من لاسلاح له إلا أن يلقي السلاح، ولاحفظ للبلاد إلا أن يخربها ، فقد نكلنا عن اللقاء ، وفررنا قبل المواجهة،وزدنا زيادة عجيبة وهو أن المنهزم ينهزم بالرجال ونحن ننهزم بالبلاد» ثم قال:

«وثبوت مولانا على عكا هو حراستها وحفظها وقوّة نفس من بها، وأهون الاعداء ملك الألمان لايشك مولانا أن جمعه لايفي بعشر قراقر من ستين قرقورة وصلت الى الفرنج نجدة من بلاد المجوس في السنة الماضية ، وانما الزائد سمعة ملك وقد هلك ، ورأس قد قطع، وقائد جيش وقد كبا كالجمال

ومنها عند ورود كتاب السلطان إليه يبشر بعافيته من مرض عرض له في شهر رمضان:« أسفرت بشارته عن أن المولى آتاه الفرج وغذاؤه الفروج، واستقل بحمد الله، وصح وقالت العافية: للمرض تنح، وكان مافي كتابيه الأولين من تعريق النون من الحمد لله رب العالمين فيه أثر

ضعف ينتقده صيارفة الخطوط ، فأما هذا الكتاب المبارك فقد صحت فيه التعريقة ، وقويت اليد وطلعت النون أهم الينا من مطلع الهلال الفطري الذي يشبهه الشعراء بالنون ومنهم من قال:

ولاح هلال مثل نون أجادها
يذوب النضار الكاتب ابن هلال

وهذا من أنواع الفراغ الذي ماأوجبه المملوك الا لمسرته بعافية المولى أدامها اللّه، وأدام المسرة بها له وللخلق فما يشبهها المملوك إلا بنور الشمس الذي له في كل مكان أثر، ولكل عين به نظر، فلا أخلى اللّه الدنيا من اثاره والعيون من أنواره ، وبعد عافية المولى قد انتظر الاسلام عافيته به من المرض الذي هو العدّو ، فيجمع اللّه تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين ، ويستخدم شكرهم للنعمتين ، فقد جلا اللّه بهذا المرض سيف اللّه الذي هو المولى وماصقله إلا لتصدأ به قلوب أعدائه ، ومن فوائد هذا المرض أن المولى يستأنف العمر جديدا و العزم حديدا، ويستقبل التدبير بنشاط قد حضر، واعضاء قد فارقها ما كان سبب الضجر»

ومنها:«وأما تبرم مولانا بكثرة الطلبات منه فلا أخلى اللّه مولانا من القدرة عليها ، وهنيئا له أن اللّه سبحانه يطالبه بحفظ دينه، والنبي صلى اللّه عنية وسلم يطالبه بحسن الخلافة في أمته، والسلف الصالح من هذه الامة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على مايفعله المولى، وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علتهم من الذهب والفضة والحديد، وبقية الأمة تطالبه بالأمن في سربهم، والاستقامة في كسبهم والخفارة في سبلهم، ونفسه الكريمة تطالبه بالجنة بلغه اللّه اليها ، ولمعالي الأمور أعانه اللّه عليها، وإذا عدّد مايراد منه فلا بد أن يعدّد مايسر عليه فهل عدم من اللّه تعالى قط نصره، وهل استمرت به قط عسرة ، وهل تمت

لعدو قـط عليه كره، وهل بـات قط إلا راجيا ،وهل أصبـح إلا راضيا ، ألا يعلم أن اللّـه تعالى ذخر لـه من الصـالحات مالم ير كفـؤا له غيره،ألا يحصي مـن سبقه مـن الملوك إلى الـدنيـا فعجزوا عما سبـق إليه المولى مـن الآخرة ، وهل تعرف رايـة قاتل تحتها في سبيل اللّه إلا رايتـه، وهل يعرف مال ينفـق في سبيل اللّه إلا مـاله ، وهـل يسمع في مجلسه إلا كتـاب اللّه يتلى، وسنة رسـول اللّه صلى اللّـه عليه وسلم تقـرأ ، أويرى بـه إلاّ الخيل تعـرض، والسلاح يقلـب،لاأقـداح الشاربين ، ولا أصـوات المغنين ، ولا وقائع الكذابين ، ولاسعـايات النمامين ، ويحق إذا توافر حظ مـولانا أبقاه اللّه على تشبيـه الملوك ، فـإذا كان مجلس ابـن عبد المؤمـن بالمسجـد فإن مجلسـه أولى بـأن يكـون مسجـداً مـن كـل مسجـد، ولا غـرو أن تعترف المدائح كما تعترف الضـوال ، وان تتبـع كما تتبع الطـرائد،(ولينصرن اللّـه من ينصره)(١٢٢)

لعل المولى عـز نصره قد نفـذ إلى جانـب الشمال جماعة فـإن صاحـب أنطاكيـة خذلـة اللّه عاث وشعـث، وخلا الجبـان بأرض فطلـب الطعن وحده، لو قرن أهل عكا—وكذلك يفعلـون— بمشيئة اللّه ما هم فيه من جهاد بنية احتسـاب لما سبقهم إلى الجنة سابق ولا لحقهم بعـدهم لاحق، فليهن مولانا توفر ثوابه على كل حـال، فله ثواب نفسه وثواب من جاهد بسببـه ، فلا أعـدم اللـه الخلق واحـدا بـه استقام جميعهـم، ومـالكا قـام برعـاياهم فـأقعد مايـروعهم ، وشفيقـا يقيهم بنفسه وبـولده وبأخـوته، ويتقـدم إلى الأهوال امـام ممـاليكه وأمـرائه وعسكره وجملتـه كـأنه منهـم مكـان بسـم اللّـه مـن الكتاب، ومكـان الامـام مـن المحـراب، ومكـان النواصي مـن وجوه الصـاهل، ومكـان الأسنة مـن وجوه الـذوابل، وخير ماكـان اذا لم تظن نفـس بنفس خيرا ، وأغير مـاكان على محارم اللّـه إذا كانت أنفس الملوك غير غيرى، وقد اطمأنت القلوب إلى أن اللّه سبحانه قد كشف الغمة وفرجها ، وأطفأ نار الحرب التي كان العدو قد أججها ، فما يتوقـع من كتب مـولانا أبقـاه اللّه إلا ان الاسلام قـد رضي بما يسخط

الكفر، ولا يسمع من قصصه الذي هـو أحسن القصص إلا أن يقول ما قاله سميه على نبينا وعلية السلام(قضي الأمر)(١٢٣) فأما ملك الألمان فقد سلبه اللّـه ماأضيـف اليه كما كـان المملوك رأى في منـامه على كـوكب.، واعلـم به مـولانـا في ضمن رسـالـة فقال ابقـاه اللّـه قد قبلـت البشرى، وصـورة الـرؤيـا أن رسـولا جـاء مـن السلطـان عـز نصره إلى المملـوك فقال:أكتب كتابـا ببشارة ملك الألمان ، فقلت حتى أفكر، فقـال الرسول اكتب بـأن اللّه قد سلب ملـك الالمان ماأضيف اليه، والمشهـور ان ملك الالمان خرج في مائتي ألف، وأنه الآن في دون خمسة الاف».

ومنها: «ورد كتـاب من المهديـة إلى الاسكندريـة ثاني رجب بعـد ستة عشر يـوما مـن المهـدية ، وذكـر مـن فيه أخبـارا ، وقـد طولـع بها ، ولما تكـررت علمت صحتهـا، وهو أن عسـاكر الغـرب الاسلاميـة نازلـة على طليطلة ، وقـد افتتحت عدّة حصون كـافرة، وأن بوزبـا شوهد بالمهـدية مـوثقا بـالحديد وقـد نفذه قـراقوش الى صـاحب تـونس ليسيره إلى بـلاد الاندلس ، موضـع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكـر ،وأن أهل صقلية من المسلمين إلى الآن في حرب قائمة بينهم وبين فـرنجها ومعتصمون بالجبال في أعمالها، وأن عسكـر الفـرنـج قد خـرج لانجـاد أصحـابهم بصقليـة ، والمسلمون بها على توقـع ورقبة وحذار وخيفة ، نصر اللّه كلمـة التوحيد، وأهلك كل جبـار عنيد، وان مراكب فيها أزواد للجنويين دخلـت المهدية بأمان من صـاحبها، فباعت بها وتزودت منها ، وانها قـاصدة الشام خيب اللّه قصدها»

ومنهـا «وقد سير الحمـل الآن مـن المجلس العـزيـزي بحضور فـلان وفلان وكلهم مجتهـد في الخدمة، ولما عرف المملوك انهم لايطـرقون المعنى الذي يطرقـه المملوك من تنبيه مولانا على أن يقتصـد في الانفاق ، ويقدّر الاخراج للعلم أن هـذا الحجر قد رمينا بعدمـه، وسمع بخبر المولى فإنهزم فرارا من سطوة كـرمه، والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطـاع اسفارها ،

ووقوف معائشها،وكساد أسواقها ،وانكسار تجارتها،ولولم تكن الدراهم سلعةلاتخرج من مصركما يخرج الدينار، لما وجدت كما يوجد الدينار، وإن تصريف الدراهم بعد أن يصير مستخرجا بذهب شغل شاغل، واستخراج ثان غير الاول، وعسى اللّه ان يأتي بالفتح أو أمر من عنده يحدث للاسلام نصرا عزيزا، وللكفر خذلانا سريعاً وجيزا.

مولانا خلد اللّه ملكه من وراء ضرورة لاتخفى عن المملوك، والمماليك من وراء ضرورة لاتخفى عن المولى وصدر المولى بحمد اللّه واسع وفرج الله منه قريب، وهذه الضائقة لما يريده اللّه تعالى من حسن موقع الفرج بعدها، فقد انفق المولى مال مصر في فتح الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل، وينفق ان شاء اللّه تعالى مال القسنطنطينية في فتح رومية، والملوك كلهم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهم إلى أن يسلموها إليه فيشكره اللّه على ماأخرجه في سبيل اللّه منها ، ويمقتهم على ماكنزوه من ذهبها وفضتها، فلا يكن في صدر المولى حرج ولا في خلقه،فإن اللّه سبحانه لايضيق رزقا على يده الكريمة، لاسيما وقد أجرى عليها ارزاق خلقه»

ومنها« ينهي المملوك وصول رسول ملك الروم بما في صحبته من هدية، وبما على لسانه من رسالة ،وبما على يده من كتاب، وحضر بين يدي الملك العادل وجرى من المفاوضة ما زبدته امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية، وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقة على حرب السلطان، وإطلاق طريقهم ، وامتنع وسدّ الدربندات ، وحفظ عليهم الطرق، ووصى أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنع دونهم، وجعل موافقته أن البلاد في هذه السنة غاليةالسعر، والمصلحة تقتضي أن لاتكون الحركة إلا بقوة وعلى تمكن من الميرة وتأخير الحركة الى السنة الاخرى» ثم قال:«وهذاملك الروم خائف من الفرنج على بلده،مدافع عن نفسه إن تم له الدفع ادعى انه بسببنا،وان لم يتم

ادعى انه غائب عـن مقصده ومقصدنا، وقد جعل مـا اورده من أن يقال ان البطاركة في قمامـة من قبله، وان ينقل مـن ولاية الفرنج الى ان يـوليها الطاغيـة من أهـل عمله سببـا يبسط به عـذره بزعمـه عند أهـل جنسه ، ويـدفع بـه عن نفسـه لاسيما مع إقـامـة الخطبة الاسـلامية ، ونقلـه المنبر وفسحته في الصلاة واعزاز الكلمة الاسلاميـة ، أرغم اللّه بها أنفه، وعجل بسيفها حتفـه، ومولانا ابقاه اللّـه يتثبت في الاجوبة ، ولايجيـب الى ماعلى الاسـلام فيه غضـاضة ، ولا الى مـا للكفر فيـه قوة(ان ينصركـم اللّه فـلا غالب لكم)»(١٢٤).

ومن كتاب آخر: « وصل إلى المملوك كتاب يذكر وصول رسل الملك العتيـق مـن قبرس اليـه يخبره بعصيـانه على ملـك انكلتيـز ومكـاشفتـه بالعداوة والحرب وانه قدكاتب السلطـان أعز اللّه نصره يبذل له من نفسه العبوديـة والطاعـة والمظاهـرة على ملك انكلتيـز ، والاخبار متـواترة بـأن الملك العتيق أحـرق مواني قبرس ووعرها وقطع الميرة عـن السـاحل ، ولا شبهة ان مـولانايتقبل مـن المذكور ويقوي نفسـه على هذه المباينـةفان في تخاذلهم نصرة الاسلام وشغل بعضهم ببعـض وافتراق كلمتهم المجتمعة ، وقطعـا للميرة عن الشـام وامنا لجانـب كثير مـن جوانـب البحر ، وهـذا الملك العتيـق قد صـار لمولانا صـديق،ومـاسمي العتيـق إلا لانه صـار لمولانا عتيقـا، ولا اعتبار بحديثنا مـع صاحب القسطنطينية في انـا ننجده على قبرس، فانا انما وعدنـا بالنجدة عليها لما كانت بيد عـدونا ، واللّه ما أفلح ملك الروم قط، ولا نفع ان يكون صديقا ، ولا ضر ان يكون عدوا ، وكذلك صاحب الغرب ، واللّه يعصمك من الناس.

وقف المملـوك على كتاب بغداد والمقصود الـذي ندب لأجله الـرسول مـا ألم بذكـره في الكتـاب وهـي المعونـة على الجهـاد ، وعـرف استدعـاء المساعدة على تكريت، ولو كان لنـا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها لانها مهما بقيـت في يد مـن هـو الآن بها لكانـت في يـد المولى أبقاه اللّـه

تعالى، ومهما خرجت عنه خرجت عنها ، وما نقول انه ليس لنا تطلع الى مثلها لاسيما وهي طريق الى غيرها ، وقد فتح اللّه للمولى ببلاد هي مع سعتها ضيقة عن ربوتها، فللمولى أولاد كثر الله منهم، مامنهم الا من هو متطلع الى طرف ، وله اهل مامنهم الا من هو متطلع الى مملكة، وأمراء مامنهم الا من هو متوقع زيادة ، ومماليك مامنهم الا من يريد ان يوفى الحق عليه في الخدمة، ومن سيرَّه المولى لهذا الأمر عدم من أصحابه منفعة فيما هو أهم مما سار فيه ،ومايليق ان يسير الا من يريهم مايعجزون عنه، ويكون عنوانا لما لعلهم في شك منه من قوة المولى على مايريد، وامساكه مع القدرة، ويرى المملوك ان مطلبهم نقد، ومطلبنا منهم وعد، وان كان ولابد من تسيير فلا يسير الا من يقضي الشغل ، ويستزيد الجعل.

ماتضمنه الكتاب البغدادي من عزم الخليفة على الحج في هذه السنة المملوك يستبعده ،بالاضافة الى الوقت والى عادة أهله آخرهم حجا الرشيدرحمه اللّه، ويستقربه بالاضافة الى خلته، وان سار صلح ان يهتم بما اشار اليه ابن الشهرزوري، ولاشك انه قد أنسي الرسالة التي توجه فيها ، فإنا بعثاه يلتمس لنا نفقة فالتمسها منا».

وكتب الفاضل الى السلطان: « ينهي المملوك انه عرف تسحب رجل وصبي من القصر الغربي، وان المؤيد ، يعني ابن السلطان ، وكان ينوب عن اخيه العزيزبمصر ، حضر نائبه الطواشي بهاء الدين واستعلم أمرهما فذكر أن هربهما صحيح وأن أحدهما وهوالصبي من جملة ثلاثة وثلاثين ولدا كانوا اطفالا وقت الحوطة عليهم بالقصر الغربي، وقد بلغ هذا وكبر وزاحم عشرين سنة، والآخر كان معتقلا في الايوان فحدثت له خنازير في حلقه ، وأشفى على الهلاك فأمر الطواشي بنقله الى القصر الغربي من الايوان وفك حديدة، وحمل ليتداوى في اوائل سنة ثلاث وثمانين، واستمر مرضه واشتد ضعفه وبقي في القصر الغربي الى ان علم انه

تسحب فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر الغربي، فذكر أستاذين كان الطواشي اقامهما ورضي امانتهما وانهما يذكران ان هذا القصر الغربي قدخرب ودثر، واكثرت التسليقات عليه ، ويجاوره اصطبلات فيها جماعة من الخربندية والمفسدين، والتطرق مستمر من هذه الاصطبلات الى من في القصر من النساء، وأنهما كانا أنهيا مرة بعد اخرى أن المكان غير حريز، والاعتقال فيه غير وثيق ، قال: وجمعت اصحاب الارباع وجيرة القصر ، ورجوت بترك الشناعة الظفرة بهما، والبحث واقع عنهما».

وكتب الفاضل عن السلطان الى العادل وهو بمصر: « انتهى الينا بالديار المصرية ، وبالحضرة العلية، أن جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف ، وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ماأطاعوا فيه القوى الغضبية ، وأحيوا بها ما أماته اللّه من أهل حمية الجاهلية ، واللّه سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعا مطيعا:(واعتصمو ا بحبل الله جميعا)[١٢٥] ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها، وقد نهى اللّه عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنها ، وماعلمنا أن في ذلك نية تنجد، ولا مصلحة توجد، ولا هداية تعتقد، بدراسة تعقد ، ونار عداوة توقد، وقلما اثمرت المشاجرة الا خلافا، فالمجلس أعزه اللّه يوعز بكف الألسنة الخائضه، وعقل الأعنة الراكضة، فإن أقنع بلطفه المرضي والا كانت همته الرائضة ، ومن عاد بعد الزاجر أبعد عن مستقره ، وأزعج ، وليسع الخلف ماوسع السلف من الادب ، وليعلم العبد أنه يكتب كتابا الى ربه فليفكر فيما كتب والى من كتب».

فصل

في ذكر خروج الفرنج خذلهم الله بعزم اللقاء ووصولهم الى رأس الماء

قال العماد: وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال مع ملك الالمان وخرج معهم المركيس ، والكندهري ، واخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها ، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها، وكان مخيم اليزك على تل العياضية فركبوا واشغلوا القوم بنيران النصال، وألهبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا قد حفرناها عند نزولنا هناك ، وباتوا ترميهم وتشويهم وتصميهم الاتراك، وأصبحوا يوم الثلاثاء سائرين الى اللقاء ورفع السلطان تلك الليلة الثقل الى ناحية القيمون ، وقد امتدت ميمنته الى الجبل صفا ، وميسرته الى البحر زحفا، وعنده في يمين قلبه أولاده: الافضل، والظاهر، وأخوه العادل في أول الميمنة ، ويليه حسام الدين بن لاجين، ثم صارم الدين قايماز النحمي ،ثم حسام الدين بشاره ومعه بدر الدين دلدرم الياروقي، فهولاء عظماء دولته وكبراء مملكته ، ومعهم امراء ومقدمون جريئون مقدمون وكان في الميمنة ايضا ابن صاحب الموصل وعز الدين جرديك النوري وعلى ميسرته صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة وتقي الدين، وابن المشطوب سيف الدين، وخشترين والامراء الهكارية والحميدية والزرزارية والمهرانية، وأمراء القبائل من الاكراد، ورجال الحلقةالخاصة واقفون في القلب ،وضرب للسلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف، وفي مرج عكا عين غزيرة الماءيجري منها نهر كبير الى البحر، فانحرفوا الى غربي النهر ، ونزلوا واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا ، فأنهض السلطان اليهم الجاليشية وانتظر من الله في كسرهم المشيه فاستداروا بمركزهم واثخنوا فيهم اللتوت رضا ، وبالدبابيس قضا ، وبالنصال قرضا، وبالاسنة وخزا ووحضا، وقضوا فيهم من حق الجهاد

سنة وفرضا، وكان المراد ان يحتموا فيثوروا حتى يلقاهم ويبوروا ، فمارامو ا مكانهم واصبحوا يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين ، ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجل محدق بهم كالأسوار وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ، وارادوا يباسطونهم ، والسلطان يمد الرماة بالرماة ، والكماة بالكماة ، وهم ثابتون نابتون، ساكنون ساكتون، ونحن نقول لعلهم يحملون ويغضبون فيجهلون فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم ، وتفريق جماعتهم ، وأحس العدو بالضعف وانه متورط في الحتف ، فالجئوا لعجزهم عن الدفاع الى الاندفاع ، وساروا عائدين على هيئة الاجتماع ، والنهر عن يمينهم ، والبحر عن يسارهم ، وقد أيقنوا إن صح منهم الثبات بانكسارهم ، واصحابنا حواليهم ومن ورائهم ، يغرقونهم في دمائهم ، ويشلونهم ويقلونهم وينهلونهم من ماء الحديد ويعلونهم ، وهم يتحركون في سكون ويتظاهرون في كمون ، ويتذوبون في جمود ويتلهبون في خمود، وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه، وطموا مدفنه وطمروه حتى يخفى أمرهم ولايصح لدينا كسرهم ، ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق ، وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق، وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسنا، وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا ، وبذل إياز الطويل هذا اليوم جهده،وفل في هذا اليوم حدهم حده ، وكذلك سيف الدين يازكوج عام في بحرهم وقام بأمرهم ، واصبحوا يوم الخميس الى نار الوطيس ، ووصلوا الى مربضهم ولم يحصلوا على غرضهم ، ونقص منهم خلق ، وعدنا الى الخيام ظافرين ظفر الكرام ، فرحين بذل الكفر وعز الاسلام ، وعرف الفرنج مساق خزيهم ، واخفاق سعيهم ، فاحترزوا من الهلكة وماعادوا الى مثل هذه الحركة.

قال القاضي وكانوا قد جعلوا راجلهم سورا لهم يضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لايترك احدا يصل اليهم الا بالنشاب ، فإنه كان يطير عليهم كالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم بحيث لم يظهر

منهم أحد في ذلك اليوم أصلا، وعلم العدو مرتفع على عجلة وهو مغروس فيها وهي تسحب بالبغال، وهم يدنون من العلم وهو عال جدا كالمنارة، خرقته بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة الى قبالة جسر دعوق، وقد ألجمهم العطش من شدة الحر ، وأخذ منهم وأثخنتهم الجراح، وكان الفعل معظمه للحلقة المنصورة في ذلك اليوم فإنهم أذاقوهم طعم الموت، و جرح منهم جماعة كاياز الطويل، فإنه قام في ذلك اليوم أعظم مقام يحكي عن الاوائل، وجرح جراحات متعددة.وهو مستمر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الاسلام وشجعانه ، وله مقامات متعددة، وجرح خلق كثير في ذلك اليوم ، وعزم السلطان في تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم وكتب الى البلد يعرّفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب، فلم يصل من أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب، فلما أصبحوا كف السلطان الناس عن القتال خشية ان يغتالوا فإن العدو كان قد قرب من خيمه ووقف الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الى مخيمه، وكان لهم فيها اطلاب مستريحة فخرجت على اليزك الاسلامي وحملت عليهم، وانتشب القتال بينهم ، فقتل من العدو وجرح خلق كثير منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم ، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الى حافره، وكان عليه لبس لم ير مثله، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم يوجد ، وعاد السلطان الى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكانه، وعاد كل قوم الى منزلتهم، وكان عماد الدين زنكي غائبا بنفسه مع الثقل لمرض كان به، وبقي عسكره فعاد وقد اقلعت حماه وبقي التياث مزاج السلطان وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة، لكونه لم يقدر على مباشرة الأمر بنفسه، ولقد رأيته رحمه الله وهو يبكي في حال الحرب ، كيف لم يقدر على مباشرة القوم،

ورأيته وهو يأمر أولاد ه واحداً بعد واحد بمصافحة الأمر ، ومخالطة الحرب، ولقد سمعت منه، وقائلا يقول: إن الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين فأنشد تمثلا :

أقتـــــلاني ومـــــالكــــــا
واقتـــلامـــــالكـــــأمعـــــى(١٢٦)

يريد بذلك انني قد رضيت بأن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الاسلامية ، وكان مرض السلطان هو أحد الاسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة ، منضما الى كثرتهم ، وشدة الغلاء والجدب عليهم .

فصل

في وقعة الكمين وغيرها ودخول البدل الى عكا

قال العماد: لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال انتخب السلطان من أجناده عدّه، وكثّر لهم العدّة ، وأمرهم أن يكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدّو بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل ، فكمنوا تلك الليلة ، فلما اصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة وساروا نحوالفرنج وصالوا عليهم وأغاروا ، فاستقبلهم الفرنج فخرج اليهم اربعمائة فارس ، هكذا قال العماد في البرق— وقال في الفتح مائتا قنطاري، وكذا قال ابن شداد مائتا فارس— وطمعوا في المسلمين فتأخروا قدامهم قليلا حتى أوصلوهم إلى الكمين ، فخرج عليهم أسد العرين ، وقتلوا وأسروا واستولوا عليهم بأسرهم ، فلم ينج منهم ناج ، ووقع في الاسر مقدمون أكابر منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيسية ، وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ووقف على تل كيسان وقد توافت إليه الاسرى والأسلاب فترك الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت مقومة بأموال عظيمة ، فما أعارها طرفا ولا تردد أمره فيها، وجلس وأحضر الأسرى وباسطهم وأطعمهم وكساهم واذن لهم في أن يسيروا غلمانهم لاحضار مايريدون احضاره ، ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال، وحفظهم بالقيود الثقال.

قال القاضي ابن شداد : ولما هجم الشتاء وهاج البحر ، وأمن العدو من أن يضرب مصاف وان يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في العودة الى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة، فسار عماد الدين صاحب سنجار خامس عشري شوال وعقيبة ابن اخيه صاحب الجزيرة بعد ان افيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما ، وسار علاء الدين

ابن صاحب الموصل في أول ذي القعدة مشرفا مكرما ، وسار الظاهر في المحرم سنة سبع ، وتقي الدين في صفر منها، ولم يبق عند السلطان إلاّ نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة.

قال العماد: واشتغل السلطان بادخال البدل الى عكا وحمل الميرة والذخائر ، وأخرج من كان بها من الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا ، وكان مقدم البدل الداخل من الأمراء سيف الدين المشطوب دخل في سادس عشر المحرم سنة سبع، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبوالهيجاء وأصحابه،ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خلق من الامراء وأعيان من الخلق ، وتقدم الى كل واحد ان يصحب معه ميرة سنةكاملة ، وانتقل العادل بعسكره الى حيفا على شاطىء النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب وتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج إليه، فأقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس الميرة والذخائر لئلا يتطرق اليها من العدو من يتعرضها،وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحجة ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب المينا فانقلب كل من في البلد من المقاتلة الى جانب البحر لتلقي البطس وأخذ ما فيها، ولما علم العدو انقلاب المقاتلة الى جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم ، كما شاء الله تعالى ، وأدركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين ، وأما البطس فإن البحر هاج هيجانا عظيما وضرب بعضها ببعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من

ذلك وهـن عظيم ، وحـرج السلطان لذلـك حرجا شـديدا ،وكـان ذلك أول علائم أخذ البلد.

وقال العماد: لما دخـل الشتاء وعصفت الاهـواء ووقع في سفن الفـرنج الكسر انفذوها الى الجزائر للاحتياط ، وخافوا عليها من اختباط البحر.

وقال في الفتح: نقل الفرنج سفنهم خـوفا عليها الى صور فربطوها بها، فخلا وجه البحـر من مراكبهم ، وحصـل الامن فيه من جـانبهم ، وكان اصحابنا في البلد قـد ملوا فشكوا ضررهم وضجرهم وكـانوا زهاء عشرين ألف رجـل من أمير ومقـدم وجندي واسطولي وبحـري ومتعيش وتـاجر وبطال وغلمان ونـواب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج، فـرأى السلطان ان يفسـح لهم فيـه رفقا بهم ورأفـة ، ومـا أفكـر ان في ذلك مخافـة وآفـة ، وأشير على السلطان بترتيب البـدل وتكفل العادل بذلـك وانتقل بمخيمه الى سفح جبـل حيفا قاطـع النهر ، وتقـدم بجمع السفن للنقـل واجتمع المنتقلون بالساحـل على الرمل، فمن نجز أمره انتقـل ، وكان الرأي ازاحة علة المقيمين فإنهم قـد جربوا وصبروا وخبروا وهـم كنفس واحـدة وكانوا في ثروة وكرم ونخـوة ، وفيهم أبوالهيجاء السمين ، وله أتبـاع وأشياع ، وله في شرع السماحة اقتداء بالسلطان وأوضاع ، ولعلـه انفق من ماله في تلك السنـة خمسين ألف دينـار ، فلما فسـح لهم في الانتقـال لأجل الاستبـدال انتشر ذلـك الضم ، وانتشـر ذلـك النظـم ، ودخل الى عكـا مـن لم يجرب حصـارها ، ولم يخبر منـافعها ومضـارهـا، وماثبـت ممن كـان مقيما بها إلا الأمير بهاء الدين قراقوش ، ودخـل عشرون مقدما وأميراً شبه المكرهين ، عوض ستين ، واستخدمت الرجال وانفقـت الأموال ، وتفاوت الداخلون والخارجـون ، فـلا جرم وقـع الـوهـن ، وقضي الامـر، وتكفل بـالـداخلين المشطوب، وضاع الزمان وتعذر الامكان بعود مراكب العدو ، فلم يستتم البلد ماكان يحتـاج اليه من الرجال والاموال ، فان كـل من عين للدخول

كرهـه وصار يتـوسل في ان يعفـى ويبذل في نفسـه الفداء ، ثـم اا حقت
كلمة الـدخول على مـن تعين له استمهلـوا زمانـا يتهيأون فيـه للدحـول
ولإنفاذ قضاء الله تعالى أسباب لابد من وقوعها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد:وفي ليلة سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا، فانثلم الثغر، وبادر الفرنجة اليها فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وقاتلوا عنها الى ان بنوها ، وعادت أقوى مما كانت.

وفي ثاني ذي الحجة هلك ابن ملك الالمان ، وكندكبير ، يقال له كند بنياط، ومرض الكندهري وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان،وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزنا عظيما ، وأشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها النااران والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله نارا تقد، وحصل للمسلمين غنائم أخر كثيرة في سرايا سرية ، وأساطيل بحرية ، ومن جملة ذلك ملوطة ، مكللة باللؤلؤ منوطة، وبأزرار الجوهر مربوطة ، قيل إنها من ثياب ملك الالمان ، وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فأسرهوهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان ، فأعطاهم السلطان جميع ماغنموه.

قال العماد: فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم واحضروا مائدة فضة عظيمة ، عليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن، ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطارا، فما أعارها السلطان طرفه احتقارا.

قال: واستشهد في عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار الدين، والتقى في هذه السنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر ، فأحرقت للكفر شواني برجالها، وكان عند العود تأخر لنا شينى مقدمه الامير جمال الدين محمد بن اركلز ، فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاحوه الى الماء ، وسلموه الى البلاء ، فقاتل وصبر فعرضوا عليه الأمان فقال: ما أضع يدي إلّافي يد مقدمكم الكبير ، فلا يخاطر الخطير إلاّ مع الخطير، فجاء اليه المقدم الكبير ، وظن أنه قد حصل له الأسير، فعاقره وعانقه وقوي عليه ومافارقه ووقعا في البحر وغرقا ، وترافقا في الحمام واتفقا ، وعلى طريقي الجنة والنار افترقا ، واستشهد أيضا الأمير نصير الحميدي.

قال: وفي تاسع جمادى الأول قتل القاضي المرتضى بن قريش الكاتب في خيمته، قتله شريك له في دار بنابلس أراده على بيعها، وخرج من خيمته فوجد قاضي نابلس فقتله، وضربه وما أمهله، ومر لينجو فأدرك، وضرب بعمود خيمة فأهلك ، واستكتب السلطان اخا المستشهد مكانه، فلم يبلغ في الاحسان ميدانه.

قال :وفي هذه السنة ورد كتاب سيف الاسلام اخي السلطان من اليمن يذكر استيلاءه على صنعاء واستنابة ولده شمس الملوك فيها.

قال: ووصل القاضي الفاضل من مصر الى المعسكر المنصور في ذي الحجة ، وكان السلطان متشوقا لقدومه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين ، على ان امور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة ، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه ، دائم الاعتماد والاستناد على احسانه ، والى اركانه فان استقدمه خاف على ماوراءه من المهام ، وان تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام ، وكان يكاتبه بشرح الاحوال يستشيره والنجابون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات ، والاستشارة في المهمات ، فوصل الى القدس واعتاق بتوالي

الامطـار ، ثم وصـل في ذي الحجـة ،ورجـع الفضل ، واجتمـع الشمـل، واستأنس الملك بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأي مشيره.

قلت: وفي جمادى الاولى مـن هذه السنة تـوفي بالموصل قـاضي القضاة محيي الدين ابو محمد بن قـاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، وقد اثنى العماد الكـاتب عليـه في الخريدة ثناءً كثيرا وانشـد له اشعـارا حسنة منها في التوحيد:

قامت باثبات الصفات أدلة
قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت
هزمت ذوي التشبيه والتمثيل
فالحق ما صرنا إليه جميعنا
بأدلة الاخبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتديا فقد
ألقاه فرط الجهل في التضليل

وله في مدح الصحابة رضي الله عنهم :
لا ئمي في هوى الصحا
بة ارجع إلى سقر
لا بلغت المنى ولا
نلت من رفضك الوطر
كيف تنهى عن حب اقوا
م هم السمع والبصر
وهم سادة الورى
وهم صفوة البشر
فأبو بكر المقـ
دم من بعده عمر

ثـــــــم عثمان بعــــــــده
وعليّ على الاثـــــــــــــــــــــــــر
أيها الــــــرافضي حســــــبك
فـــــالحق قـــــد ظهــــــر(١٢٧)

ثم دخلت في سنة سبع وثمانين

ففيها وصل إلى الفرنج ملك افرنسيس وملك انكلتيز وغيرهما ، واخذت عكا يسر الله فتحها .

قال العماد: والغيم في هطلانه ، والبحر في هيجانه ، والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم، ولطف الله به قد خص وعم ، والعادل مخيم قاطع نهر حيفا على الرمل ، وسفن البدل الى عكا في البحر متصلة السبل، والفرنج مستمرون على الحصار ، متحرزون من الاصحار، ونوب اليزك راتبه، ووظائف الجهاد مواظبة ، وووصل من الديوان العزيز مثال ومعه مكاتبة للمُلك الافضل وفيها اكرام واجلال وفضل وافضال.

وفي ثالث صفر رحل تقي الدين لتسلم البلاد التي اضيفت اليه شرقي الفرات ، وكان له بالشام المعرة وحماه وسلمية ، وجبلة ، واللاذقية، وبالجزيرة ديار بكر وحران والرها والموزر ، وسميساط وضياعها ، وميافارقين وحصونها واعمالها وقلاعها ، وسار على أنه يرجع عن قريب ، فأبطأ وتشوف الى افتتاح مايجاوره من البلاد ، وسار الى ميافارقين فكان السلطان ينسب ماجرى من استيلاء الكفارعلى عكا بعد قضاء الله تعالى الى غيبته ، فإنه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرته ، وجور مجاورته ، وسياتي ذكر وفاته في آخر السنة.

ووصل كتاب المجاهد أسد الدين شيركوه أنه اغار على جشير للفرنج بطرابلس فاستاقه ، ولم يطق الكفار لحاقه ، واقتطع لخاصته منه أربعمائة رأس تلف في الطريق منها أربعون، وغنم أبقارًا وغنما ، وانفذ للعماد منها بغلة، وذلك رابع صفر.

وفي ليلة هذا اليوم القت الريح مركبا للعدو على الزيب فكسرته، وكان فيه خلق عظيم منهم، فغرق بعضهم وأسر بعض، وفيهم امرأتان

سبيتا. وفي ليلـة أول ربيع الاول خـرج أصحابنـا من البلـد وهجموا على العدو وقتلوا منهـم مقتلة عظيمة ، واخذوا منهم مـن جيمهم جمعاً عظيما منهـم اثنتـا عشرة امـرأة ، وفي ثـالــث ربيـع الأول كـان اليـزك للحلقـة السلطانيـة ، وخرج اليهم من العـدو خلق ، وجرى بينهم وقعـة شنيعة ، وقتل فيهـا من العدو جماعـة منهم مقدم كبير، ولم يفقـد من المسلمين الا خـادم رومي صغير عثـر بـه في الحملـة فرسـه يسمـى قـراقوش ، وكـان شجاعـا له وقعات، وفي تاسـع ربيع الاول بلغ السلطـان ان العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش، فأمر العادل ان يكمن بالعسكر خلف التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسـار هو فكمن وراء تل العياضة ومعه من أولاده الصغار ، والقاضي الفـاضل وانذر الفرنـج ، ولم يخرج منهم أحد ، ووصـل في أثناء ذلـك اليوم خمسـة وأربعـون أسيراً من الفـرنج اخـذوا في بيروت، فيهم شيـخ كبير هرم لم يبق في فمـه ضرس ، ولم يبق فيـه قوة إلا مقدار مـايتحرك، فسألـه عن مجيئـه فقال للحج إلى قمامـة ، وبيني وبين بلادي مسيرة اشهـر، فرق له واطلقـه وأعاده إلى العدو راكبـا على فرس، وطلب أولاده الصغـار أن يأذن لهم في قتـل أسير فلم يـأذن ، وسئل عـن ذلك فقـال:لئلا يعتادوا من الصغـر سفك الدم ويهون عليهـم وهـم الآن لايفرقـون بين المسلم والكـافر. ثـم لما أقبل الربيـع توافـت العساكـر وفاء بموعدها، فـوصلت في شهر ربيع الأول فأول من قـدم الأمير علم الدين سليمان بـن جندر صـاحب قلعتـي عـزاز وبغراس ، وهـو شيخ لـه رأي وتجربة ومنزلة كبيرة ومـرتبة ، والملك الأمجد صاحب بعلبك وبـدر الدين مودود والي دمشق في رجالهم وابطالهم ، وفي كل يوم يقدم أمير بعد أمير ، والله يتولى التـدبير، وكان قد شاع الخبر بـأن ملوك الفرنج واصلـون ،وهم حـاشدون حـافلون فـوصـل ملك افـرنسيـس فليب في عـدة من عبـدة الصليب ،ثـاني عشر ربيع الأول في سـت بطس عظـام ، مملوءة بفـوارس ذوي اقـدام ، فقلنا مـاحمل الماء إلا أهل النـار ، ومـاأجلـب للدوابـر الا الدبـار ، وكان عظيما عنـدهم مـن كبار ملـوكهم ينقـادون له بحيـث اذا

حضرحكم على الجميع، ومازالوا يتواعدونا به حتى قدم وصحبه من بلاده باز عظيم عنده، هائل الخلق ابيض اللون نادر الجنس ، وكان يعزه ويحبه حبا عظيما ، فطار من يده حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابنا وانفذوه الى السلطان، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

قال القاضي ابن شداد:ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض مشرق اللون، مارأيت بازيا أحسن منه.

قال العماد: وكان مع هذا الملك باز أشهب ، كأنه عند إرساله نار تتلهب، ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله ، وكان في ظن الفرنج انه يقدم في جمع جم ، فلما رأوا جمعه قليلا سقط في أيديهم، فوعدهم با لمدد خلفه.

قال القاضي: وقدم بعده كند فرير وكان مقدما عظيما عندهم مذكور، كان حاصر حماه وحارم عام الرملة ، وفي ثاني عشر ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية أن جماعة من المستأمنين نزلوا ناحية من جزيرة قبرس في عيد لهم، وقد اجتمع جمع كبير في بيعة قريبة من البحر ، وانهم صلوا معهم صلاة العيد، فلما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان في البيعة من الرجال والنساء عن آخرهم حتى القسيس وحملوهم الى مراكبهم وساروا بهم الى اللاذقية، وكان فيهم سبع وعشرون امرأة، وكانوا قد اغلقوا باب الكنيسة عليهم ليامنوا افلاتهم وأسروهم بأسرهم ، وكنسوا جميع مافي الكنيسة من الامتعة والاعلاق النفيسة ، واقتسموها فوصل الى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة، كذافي كتاب القاضي.

وقال العماد في الفتح: وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم

أربعمائة درهم ، وهجم جماعة من العسكرية على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا، وركبوا في طلبها بأسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم ، فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل.

قال العماد: كان عز الدين سامة متولي بيروت ، ولم يكن لمراكب العدوبد من الجواز بها أو بقربها ، واذا عبرت أخذت ، وإن كانت مستعدة لحربها، فغنم هو ورجاله مغانم خلدت له ادخار الغنى ، وكثرت في البحر غزواته، ووصل ملك الانكلتيز إلى قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر ، واشتغل بها عن الوصول الى عكا حتى أخذها عنوة من صاحبها ، وكانت مقدمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على خمس منها مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا، وكان في الزيب وهو شمالي عكا طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا، ويقطعون الطريق على الفرنج.

قال القاضي: وكان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، فأخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة ، حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا لها: إن السلطان رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج اليه،فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث الى اليزك الاسلامي، وأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فأتته وهو راكب على تل الخروبة ، وانا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديدا وأمرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه، فرق لها ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذه منه ،ولم يزل واقفا رحمة الله عليه حتى أحضر الطفل وسلم اليها ، فأخذته وبكت بكاء شديداً، وضمته إلى صدرها والناس

ينظرون اليها ويبكـون وأنا واقف في جملتهم فـأرضعته ساعة ، ثـم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكرهم مع طفلها.

قال: فانظر الى هـذه الرحمة الشاملة لجنس الانس، اللهـم إنك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة آمين.

قال: وفي ذلـك اليوم وصل ظهير الـدين ابـن البلنكري، وكان مقـدما من أمراء الموصل، مفارقا لهم طالبا خدمة السلطان.

فصل

في مضايقة العدو خذله الله لعكا يسر الله فتحها واستيلائهم عليها

قال العماد: لما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى، زحف الفرنج الى عكا، ونصبوا عليها سبعة مجانيق ، ووصلت كتب من عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم ،فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما نابوا البلد نابهم ، فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر ، واذا رجع عنهم عاودوه ، وكان علامة بين السلطان وأهل البلد أنه متى زحف الفرنج عليهم دقوا كؤوسهم فتدق كؤوس السلطان إجابة لهم، واستبعد السلطان منزلته فتحول الى تل العياضية تاسع جمادى الاولى ،ووصل ملك الانكلتيز ثالث عشر جمادى الاولى من قبرس ومعه خمس وعشرون قطعة ، وهو في جمع شاك وجمر ذاك فبلي الثغر منه بغير البلاء الاول، هذا ومجانيق الكفر على الوغى مقيمة، وللرمي مديمة، وتمكن الفرنج بها من الخندق، فدنوا منه دنو المحنق، وشرعوا في هجمه واسرعوا الى طمه، وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ، ويحملون اليه موتاهم ،وأصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم ، قد انقسموا فرقتين ، وانقسموا قسمين ، ففريق ينقي الخندق وما ألقي فيه ، وفريق يقارع العدو ويلاقيه.

قال القاضي: ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم، وكانوا اذا جرح منهم واحد جراحة مثخنة موئسة ألقوه فيه، وانقسم أهل البلد أقساما قسم ينزلون الى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها

وقسم ينقلون مايقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر ، وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقات وحراسة الاسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك.

قال: وهذا ابتلاء لم يبتل به احد ولا يصبر عليه جلد ، والسلطان رحمه الله لايقطع الزحف عنهم والمضايقة لهم على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً حتى يشغلهم عن البلد، وصوبوا منجنيقاتهم الى برج عين البقر ، وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلاً ونهاراً حتى أثرت فيه الاثر البين، وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد السلطان في قتالهم، وكبس خنادقهم والهجوم عليه ، ودام ذلك حتى وصل ملك الانكلتيز .

قال: وفي سادس عشر جمادى وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والمير والرجال والابطال المقاتلة ، وكان السلطان قد امر بتعبيتها في بيروت وتسييرها ، ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما، حتى تدخل الى البلد مراغمة للعدو، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً، فاعترضها ملك الانكلتيز الملعون في عدة شواني قيل إنها كانت اربعين قطعة، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها ، وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالا شديدا وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا على العدو شانيا كبيرا فيه خلق كثير فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا مجربا في الحرب اسمه يعقوب من أهل حلب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم، قال: والله لانقتل الا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا ، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من جانب أبوابا فامتلات ماء، وغرق جميع من فيها ومافيها من الآلات والمير ولم يظفر العدومنها بشيء أصلا، وتلقف العدو بعض من كان فيها وأخذوه إلى الشواني من البحر ،وخلصوه من الغرق ومثلوا به

وأنفذوه إلى البلـد ليخبرهم بالواقعـة ، وحزن الناس لـذلك حزناً شـديداً والسلطـان يتلقى ذلـك بيـد الاحتسـاب في سبيل الله تعـالى والصبر على بلائه.

قال : وكان العدو المخذول قد صنع دبـابة عظيمة هائلة اربع طبقات الاولى من الخشب، والثانيـة من الرصاص، والثالثة مـن الحديد، والرابعة من النحـاس ، وكانت تعلـو على السور ويركـب فيها المقاتلـة ، وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما ، وحدثتهـم نفوسهم بطلب الأمان من العدو وكانـوا قد قربـوها من السور بحيـث لم يبق بينها وبين السـور الا مقدار خمسة اذرع على مانشاهـد ، وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها بـالنفط ليلا ونهارا حتى قـدر الله تعالى حـريقها ، واشتعال النـار فيها وظهـر لها ذؤابة نـار نحـو السماء واشتـدت، الأصوات بـالتكبير والتهليـل، ورأى النـاس ذلك جبرا لذلك الـوهن ، ومحواً لذلك الاثر ، ونعمة واينـاسا بعد يأس، وكان ذلك في يوم غرق البطسة

قال العماد: فكـان ذلك تشميتـا لتلك العطسه ، ثـم جرى بعـد ذلك عدة وقعـات في هذا الشهر ، وهـو جمادى الأولى، وهجم المسلمـون خيم العـدو ونهبوهـا ، ووصـل رجل كبير مـن أهـل مازنـدان يـريد الغـزاة، فوصـل والحرب قائمـة فحمل حملـة استشهد فيهـا في تلك السـاعة ، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلـد باستفحال أمر العدو والشكوى من ملازمتهم قتالهم ليلاً ونهاراً، وذكر ما ينـالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفـة عليهم مـن حين قـدوم الانكلتيـز الملعون ، ثـم مـرض مرضـا شديـدا اشفى فيه على الهلاك ، وجـرح الافرنسيـس، ولايزيـدهم ذلك إلا إصرارا ً وعتـوا ً، وهرب الى السلطـان خادمـان ذكرا أنهما لاخـت ملـك الانكلتيز وأنهما كـانـا يكتمان إيمانهما ، فقبلهما السلطان وأكـرمهما ، وهرب أيضا المركيـس منهم إلى صور، وكان قد استشعـر منهم أن يخرجوا ملكها عن يده.

قال العماد في البرق: ولما اعوزت الفرنج الحيل ، وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والجمل ، وذلك أن أبرجتهم الخشبية أحرقت ، وستائرهم ودباباتهم وكباشهم وزعت ومزعت ومزقت ، اقاموا قدام خيامهم صوب عكا تلا من التراب مستطيلاً ، ورفعوه كثيبا مهيلا ، ثم نقلوه وحولوه وكانوا يقفون وراءه، ويحولون الى قدامه ترابه، ويقربون الى قرب البلد رقابه، فهم من خلفه من النكايات محجوبون ، يشبون ويذبون، ويدبرون الحرب الزبون ، والتل المتحول الى البلد قد أعيا على أهل ا لجلد، لاتعمل فيه النار، ولايصل الى دفعه الاقتدار ، حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم، ورمي بكل جمرة ورجم، فما يزيد في كل يوم إلا قربا ، ومايجر في كل وقت الا خطبا أو حربا، وكان الاصحاب يخرجون من البلد اليه ويقاتلون عليه، ويطيفون بحول الله حواليه ، ومن كتاب فاضلي إلى الديوان: « ماقطع الخادم الخدم الا لانه قد اضجر واسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أ مره واستشر شره ، فإن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوا حاصرا محصورا ،غامراً مغمورا قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ،ويعوق الغرض عن الانتهاز ، ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة الف راجل ، وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب ، ولقمهم النصر ، وقد أمدهم البحر بالبحار ، وأعان أهل النار، واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الاعجمية من لايحصر معدوده ، ولايصور في الدنيا وجوده، فما احقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمة
فما يفهم الحداث إلا التراجم

حتى انه اذا اسر الاسير واستامن المستامن احتيج في فهم لغته الى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان مايقوله اول، وثالث مايقوله ثان، والاصحاب كلوا وملوا ، وصبروا الى ان ضجروا ، وتجلدوا الى ا ن تبلدوا ، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لاتصل الا وقد

كل ظهرها وقل وفرها وضاق بالبيكار صدرها، ولا تستفتح الا بطلب الدستور، ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو المخذول ، ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد فإنهم قاتلوا مرة بالابرجة، وأخرى بالمنجنيقات ،ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش وآونة باللوالب، ويوما بالنقب وليلا بالسرابات، وطورا بطم الخنادق وآنا بنصب السلالم، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالاخشاب وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أول أول ، وترتفع حالا بعد حال ، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم، وقد كان الحجر والنار تؤثران في أبرجة الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب ، لاتؤثر فيها الحجارة الرامية،ولاتعمل فيها النار الحامية».

قال ووصل في آخر جمادى الأولى من العساكر الاسلامية مجاهد الدين يرنقش ، ومعه عسكر سنجار ، وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل، وجماعة من أمراء مصر والقاهرة ،كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدووي وغيرهمامن الأسدية والناصرية ، وأما عساكر ديار بكر فانهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوار تقي الدين ، وكان قد تعرض للسويدا وغيرها،وصعب ذلك على السلطان ، وقال : هذا من عمل الشيطان ، وفي مثل هذا الوقت نعرض لهذا المقت، وإني أخاف عليه في هذه السنة ، حيث أساء عند إمكان الحسنه ، واشتد مرض الانكلتيز بحيث شغل الافرنج بمرضه عن الزحف ، وكان ذلك خيرة من الله عظيمة، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما ،وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ،فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة، وانجبار كسرة.

قال القاضي: واللصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم ،ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم،ويأخذون الرجال في عافية بأن يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ،ويوقظونه ويقولون له بالاشارة : إن تكلمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين ،وجرى ذلك مراراً كثيرة، ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلا للوقت بها لاطائل تحته، منها ان ملك الانكلتيز طلب الاجتماع به، ثم فتر بعد أياما، ثم جاء رسول يطلب الاستئذان في اهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر انها قد ضعفت وتغيرت ،وطلب ان يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدى ، ففهم انه يحتاج الى ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض ، ثم نفذ أسيرا مغربيا عنده فأطلقه السلطان ،ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل اليه ذلك، وكان غرضهم من ذلك تفتير العزمات وتضييع الاوقات على المسلمين، وهم مشتغلون بالحصر وموالاة الرمي والجد في الزحف حتى تبدلت قوة البلد بالضعف ، وتخلخل السور وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال عليهم حتى ان جماعة منهم بقوا ليالي عدة لاينامون أصلا ليلا ولا نهارا، والعدو عددكثير يتناوبون على قتالهم، واشتد ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة ، فركب السلطان بالعسكر الاسلامي ورغبهم ونخاهم وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر، وجرى قتال عظيم ،وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه من طلب الى طلب، ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه: ياللاسلام وعيناه قد فارت بالدمع، وكلما نظر الى عكا وماحل بها من البلاء ومايجري على من بها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وانما شرب شيئا أشار به الطبيب، ولماهجم الليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن، ثم ركب سحرا وصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها : إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد ان لم

تعملوا معنا شيئا نطلب الامان، ونسلم ونشتري مجرد رقابنا ،وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضا ، فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم ،وهجم عليهم بعض الناس من بعض الأطراف فثبتوا وذبواغاية الذب، وحكى بعض من دخل عليهم اسوارهم انه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهويرميها على المسلمين، ووقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهويتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب حتى ضربه زراق بنفط فأحرقه ، ورؤيت امراة عليها ملوطةخضراء فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ، ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك ،ولم يزل الحرب الى آخر الليل ،وضعفت نفوس أهل البلد ،وتمكن العدو من الخنادق فملؤوها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه ، فوقعت بدنه من الباشورة ودخل العدو اليها وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لاتقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية ، فبادر رجل من الأكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية ، وفي الغد ناداهم الفرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: إنا قد قتلناهم فحزن الفرنج وبطلوا عن الزحف ثلاثة ايام، وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمان الى ملك الافرنسيس، وهو كان مقدم الجماعة في الرتبة، وقال له: إنا قد اخذنا منكم بلاداً عدة وكنا نهدم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الأمان أعطيناهم، وحملناهم الى مأمنهم وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا، فقال:أرى فيكم رأيي، فأغلظ له المشطوب القول وانصرف عنه، ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان في البلد فأخذوا لهم بركوسا،وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي

منهم عز الدين ارسك، وحسام الدين تمرتاش بن الجاولي، وسنقر الوشاقي ، وهو من الاسدية الاكابر، وذلك في ليلة الخميس تاسع جمادى الاخرة ، فأما ارسك وسنقر فتغيبا خوفا من السلطان، واما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانات،وكان شابا اول ماتوفي والده فأقطع السلطان اقطاعاتهم وقطعها وحبس عنهم الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها، ومنعها، وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة فعاد من ليلته ووقع بعد ذلك في الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثماني مائة دينار، ومن كتاب الى صاحب إربل مظفر الدين:«لما عاين أصحابنا بالبلد ماهم عليه من الخطر، وانهم قد اشفوا على الغرر فر جماعة من الامراء ممن قل بالله وثوقه، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه، ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم، وباؤوا بوبال غدرهم ،وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم ، وماأرهب قلوب الباقين من مقاتلتهم الا رهبهم، والمقيمين من اصحابنا الكرام ، قد استحلوا مر الحمام،وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الاعداء اضعاف اعدادهم، وانهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم ، وكانوا تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم في القوم وبسطوا، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب».

قال القاضي:وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعرًا أنه يريد كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا وقالوا: نخاطر بالاسلام كله، وفي ذلك اليوم خرج من عند ملك الانكلتيز رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا وذكروا ان مقدم الاسبتارية يخرج في الغد، يعني يوم الجمعة، يتحدث ويتحدثون معه في معنى الصلح فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه،

وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم، وفي ذلـك اليوم تقدم الى قايماز النجمي حتى دخـل هو وأصحـابه إلى أسوارهـم عليهم،وترجـل جماعة مـن أمراء الأكـراد كالجنـاح وأصحابـه وهو أخـوالمشطوب ولفيفهـم، وزحفوا حتـى بلغوا أسوار الفرنـج، ونصب قايماز علمه بنفسه على أسوارهـم وقاتل عن العلـم قطعة مـن النهـار ، وفي ذلك اليـوم وصـل عز الـديـن جرديـك النوري وسـوق الزحف قـائمة فترجل هـو وجماعته،وقـاتل قتالا شـديدا، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهادا عظيما.

قال العماد: وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد، منتظرا لنجح الامـل البعيد، ولما عرف السلطان أنـه لاسلامه، وأن عكا عـدمت الاستقامة، نفذ إلى جماعة عكا وقال لهم :خذوا من العدو حذرا، واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يدا واحـدة ، وسيروا الى جانب البحر ، وصادموا العـدو بالقهـر، وخلوا البلـد بما فيه واتـركوه بما يحويـه، فشرعوا في ذلـك واشتغل كل منهـم باستصحاب مايملكه، ولم يعلم ان التهـاءه به يهلكه، فما تمكنوا من المراد حتـى أسفر الصباح ، ولم يصح ذلك في الليلـة الثانية لمصير السر إلى العـلانية . قـال :ولـو صح ذلـك لنجـح المقصد ولكـن الفرنـج اطلعوا على هـذا السر، فحرسـوا الجوانب والأبـواب وكان سبـب علمهـم اثنين مـن غلمان الهاربين خـرجـا إلى الملاعين وأخبراهـم بجليـة الحال،وعزيمة الرجال.

قال: وخرج يوم الجمعة من الشهر جماعـة من رسل الفرنج ونحن على الحرب ومحاولـة الطعن والضرب، وفيهـم صاحـب صيـدا فطلب نجيـب الدين العدل، وكان السلطان يعـذق به في رسالات الفرنج العقد والحل، وعول السلطان في سماع الرسائل على ولـده الأفضل وأخيه العادل، وتردد العـدل مـرارا في الخطـاب والجواب، فلم ينفصـل الأمـر على الصـواب، وبـذلنا لهم عكـا على مافيهـا دون مـن فيها، وأنـا نطلق لهم أسرى بعـدد

العدة التي تحويها، فأبوا غير الاشتطاط، فزدناهم صليب الصلبوت فلم يحصل لهم به كمال الاغتباط ، هكذا قال في البرق.

وقال في الفتح :ان ذلك كان يوم السبت، وقال اشترطوا إعادة جميع البلاد ، وإطلاق اساراهم من الاقياد .

وضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا حتى ينتقلوا إليه إذا شاهدوا العدو غالبا، وكذا قال ابن شداد أن ذلك اليوم كان يوم السبت الحادي عشر، وقال:لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركةعظيمة بحيث اعتقد ان ربما كان مصاف ، واصطفوا وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكر وا أنه— يعني الخارج صاحب صيدا —طليق السلطان ،فذكر نحو ماتقدم، وقال: وتصرم نهار السبت ولم ينفصل أمر .

قال : ولما كان يوم الاحد ثاني عشر الشهر وصل من البلد كتب يقولون فيها : إنا قد تبايعنا على الموت فإياكم ان تخضعوا لهذا العدو وتلينوا له، أمانحن فقد فات أمرنا،وذكر العوّام الواصل بهذه الكتب أنه وقع في الليل صوت انزعج منه الطائفتان ، وظن الفرنج أن عسكرا عظيما قد عبر الى عكا وسلم وصار فيها واندفع كيد العدو في تلك الأيام بعد أن كان قد أشفى البلد على الأخذ ، ووصل من عساكر الاسلام صاحب شيزر سابق الدين، وبدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير كان السلطان أنفذ اليهم ذهبا أنفقه فيهم وصاحب حمص،و اشتد ضعف البلد وكثرت ثغور سوره فبنوا عوض الثلمة سورا من داخلها حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليه، وثبت الفرنج على أنهم لايصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى تطلق جميع الاسرى الذين في أيدي

المسلمين، وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وفي يوم السابع عشر خرج العوّام وفي كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم، وأخذ جميع مافيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك،فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي الف دينار، وألفا وخمسائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصلبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين ومامعهم من الأموال والاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم ،وضمنوا للمركيس الملعون. ـــفانه كان قد استرضي وعادـــ عشرة آلاف دينار ، لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار ، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج، ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه ، وعزم على أن يكتب إليهم في ذلك انكارا عليهم ، فهو في مثل هذه الحال وقد اجتمع أمراءه وأصحاب مشورته ، فما احس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره على أسوار البلد وذلك ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ،وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنالله وإنا إليه راجعون ،وغشي الناس بهتة عظيمة ، وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب ،وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر إيمانه، ولكل إنسان نصيب من هذاالحظ على مقدار ديانته ونخوته ، واقشعت الحال على أن المركيس لعنة الله دخل البلد، ومعه أربعة أعلام للملوك عوضا عن علم الاسلام ، وحيز المسلمون إلى بعض اطراف البلد ، وجرى عل أهل الاسلام المشاهدين لتلك الحال ماكثر التعجب من الحياة معه.

قال :ومثلت بخدمة السلطان رحمه الله عشية ذلك اليوم ،وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى والواهلة الحيرى ، فسليته بما تيسر من التسلية واذكرته الفكر فيما قد استقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية

والقدس الشريف ، وكيفية الحال في ذلك وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد ، وانفصل الحال على أن رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحة فإنه لم يبق غرض في المضايقة، فتقدم بنقل الاثقال ليلا الى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفر عم، وأقام هو جريدة مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد ، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، واشتغل العدو بالاستيلاء على البلد ، وأقام السلطان إلى التاسع عشر ، ثم انتقل إلى الثقل ، ووصل ثلاثة نفر ومعهم أقوش حاجب بهاء الدين قراقوش، وكان لسانه فإنه كان رجلا عاقلا مستنجزين ماوقع عليه عقد الصلح من المال والأسرى، فأقاموا ليلة مكرّمين وساروا إلى دمشق يبصرون الاسارى.

قال العماد :وخرج سيف الدين المشطوب ، وحسام الدين حسين باريك، وأخذا امان الفرنج يعنى على القطيعة المقدّم ذكرها.

قال: ولم نشعر إلاّ بالرايات الفرنجية على عكا مركوزه،وأعطاف أعلامها مهزوزة ، وعمّ البلاء ، وتم العناء ، وعز العزاء وقنط الرجاء ، وحضرنا عند السلطان وهومغتم ، وبالتدبير للمستقبل مهتم، فعزيناه وسليناه، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله قد استعادها أعداءه، وقلت له: إن ذهبت مدينة فماذهب الدين، ولا ضعف في نصر الله اليقين .

قال: ودخلوا عكا وتسلموها ، ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها ، فإنهم منعوا أصحابنا من الخروج واحتاطوا عليهم وعلى الأموال بحبسهم واعتقالهم ، ثم طلبوا المال فجمعه السلطان وكمله، وأودعه خزانته بعد ماحصله ، وأحضر صليبهم المطلوب المسلوب ، وأتم شرطهم المخطوب، فظهرت أمارات غدرهم ، وبدت دلائل مكرهم .

وفي كتاب كتبه الفاضل عن السلطان الى شمس الدولة بن منقذ

وهوبالمغرب في الرسالة :«لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا، يعنى من الفرنج، الخمسين الفا، قولا لايطرقه التسمح ، بل يحرزه التصفح فانبروا في هذه السنة ملكا افرنسيس وانكلتيز وملوك آخرون في مراكب بحرية وحمالة حملوا فيها الخيول والخيالة والمقاتلة والآلة ،ووصلت كل سفينة تحمل كل مدينة،واحدقت بالثغر فمنعت الناقل بالسلاح اليه، والداخل بالميرة عليه»ثم قال: «وأخذ البلد على سلم كالحرب ،ودخله العدو ولو لم يدخل من الباب دخل من النقب، وماوهنا لما أصابه في سبيل الله وماضعفنا، ولا رجعنا ورا ءنا ولا انصرفنا، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ، ويخرجوا فنناجزهم، وينشروا فنطويهم ، وينبثوا فنزويهم، واقمنا على طرقهم ، وخيمنا على مخنقهم، وأخذنا بأطراف خندقهم ، وأحوج ماكنا الى النجدة البحرية، والأساطيل المغربية، فإن عاريتنا به ترد، وعاديتنا بها تشتد، والامير يبلغ مابلغه من خطب الاسلام وخطوبه، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه ، ويعجل العودة وقبلها الاجابه، ويستصحب السهم ويسبق ببشرى الاصابه، ويشعر أن الراية قد رفعت لنصر تقدّم به عرابه، فإن للاسلام نظرات الى الافق الغربي يقبلها ، وخطرات من اللطف الخفي يقرّبها، ويكفي من حسن الظن أنها نظرة ردّت الهواء الشرقي غربا، وخطرة أوهمت ان تلك الهمة لو لم تلم بالسفائن لأخذت «كل سفينة غصبا».

قال العماد: وعزم ملك الافرنسيس على المسير الى بلاده لأمر إختل عليه، فأخذ قسما من الأسارى وسلمهم إلى ا لمركيس ووكله في قبض نصيبه، ورضي بتدبيره وترتيبه، وخرج الفرنج يوم الخميس انسلاخ الشهر من جانب البحر ، وانتشروا بالمرج ووصلوا الى الآبار التي حفرها اليزك،وتواقعوا مع اليزك وأمدهم السلطان ففلوا العدو وصرع منهم خمسون فارسا.

قال القاضي :وخرج خلق عظيم ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا

خنادقهم ، قال :ولم تزل الرسل تتردّد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب، فخرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني، ومعه اثنان من أصحاب الانكلتيز فأخبر أن ملك الافرنسيس صار إلى صور، وذكروا أشياء من تحرير أمر الأسارى، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا أنفسهم إلى الارض ، ومرّغوا وجوههم على التراب ، وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا إلى أن يكون ماوقع عليه القرار يدفع في تروم ثلاثة، أي نجوم ، كل ترم شهر ، ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ماالتمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ، ومائة ألف دينار وستمائة أسير، وأنفذوا نقباءهم وشاهدوا الجميع ماعدا الأسارى المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم، ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول في ثامن عشر رجب ،ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك، فقال لهم السلطان :إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتتسلموا الذي عين لكم في هذا الترم، ونعطيكم رهائن على الباقي يصل اليكم فيترومكم الباقية، واما ان تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا، فقالوا :لانفعل شيئا من ذلك بل تسلمون مانقبضه بهذا الترم وتقنعون بأماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لايؤمن غدرهم، فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرّزين في الحادي والعشرين الانكلتيز وجماعة من الخيالة والرجالة والتركبلي وركبوا في وقت العصر السابع والعشرين من رجب، وساروا حتى أتوا الى الآبار التي تحت تل العياضة ، ثم احضروا من الاسارى المسلمين من كتب الله شهادته، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال ووقفوهم وحملوا عليهم حملة الرّجل الواحد، فقتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف رحمة الله عليهم ، واليزك الاسلامي

يشاهدهـم، ولايعلم ماذا يصنعون لبعـده عنهم، وكان اليزك قـد انفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهـم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه، وبعد أن فرغـوا منهم حمل المسلمون عليهم وجـرت بينهم حرب عظيمـة جرى فيهـا قتـل وجـرح مـن الجانبين ، ودام القتـال الى ان فصـل الليـل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفـون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفـوا منهـم، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم، ولم يبقوا مـن المسلمين إلّا رجلا معـروفا مقـدما أو قـويا أعـدّ للعمل في عمائرهـم.

قـال العماد: وطلب السلطـان منهـم أن يضمنهـم الداويـة في قبـض المال،فقال الداوية : ماندخل في الضمان ، فـاقنعوا منهم بالقول والأمان، فظهـر مـن فحـوى كـلامهـم الخلـف، ثـم ذكـر قتـل الاسـارى ، قـال: فشاهدناهـم مستشهدين بالعرا عرايا مجردين، ولاشـك أن الله كساهم من سندس النعيم ، ونقلهم إلى دار المقامـة في العز المقيم، وتصرف السلطان حينئـذ في المال، وفـرّق مجمـوعـه في رجاء الـرجـال، وأعـاد الاسـارى إلى أربابها،واحتوت عليها بدمشق أيـدي أصحابها، وحفظ الصليب السليب وردّه الى مكـانه وأعـاده الى صـوانـه لا لعزه بـل لهوانـه، فـإنه لامصـاب عندهم أعظـم مـن استيلائنا عليه،وامتداد ايدينا اليه، وقـد بذل فيه الروم ثم الكـرج بذولا، وانفذوا بعد رسـول رسولا، فما وجدوا قبولا، ولا صـادفوا سولا.

ومـن كتاب عمادي عـن السلطان في ذلـك:« وللكرام آجـال، والحرب سجـال، ولله مـن المؤمنين رجـال، والآن فقـد ثـارت الحميـات، وهبـت النخـوات، ووجب على كـل مسلم ان ينهـض لنصرة الاسلام، ويتـدارك ماحـدث من الكسر والوهـن، بالجبر والاحكام ويعيـد ما وهى مـن عقد الفتـوح الى النظام، فـأين ذوو الأنفـة والحمية، والهمـم العليه، والنفـوس الأبيـة، أما يغتمـون لمصرع مـن استشهد مـن أخـوانهم، أمـا يثورون لثـأر

- ٨٨١٣ -

ايمانهم،أما تبكي العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم، فإن مصابهم عظيم، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الرّاقدة واثارة العزائم الراكدة».

فصل

فيما جرى بعد انفصال أمر عكا

قال العماد: ثم ان الفرنج رحلت صوب عسقلان مستهل شعبان، وسار السلطان في عراضهم، والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ويسلبون ويسرقون ، وكل أسير أتي به السلطان أمر بقتله، ووصلوا الى حيفا فأقاموا بها ونزل المسلمون بالقيمون وقدّم السلطان ثقله الى مجدل يابا وأضحى نازلا على النهر الجاري الى قيسارية، وودع الفاضل السلطان وسار الى دمشق لأنها مدرج الوافدين من الأكابر ،والنواب بها ربما جبنوا عن إقامة الوظائف ، وكان الامر الفاضلي عندهم كالأمر السلطاني، فاذا استشاروه خلصوا من كل تبعة ودرك ،وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون في الساحل بالفارس والرّاجل، وعن يمينهم البحر ، وعن يسارهم الرّمل، وكانت الرّجالة حولهم كالسور وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة ،بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون،وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم.

قال القاضي: ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهويسير على هيئته من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح، واستراح القسم العمال، هذا والخيالة في وسطهم لايخرجون عن الرّجالة إلا في وقت الحملة لاغير، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام الاوّل الملك العتيق كي وجماعة الساحلية معه في المقدمة والانكلتيز والفرنسيسية معه في الوسط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة اخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة،وعلمهم على ماوصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم

على عجلة كالمنارة العظيمة، وساروا على هذا المثال ، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ، ويحرّكون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع، ويسيرون سيرا رفيقا ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل فنزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة، فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم.

قال: فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولانفع ،وطاف الجيش حولهم من كل جانب ولزوهم بالنشاب، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه، وهم يحفظ بعضهم بعضا، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب، ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه الا صبيان بجنبيتين لاغير، وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم، والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع ، والعدو على أتم ثبات ترتيبهم لايتغيرون ولا ينزعجون ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب إلى أن أتوا إلى نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس من أمر يتم معهم ، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان المسلمين وشجعانهم إياز الطويل وهو من مماليك السلطان وكان قد فتك بهم ، وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم ، وكان قد استفاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدّقت أخبار الاوائل ، وصار بحيث أنه إذا عرفه الفرنج في موضع يخافون منه، فاتفق أن تقنطر به فرسه فاستشهد في ذلك اليوم ، ودفن على تل مشرف على البركة وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما، وقتل عليه مملوك له، ونزل السلطان بالثقل على البركة وهو موضع يجتمع فيه مياه كثيرة، ثم رحل بعد العصر وأتى نهر القصب، فنزل عليه أيضا، فكنا

نشرب من أعلاه والعدو يشرب من أسفله، ليس بيننا إلاامسافة يسيرة ، وبات الفريقان هناك.

قال العماد :وكانت نوبة اليزك لعز الدين ابراهيم بن المقدّم في الساقه، وكانت الفرنج قد انست بانقضاء الحرب فخرج منها جماعة مسترسلين ، وتقدّمواعلى البركة مشرفين، فبصرهم ابن المقدم، فعبر اليهم من ورائهم هو ومن معه النهر ولم يأخذوا من خلفهم الحذر، ففجأهم وفجعهم ، وفرغ من شغلهم قبل ان يدركهم الصريخ وسلبهم وغنمهم ، ثم نهض الفرنج اليه، وحملوا عليه وجرت وقعة شديدة لحزب الضلال مبيدة ، جلبت لنا غنيمة ، وعليهم هزيمة، وأحضر الأسارى عند السلطان بحزام الذل والهوان، فأخبروا أنهم جرح منهم بالأمس ألف، وسرى فيهم وهن وضعف.

ثم رحل السلطان وعبر شعراء أرسوف، ونزل على قرية تعرف بدير الراهب، وطلب ملك الانكلتيز الاجتماع بالملك العادل خلوة فاجتمعا، فاشار بالصلح وكان حاصل كلامه أنه طال بيننا القتال ونحن جئنا في نصرة افرنج الساحل، فاصطلحوا انتم وهم وكل منا يرجع إلى مكانه، فقال: على ماذا يكون الصلح؟ قال: على أن يسلم إلى أهل الساحل ماأخذ منهم من البلاد، فأبى الملك العادل، وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس وراجل، فرجع مغضبا.

وفي يوم السبت رابع عشر رمضان كانت وقعة أرسوف تأهب المسلمون للقائهم ، فأزعجوهم وأبلوهم ببلائهم ، فلما رأى العدو ما هو فيه من الضيقة احتموا وحملوا حملة واحدة فانكشف من كان قدامهم، واندفعوا وثبت ذلك اليوم العادل وأصحابه وقايماز النجمي، وعسكر الموصل ، ثم كرت العساكر كرا إليهم، وجرت النوائب عليهم ، فجرت بين الفئتين مقتلة عظيمة ، فلجأوا إلى جدران أرسوف ،ولولا ذلك

لاستوعبت فيهم الحتوف، فنزل السلطان على نهر العوجا ورحل العدو الى يافا فنزلوها ، والمسلمون على العادة في عراضهم، مقيمة على تبديد جموعهم واعتراضهم ، وقتل يوم أرسوف لهم كند كبير تحت حكمه من الفرنج عدد كثير، وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين، فما قتل حتى قتلوا، ولا بذل حتى بذلوا روحهم .

قال القاضي ابن شدّاد: رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم،وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفرج لهم رجالتهم، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فاندفع الناس بين أيديهم ولم يبق في طلب السلطان إلاّ سبعة عشر مقاتلا ، والأعلام باقية والكؤوس تدق لاتفتر، فلما رأى السلطان مانزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبه فوقف فيه، والناس يفرون من الجوانب وكلما رأى فاراً يأمر من يحضره عنده فاجتمع في الطلب خلق عظيم، ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي، وخاف العدو أن يكون في الشعراء كمين ،وثابت العساكر كلها، فتراجع العدو إلى منزلته ، وجلس السلطان ينتظر الناس من العود من السقي والجرحى يحضرون بين يديه،وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم وقتل رجالة كثيرة وجرح جماعةمن الطائفتين ، وصدم الملك الأفضل وانفتح دمل كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب في ذلك كله، وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه.

وفي بعض الكتب السلطانية:«سار العدو من عكا على قصد عسقلان، وسقنا لمعارضتهم في كل طريق ، ومضايقتهم في كل مضيق، ومنازلتهم في كل منزل ، ومدافعتهم في كل منهل، وهم يسيرون البحر البحر لايفارقون ساحله، ولا يتجاوزون مراحله، والمواضع مضائق ، وشعراء ورمال ،وما للقتال فيها مجال، وماوجدنا فسحة إلا وضايقناهم

فيها، وأخذنا عليهم في نواحيها، ومن جملة أيامنا المشهودة، ومواسمنا المعروفة المحمودة يوم الاثنين تاسع شعبان عند رحيلهم من قيسارية» فذكر الواقعة السابقة وفيها « أنه نفق ألف رأس»، ثم ذكر يوم أرسوف وحسن عاقبته للمؤمنين بعد اليأس، ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرملة ، واجتمعت الاثقال بها في تلك الرحلة، ورحل ليلا واصبح على يبنا وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه تبنى، قال :وزرنا بيبنا قبر أبي هريرة رضوان الله عليه ،وتبادر الناس بالتيمن به إليه.

قلت: اعتمد العماد في هذا على ماشتهر بين العامة من ذلك ،وأما اهل العلم المصنفون في أخبار الصحابة رضي الله عنهم، كابن سعد وغيره، فذكروا أن أبا هريرة توفي بالمدينة، ولم يذكروا غيره على ماذكرناه في ترجمته في التاريخ والله اعلم.

قال العماد: ورحل السلطان ، ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر، وشرع فيما عزم عليه من الأمر، وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء ، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها، للعجز عن حفظها على مابها، ووافقه الجماعة وقالوا: قد ضاق عن صونها الاستطاعة، فإن هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها، وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ، ولاسبيل الى حفظ المدينتين، فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وحكمه، فاقتضت الآراء اقامة العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم.

قال القاضي: أشار عليه بتخريب عسقلان خشية أن يستولى عليها الفرنج، وهي عامرة فيتلقفوا من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا طريق مصر، وخشي السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وماجرى على من كان

مقيما بها، فسار حتى أتى عسقلان ، وقد ضربت خيمته شماليها ، فبات هناك مهموما بسبب خراب عسقلان ومانام تلك الليلة إلّا قليلا ، ولقد دعاني إلى خدمته سحرا وكنت فارقته بعد مضي نصف الليل ، فحضرت وبد أ بالحديث في معنى خرابها، وأحضر ولده الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث ، ولقد قال رحمه الله:والله لأن افقد أولادي بأسرهم أحب الي من أن أهدم منها حجرا واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك ، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا، فكيف أصنع؟ قال : ثم استخار الله تعالى فأوقع في نفسه ان المصلحة في خرابها فاستحضر الوالي، وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب ، وقسم السور على الناس، وجعل لكل أمير طائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوما يخربونه ، ودخل الناس الى البلد ،ووقع فيه الضجيج والبكاء ، وكان بلد نضرا خفيفا على القلب، محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم ، وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعملان الناس في الخراب خشية أن يسمع العدو فيحضر، ولايمكن من خرابها وأباح الناس الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله، وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج ، وامر بحريق البلد ، فأضرمت النار فيه والاخبار تتواتر من جانب العدوبعمارة يافا ،وخرب من سور عسقلان معظمه، وكان عظيم البناء بحيث أنه كان في موضع تسعة أذرع وفي موضع عشرا ، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح،فلم يزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان ، وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم قد تفسحوا ،وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها،فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غرتهم،فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين، ومعهم خيل تحميهم يستقصون في الخراب، ثم رأى ان يتأخر بحيث يحرق

البرج المعروف بـالاسبتار ، وكـان برجـاعظيما مشرفا على البحـر كالقلعـة المنيعة، ولقد دخلته وطفتـه ، فرأيت بناءه أحكم بناء لاتعمـل فيه المعاول وإنما أحرق ليبقى بالحريق قابلا للخـراب، وبقيت النار تشعل فيه يومين بليلتيهما .

قال العماد: ونقـض منها الابـراج التي على سـاحل البحـر ، ودخلتها فرأيتها أحسن مـدينة ، منيعة حصينة ، فطال بكائي على رسـومها، وفض ختومهـا، وقبض ارواحهـا من جسومهـا، وحلول الـدوائر بدورهـا، ونزول السـوء بسـورهـا، فما بـرح السلطـان منهـا حتـى رأينـا طلـولها دوارس، ورسـومها طـوامس، والـرؤوس حياء مـن معـاهدهـا نواكـس، قال: ولـو حفظت لكـان حفظها متعينا وصـونها ممكنا، لكـن وجد كلا لـه متجنبا، متجببا، وقد راعتهـم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين ، وعـادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال مـن تعلل واعتذر عـن دخولها: تدخلهـا أنت أو أحـد أولادك فنـدخلهـا إتبـاعا لمرادك ، فحينئـذ لم يجد بـدا مـن نقـض أسوارهـا، وفض سوارهـا، وسكانها كانوا في رفـاهية ، فانتقلـوا عنها على كـراهية، وبـاعـوا أنفـس الأعلاق بـأبخـس الاثمان ، وفجعـوا بالأوطـار والأوطان.

فصل

فيما جرى بعد خراب عسقلان

قال العماد: فارقها السلطان يوم الثلاثاء ثاني رمضان ، ونزل على يبنا، ونزل بالرملة يوم الاربعاء وأمر بتخريب حصنها، وتخريب كنيسة لدّ، وركب جريدة إلى القدس فأتاه يوم الخميس، وأعاد إليه رسوم التأنيس ، وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان ، وبات في بيت نوبة وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء، ووصل معز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج أرسلان وافدا عليه منتصرا به على أبيه وأخوته ، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده، فأقام في الخدمة السلطانية مدة ،وتزوّج بابنة العادل على صداق مائة ألف دينار ، وسار مستهل ذي القعدة ، وفي ثامن الشهر أيضا خرج الكمين على ملك الانكلتيز وكان خرج في فوارسه مخفراً للحطابة والحشاشه، وكاد يؤخذ الملك ، لكن أحد خواصه فداه بنفسه، بأن أظهر حسن لباسه ، فظن انه الملك فأسر .

وقال ابن شدّاد: حال بينه وبينهم فرنجي فقتل الفرنجي وجرح هو ، وفي ثاني عشره جرت أيضا وقعة كان النصر فيها للمسلمين ، وقتل مقدّم كبير من المشركين ، ومازال يقع بينهم وبين اليزك وقعات ،وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

ومن كتاب الى صاحب سنجار:«قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان ، وما تم عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان، وانه قطع في سبعة عشر يوما مسافة يومين لما لابسه وغامره من الحين ، وماصدّق كيف وصل إلى يافا فأظهر بها الاستيطان، وأقام بها يعمر المكان، وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان ، ومنها الى كل واحدة منهما مسافة نصف نهار، وكلتاهما من العدو على خوف

وحذار ، وكل واحد من الموضعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل، وتعذر الجمع بين حفظ الثغرين ، وتحصين البلدين، وتعينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه، وعصمته من العدّو وتأمينه».

ثم رحل السلطان إلى النطرون، وخيم على تل عال، والنطرون حصن حصين كان للداوية،لكن لما فتح تشعثت أسواره،وانقض جداره، فأمر بهدمه فهدم، ثم بعث ملك الانكلتيز راغبا في المصالحة والمسالمة إلى العادل ، وزعم أن له أختا عزيزة عليه، كبيرة القدر، وأنها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم، وهو صاحب صقلية ، توفي عنها ورغب أن يتزوجها العادل، ويجعل له الحكم على بلاد الساحل ينفذ أمره فيها،وهو يقطع الداوية والاسبتار من البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون اخته مقيمة بالقدس ومعها فيه قسيسون ورهبان، حافظة لها من آفة الزمان، فرأى العادل في ذلك عين الصواب ، وشاور السلطان فوافقه فيما أجاب، فنفذ الرسول إلى الانكلتيز بالاجابة ، فدخل الفرنج على المرأة وخوّفوها، واتهموها في دينها وعنفوها،وقالوا لها مامعناه: هذه فضيحة فظيعة، وسبة شنيعة، وقطع على النصرانية وقطيعة ، وأنت عاصية للمسيح لامطيعة، فرجعت عن ذلك وماأجابت، فاعتذر الانكلتيز بعدم موافقتها إلا ان يدخل العادل في دينها، فعرف أنها خديعة كانت من الانكلتيز .

قال القاضي: ووصل رسول من المركيس يذكر أنه يصالح الاسلام بشرط أن يعطى صيداوبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة ، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم، فأجيب إلى ذلك على أن يطلق من بها وبصور من الاسارى ، ولما سمع الانكلتيز بذلك رجع إلى عكا لفسخ هذه المصالحة، واسترجاع المركيس إليه، وجاء الخبر أن ملك الافرنسيس مات بأنطاكية.

ووصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه أن قزل صاحب ديار العجم ابن ألدكز قتل ، وجرى بسبب قتله في بلاد العجم خطب عظيم.

قال العماد : وكان محتقراً للعظائم ، مقترفا للمآثم واضعا للشرب والقصف والمواسم، وقتل باصفهان عشرة من رؤساء الشافعية المعروفين، وكبرائهم الموصوفين .

ووصل من الديوان كتاب يذكر فيه قصد تقي الدين خلاط ، ويظهر فيه العناية التامة ببكتمر، ويشفع في حسن بن قفجاق ، ويتقدم باطلاقه، وكان قد قبض عليه مظفر الدين بإربل، ويتقدّم بمسير القاضي الفاضل الى الديوان لبت حال، وفصل أمر ، فأجاب السلطان بأنا لم نأمر تقي الدين بشيء من ذلك ، وإنما عبر ليجمع العساكر ، ويعود الى الجهاد، وأما ابن قفجاق فقد تقدم إلى مظفر الدين حتى نحضره إلى الشام، فيقطعه فيه، ويكون ملازما للجهاد ، وأما الفاضل فاعتذر عنه بأنه كثير الامراض، قوته تضعف عن الحركة إلى العراق.

قلت: وبلغني أن الفاضل رحمة الله كتب في الاعتذار بالحضور الى الديوان ، وتمثل في كتابه بهذين البيتين:

ما كنت أوّل سار غره قمر ... ورائد خدعته خضرة الدمن

مثل لنفسك شخصي انني رجل ... مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

قال القاضي: وأرسل الانكلتيز إلى السلطان إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبدنا مانتنزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لامقدار له، وهو عندنا

عظيـم ، فيمن بـه السلطان علينـا ، ونستريـح من هـذا العناء الـدائم، فارسل السلطان في جـوابه: القدس لنا كما هو لكم ، وهـو عندنا أعظم مما هـو عندكم ، فـانه مسرى نبينا ومجتمـع الملائكة، فلا يتصـور أن ننزل عنه ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين،وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل واستيـلاؤكم كان طارئا عليهـا لضعف من كان بها مـن المسلمن في ذلك الـوقت ، وأمـا الصليب فهـلاكه عنـدنا قـربة عظيمـة لايجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها.

وهرب شيركـوه بن بـاخل الكـردي من عكـا ، وكان أسيرا بها ،وكـان ادّخر حبـلا في مخدته فتدلى مـن طاقة في بيـت الطهارة ، واشتد هـربا في قيوده إلى تل العيـاضية ، فكمن في الجبل وقد طلع عليـه النهار، ثم كسر قيوده وسـار إلى المسلمين ، ثم تواتـر الخبر أن الفرنج على عـزم النهوض، فسـار السلطـان من المخيـم بـالنطـرون إلى الـرملـة سابـع شـوّال،وأقـام بهاعشرين يوما، فجرت وقعات ،تمت دفعـات ،منها وقعة في نـاحية يازور، وكـان النصر فيها للمسلمين ، وفقـد مـن المسلمين ثلاثـة ،وذلـك ثامـن شـوّال ، وفي ســادس عشر شـوّال وقعـت وقعــة أخـرى عظيمــة قتـل فيهاجماعـة من الامراء، وأسر فـارسان من الكفرة معـروفان بالبـأس سوى غيرهما، وقتل منهم زهاء ستين نفر.

وفي خـامــس شـوّال وصـل الخبر أن الاسطــول المصري استـولى على مراكـب الفرنـج ، ومنها مركـب يعرف بـاسم المسطح قيـل انه كـان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك ،وانـه قتل منهـم خلق عظيـم واستبقى منهم أربعة نفر مذكورون .

وفي ثـامن عشر شـوّال اجتمـع الملـك العادل والانكلتيـز على طعـام ومحادثة وانفصلا عن توادد ومطايبـة ،وطلب منه الاجتماع بخدمةالسلطان فـامتنع رحمه الله وقـال: الملوك إذا اجتمعـوا يقبـح بينهم المخـاصمة بعـد

ذلك ، وإذا انتظم امر حسن الاجتماع ، ورحل الفرنج ثالث ذي القعدة إلى الرملة، وأظهروا قصد القدس بتلك الرّحلة ، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ، ورحل السلطان إلى القدس بنيةالمقام في الثالث والعشرين من ذي القعدة ،وكان الشتاء قد دخل ، والغيث قد اتصل، فوصل إلى القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء مجاورة كنيسة قمامة، وفي ثالث ذي الحجة وصل عسكر من مصر بأموال ورجال مع أبي الهيجاء السمين ، وتحول الفرنج إلى النطرون فقوى السلطان اليزك فوقعوا على سرية فغنموها ، وسيق منهم الى القدس نيف وخمسون أسير سوى من قتل منهم ، وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيرز يوم عيد الأضحى، فنحر منهم وضحى، واحتوى على عشرة من مقدميهم أسرا وقتلا ، وتسلق باقي الفرنج في الجبال وتركواخيلهم ، فغنمها المسلمون، ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدّة مقامهم بالنطرون وجعل المسلمون يقطعون الطريق على تجارهم حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بمن فيها ولم يقدروا على تخليصها فرحلوا عائدين الى الرّملة في الثاني والعشرين من ذي الحجة ، وفي ذلك اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا برسم قطع الصخور من الخندق ، فان السلطان شرع في تحصين القدس وعمارة أسواره ، وتقبل الامراء فيه العمل، وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ،ومعهم القضاة والعلماء، والولاة .

قلت: في قصد الفرنج للسلطان بالقدس يقول الرشيد بن النابلسي من جملة قصيدة له:

ويح الفرنجة بل ويل أمهم
أوما فيهم لبيب على العلات يعتبر
كم نثرتهم ضربا اذ انتظموا
وكم نظمتهم طعنا اذ انتثروا

- ٨٨٢٦ -

كـم قـد سقيتهـم ذلا فـلا عجـب
أن عـربـدوا سفهـاً فـالقـوم قـد سكـروا
إن يممـوك فـلا بـدع لجهلهـم
تسعـى إلى الاسـد في غـابـاتها الحمـر
زاروا نمـورا ولا تغنـي وقـاحتهـم
إذا أسـودك في أبطـالهم زأروا
فحـام عـن حـوطـة البيـت المقـدس لا
خـوف وحـاشـاك مـن خـوف ولا ضرر
هـو الشريـف وقـد نـاداك معتصما
فما على مجده مـن بعـدهـا حـذر
وسـوف تستغفـر الايـام هفـوتها
وتحصـد الفئـة الاوغـاد مـا بـذروا

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: في ربيع الأول منها تولى القاضي محيي الدين محمد بن الزكي قضاء دمشق،وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاة تقي الدين عمر ابن أخي السلطان وراء الفرات ، وكان قد امتدت عينه الى بلاد غيره، فاستولى على السويدا، وعلى مدينة حاني، وعزم على قصد خلاط وكسر صاحبها سيف الدين بكتمر، وتملك معظم تلك البلاد، ثم اناخ على مناز كرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة ، فأناخت بجسده المنية بسبب مرض اعتراه وزاد إلى أن بلغ منه المراد، وأخفى ولده الملك المنصور وفاته، ورحل عن البلد المحصور وفاته، وعاد به إلى البلاد التي في يده ، وعجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده، وجاءت رسله إلى السلطان تخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البلدان وطلب منه شروطا نسبه بسببها الى العصيان ، وكاد أمره يضطرب، وقلبه يكتئب ، وشأنه ينعكس وينقلب ، حتى احتمى بالملك العادل فنصره وأظهره الى الوجود وأظهره.

وقال القاضي ابن شداد: كانت وفاته في طريق خلاط عائدا إلى ميافارقين، فحمل ميتا حتى وصل به إلى ميارفين، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماه، وحمل إليها فدفن بها.

قال العماد: وفيها توفي ابن اخت السلطان حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين بدمشق، ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان ،ففجع السلطان بابن اخيه وابن اخته في تاريخ واحد،وكانا من أعظم الأعوان على مايكابده من الشدائد..

قلت ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة اليه من بناء والدته ست الشام بنت أيوب، وهي المدرسة الشامية ظاهر دمشق بالعوينة.

قال: وفيها في أواخر ذي الحجة توفي الامير علم الدين سليمان بن جندر من أكابر أمراء حلب ، وكان في خدمة السلطان بالقدس وهو شيخ الدولة وكبيرها وظهيرها ومشيرها، وهو الذي أشار بتخريب عسقلان لتتوفر الحناية والاهتمام بالقدس، ثم مرض بالقدس و طلب المسير الى الوطن فأدركته المنية بقرية غباغب على مرحلة دمشق ، وفيها في الثالث من رجب كانت وفاة الصفي بن القابض نائب السلطان بدمشق ، وكان قد خدم السلطان أيام عدمه، وهو في كفالة أبيه وعمه، فلما ملك مصر أمرحه في أموالها، وحكمه في أعمالها، حتى نال المنى، ووجه ونجح وحصل على الغنى وكتب لمماليكه دوره وأملاكه وجميع أمواله، وفيها توفي نسيب العماد وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبيد بن كوبه سابع عشر ذي الحجة بدمشق.

قال العماد: وكنت استنبته في كتابة الإنشاء وخرّجته ، وقلبته في مراتب المعالي ودرّجته، واعتمد السلطان عليه في الترسل الى السلاطين العجم،وخواص الأمراء منهم والخدم ،وكان نبيلا نبيها كريما وجيها. وفيها توفي الحكيم الموفق اسعد بن المطران في شهر ربيع الاول، وكان من أهل النظافة والظرافة، ومن ذوي الفصاحة والحصافة ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال أسباب الاحترام، وتقدم عند السلطان ، وما شانه كبر وهو كبير الشان، وفي أواخر هذه السنةتوفي الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشاني بمصر، وهو الذي عمر تربة الامام الشافعي رضوان الله عليه، وبنى المدرسة في جوارها ،واحيا شعار التوحيد، وبنى أمره على التسديد والتشديد، وحفظ شمل الشافعية من التبديد، وكان السلطان مجيبا له الى كل مايستدعيه، ويقضي له من الحوائج مايقتضيه، ووقف على المدرسة التي بناها وقوفا، وأعطاه في بنائها ألوفا، فلما توفي

الخبوشاني طلب المدرسة جماعة مـن العلماءفردوا ، وشفع العادل في صدر الديـن أبي الحسن محمد بـن حمويه شيـخ الشيوخ، فكتب بها لـه، ورتب بوقفهـا وتدريسها استقلالـه، وذلك في أواخر سنـة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة، وتبدّلت بالوحشة الأنسه.

قلت :ثم استقرت عليها يد أولاده واحداً بعد واحد إلى الآن.

قال :وفيهـا توفي الوجيـه بن النفيـس مستوفي ديوان دمشـق بها، وكان نبيها مهيبا نزهـا عارفا مصيبا ، وفيها توفي القاضي أمين الديـن أبوالقاسم بحماه في حادي عشر رمضان، وكان كريما سخيا نابها سريا.

وفيها: نقلـت تربة القاضي محيـي الدين أبي حـامد محمد بن محمـد بن عبد الله بـن القاسم الشهـرزوري إلى المدينة النبـوية على ساكنهـا أفضل الصلاة والسـلام،وكان قاضي الموصـل ، وقد بنى ربـاطا هناك ، وكـانت وفاته بـالموصل في الثامن والعشرين مـن جمادى الاولى سنةست وثمانين ، وقد تقدم ذلك وسأل ابن اخيه القـاضي بعده كتابا إلى أمير المدينة فكتب له كتاب منه:«سبب اصدارهـا الى الامير مسير نائب القاضي كمال الدين بصريـح اذن عمه محيـي الـدين مـن الموصـل الى المدينـة المقدّسـة ، على ساكنهـا أفضل السـلام ليدفـن في الربـاط الذي أنشـأه حيث يبعـث مع شفيع الامة يـوم البعث والنشور، ويأمن ظلام اللحـد المحفور ، في جوار الضياء والنـور ،ويحشر بما يناله مـن البركة والحبـور ، منشرح الصدر(اذا بعثر مـافي القبور * وحصل مـافي الصدور)[١٢٨] ، ولقد وفـق في اختياره ايام حياته نقله إلى ذلك البيت المعمور ، فليعن الأمير على هذه المكرمة ، وليعتز بمواراته في التربة المجاورة للبقعـة المعظمة ». قا ل: وكان القاضي حزقا جواداً لبذل اللهى معتـادا ، واسع المروة جامع اسباب الفتوة ، يحب معالي الامور، فضائله متجاوزة حدّ الوفور.

قال ابـن القادسي: ووصل الحاج في صفـر بعدمـا اعتاقت اخبـارهم ، وأخبروا أن داود أمير مكة أخذ مـا في الكعبة من أموال، وأخذ طـوقا كان يلزم الحجر الاسود فـأوجب ذلك لشعثه ، وكان قد دخـل بعض الباطنية بعد سنـة أربعمائة فضربه بـدبوس ، وقـال: إلى كم حجـر، وفي يد ذلـك الرجل سيف، فما تجاسر أحد يقرب منه، فتطوّع رجل وبذل نفسه للقتل ، وتقدم اليه فقتله، فـأخذ الحجر وجمعت شظاياه، وألفـت وجعل له طوق، فأخـذ أمير مكةذلك الطـوق، فلما وصل أمير الحاج عـزل داود وولى أخاه مكثرا، ونقض قلعة كان بناهـا على جبل أبي قبيس ، وهو داود بن عيسى ابن فليته بن قـاسم بن محمد بن أبي هاشـم الحسني، ولما صرف عن مكة أقام بنخلة وتـوفي بها في رجب سنة تسع وثمانين ، وهـو أمير بن أمير إلى آخر من ذكرنا من آبائه وهم به ستة نفر.

قـال ابـن الاثير: وفي ربيع الأوّل سنـةسبـع وثمانين سـار عز الـديـن —يعنى صاحـب الموصل— إلى جزيرة ابن عمر فحصرهـا وبها ابن اخيه معز الـدين سنجـر شاه، لأنه كـان سيء السيرة معه خارجـا عن طـاعته مسـاعدا لـلأعـداء عليه، فعـزم على أخـذها منـه فخضـع وطلب العفـو والصفح ، فأجابه وصالحة على قـاعدة استقرت بينهما ، وعاد إلى الموصل، فعاد سنجر شاه إلى حالته الأولى ،فتجاوز عنه واطرحه.

- ٥٨٣١ -

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقدس ، وقسم سور البلد على أولاده وأخيه و أجناده ، فشرعوا في إنشاء سور جديد محدق مديد، وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه، فيستن الأكابر والأمراء في نقل الحجارة بنهجه ،ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره ،لعلمت أن له قلبا قد حمل جبلا في فكره، ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره حتى باشر صدور مماليكه بها الصدور، وماتغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها، ليكون ملكا في دارها وقمرا في دارتها ، وداوم البكور في الركوب ، وعرض وجهه الكريم للشحوب.

قال :وفي ثالث محرم رحل الفرنج على سمت عسقلان ، وأشاعوا أنهم يعيدون بها العمران، وهم نازلون بظاهرها ،جائلون في مواردها ومصادرها، فرأى الانكلتيز دخاناعلى بعد فقصد ه ، وكان ثم جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر ، وهم غارون عما دهمهم،فوصل اللعين إليهم وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الثاني ودافعه حتى ركب الفريق الآخر فدافعوهم وواقعوهم ، وساقوا قدامهم أثقالهم وخلصوا ناجين ، وسلم الله أنفسهم من أيدي الملاعين، ولم يفقد المسلمين إلا أربعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ،وهون ضررها.

وفي حادي عشر المحرّم كبس عز الدين جرديك يبنا إلى أن عبرت قوافل الفرنج ، فساقها بأحمالها وأثقالها ونسائها ورجالها.

وفي مستهل ربيع الاخر ، وصل سيف الدين المشطوب ، وقد خلص من الأسر ، وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار، عجل منها عشرين ألفا، وأعطاهم بالباقي رهائن ،فأحسن السلطان لقاءه وأقطعه نابلس بأعمالها ، فتوفي بها في آخر شوال .

وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس لعنه الله بصور، وذلك أن رجلين دخلا صور وتنصرا ، وأظهرا الترهب والتعبد، ولزما الكنيسة وشكرهما الاقساء والرهبان ، واحبهما المركيس ،ولم يكن يصبر عنهما، ففي بعض الايام وثبا عليه وقتلاه، فأخذا وقتلا وعرف انهما كانا من الحشيشية، فجلس مكانه الكندهري بأمر الانكلتيز وسر الانكلتيز بمصاب المركيس، فإنه كان يضاده ويراسل السلطان في الاعانة عليه، فلما قتل سكن روعه وذهب عنه ضره، وتزوّج الكندهري بالملكة زوجة المركيس في ليلته، ودخل بها وهي حامل ، وما الحمل في ملة الفرنج عن النكاح حائل، ويكون الولد منسوبا الى الملكة ، هذه قاعدة الطائفة المشركة، وهذا الكندهري ابن اخت ملك افرنسيس من أبيه، وملك الانكلتيز من أمه، ودخل الفرنج في حكمه وعاش إلى آخر سنة أربع وتسعين ،وتولاهم دون سبع سنين .

وقال العماد في الفتح :أضافه الأسقف بصور فاستوفى رزقه، وتعدّى ومادرى أنه يتردّى ،وأكل وشرب وشبع وطرب، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان وسكنا حركته، بالسكاكين،ودكاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، وقد أخرج تلك النفس الخسيسة، فقال المركيس وهو مجروح ،وفيه روح : احملوني الى الكنيسة فحملوه ، فلما أبصره أحد الجارحين وثب إليه وزاده جرحا على جرح، وقرحا على قرح، فأخذ الفرنج الرفيقين فألفوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا التدمير ، فقالا: ملك الانكلتيز فقتلا شر قتلة فيا لله من كافرين سفكا دم كافر، وفاجرين فتكا بفاجر، قال: ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة وان كان من طواغيت الضلالة،لانه كان عدو ملك الانكلتيز ومنازعه على الملك والسرير ومنافسه على القليل والكثير.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم، ثم خربوها،ورحلوا عنها واسروا من فيها،وكان الانكلتيز الملعون قد استفسد من نوبة عكا نقابين حلبيين ، فتمكنوا من نقب المتّان وأحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة يشاورون فيها السلطان فلم يمهلهم ، وفي رابع عشرة خرجت اليزكية على الفرنج على قلعة تعرف بمجدل جناب —كذا قال في الفتح . وقال في البرق: بمجدل يابا وكذا قال ابن شدّاد — وقتل كند كبير ، ثم نزلوا تل الصافية ، ثم الى النطرون ، ثم الى بيت نوبة وهي وطأة بين جبال بينها وبين القدس مرحلة، وقد ألهبهم المسلمون بنهبهم وأضعفوهم بسلبهم ، يتسلطون عليهم من كل ناحية ، ويكمنون لهم تحت كل رابية ، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس ، وفي انسلاخ الشهر التقى الجمعان وقد وصل العدو الى قلونية، وهي من القدس على فرسخين ، فلما رأى العدو مالا يدان له به رجع ناكصا على عقبيه، والمسلمون في اثرهم يكمنون لهم وينالون منهم، وكان بدر الدين دلدرم في اليزك ، فبعث من كمن لهم عند طريق يافا، فمرّت بهم فوارس ، فاستولى عليهم الكمين وماسلم منهم أحد.

وفي ثالث جمادى الآخرة كبست الكمناء قافلة ، فكسبت وسلبت واسرت.

وفي تاسعه وصل الخبر بأن الفرنج رحلوا بأسرهم ليلا وادلجوا ، ولم نعلم قصدهم ، فعرف السلطان أنه إلى طريق العسكر المصري ، فندب الامير فخر الدين الطنبا العادلي وشمس الدين أسلم الناصري ، حتى يعلما العسكر فالتقيا بهم بالحسي واخبراهم الخبر فنزلوا وعرّسوا وهم يظنون أن لاحس للعدو بأرض الحسي ، فجاءهم وفجأهم فاستولى على بعض الأموال وخلص أكثرها مع الرجال، ومن جملة من كان في العسكر فلك الدين أخو العادل لأمه، فنجا بما قدر عليه من القوافل.

قال العماد :وجرى هذاكله والملكان العـادل والافضل غائبان وعساكر الموصل وسنجـار وديار بكـر متباطئة في الاتيـان، وسببه مـاكان مـن تقي الـدين ومـوته، وتشرط ولـده في بقاء بـلاد أبيه عليـه، وان الافضل كـان طلب من والده البـلاد قاطع الفرات، ونزل عن جميع مالـه من الولايات، وأنه إذا عبر إلى الرها وحران ، ملك تلـك البلدان ،ورحل من القدس في ثالـث صفر، وأطلـق له السلطـان عشرين ألـف دينار سـوى ماصحبـه بـرسـم الخلع والتشريفـات، ووصـل الى حلـب فـاحتفـل اخوه الظـاهـر لقدومه، وأقام له بسنن المكارم ورسومه، ووقف بخدمته ماثلا ، وبعطف الابتهاج اليـه مائلا، وأحضر له مفـاتيح بلده، وقـدّم له كل مـافي يده ، وسمـع ناصر الـدين بـن تقي الـدين بها اقلقـه، ودفع منـه الى ماازهجـه وأزهقه، ووصـل رسولـه الى العادل وهـو بالقـدس لاجئا إلى ظلـه، راجياً لفضله ، لائذا بجنابه، عائذا ببابه، فـاحتمى له واحتمله،وقوّى في تقويته أملـه، وخـاطـب السلطـان في حقه واستعطفـه، وقـال: أنـا امضي إليـه وأحضره، وأومنه مما يحذره، وتبقى هذه السنة عليـه حران والرها ونعطيه في السنة الاخـرى حماه والمعره، ثم قـرر السلطان مـع أخيه العادل أن يـأخذ هـو تلك البـلاد وينـزل عن اقطـاعـاته بمصر، ونصـف خـاصه ،ففعـل واستزاد قلعـة جعبر، فامتنع الملـك الظاهـر من تسليمها حتـى استظهر ، فسـار العــادل في العشر الأول مـن جمادى الأولى وكتـب السلطـان إلى الأفضل بـالعود، فجـاء هذا راجعـا، وذهب ذلـك مسارعـا ، ووصل إلى حران والرها وعاد في آخر جمادى الآخرة ومعه ابن تقي الدين.

قال القـاضي ابن شدّاد :عاد الأفضـل منكسرا متعتبا ، فوصـل دمشق ولم يحضر إلى خدمة السلطـان، فلما اشتد خبر الفرنج سير إليـه وطلبه فما وسعه التـأخر ، فسـار إليه مـع العساكـر الواصلـة اليه مـن الشرق فلقيه السلطان وترجل له جبرا لقلبه، وتعظيما لأمره.

قـال ولما بلغ ابـن تقـي الـدين مـوجـدة السلطـان ، أنفذ إلى العـادل

يستشفع به ليطيب قلب السلطان عليه، ويقترح احد قسمين : إما حران والرها وسميساط ، وإما حماه ومنبج وسلميه والمعرة مع كفالة أخوته، فراجع العادل السلطان مرارا فلم يفعل ذلك ولم يجب الى شيء منه، فكثرت الشفاعة اليه، فحلف له على حران والرها وسميساط على أنه إذا عبر الفرات أعطي المواضع التي اقترحها، ويكفل اخوته، وتخلى عن تلك المواضع التي في يده، ثم التمس العادل خط السلطان فأبى وألح عليه فخرّق نسخة اليمين ، وانقطع الحديث ، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من بعض أولاد اولاد أخيه، ثم أعطاه خطه بما استقر من القاعده، ثم إن العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد انتقاله ،وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها، فكان آخر ما استقر أنه ينزل عن كل ماهو شامي الفرات ماخلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وخاصه بمصر بعد النزول عن خبزه ،وعليه في كل سنة ستة الاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس.

فصل

في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه

قال القاضي ابن شدّاد :وكان تقدّم الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز عند مقاربة العدو ، فأقاموا ببلبيس أياما حتى اجتمعت القوافل إليهم، واتصل خبرهم بالعدو ، ثم ساروا طالبي البلاد ، والعدو يترقب اخبارهم ويتوصل إليهم بالعرب المفسدين ، ولماتحقق العدو أمر القفل، أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل وركب في ألف راكب مردفين ألف راجل، فأتى تل الصافية فبات ،ثم سار حتى اتى ماء يقال له الحسي، فأنفذ السلطان الى القافلة ينذرهم بنهوض العدو ويأمرهم ان يبعدوا في البرية، وركب الانكلتيز الملعون مع العرب بجمع يسير ،وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره، وكانت الكبسة قريبة الصباح ، فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله ،فكان الشجاع الايد القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه، وانقسم القفل ثلاثة أقسام :قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب،وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب، وقسم استولى العدو عليهم فساقهم بجمالهم وأحمالها وجميع مامعهم ، وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة ، وتبدّد الناس في البرية ورموا أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه، وجمع العدو ماأمكنه جمعه من الخيل والبغال والاقمشة وسائر أنواع الأموال،وكلف الجمالين خدمة الجمال، والخربندية خدمة البغال، والساسة خدمة الخيل، وسار في جحفل من غنيمة يطلب عسكره ، ولقد حكى من كان أسيراً معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن العسكر السلطاني قد لحقهم فتركوا الغنيمة وانهزموا ،وبعدوا عنها زمانا، ثم انكشف الأمر فعادوا ، وقد هرب جمع من الاسرى ، وكان الحاكي منهم، وأخبر أن الاسارى خمسمائة، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل،

ووصل العدو إلى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوما عظيما عندهم.

وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تنقل الميرة والازواد، ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس، وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس حرسه الله تعالى.

ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد إلى الأسوار فقسمها على الأمراءوتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس، فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا، وأرض القدس لايطمع في حفر بئر فيها ماء معين في جميعها لأنها جبل عظيم ، وحجر صلب، وسير إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد.

قال: ولما كان ليلة الخميس تاسع عشرجمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبوالهيجاء السمين بمشقة عظيمة، وجلس على كرسي في خدمة السلطان ، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء ، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد، فذكرت مايسر الله من ذلك ، وكان مما قلته أن النبي ﷺ لما اشتدّ به الأمر بايعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدّو، ونحن أولى من تأسى به ﷺ والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذاالعدو، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه، ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا في صورة فكر، والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، ثم شرع وقال: الحمد لله والصلاة على رسول الله ، إعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن

دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم ،وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لويتم أعنتكم ، والعياذ بالله طوى البلاد (كطي السجل للكتاب)(١٢٩) وكان ذلك في ذمتكم فإنكم انتم الذين تصدّيتم لهذا كله، وأكلتم مال بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يامولانا نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك ، والله مايرجع احد منا عن نصرتك الى ان يموت ، فقال الجماعة مثل ماقال، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطاب قلبه واطعمهم ،ثم انصرفوا ، ثم انقضى يوم الخميس على اشدّحال في التأهب والاهتمام حتى اذا كان العشاء الآخرة اجتمعنا في خدمته على العادة وسمرنا حتى مضى هزيع من الليل وهو غير منبسط على عادته، ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلاة هي الدستور العام فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فدعاني رحمه الله وقال: أعلمت ما الذي تجدد ؟قلت:لا، قال : إن أبا الهيجاء السمين أنفذ إليّ اليوم وقال إنه اجتمع عندي جماعة المماليك الأمراء وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له، وقالوا: لا مصلحة في ذلك فإنا نخاف ان نحصر، ويجري علينا مثل ماجرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام جمعا، والرأي أن نلقى مصاف فإن قدّر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدّة بغير القدس ،وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال ،فشق عليه هذه الرسالة ،وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح وهي من الليالي التي أحياها في سبيل الله رحمه الله، وكان مما قالوا في الرسالة: إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكراد لايدينون للأتراك، والأتراك لايدينون للأكراد ، وانفصل الحال على ان يقيم من أهله مجد

الـديـن بن فـرخشـاه صـاحـب بعلبك ، وكـان رحمه الله : يحدّث نفسـه بـالمقام، ثـم منعـه رأيـه عنه لما فيـه مـن خطـر على الإسلام، فلما قـارب الصبح أشفقـت عليه وخاطبتـه في أن يستريح سـاعة لعل العين تـأخذ حظهـا من النـوم ، وانصرفـت عنـه إلى داري ، فماوصلت إلا والمؤذن قـد أذن ، فأخـذت في أسباب الـوضوء ، فما فـرغت إلا والصبـح قد طلـع ، وكنت أصلي الصبـح معه في غالب الأحـوال ، فعدت إلى خدمتـه ، وهو يجدد الوضـوء فصلينا ، ثـم قلت له: قـد وقع لي واقـع أعرضـه، فأذن لي فيه، فقلـت: المولى في اهتمامه وماقد حمل نفسـه من هذا الأمـر مجتهد فيما هو فيه، وقد عجـزت أسبابه الأرضية فينبغي أن يرجـع إلى الله تعالى، وهذا يـوم الجمعة وهـو أبرك أيـام الاسبوع، وفيـه دعوة مستجـابة في صحيـح الاحاديـث، ونحن في أبـرك موضـع يقدر أن يكـون فيه في يـومنا هـذا ، فـالسلطان يغتسـل للجمعـة ويتصدق بشيء خفيـة بحيـث لايشعر أنـه منـك، وتصلي بين الأذان والإقامـة ركعتين تنـاجـي فيهما ربك ،وتفـوض مقاليـد أمورك إليـه وتعترف بعجزك عما تصديـت له ، فلعـل الله يرحمك ويستجيب دعاءك .

قال :وكان رحمه الله حسـن العقيدة تام الإيمان، يتلقى الأمـور الشرعية بأكمـل انقياد وقبـول ، ثم انفصلنـا ، فلما كان وقـت الجمعة صليـت إلى جـانبـه في الأقصى وصلى ركعتين ورأيتـه سـاجـدا، وهو يـذكـر كلمات ودموعـه تتقاطر على مصـلاه رحمه الله، ثم انقضت الجمعـةبخير، فلما كان عشيتهـا ونحن في خـدمته على العـادة وصلـت رقعة جـرديك ،وكـان في اليزك يقـول فيها إ ن القـوم ركبوا بـأسرهـم ووقفـوا في البر على ظهر، ثـم عـادوا إلى خيامهـم، وقـد سيرنا جـواسيس تكشـف أخبـارهم ،ولما كـان صبيحـة السبـت وصلـت رقعة أخـرى يخبر فيهـا أن الجواسيـس رجعـوا وأخبروا أن القوم اختلفـوا في الصعود إلى القـدس والرحيـل إلى بلادهـم، فذهـب الفرنسيسية إلى الصعود إلى القـدس، وقالوا: نحن إنما جئنـا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونـه ،وقال الانكلتيز إن هذا الموضع قد

أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب؟ قالوا: نشرب من نهر نقوع وبينه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال: كيف نذهب إلى السقي ، فقالوا: ننقسم قسمين قسم يذهب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في اليزك ويكون الشرب في اليوم الواحد مرة، فقال الانكلتيز :إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ، ويخرج عسكر البلد على الباقين ، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكم الثلاثمائة اثني عشر من أعيانهم، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فما يأمرونهم به يفعل، فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل فلم تمكن المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة ناكصين على أعقابهم والحمدلله ، ووقف عسكرهم إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك، فركب السلطان قدس الله روحه ، وركب الناس ،وكان سرور وفرح ، ولكن السلطان خاف على مصر لما حصلوا عليه من الجمال والظهر، وكان قد ذكر الانكلتيز مثل هذا مرارا.

فصل

في تردد الانكلتيز في معنى الصلح وماجرى اثناء ذلك الى ان تم ذلك ولله الحمد

وقد ساق ذلك القاضي ابن شداد أحسن سياق، واستقصى الأمر فيه بخلاف العماد فقال: إن الانكلتيز جاء منه رسول يقول قد هلكنا نحن وأنتم والأصلح حقن الدماء، ولاينبغي أن يعتقد أن ذلك عن ضعف مني بل للمصلحة ، ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح، ثم جاء رسوله يقول لايجوز لك ان تهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن اختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا واطاعوا، وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا اطلب منك كنيسة وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قبلت بتركها وأعرضت عنها ،ولو أعطيتني مقرعة أو قرية قبلتها وقبلتها ، فاستشار السلطان الامراء في جوابه فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح ، لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب، وعلاهم من الديون، واستقر الحال على هذا الجواب: إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما (جزاء الاحسان إلا الاحسان)(١٣٠) ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة وبقية البلاد نقسمها ،والساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا وما بين العملين يكون مناصفة ، وعسقلان وما وراء ها تكون خرابا لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان ، فانفصل الرسول طيب القلب ، واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرسول إليهم راحلون إلى جهة عسقلان طالبون جهة مصر .

ووصل الرسول من جانب قطب الدين بن قليج أرسلان يقول ان البابا قدوصل الى قسطنطينية في خلق لايعلم عددهم الا الله تعالى، وقال الرسول : إني قتلت في الطريق اثني عشر فارساً، ويقول تقدم إلى من يتسلم بلادي مني فإني عجزت عن حفظها ،فلم يصدّق السلطان هذا الخبر ولا أكترث به.

ثم جاء رسول الانكلتيز يطلب أن يكون في قلعة القدس عشرون نفراً وان من سكن من النصارى والفرنج في البلد لايتعرض لهم ، وأما بقية البلاد .فلنا منها الساحليات والوطأة ، والبلاد الجبلية لكم ،وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحة أنهم قد نزلوا عن حديث القدس ماعدا الزيارة وإنما يقولون هذا تصنعا وأنهم راغبون في الصلح ، وأن الانكلتيز لابد له من الرواح إلى بلده.فأجيب بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة، فقال الرسول وليس على الزوّار شيء يؤخذ منهم ، فعلم من هذا القول الموافقة ، وأما البلاد فعسقلان وماوراءها وقراها لابّد من خرابه، فقال الرسول : قدخسر الملك على سورها مالا جزيلا ، فسأل المشطوب أن يجعل مزارعها وقراها له في مقابلة خسارته ، فأجاب السلطان : وإن الداروم وغيره يخرب ويكون بلدها مناصفة ، وأما باقي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة ، ثم جاء الرسول يقول: الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها عند ملكك و عظمتك ، وماسبب اصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها ، وهو قد ترك القدس بالكلية لايطلب أن يكون فيه لارهبان ولاقسوس إلا في القمامة وحدها، فتترك له انت هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل مافي أيديهم من الداروم إلى أنطاكية، ولكم مافي أيديكم ، وينتظم الحال ويروح، وإن لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الرواح ولايمكنه مخالفتهم.

قال القاضي: فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين

تارة، وبـالخشونة أخـرى، وكان لعنـه الله مضطراً إلى الرواح ، وهـذا عمله مع اضطـزاره والله المسؤول في أن يكفـي المسلمين مكره، فما بلـوا بأعظـم حيلة ولا أشد اقداماً منه، فأجابه السلطـان بأن أنطاكية لنا معهم حديث فيها ورسلنا عندهم فإن عادوا بها نـريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا ، وأما التـي سألها فلا يـوافق المسلمـون على دفعها إليه، وإلا فـلا قدر لها، وأما سور عسقلان فيـأخذ في مقابله ماخسر عليه لد في الـوطأة ، ثم عاد الرسـول وقال: إن الملـك قال: لايمكننـا أن نخرب مـن عسقلان حجـرًا واحـداً ولايسمع عنـا في البلاد مثـل ذلك، أمـا البـلاد فخذوهـا معروفـة لامنـاكرة فيهـا ،وعند ذلـك تأهـب السلطان للخـروج إلى جهة العـدو ، وإظهار القـوة وشدة العزم على اللقـاء ، وبلغه في العاشر مـن رجب أن الفـرنج خـذلهم الله قد رحلـوا طالبين نحـو بيروت،فبرز من القـدس الى منـزلة يقـال لها الجيـب ، وجاء العـادل من الشرق والظـاهـر من حلـب ورحل من الجيب الى بيت نـوبة،ثم رحـل إلى الرملة فنـزل بها على تلال بين الرملـة ولدّ وركـب جريـدة حتى أتـى يازور وبيـت جن وأشرف على يافا ، ثم نـزل عليها من الغد ورتب عسكره في الميمنـة ولده الظاهر، وفي الميسرة أخوه العـادل ،وركب المنجنيقات،وزحـف عليها، فأرسـل العدو رسولين نصرانيـا وفرنجيـا يطلبان الصلـح، فطلب منهـم قاعـدة القدس وقطيعته، فـأجابـوا إلى ذلك ، واشترطـوا أن ينظروا إلى يـوم السبت تـاسع عشر رجب، فإن جـاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقـر، فأبى السلطان الإنظار، وأمربـالنقب فحشي وأحرق ،فوقع بعض البـدنة فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف النقب فالتهب فمنع من الدخول في الثلمة، وقاتلت خـارج الأبواب إلى الليل ، فلما أصبحوا وقعت البدنـة فعلا غبار مع الدخان، فـأظلم الأفق ،وما تجاسر أحد على الولوج خـوفا من اقتحام النار، فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نـابت مناب الأسوار،ورماح قد سدت الثلمة حتى عن نفـوذ الأبصار، ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم ، ولقـد رأيت رجلين على ممشى السور، يمنعـان المتسلق فيه

من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل فقام رفيقه متصديا لمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر، بحيث لم يفرق بينهما إلا نافذ بصير، ولما رأى العدو ما قد آل الامر إليه سيروا يطلبون الأمان ، فقال رحمه الله : الفارس بفارس، والتركبلي بمثله، والراجل بالراجل، والعاجز فعلى قطيعة القدس، فنظر الرسول ورأى القتال على الثلمة اشدّ من اضرام النار، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود فقال ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ولكن ادخل إلى أصحابك فقل لهم ينحازون إلى القلعة، ويتركون الناس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه مانع، ففعلوا وانحازوا إلى قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة،ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة وأثاثاً، وبقايا قماش مانهب من القافلة المصرية ، واستقرّت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان ، وكان قايماز النجمي في طرف الغور لحمايته من عسكر العدو الذي بعكا فوصل منه كتاب يخبر فيه أن الانكلتيز الملعون لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت، وعاد على قصد يافا ، فاشتدّ عزم السلطان على تتمة الأمر وتسلم القلعة ،وكنت ممن لم ير الأمان لأنه قد لاح اخذهم ، وكان الناس لهم مدّة لم يظفروا من العدو بمغنم يوثبهم عليه، فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر، غير أن الأمان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدّو من القلعة وتسلمها خوفاً من لحوق النجدة، وكان السلطان يشتد حرصه على ذلك، غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن امتثال الأمر وأخذ منهم الحديد، وشدّة الحر ودخان النار بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة، وسمعنا بوق الفرنج في السحر ، فعلمنا بوصول النجدة فسيّر السلطان معي عز الدين بن جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني وعدل الخزانةشمس الدين وقال: امض إلى الملك الظاهر وقل له يقف ظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجون القوم وتستولي على ما فيها من الأموال والأسلحة وتكتبها بخطك إلى الظاهر،

وهو ظاهر البلد وهويسيرها إلينا ففعلنا ،ودخلنا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج فأجابوا وتهيئوا ، فقال جرديك : لاينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفوهم ،وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد وأخذ يشتد في ضرب الناس وإخراجهم وهم غير مضبوطين بعدّة ولامحصورين في مكان فكيف يمكن إخراجهم ، وطال الأمر إلى أن علا النهار، وأنا ألومه وهو لايرجع عن ذلك ، والزمان يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت قلت له: إن النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في إخراجهم فأجاب وأخرجنا خمسة وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم، وسيرناهم ، ثم اشتدّت أنفس الباقين وحدثتهم نفوسهم بالعصيان،وكانوا استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لانجدة لهم فيها، ولم يعلموا أن الانكلتيز مع القوم وراءهم قد تأخروا عن النزول إلى علو النهار، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذاك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركباً فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله فقلت لاصحابنا :خذوا حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم فما كان إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد، وقد حمل القوم من القلعةوأخرجوا من كان في البلد من الأجناد، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة ، وبقي في بعض الكنائس جماعة من رعاع العسكر مشتغلين بما لايجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا،ولما عرف السلطان أمر الناس زحف، وعاد للحصار كما كان وحشروا العدو في القلعة ، واستبطئوا نزول النجدة إليهم وخافوا خوفاً عظيماً ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان إلى السلطان يعتذران مما جرى ويسألانه القاعدة الأولى ، وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير، فلما رأى من في القلعة شدّة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها

بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر من الشواني ، علموا أن النجدة قد ظنوا أن البلد أخذ، فوهب رجل منهم نفسه للمسيح ، وقفز من القلعة إلى المينا ، وكان رملاً فلم يصبه شيء وعدا إلى البحر فحدث الانكلتيز بالحديث فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى المينا، هذا كله وأنا أشاهد ذلك فخملوا على المسلمين وأخرجوهم من المينا فقبض السلطان على الرسل وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور، فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوا من يافا، وخرج الانكلتيز إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه لتعظيم سواده، ثم اجتمع به جماعة من المماليك طلبهم وحضر الحاجب أبو بكر العادلي، وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ، ودخل معهم دخولا عظيماً بحيث كانوايجتمعون به في أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء جماعة كبدر الدين دلد رم وغيره، فلما حضروا عنده جدّ وهزل ومن جملة ماقال :هذا السلطان عظيم، وما في الارض للاسلام ملك أكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي، ووالله مالبست لأمة حربي ولا تأهبت لأمر وليس في رجلي إلا زربول البحر، فكيف تأخرتم، ثم قال: والله انه لعظيم، والله ماظننت أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين، ثم قال لأبي بكر الحاجب: تسلم على السلطان وتقول له:بالله عليك أجب سؤالي في الصلح فهذا أمر لابد له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ، فأرسل السلطان إليه في الجواب: إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت هذه يافا فيكون من قيسارية إلى صور، فأرسل الانكلتيز يقول إن قاعدة الافرنج إنه إذا أعطى واحد الواحد بلداً صار تبعه وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي، فقال السلطان: حيث دخلت هذا

المدخل فأنا أجيبك على أن تجعل البلدين قسمين: أحدهمالك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها، ثم رتب السلطان اليزك بيازور، وأمر بخرابها وخراب بيت جن ورتب النقابين لذلك ، وسار إلى الرملة ، فغادر رسول الانكلتيز يشكر على إعطائه يافا، ويجدد السؤال في عسقلان ، ويقول له إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي ههنا، فأجابه السلطان في الحال وقال: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأماتشتيته ههنا فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة، وإذاأقام أيضا إن شاء الله تعالى، وإذا سهل عليه ان يشتي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، مايسهل عليّ أن أشتي وأصيف في وسط بلادي وعندي أهلي وأولادي، ويأتي إليّ ما أريده وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا، وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير الذي يكون في الصيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء،ثم جاء رسول يقول:كم أطرح نفسي على السلطان وهو لايقبلني، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادي والآن فقد هجم الشتاء، وتغيرت الأنواء، وعزمت على الاقامة وما بقي بيننا حديث، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدّو قد رحل من عكا قاصدا يافا، فسار رحمه الله فنزل على العوجا،ووصل من أخبره أن العدو دخل قيسارية ولم يبق فيه طمع، وبلغه أن ملك الانكلتيز نازل خارج يافا في نفر يسير، فوقع له أن يكبسه فأتاه فوجد خيمه نحو عشر خيم، فحملوا عليهم فثبتوا ولم يتحركوامن أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب، وكانوا على ا لموت أصبر، فارتاع المسلمون منهم ووجموا من ثباتهم، وداروا حولهم حلقة،وكانت عدة الخيل سبعة عشر، وقيل تسعة والرجالة ثلاثمائة أو أكثر ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة، ودار على الأطلاب بنفسه يحثهم على الحملة، ويعدهم بالحسنى على ذلك، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الظاهر.

قال : وبلغني أنه قال له الجناح أخو المشطوب: قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون ، وكان في قلوب العسكر من صلح السلطان على يافا شيء حيث فوتهم الغنيمة،فلما رأى السلطان ذلك أعرض عن القتال وغضب وسار إلى طرف يازور .

قال: ولقد بلغني أن الانكلتيز أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يتعرض له احد.

قلت: ووصل من الفاضل كتاب من دمشق يقول فيه:«الا تنصروه فقد نصره الله» (١٣١) وجواب السلطان لهم عن ملك الانكلتيز الا تقتلوه فقد قتله الله،ولم يزل لطيفا، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلاً وخفيفاً ، ومن كان الله عليه لم يكن قوياً، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً.»

قال القاضي: ثم سار السلطان الى النطرون، ثم إلى القدس فنظر إلى العمائر ورتبها ، ثم عاد إلى النطرون وتوافت إليه فيه العساكر، ووصل علاء الدين ابن صاحب الموصل، ثم قدم عسكر مصر وفيهم سيف الدين يازكوج وجماعة الأسدية في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين فلقيه الظاهر إلى بيت نوبة، ودخل به على السلطان، فنهض واعتنقه وضمه إلى صدره وغشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الأمر فبكى الناس لبكائه ساعة،ثم باسطه وسأله عن الطريق، وكان معه عسكر جميل فقرّت عين السلطان به ، ثم سار ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة،ولما رأى السلطان العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأي وقال: ان ملك الانكلتيز قد مرض مرضا شديدا والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلت، و أرى ان نسير الى يافا فإن وجدنا فيها طمعا وإلا عدنا الى عسقلان فما تلحقها النجدة الا وقد بلغنا منها غرضا، فوافقوه على ذلك، فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان

حتى يكونا قريبا من يافا، هذا ورسل الانكلتيز لاتنقطع في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، وكان السلطان يمدّه بذلك ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل، والذي انكشف له أن فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثر ومائتي فارس على قول المقلل، وان الكندهري تردد بينه وبين الفرنسيسيةفي مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولا واحداً،فسار السلطان إلى جهة الرملة وجاء رسول الانكلتيز مع الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرد به وقال له: قل لأخي —يعني —الملك العادل: يتبصر كيف نتوصل الى السلطان في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو ههنا مع هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم، فليس غرضي إلإقامة جاهي بين الفرنجية، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها، فأرسل السلطان الى العادل :إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار والنفقات قدنفدت، ثم ان الانكلتيز نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك ، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها ، وأخرج الرملة منها ولدّ ومجدل يابا، ثم ذكر قيسارية وأعمالها،وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأخرج منه الناصرة وصفورية، وأثبت الجميع في ورقةوقال للرسول : هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فإن صالحتم على ذلك فمبارك وقد اعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد، وإلا فتعلم أن هذا تدفيع ومماطلة، وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابا وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها، واشترط دخول بلاد الاسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصلح، وشرط أن تكون الرملة ولد بين المسلمين وبينهم مناصفة، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ورضي الاسبتارية والداوية وسائر

مقدمي الافرنجية بذلك، ولم يحلف الانكلتيز ، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لايحلفون ، وقنع من السلطان بمثل ذلك، ثم حلف الجماعة، فحلف الكندهري ابن اخته المتخلف عنه في الساحل، وباليان ابن بارزان وابن صاحبة طبرية، ووصل ابن الهنفرى وابن بازران وجماعة من مقدميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح واقترحوا حلف جماعة: العادل، والأ فضل ، والظاهر، والمنصور، وسيف الدين المشطوب، ودلدرم ، وابن المقدم، صاحب شيزر، وكل مجاور لبلادهم، وحلف صاحب انطاكية وطرابلس، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين.

قال: ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبدي الطاعة والموافقة، وتسيير العسكر، وحضررسول الكرج وذكر فصلا في معنى الديارات التي لهم في القدس، وعمارتهاوشكوا من أنها أخذت من أيديهم، ويسأل ردها إلى أيدي نوابهم، وورد رسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية.قال العماد: وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر، وجعل لهم من يافا الى قيسارية إلى عكا الى صور، وادخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، اولها مبتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان.

قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والاسلحة والأقوات ليتقووا بها على فتح القدس، لتكون لهم ظهرا وعونا لقربها من البيت المقدس.

قلت : ومن الألفاظ الفاضلية:«وقد فعلت الاقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف تشنع ملك انكلتيز بالغدر وهو لعنه الله قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهارا

جهارا، وشهد بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى ، وغدر الفرنج معلوم:

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها
ومن عهدها أن لا يدوم لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون اذا قووا، ونحن ننتظر في ملك الانكلتيز ماتفصح عنه المقادير في أمره إما الهلاك ، ولا بأس بها، فيلقى الأحبة المركيس، والدوك،وملك الالمان ، ويؤنس في النار غربتهم، ويكثر عدتهم، وإما أن يعافى ،فهو بين أمرين إما أن يرجع إلى لعنة الله وإلى مروءة البحر في تغريقه وإما أن يقيم، فهناك قد أبدى الشر ناجذيه، ونكص الملعون من الوفاء على عقبيه، وانتظر الفرصة لينتهز، والعورة ليثب».

ومماقيل في هذه الهدنة أبيات من قصيدة نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور، والتي تقدّمت في فتح البيت المقدس وهي:

ياصاح قل للانكلتيز الكلب دع
عنك الجنون وخذ مقالة منصف

القدس مافيه لسرجك مطمع
كلا ولا نور الاله بمنطفي

والمسجد الأقصى فعنه تقص من
وقع الدبابيس الأليمة تعرف

واستفت نفسك فهي أخبث ناصح
واترك متابعة اللجاج المتلف

واعجب لرمح بالرؤوس معمم
واطرب لسيف بالدماء مغلف

قد قلت لما قيل صلح قد جرى
هذا حديث مخرّف ومحرّف

سلف تولى السيف عقد شروطه
أحبب به من مسلم ومسلف
ظنوه سلما وهو في أرواحهم
سلم إلى أجل لهم متخلف

وذكر أبو الحسن الساعاتي الانكلتيز هذا في قصيدة مدح بها السلطان رحمه الله يقول فيها:

منعت ظباء المنحنى بأسوده
وأشدّ ما أشكوه فتك ظبائه
فعلت بنا وهي الصديق لحاظها
كظبى صلاح الدين في أعدائه
سل عنه قلب الانكتاز فإن في
خفقاته ما شئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع
ولسال سيل نداه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما
لترنم الناقوس في أفنائه

فصل

فيما جرى بعد الهدنة

قال القاضي : أمر السلطان أن ينادى في الوطاقات والأسواق : ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل في بلادهم فليفعل، وأشاع رحمه الله ان طريق الحج قد فتح من الشام، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضر ذلك جميعه، وأمر أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أ مير كبير، ولإخراج الفرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الفرنج الى حين وقوع الخراب في السور خشية من استبقائه عامراً، ففعل ذلك ، وخربت،وكان يوم الصلح يوما مشهودا غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لايعلمه الاّالله تعالى، والله العالم ان الصلح لم يكن من ايثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: «أخاف أن أصالح وما أدري ايش يكون مني، فيقوى هذا العدو وقد بقي لهم هذه البلاد فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قله—يعني حصنه—وقال: لا أنزل ويهلك المسلمون» فهذا كلامه،وكان كما قال رحمه الله، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأم العسكر ومجاهرتهم بالمخالفة، وكان ذلك مصلحة علمها الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح،ولو كان اتفق ذلك في اثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر، فما كان الصلح إلاّتوفيقا وسعادة من الله رحمة الله عليه.

ورحل السلطان الى النطرون واختلط العسكران، وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة، ووصل خلق عظيم من العدو الى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب في ذلك، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم الى يافا، وكان غرض السلطان بذلك ان يقضوا

وطرهم من الـزيارة ويرجعوا الى بلادهم،فيأمـن المسلمون شرهـم، ولما علم الملك كثـرة من يزور منهـم صعب عليـه ذلك وسير الى السلطان يسـأله منع الزوار، واقترح ان لايـأذن لأحد إلا بعد حضور علامة مـن جانبه او بكتابه، وعلمـت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتمـوا في الحج، فكان يرد في كـل يوم منهـم جموع كثيرة مقـدّمـون وأوساط وملـوك متنكـرون، وشرع السلطـان في اكـرام مـن يـرد ومدّ الطعـام لهم ومباسطهـم ومحادثتهـم، وعـرفهم انكـار الملك ذلـك، وأذن لهم السلطان في الحج وعـرفهم انـه لم يلتفت الى منع الملك مـن ذلك ، واعتذر الى الملك بأن قومـا وصلوا من ذلك البعـد ويُسر لهم زيارة هـذا المكان الشريـف لااستحل منعهـم، ثم اشتدّ المرض بالملـك فرحل ليلة الاربعـاء التاسع والعشرين مـن شعبان، وقيل انه مات ، وسـار هو والكندهري وسائر المقدّمين الى جـانب عكا، ولم يبـق في يافـا إلاّ مريـض أو عاجـز و نفر يسير، ثـم أعطى السلطـان للناس دستـوراً، فسار عسكـر إربل والموصـل وسنجار والحصـن ،وأشاع رحمه الله أمر الحج، وقوي عزمه على براءة الذمة منه.

قال القـاضي: وكان هـذا مما وقع لي وبـدأت بالاشـارة به في يـوم تتمة الصلح ، ووقع منه رحمة الله عليه ، وقعا عظيما ، وأمـر الديوان أن كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتـى يحصي عدة من يدخل معنا الطريق ، وكتـب جرائد بما يحتاج إليه في الطريـق من الخلع والأزواد وغير ذلك وسيرهـا إلى البلاد ليعدوها ، ورحـل من النطرون رابع شهـر رمضان وسار حتى أتى مـار صمويل يفتقد أخاه العادل وكان مـريضا بها فوجده قد سار إلى القدس ، وكان قد انقطـع عن أخيه مدة بسبب المرض، وكان قد تماثـل فعرف بمجيء السلطان إلى مـار صمويل لعيادتـه فحمل على نفسه وسـار حتى لقيـه بذلك المكـان ، وهو أول وصـوله ولم ينـزل بعد ، ونزل وقبـل الأرض وعاد ركب فاستـدناه وسألـه عن مزاجه، وسـارا جميعا حتى أتيا القدس بقية ذلك اليوم .

وقـال العماد: عاد السلطـان بعـد السلم إلى القـدس لتفقـد أحوالـه، وعرض رجالـه واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليـد آثاره وتحسينها، وتعميـق خنادقـه ، وتوثيـق طرائقـه، وزاد في وقف المدرسـة (١٣٢) سوقـا بدكاكينهـا وأرضا ببساتينها ، وكذلـك رتب أحوال الصوفيـة في رعايتها ، والـوقـف الكـافـل بكفـايتهـا ، وعين الكنيسـة التـي في شـارع قمامـة للبيمارستـان، ونقل إليـه العقـاقير والأدوية مـن جميـع الأنواع والألـوان ، وأدار سـور القدس على قبـة صهيـون وأضافهـا إلى المدينـة، وأمر بـادارة الخنادق على الجميع، وصمـم العزم على الحج فلم يوافقه القـدر، وتأسف على فواته بعد أن قـدم مقدماته وأقام شهر رمضـان ، وأفاض الإحسان ، وفوض ولاية القدس كعمل الخليل ، وغزة والداروم، وعسقلان.

قلت: ولما بلغ القـاضي الفاضل من قبل السلطـان أنه عازم على الحج كتب إليـه مشيرا بتبطيله:« إن الفرنج لم يخرجـوا بعد من الشـام ، ولاسلوا عن القدس، ولاوثق بعهـدهم في الصلح، فلا يؤمن مـع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا، وسفـر سلاطيننا سفراً مقدرا معلومـا مدة الغيبة فيه أن يسروا ليلـة فيصبحوا القـدس على غفلة ، فيـدخلوا إليـه ، والعياذ بالله ويفـرط من يد الإسلام ويصير الحج كبيرة من الكبـائر التي لاتغفر ومن العثرات التي لاتقال» ثم قال: « وحـاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألـف وثلاثمائة ألف وأكثر ، هـل يؤمن أن يقال قـد سار السلطان لطلب ثار وسفك دم وتشويش موسـم ، فاقعدوا والا فيكون تاريخ سوء، أعوذ باللـه منه، ما هذه الشناعـة ممتنعة الوقوع ، ولامستبعـدة من العقول السخيفة ، فينعم المولى بتأمـل ما أنهاه المملوك مستورا فإنه يسـأل مولانا أن لايشارك أحـدا فيما يكتبه لا مـن مهم ، ولا من غير مهـم، يا مـولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقـرب به إلى الله وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظـالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقـوع القطر، ومن تسلــط المقطعين على المتقطعين مـا لاينـادي وليـده، وفي وادي بـردى والـزبداني مـن الفتنة القـائمة والسيـف الذي يقطـر دما مـالا زاجر لـه،

وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهمات إقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل ،وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير ، وعرضت للمولى شواغل دونه ، ومشت الأحوال مشيا على ظلع ، فلما خلت النوب أعاذ الله من عودها ، كان خلو بيت المال أشد ما في الشدة ، وليس المملوك مطالبا بذخيرة تحصل إنما يطلب تمشية من حيث يستقر».

قلت: ولم يزل البيت المقدس شرفه الله تعالى ملحوظا بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله إلى سنة ست عشرة وستمائة، فإنه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج لعنهم الله وانتشارهم في البلاد، فخيف من استيلائهم عليه، وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبوبكر بن أيوب أخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكني به، ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب ابن محمد المجاور بقصيدة منها :

أعينيّ لا ترقي من العبرات
صلي في البكا الآصال بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفىء فيضها
توقد ما في القلب من جمرات

ويا قلب اسعر نار وجدك كلما
خبت بادّكار يبعث الحسرات

ويا فم بح بالشجو منك لعله
يروّح ما ألقى من الكربات

على المسجد الأقصى الذي جل قدره
على موطن الاخبات والصلوات

على منزل الاملاك والوحي والهدى
على مشهد الابدال والبدلات

على سلم المعراج والصخرة التي
أنافت بها في الارض من صخرات

على القبلـــة الأولى التـــي اتجهـــت لها
صـــلاة البرايـــا في اختـــلاف جهـــات
على خير معمـــور وأكـــرم عـــامـــر
وأشرف مبنـــــى لخير بنــــــاة
ومـــازال فيـــه للنبيين معبـــد
يـــوالـــون في أرجـــائه السجـــدات
عفـــا المسجد الأقصـى المبـارك حـولـه الـــ
ـــرفيع العماد العـــالي الشرفـــات
عفـــا بعـــد مـــا قـــد كـــان للخير مـــوسما
وللبر والاحســـان والقـــربـــات
يـــوافي اليـــه كـــل أشعـــث قـــانـــت
لمولاه بـــــر دائم الخلـــــوات
خـــلا مـــن صـــلاة لا يمـــل مقيمهـــا
تـــوشـــح بـــا لآيـــات والســـورات
خـــلا مـــن حنين التـــائبين وحـــزنهم
فمـــن بين نـــوّاح وبين بكـــاة
لتبـــك عليهـــا مكـــة فهـــي أختهـــا
وتشكـــو الـــذي لاقـــت إلى عـــرفـــات
لتبـــك على مـــا حـــل بـــالقـــدس طيبـــة
وتشرحـــه في أكـــرم الحجـــرات
لقـــد أشمتـــوا عكـــا وصـــور بهدمهـــا
ويـــاطـــا الماغـــادتها بشمات
لقـــد شتتـــوا عنهـــا جماعـــة أهلهـــا
وكـــل اجتماع مـــؤذن بشتـــات
وقـــد هـــدمـــوا مجد الصـــلاح بهدمهـــا
وقـــد كـــان مجدا بـــاذخ الغـــرفـــات
وقـــد أخمدوا صـــوتـــا وصيتـــا أثـــاره
لهم عظـــم مـــا والـــوا مـــن الغـــزوات

أما علمت أبناء أيوب أنهم
بمسعاته عدوا من السروات
وإن افتتاح القدس زهرة ملكهم
وهل ثمر إلا من الزهرات
فمن لي بنوّاح ينحن على الذي
شجاني بأصوات لهن شجاة
يرددن بيتا للخزاعي قاله
يؤبن فيه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات(١٣٣)

قلت: هذا البيت الأخير لدعبل بن علي الخزاعي في أول قصيدة يرثي بها أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه السنة التي توفي فيها العادل قبل التي خرب فيها القدس، هي السنة التي نزل فيها الفرنج خذلهم الله على ثغر دمياط حرسه الله تعالى، وهي المرة الأولى في زماننا وأقاموا عليه إلى أن استولوا بعد أن جرى لهم نحو مما جرى لهم على عكا، ثم أخذه المسلمون منهم، وقتلوا وأسروا ثم إن الفرنج استولوا عليه صلحا في سنة خمس وعشرين وستمائة وشرعوا في بناء طائفة منه، ثم أخرجوا منه عنوة مرتين أخرجهم في إحدى المرتين الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقال فيه حينئذ بعض شعراء العصر، هذا الشاعر هو الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى:

المسجد الأقصى له عادة
سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا للكفر مستوطنا
أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أوّلا
وناصر طهره آخرا

ثم استولى الفرنج أيضا على طبرية وعسقلان، ثم أخذتا منهم عنوة في شهـور سنة خمس وأربعين وستمائة في دولـة الملك الصـالح نجـم الديـن أيوب بن الملك الكامل ناصر الديـن محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقـد استولـوا أيضـا على الشقيف وصفـد، والله يسهـل عودهما إلى أهـل الاسلام ، ويؤيد الدين الحنيفي على ممر الايام .

فصل

في مسير السلطان رحمه الله من القدس إلى دمشق

قال العماد: ولما استتم السلطان النظر في أحوال القدس وعمارته، وفوض القضاء والنظر في الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع ابن تميم، وعول منه على أمين كريم، آثر أن يعود إلى دمشق على الثغور عابرا، وفي أحوالها ناظرا، وكان عزم على الحج، وصمم، وكتب إلى مصر واليمن بما عليه عزم، وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات، والثياب والكسوات، فقيل له: لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك، وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه بري، ويعلم أن قصدك في المضي مضى والوقت قد ضاق، ويبلغ الخبر الآفاق، ثم هذه البلاد إذا سافرت تركتها على مابها من الشعث، وهذه المعاقل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور، ولا تغتر بعقد الهدنة، فإن القوم على ترقب المكنة والغدر دأبهم ، فمازال به الجماعة حتى حلوا عقد عزمه على الحج فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته .

ثم خرج من القدس يوم الخميس خامس شوّال وجاوز ناحية البيرة، وبات على بركة الداوية، ونزل يوم الجمعة ظاهر نابلس، وأقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالم ووظف مكارم ، وكان بها سيف الدين المشطوب، وشكا أهلها نوائب من جهته تنوب، فأزال الشكوى، وأزاح البلوى، ورحل بعد ظهر السبت وبات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسه، ورتعنا في مروجها الأنيسة، وأصبحنا راحلين ونزلنا ضحوة على جينين، وهناك ودعنا المشطوب ، وداع الأبد فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمة الواحد الصمد ، وجئنا ضحوة الإثنين إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية فأبصر قللها العالية ، وقال: الصواب

بناء هذه وتخريب كوكب، وصعد نظر رأيه فيها وصوّب، ورحل ضحوة الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشاء، وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر وتلقيناه بالبشر والبر ، ووصل مع السلطان إلى دمشق وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأسر ، وتوجه إلى مصر وقد ضاق نفسه ببذل ماله ، وخرج من ثروته ودخل في اقلاله .

قال: وتوالت تلك الليلة الأمطار وواصلها النهار، فأقمنا يوم الأربعاء ، وسرنا بكرة الخميس ونزلنا بسفح الجبل الذي عليه قلعة صفد، وصعد إليها وكمل فيها الرجال والعدد، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة إلى قلعة تبنين، وجاز يوم الأحد على هونين، وخيمنا على عين الذهب عند نزولنا من الجبل، واجتمعنا تلك الليلة بالثقل، ثم سرنا إلى مرج عيون مرحلة، وإلى جسر كامد منزلة، وطريقنا بين عمل صيدا ووادي التيم ، وطلعنا من تلك الأودية والشعاب طلوع الأنوار من الغيم.

وقال في الفتح: على صيدا يسرة ، وعمل وادي التيم يمنة، وعرسنا على مرج تلفياثا مقابل مرج القُنعبه، ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة، ورحلنا يوم الثلاثاء إلى البقاع فخيمنا على جسر كامد ويوم الأربعاء بناحية قب الياس، ودخل يوم الخميس بيروت وبها واليها عز الدين سامه فاهتم له بالكرامه، ولما أراد عن بيروت الانفصال في الحادي والعشرين من شوّال قيل له : إن الابرنس الأنطاكي بيمند ، مع عصابة من الوفد قد وصل إلى الخدمة مستمسكا بحبل العصمة ، فثنى عنانه ونزل وأقام وما ارتحل ، وإذن للابرنس في الدخول وشرفه في حضرته بالمثول ، وقرّبه وآنسه، ورفع مجلسه وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونيا ، فوهب كلا منهم تشريفا سريا ، وأجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء، وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمبار ، وأعجبه استرساله إليه ودخوله بغير أمان عليه ، فلا جرم تلقاه بالاحسان ووافقه ، وودعه يوم

الأحد وفارقه، وكانت الأثقال قد انتقلت من قب الياس إلى مرج قلميطيه من البقاع فبات في المخيم ، وعبر يوم الإثنين عين الجرّ إلى مرج يبوس ، وقد زال البوس ، وهناك توافد أعيان دمشق وأماثلها وأفاضلها وفواضلها ،ونزلنا يوم الثلاثاء بالعرّاده ، وجرى الملتقون بالطرف والتحف على العاده، وأصبحنا يوم الاربعاء إلى جنة دمشق داخلين بسلام آمنين، لو لا أننا غير خالدين ، وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها ، وأبرزت نساء ها ورجالها، فكانت يوم الزينه، وخرج كل من في المدينة، وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشاراً وفرحا ، وكانت غيبة السلطان في الجهاد طالت، فاهتزت بقدومه واختالت،وقرت بفضائله الأعين وأقرت بفواضله الألسن ، وأبدوا وجوه الاستبشار وألسن الاستغفار وأعين الاستعبار ، ورفعوا أيدي الابتهال بصالح الدعاء عن خالص الولاء، وجاء ربيع الفضل في فصل الخريف، واتصل تليد الجد بالطريف، واتسع فضاء الفضائل ، وارتدع جاه الجاهل ، وحل في القلعة حلول الشمس في برجها ، وأخذت بحار سماحه في موجها ، وجلس في دار العدل فأجاب وأجار، وأنال وأنار ، وخرجت السنة والسلطان في أسنى سنائه، وأبهى جلاله ، وأجلى بهائه والناس راتعون في رياض نعمائه ، ورسل الممالك الغربية الشرقية يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه ، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر الرّبيع وافترارِه، وأقمنا على هذا العزم إلى آخر السنة، والسلطان مشتغل بالصيد والقنص ، منتهز من العمر للفرص ، وقرب العلماء وأكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء ، وما كان أحسن إلى الحق أصغاه ، وأشرع للباطل ألغاه.

وقال القاضي أبو المحاسن: أقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستوراً، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية ، وانقطع تشوفه إلى الحج، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب ملك الانكلتيز المخذول متوجها إلى بلاده في مستهل شوال، فعند ذلك حرّر السلطان

عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس ويدخل دمشق يقيم بها أياما قلائل ويعود إلى القدس الشريف سائراً إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها والنظر في مصالحها .

قال: وأمرني بالمقام بالقدس إلى حين عوده لعمارة بيمارستان انشأه فيه، وادارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، وخرج من القدس، وودعته إلى البيرة، ونزل بها ، ثم ذكر ازالته للمظالم عن بلد نابلس. ثم رحل ونزل بسبسطيه فتفقد أحوالها، ثم أتى في طريقه إلى كوكب في عاشر شوّال، وانفك بهاء الدين قراقوش من الأسر حادي عشر شوال ومثل بالخدمة السلطانية، ففرح به فرحا شديداً، وكان له حقوق كثيرة على السلطان والاسلام ، واستأذن السلطان رحمه الله في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة، فأذن في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفا.

قال: ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفدا، فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعمق وارزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار ، ثم سار السلطان إلى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها ، والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها ، وإشحانها بالرّجال فدخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشري شوّال، وفيها أولاده: الأفضل، والظاهر، والظافر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد ، وجلس للناس في بكرة الخميس، وحضر عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء ، وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله ، وكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة، واتخذ الأفضل يوم الإثنين مستهل ذي القعدة دعوة لأخيه الظاهر ، وكان الظاهر لما وصل دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام بها حتى يتملى بالنظر إليه ثانيا

وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنّو أجل السلطان ، فوّدعه في تلك الدفعة مراراً متعددة وهو يعود إليه، ولما اتخذ الأفضل له الدعوة أظهر فيها من بديع التجمل وغريبه ما يليق بهمته، وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى حلب المحروسة، وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة ، وسأل السلطان رحمه الله الحضور فحضر جبراً لقلبه.

قال: وكان العادل قد استأذن السلطان في أواخر رمضان في القدس بالمضي إلى الكرك لتفقدها ، فمضى وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه، وعاد طالبا المضي إلى البلاد الفراتيه التي أعطاه السلطان إياها، فوصل دمشق سابع عشري ذي القعدة، وخرج السلطان إلى لقائه وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعا يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق في الحادي والعشرين منه ، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبى ، وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب ، وسهر الليل ونصب النهار ،و ما كان ذلك إلّا كالوداع لأولاده ومرابع نزهه وهو لا يشعر رحمة الله عليه، ونسي عزمه المصري، وعرض له أمور أخر وعزمات غير تلك، ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاء شديداً ووحلاًعظيما .

قلت: وفي عيد الأضحى من هذه السنة أنشده الرشيد النابلسي قصيدة حسنة على وزن قصيدة التهامي التي مطلعها:« حازك البين حين أصبحت بدرا» يقول فيها يعني قصيدته:

وأبيها ولا تغزل عينيها
لما قلت في التغزل شعرا
ولكانت مدائح الملك النا
صر أولى ما فيه أعمل فكرا
ملك طبق الممالك عدلا
مثل ما أوسع البرية برا

ثم قال في آخرها :

نلـــت مـــن الـــديـــن والدنـــــ
ــــيا فتيهـــا على الملـــوك وفخـــرا

فتمـــل الأعيـــاد صـــومـــا وفطـــرا
وتلـــق الهنـــاء فطـــرا ونحـــرا

يـــا مسر الطـــاعـــات لله ان أضـــــ
ــــحى مليـــك على الهنـــاة مصرا

قـــد جمعـــت المجـــديـــن أصـــلا وفـــرعـــا
و ملكـــت الـــداريـــن دنيـــا وأخـــرى

فصل

في ذكر أمور أخر جرت في هذه السنة من وفيات وغيرها

قال العماد : في شهر ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، قاضي العسكر ، وكانت وفاته بملطية وهو عائد من الرسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالروم، وكان هذا القاضي لي من أصدق الاصدقاء، وأكرم الكرماء، وما فارقني من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله في السراء والضراء ، وكنت بأحواله شديد الاعتناء ، وتوصلت له عند السلطان في تخصيصه بالمواصلة الموصلية ، والمراسلة في المهام الخفية والجلية، ثم تولى نيابة عن السلطان في الولاية الشهرزورية ، والحكم على المقطعين بها وإنصاف الرعية ، فلما فوضت إلى مظفر الدين صاحب إربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مدة سبع سنين ، وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شدّاد ، وكان خطب أولاد السلطان قليج أرسلان مهما عند السلطان، فاعتمد على القاضي شمس الدين في الوصول إليهم ، والحكم بتأليف ذات بينهم عليه، فمضى وعاد وأدركته المنيه بمدينة ملطيه.

قال: وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوّال توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، المعروف بالمشطوب بنابلس، وقد سبق ذكر هذا الأمير وبأسه وبسالته واصابته وأصالته ، وإقدامه في الحروب ، وتقدمه في الخطوب ، وقد حضر مع أسد الدين شيركوه النوب الثلاث التي فتح في آخرها مصر ، ولازم صلاح الدين إلى منتهى العمر ، ولما احتيج إلى البدل في عكا إذ ضجر من أقام به وتشكى أجاب إلى دخوله وقابل الأمر بقبوله ، وحصل بقضاء الله في الأسر، واحتوت عليه قبضة الكفر ، وفدى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا، وآتاه الله من نعمة خلاصه ما رجا، وأنعم السلطان عليه بنابلس وأعمالها، وخص بأموالها ،

وحين جزنـا ودّعنا عنـد جينين ، وداع الأبد إلى جنـة عليين ، وإنما سمي مشطوبا لشطبة في وجهـه من أثر طعنة في غزاة حضرها ، ولـه مواقف في الجهـاد كثيرة معهوده ، ومقـامـات مشهـورة مشهوده ، ووقـف السلطـان بعده ثلث نابلس وأعمالها على مصالح القدس، وأقطع ولده وأميرين معه الثلثين محافظة على حقه الذي التزمه التزام الدين.

وقال القـاضي ابن شـداد : وكان السلطان خلـف المشطوب بـالقدس مـن جملة العسكـر المقيمين بـه ولم يكن واليـه إنما كان واليـه عـز الديـن جرديك، وتـوفي المشطوب رحمة الله بالقدس يوم الأحد الثـالث والعشرين من شوال، و دفن في داره بعد أن صلي عليه في المسجد الأقصى .

قال العماد: وفي منتصـف شعبان تـوفي سلطان بلاد الـروم عز الـدين قليج أرسـلان بن مسعـود بن قليج أرسـلان بقونيـه، وكان أولاده لما كبروا تجبروا وتفـرد كـل منهـم بـاقليـم ،فضعـف بقـوّتهم، وعجـز بقـدرتهم ، وانخفض بـرفعتهم، فإنه فـرق بلاده على جماعتهم ، طمعا في طـاعتهم ، واختار لتدبير ملكـه اختيار الدين حسـن بن غفراس ، فخالفـه عليه من أولاده قطب الدين ملك شاه صـاحب سيواس ، فجاء وغلب على والده وأخذ عليه الأنفـاس ، وقال له: أنا بين يديك عـوض الاختيار ، ثم أخلى منه الـديار ، ثم أبعـد عن خدمـة والده خواصـه وأولياءه، وأفنى بـالقتل والاغتيال أمراءه وكبراءه ،واستخلصه لنفسـه ، وأجلسه على ملكه وهو في حبسه ، ثـم جاء به إلى قيصر يـة ليأخذهـا من أخيـه ، وأظهر أنه بـأمر أبيه، فوجـد قليج أرسلان فرصـة في خلاصه ، فساق وحـده ودخل البلد ونجا مـن الولد إلى الـولد، فعاد ملكشـاه إلى قونيه واقصرا دار ملـك أبيه فتملكهم ولم يزل قليج أرسلان يتحول مـن ولد إلى ولد ، ومن بلد إلى بلد يتردد في بلاده في ضيافة أولاده ، وكلهم يضجـر منه ، ويعرض عنه، حتى حصـل عند ولـده غيـاث الديـن كيخسرو صـاحـب برغلـو، فلما حضره

وأبصره آواه ونصره ،وجاء به إلى قونيه فدخلها ، وحلى عطلها ، ومات بها، فجلس مكان والده، وقوي على أخيه.

قال : وجاء الربيع في شهر ربيع الأول، فكتب إلي نشو الدولة أحمد ابن نفاذه أبياتا يدعوني إلى دمشق في خامس جمادى الأولى، وقد دخل أوان المشمش المعهود ، وهو موسم دمشق المشهود ، أولها :

دعا الناس للذات مشمش جلق
فقد أسرعوا من كل غرب ومشرق
فقم يا عماد الدين تحظ بأكله
ولا تثن عنه عزمة السير تسبق
وقل حين يبدو أصفر اللون مشرقا
ويا حسنه من أصفر اللون مشرق
لاكلك ما يلقى الفؤاد وما القي
وللنوب ما لم يبق مني وما بقي
فليس سوى الحلواء في القدس مأكل
وما جلبوه من زبيب وفستق

قال: فعرضت أبياته على السلطان فقال: ماقلت في جوابه ،فأنشدته:

هلموا نسابق نحو مشمش جلق
وثم كما نهوى على الأكل ننتقي
تصفر شوقا لانتظار قدومنا
ومن يتعشق ذا الفضائل يشتق
إذا حضرت اطباقه غاب رشدنا
لما يتلاقى من مشوق وشيق
حكى جمرات بالفضا قد تعلقت
فيا عجبي من جمرها المتألق
كأنّ نجوم الأرض فوق غصونه
فيا حيرتي من نجمه المتألق

وجناتها محمرة وجناتها
فمن يرها مثلي يحب ويعشق
بدت بين أوراق الغصون كأنها
كرات نضار في لجين مطرق

قال: فلما أنشدت السلطان هذا البيت، قال: تشبيه الورق باللجين غير موافق فإن الورق اخضر فقلت:

....

كرات نضار بالزمرد محدق
تساقطها أشجارها فكأنها
دنانير في أيدي الصيارف ترتقي
ومشمش بستان الزكي بشهده
شهادته تقضي فزكّ وصدّق
يقول رفيقي في دمشق تعجبا
أمالك بستان مقالة مشفق
فقلت إلى باب البريد وسوقه
لأمثالنا تجنى بساتين جلق
ولو كان لي بالسهم سهم وجدت لي
منالي بأيام الثمار ومرفقي
إذا كنت مبتاعا من السوق مشمشي
فمالي إلا اللذة المتسوق
ومالي بأرباب البساتين خلطة
فيصبح في حيطانها متسلقي
كرام وثوقي في الشتاء بودّهم
ولكنهم في الصيف ينسون موثقي
وما ثم من يجدى ويقري ويقتني
ثنائي سوى المحيي الكريم الموفق
وذلك يوم ليس غيره
أمن أجل يوم واحد قلت لي اسبق

على أننـــي لـــو قيـــل بـــالصين دعـــوة
أثـــرت اليهـــا لـــوعـــة المتحـــرق
فـــإن جئـــت قبلي جلقـــا فـــارم منعما
حـــديثـــي بنـــادي المنعمين وحلـــق
لعـــل كـــريما ينتخـــي لضيـــافتـــي
بمشمشـــة عنـــد القـــدوم وينتقـــي
فـلا تنـس نشـو الـديـن نشـوة خـاطـري
وقـل عـن صبـوحـي كيـف شئـت ورقـق
وهـات وسـاعـدني وخـذ مـن قـريحتـي
لطيمـــة داري مـــن الحمـــد واعبـــق

قال: فقال لي السلطان عن صبوح ترقـق، كأنك تريد تمضي إلى دمشق وتسبق فقلت: الأهـل والولد، وقد عيـل عنهم الجلد، ولكن مغيبـي عن الخدمة لايدور به الخلد، وظلك وهو السكن والبلد.

قال: وكتبـت أيضا في جوابـه، وصفة المشمـش، وذكر تشبيهاتـه، وقد اذن لي السلطان لمهم له ايضا اتفق:

قـــد صـــح عـــزمـــي على المسير فـــلا
أبغـــي مقـــامـــي والقلـــب قـــد رحـــلا
امضـــى إلى دميـــة مقبلهـــا
أرشـــف منـــه المدام والعســـلا
مصـــوّر بـــل مـــدّور عجـــب
تـــرى بـــه وهـــو جـــامـــد شعـــلا
ففـــي قلـــوب الأشجـــار منـــه جـــذي
وفي ظهـــور الغصـــون منـــه كـــلا
طلـــوابها النضـــار ظـــاهـــره
لبـــاطـــن في حشـــاه نـــار طـــلا
يخفـــي إذا مـــابـــد العينـــك في
فيـــك وفيـــه النـــوى اذا وصـــلا

حلى تبر على عــــــرائس أغصــــــا
ن تشكــــت مـــن قبلهـــا عطـــلا
حمر حســـان الـــوجـــوه قـــد لبســـت
مـــن خضر أوراقهـــا لها حلـــلا
عـــرائس مـــن خـــدورهـــا بـــرزت
تحســـب أشجـــارهـــا لها كلـــلا
حـــلاوة لا يمـــل أكلهـــا
إذا الحلاوات أحـــدثـــت ملـــلا
زهـــر كشهـــب السماء راجمة
جـــن جنـــاة بقطفهـــا كفـــلا
عيـــونها الـــرمـــد في تـــرقبنـــا
جـــاحظـــة أبـــرزت لنـــا مقـــلا
مـــاذا التـــواني وذا التـــأخـــر والا
بطـــاء قـــدّم مسيرنـــا عجـــلا
نغـــدو خفـــافـــا إلى مـــواسمهـــا
مـــن قبـــل نبلى بصحبـــة الثقـــلا
قـــد انتظـــرنـــا مـــن الخزانـــة مـــا
نعطـــى فـــأكـــدى نـــوّابها البخـــلا
فـــإن عـــدمنـــا مـــن عنـــدهـــم ذهبـــا
فما عـــدمنـــا عنـــه بـــه بـــدلا
وكلنـــا في عـــوارف الملـــك النـــا
صر نـــرعـــى ونسلـــك السبـــلا

قال: وقلت فيه رباعية:

المشمـــش لا انتظـــارنـــا مصفـــر
والـــروض إلى لقـــائنـــا مفتر
قـــم نغتنـــم الـــوقـــت فهـــذا العمـــر
لا لبـــث لـــه فمـــن بـــه يغتر

قال: وفي هذه السنة نصرت الاساطيل في البحر مرارا، ونفذ السلطان في استدعائها ، استظهارا.

قال محمد بن القادسي: وفي مستهل رجب وكل بأمير الحاج طاشتكين، يعني الذي قتل أمير حاج الشام شمس الدين بن المقدّم بعرفات سنة ثلاث وثمانين ،ثم قبض عليه، وسببه أنه اتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله فيما يتعلق بقلب الدولة، وأظهر عليه استاذ الدار أبو المظفربن يونس كتابا قيل انه خطه وفيه :«المصلحة مهادنة الفرنج والمجيء إلى البلاد، فما يقف بين أيديكم أحد، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق ، وهذا وقتكم إن كان لكم نيه، وأنا مشدود الوسط في الخدمة» .ثم ذكر ابن القادسي أن ذلك مستبعد في حق طاشتكين وزور وبهتان ، ونسب ذلك إلى افتعال ابن يونس عليه ، وكان طاشتكين أمير الحاج عشرين سنة يخطب له بمكة بعد الخطبة لأمير المؤمنين ،وله اقطاع بمائة ألف دينار.

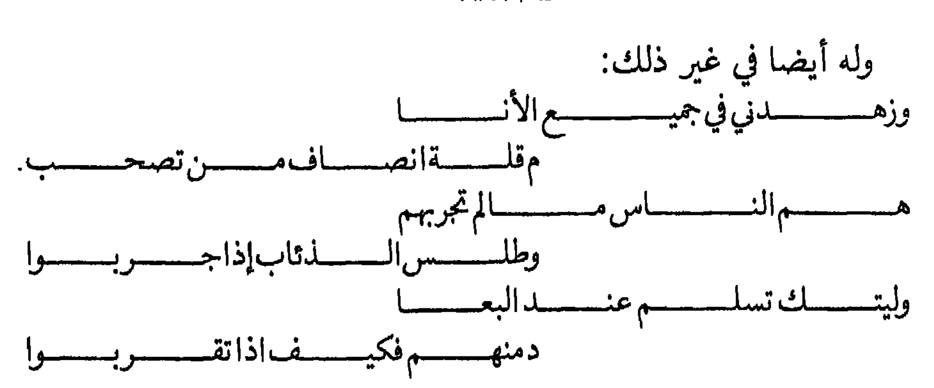
قال : وفيها في ربيع الآخر توفي أبو المرهف نصر بن منصور النميري الشاعر الأديب الزاهد، سمع قاضي البيمارستان ، وروى عن ابن نبهان وكان قد ولي بالشام وخالط أهل الأدب واضر بالجدري ،وله أربع عشرة سنة ،وكان يبصر الأشياء القريبة منه ، ولايحتاج الى قائد إذا مشى ،ثم قدم العراق لمداواة عينه فأيأسه الاطباء من ذلك ، فاشتغل بالقرآن وحفظه، وصاحب المتدينين والزهاد من أهل الفقه والحديث واللغة ،وله ديوان شعر كبير وسئل عن مذهبه فأملى:

أحب عليا والبتول وولدها
ولا أجحد الشيخين فضل التقدّم

وابرأ ممن نال عثمان بالاذى
كما أتبرأ من ولاء ابن ملجم

ويعجبني أهل الحديث لصدقهم
فلست إلى قوم سواهم بمنتم

- ٨٨٧٣ -



وله أيضا في غير ذلك:

وزهدني في جميع الأنا
م قلة انصاف من تصحب.

هم الناس ما لم تجربهم
وطلس الذئاب إذا جربوا

وليتك تسلم عند البعا
د منهم فكيف اذا تقربوا

- ٨٨٧٤ -

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه ، والضيوف في فيوض انعامة عائمون، والفقراء في رياض صدقته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لاسداء الجود، وابداء السعود، وبث المكارم وكشف المظالم ، وبرّز إلى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوما، واستصحب معه أخاه وأبعد في البرية وظهر عن ضمير ضمير إلى الجهة الشرقية ، وطابت له الفرص ، ووافق مراده القنص، ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقي، وسعاداته في الترقي ، ولما لقي الحجاج استعبرت عيناه، كيف فاته من الحج ماتمناه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها، وخصبها ومحلها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها، والفقراء والمجاورين ورواتبها وادراراتها، وسر بسلامة الحاج، ووضوح ذلك المنهاج، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام فتلقاه بالاكرام.

قال القاضي ابن شدّاد: وخرجت من القدس الشريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ،وكان الوصول إلى دمشق ثاني عشر صفر، وكان الأفضل حاضراً في الايوان الشمالي ،وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان، فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه رحمه الله، فقام ولقيني ملقى مارأيت أشد من بشره فيه، ولقد ضمني إليه ودمعت عينه، وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرت ، فسألني عمن في الايوان فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال، ثم استحضرني بكرة الخميس رابع صفر، وهو في صفة البستان ،وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين،فقيل رسل الفرنج، وجماعة الأمراء والأكابر ، فاستحضر رسل

الفرنج إلى ذلك المكان فحضروا، وكان له ولد صغير، وكان كثير الميل إليه يسمى الأمير أبابكر، وكان حاضرا وكان رحمة الله عليه يداعبه، فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم خاف منهم وبكى فاعتذر اليهم وصرفهم بعد أن حضروا، ولم يسمع كلامهم وقال لي: أكلت اليوم شيئاً، وكانت عادته رحمه الله هذه المباسطة، ثم قال:أحضروا لنا أرزا بلبن ومايشبه ذلك من الاطعمة الخفيفة، فأكل رحمه الله، وكنت أظن أن ماعنده شهوة ، وكان في هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقل الحركة عليه، وكان بدنه ممتلئا وعنده تكسل، فلما فرغنا من الطعام ، قال: ماالذي عندك من خبر الحاج، فقلت قد اجتمعت بجماعة منهم في الطريق، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم، ولكنهم في غد يدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم، وتقدّم بتنظيف طرقاتهم من المياه فإنها كانت سنة كثيرة الأنداء والأمطار، وقد سالت المياه في الطرق كالأنهار، وانفصلت عن خدمته، ولم أجد عنده من النشاط ما أعهده منه، ثم بكر في يوم الجمعة فركب ثم لحقته وقد لقي الحاج ولم أجد عليه كزاغنده، وماكان له عادة يركب بدونه، وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من في البلد ، فاذكرته ذلك، فكأنه استيقظ، فطلب الكزاغند فلم يوجد، وأوقع الله في قلبي تطيراً بذلك ، ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلب جهة المنيبع حتى أتى القلعة، فعبر على الجسر اليها وهو طريقه المعتاد ،وكانت آخر ركباته رحمه الله.

- ٨٨٧٦ -

فصل

في مرض السلطان ووفاته احله الله بحبوحة جناته

قال القاضي: لما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الحمى، ولم يظهر للناس ذلك ،لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الافضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو من قلقه بالليل،وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الافضل، ولم يكن للقاضي عادة بذلك ،فانصرف ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ الطعام، وولده الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وماكان لي قوّة للجلوس استيحاشاً، وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده موضعه ، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً ويعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبةطبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفراً وحضرا، ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع ، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلبه النفس غلبة عظيمة،ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدّة، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدّة حرّه ،فغير وعرض عليه ثانيا، فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات :سبحان الله ألا يمكن أحد تعديل الماء، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدّ منا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: انظر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ،والله لو أن هذا بعض الناس كان قد

ضرب بالقدح رأس من أحضره،واشتدّ مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل متزايدا ،وتغيب ذهنه ،ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتدّ الارجاف في البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة من الأسواق وغشي الناس من الكآبة مالايمكن حكايته ، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة الى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم يحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقا دخلنا وشاهدنا وانصرفنا، وإلا تعرفنا احواله وانصرفنا ، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا، حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا، ولما كان العاشر من يوم مرضه حقن دفعتين ، وحصل من الحقنة راحة، وحصل بعض الخفة، وتناول من ماء الشعيرمقدارا صالحاً، وفرح الناس فرحاشديدا فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع، ثم أتينا الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا ، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدّد،فدخل، ثم أنفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه يقول: إن العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله على ذلك، وانصرفنا طيبة قلوبنا، ثم أصبحنا فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفرش، وتأثرت به الارض، وأن اليبس قد تزايد به تزايدا عظيما، وخارت القوّة واستشعر الأطباء، ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده، وتحقق منه شرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه، واستحضر القضاة، وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدّة حياته، وله من بعد وفاته، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتدّ، ومانعلم مايكون ومانفعل هذا إلاّ احتياطيا على جاري عادة الملوك، ثم سمى القاضي ممن حلف له جماعة منهم: سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنه، وناصر الدين صاحب صهيون ،وسابق الدين صاحب شيزر،وخشترين الهكاري ،ونوشروان الزرزاري، وعلكان ومنكلان ، ثم مدّ الخوان وأكلوا، ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف، وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر المشطوب والبكي الفارس ، وأيبك

الأفطس، وأخو سياروخ ، وحسام الدين بشارة، وبعضهم اشترط في يمينه، وبعضهم لم يشترط، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم.

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر، وهي ليلة الثاني عشر من مرضه، اشتدّ مرضه، وضعفت قوتّه، ووقع في أوائل الأمر من أوائل الليل،وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة ، وابن الزكي، ولم تكن عادته الحضور في ذلك الوقت، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم ير الفاضل ذلك.رأيا، فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لاننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضا، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة،وهو رجل صالح يبيت بالقلعةحتى إن احتضر بالليل، حضر عنده ،وحال بينه وبين النساء، وذكره بالشهادة، وذكر الله تعالى، ففعل ذلك، فنزلنا وكل منا يوّد لو فداه بنفسه،وبات في تلك الله على حال المتنقلين الى الله تعالى، والشيخ أبوجعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكره بالله تعالى، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلا في بعض الأحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة)[١٣٤] سمعه وهو يقول: صحيح وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعناية من الله تعالى به، فلله الحمد على ذلك، وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته، ووصلت أنا وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله،ومحل كرامته، ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: (لااله الا هو عليه توكلت)[١٣٥]تبسم و تهلل وجهه وسلمها إلى ربه، وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالايعلمه إلا الله تعالى، وتالله لقد كنت أسمع

من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوّز والترخيص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري، أنه لوقبل الفداء لفدي بالنفس.

ثم جلس ولده الافضل للعزاء في الايوان الشمالي، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوماً عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه قصاص أو وعاظ ،فكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مكنا أن ندخل في تجهيزه ماقيمته حبة واحدةالا بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين، وغسله الدولعي الفقيه، وندبت إلى الوقوف على غسله، فلم يكن لي قوّة تحمل ذلك المنظر، واخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع مااحتاج إليه من الثياب في تكفينه، قد أحضره الفاضل من وجه حل عرفه.

وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً، وغشي الناس من البكاء والعويل ماشغلهم عن الصلاة، وصلى عليه الناس أرسالا، وكان أوّل من أم بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي، ثم أعيد رحمة الله عليه إلى الدارالتي في البستان الذي كان متمرضا بها، ودفن في الصفة الغربية منها،وكان نزوله في حفرته قريبا من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النهار ولده الظافر، وعزى الناس فيه، وسكن قلوب الناس، وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد، فما يوجد قلب إلا حزينا، ولاعين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع، ولم يعد منا أحد في تلك الليلة إلا أنا حضرنا وقرأنا، وجدّدنا

حالا من الحزن، واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى أخوته وعمه يخبرهم بهذا الحادث، وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوسا عاما وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء،وتكلم المتكلمون، ولم ينشد شاعر، ثم انفض المجلس في ظهيرة ذلك اليوم واستمرّ الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه.

وقال العماد: جلس السلطان ليلة السبت سادس عشر صفر ونحن عنده حتى مضى من الليل ثلثه، وهويحدثنا ونحن نحدثه، ثم صلى به وبنا امامه، وحان قيامه، وانفصلنا باحسانه مغتبطين، وبامتنانه مرتبطين، واصبحنا يوم السبت وجلسنا في ايوانه ننتظر خروجه لوضع الخوان ووجدناه قد اغلق باغلاق بابه رهنه، ولم نشعر بها قضاه القدر وأجنه، وخرج من خدمه من أخبر بسقمه، وكان من شرط الأدب أن يخلى له موضعا، فتطيرنا من تلك الحالة، وتكرهنا منها سوء الدلالة، فتلاعبت فيه العيون، وتراجمت الظنون ، ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في الزيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء في سحرة يوم الأربعاء، ونابت الظلماء عن الضياء، ودخل قمره ليلة السابع والعشرين في السرار، ودجت مطالع الأنوار، ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، ودفن بقلعة دمشق في مسكنه، ودفن جماع ا لكرم والفضل والدين بمدفنه.

ثم بنى الملك الأفضل قبة شمالي الجامع في جواره، بشباك إلى الجامع لزوّاره، ونقله إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين، واسترجعنا وقلنا مالنا إلا أن نستعيذ بالله ونستعين به، قال :ومما قلت رباعية في المرثية:

قال الملك الناصر من كلفني

في الجرد بغير شيمتي فما أنصفني

مـــــا يعلـــــم أن ذلـــــك الملـــــك فنـــــي
لم يبـــــق مـــــن الجود إلا كفنـــــي

وقال العماد أيضا في رسالته الموسومة بعتبى الزمان: وكان السلطان رحمه الله لما توفي بالقلعة في منزله ، ومازال الأفضل يتروّى في موضع ينقله إليه، واستشار في ذلك فأشير عليه، في سنة تسعين بأن يبنى تربته عند مسجد القدم، ويبني عندها مدرسة للشافعية، وقالوا إذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدخول إلى دمشق لأجلها، وقالوا إن السلطان رحمه الله لما مرض سنة احدى وثمانين بحرّان كان قد أوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا، ويكون قبره على النهج السائل، وطريق القوافل ، ليدعو له الوارد والصادر، والبادي والحاضر ، وتجوز عليه في الغزوات العساكر. قالوا: وإن تنأت هذه الأرض عن مكان الوصية فهي منه قريبة، فأمر الأفضل ببناء التربة عند مسجد القدم، وتولى عمارتها بدر الدين مودود والي دمشق، فاتفق وصول العزيز تلك السنة للحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرّب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم استقرأ الأفضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها، فوفق لدار كانت لبعض الصالحين وهي في حدّ المكان الذي زاده الأجل الفاضل في المسجد ، فاشتراها منه وأمر بعمارتها قبة فعمرت، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بكرة الخميس ومشى الأفضل بين يدي تابوته، وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم التي فيها منته، فقال الافضل: كفته أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته، وحمله مماليكه وخدمه، وأولياؤه وحشمه، وأخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، ووضع قدّام باب النصر، وصلى عليه القاضي محيي الدين بن محمد القرشي باذن الأفضل، ثم حمل منه على الرؤوس إلى بطن ملحده، ثم جاء الأفضل وحده، ودخل لحده، وأودعه وخرج وسدّ الباب على أبيه، وجلس هناك في الجامع ثلاثة أيام للعزاء ، وانفقت ست الشام أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً كثيرة.

قـال محمـد بـن القـادسي: وفي يوم السبـت ثـالـث عشر ربيـع الأوّل شاعت الأخبار —يعنـي ببغداد— بوفاة صلاح الدين يـوسف بن أيوب، وذكر أنـه دفن معـه سيفه الـذي كان معـه في الجهاد، وكـان ذلك بـرأي الفاضل وقيـل عنه هذا يتوكأ عليـه إلى الجنة، وأن الفاضل كفنه مـن ماله وتولى غسله الفاضل، وخطيب دمشق.

قلـت: وحكي لي أنـه رأى النبي صلى الله عليـه وسلـم في جماعة مـن الصحابة رضي الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله، وأنهم لما صاروا عند الشباك سجدوا.

ووجدت في بعض الكتب الفاضليـة:«أن رجلا رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلا يقـول له : قد خرج الليلة يـوسف من السجن، وهـو من الاثر النبوي :«الـدنيا سجن المؤمـن وجنة الكـافر»(١٣٦)قال: ومـا كان يـوسفنا رحمة الله عليه في الدنيـا بالاضافة إلى ماصار إليـه في الآخرة إلا في سجن، رضي الله عن تلك الروح، وفتـح له باب الجنة فهو آخر ماكـان يرجوه من الفتوح».

ومن كلام غيره في وفاة السلطان رحمه الله تعـالى :« أفلت الشمس عند الصبـاح ، وذهبت روح الـدنيا الـذي ذهب بـذهابها كثير مـن الأرواح ، وتلك ساعة ظلت لها الألباب حـائرة، وتمثلت فيها السماء مائرة، والجبال سائرة، وأغمـد سيف الله الـذي كان على أعـدائه دائم التجريـد، وخفت الأرض من جبلها الـذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الاسلام وقـد فقدنا ناصره ثاكلا لوحيد، فهو أعظم فـاقد لأعظم فقيد، وليس أحد من الناس إلا.وقـد صم عـن الخبر، وأصيب في سـواد القلـب والبصر».وقال:« وقـد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر» (١٣٧)

وختم كتابه البرق الشامي بقصيـدة رثى بها السلطان رحمه الله عددها

في ديوانه مائتان وثلاثون بيتا أوّلها:

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشية
مرجوّة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا
مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي
لله خالصة صفت نياته
أين الذي ما زال سلطانا لنا
يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله
وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذي عنت الفرنج لبأسه
ذلاً ومنها أدركت ثاراته
اغلال أعناق العدا أسيافه
أطواق أجياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم
أجدت لطب الدهر تدبيراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت
بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من في صدور الكفر صدر قناته
حتى توارت بالصباح قناته
لذا المتاعب في الجهاد ولم تكن
مذ عاش قط لذاته لذاته
مسعودة غدواته محمودة
روحاته ميمونة ضحواته

في نصرة الاســـلام يسهـــر دائما
ليطـــول في روض الجنـــان سنـــاتـــه

لاتحسبـــوه مـــات شخـــص واحـــد
فمات كـــل العـــالمين ممـــاتـــه

ملـــك عـــن الاســـلام كـــان محاميـــا
أبـــداً إذا مـــا أسلمتـــه حماتـــه

قـــد أظلمـــت مـــذ غـــاب عنهـــا دوره
لما خلـــت مـــن بـــدره داراتـــه

دفـــن السماح فليـــس ينبـــش بعـــدمـــا
أودى إلى يـــوم النشـــور رفـــاتـــه

الـــديـــن بعـــد أبي المظفـــر يـــوســـف
أقـــوت قـــواه وأقفـــرت ســـاحـــاتـــه

جبـــل تضعضـــع مـــن تضعضـــع ركنـــه
أركـــاننـــا وتهدّنـــا هـــدّاتـــه

مـــاكنـــت أعلـــم أن طـــوداً شـــامخاً
يهوي ولاتهوي بنـــا مهـــواتـــه

مـــاكنـــت أعلـــم أن بحـــراً طـــاميـــا
فينـــا يطـــم وتنتهـــي زخـــراتـــه

بحـــر خـــلا مـــن وارديـــه ولم تـــزل
محفـــوظـــة بـــوفـــوده حفـــاتـــه

مـــن لليتـــامـــى والأرامـــل راحـــم
متعطـــف مفضـــوضـــة صـــدقـــاتـــه

لـــو كـــان في عصر النبـــي لأنـــزلـــت
في ذكـــره مـــن ذكـــره آيـــاتـــه

فعلى صـــلاح الـــديـــن يـــوســـف دائما
رضـــوان رب العـــرش بـــل صلـــواتـــه

لضريحه سقيـــا السحـــاب فـــإن يغـــب
تحضر لـــرحمة ربـــه سقيـــاتـــه

وكعادة البيت المقدّس يحزن الـ
ـبيت الحرام عليه بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه
من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت
من سبلها وركوبها غزواته
وبسيفه صداء لحزن مصابه
إذ ليس يشفى بعده صدياته
ياوحشتا للبيض في اغمادها
لا تنتضيها للوغى عزماته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت
في كل قلب مؤمن روعاته
يا حسرتا من بأس راحته الذي
يقضي الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه
أسد وإن بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى
فكأنما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السبت وهو لما به
يبدى السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره
والوجه منه تلألأت سبحاته
ويقول لله المهيمن حكمة
في مرضة حصلت بها مرضاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه
لهم ففيم تأخرت ركباته
كانوا وقوفا أمس تحت ركابه
واليوم هم حول السرير مشاته

وممالك الآفاق ساعية له
فمتى تجيء بفتحهن سعاته

هذه مناشير الممالك تقتضي
توقيعه فيها فأين دواته

قد كان وعدك في الربيع بجمعها
هذا الربيع وقد دنا ميقاته

والجند في الديوان جدّد عرضه
وإذا أمرت تجددت نفقاته

والقدس طامحة إليك عيونه
عجل فقد طمحت إليه عداته

والغرب منتظر طلوعك نحوه
حتى تفيء إلى هداك بغاته

والشرق يرجو غرب عزمك ماضيا
في ملكه حتى تطيع عصاته

مغرى بإسداء الجميل كأنما
فرضت عليه كالصلاة صلاته

هل للملوك مضاؤه في موقف
شدّت على أعدائه شدّاته

وإذا الملوك سعوا وقصر سعيهم
رجحت وقد نجحت به مسعاته

كم جاءه التوفيق في وقعاته
من كان بالتوفيق توقيعاته

قال: ووجد بخط العماد في حاشية ديوانه كانت علامته «الحمد لله وبه توفيقي»

ياراعيا للدين حين تمكنت
منه الذئاب وأسلمته رعاته

ما كان ضرك لو أقمت مراعيا
دينا تولى مذ رحلت ولاته

أضجــرت منــا أم أنفــت فلــم نكــن
نصــاب لشــدّة ضجــراتــه

أرضيت تحت الأرض يامن لم يزل
فــوق السماء عليــة درجــاتــه

فــارقــت ملكــا غير بــاق متعبــا
ووصلــت ملكــاً بــاقيــا راحــاتــه

اعــزز على عينــي بــرؤيــة بهجــة الــ
ــدنيا يــأبــى مــا الكــرام أبــاتــه

لا تقتــدوا إلاّ بسنــة فضلــه
لتطيــب في مهــد النعيــم سنــاتــه

وردوا مــوارد عــدلــه وسماحــه
لتردعــن نهج الشمات شماتــه

ولئــن هــوى جبــل لقــد بنيــت لنــا
ببنيــه مــن هضبــاتــه ذرواتــه

وبفضــل أفضلــه وعــز عــزيــزه
وظهــور ظــاهــره لنــا سرواتــه

الأفضــل الملــك الــذي ظهــرت على الــ
ــدنيا بــزهــر جــلالــه جلــواتــه

والــديــن بــا لملــك العــزيــز عماده
عثمان حــاليــة لنــا حــالاتــه

والملك غــازي الظــاهــر العــالي الــذي
صحــت لاظهــار العلى مغــزاتــه

ولنــا بسيــف الــديــن أظهــر نصرة
بــالعــادل الملــك المطهــر ذاتــه

وللعماد فيه قصيدة أخرى:

مــن للعــلا مــن للــذرى مــن للهــدى
يحميــه مــن للبــأس مــن للنــائل

- ٨٨٨٨ -

طلب البقاء لملكه في آجل
إذ لم يثق ببقاء ملك العاجل

بحر أعاد البر بحراً بره
وبسيفه فتحت بلاد الساحل

من كان أهل الحق في أيامه
وبعزه يردون أهل الباطل

وفتوحه والقدس من ابكارها
أبقت له فضلاً بغير مساجل

ما كنت أستسقي بغيرك وابلاً
ورأيت جودك مخجلاً للوابل

فسقاك رضوان الإله لأنني
لا أرتضي سقيا الغمام الهاطل

فصل

في تركة السلطان ووصف أخلاقه رحمه الله

ذكر القاضي ابن شداد أنه لما مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية، وديناراً واحدًا ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكا لا دارا ولاعقارا، ولا بستانا ولا مزرعة يعني في البلد، ولا مسقفا ولا ظاهرا مستغلا من أنواع الاملاك.

وقا ل العمادفي كتاب الفتح: خلف السلطان رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا، وابنة صغيرة، وأبقى له مآثر أثيره، ومحاسن كثيرة، ولم يخلف في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما، فإنه كان باخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما،وكان يجود بالمال قبل الحصول، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، وإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه، وخص الآحاد من ذوي الغنا في الجهاد بآلافه، ولاجبه أحدا بالرد إذا سأله، بل تلطف له كأنه استمهله، فإنه يقول ما عندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطى، وإن كان يبطى ، وأنه يصيبه بالنوال ولا يخطى، وكان مشغوفا في سبيل الله بالانفاق موقوفا عزمه في الأعداء بإدناء الآجال ، وفي الأولياء بإجراء الأرزاق، وماعقر في سبيل الله فرس أوجرح إلا وعوض مالكه مثله، وزاده من فضله فضله، وحسب ماوهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه في صف الجهاد، مدة ثلاث سنين وشهر مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان تقديره إثني عشر ألف رأس من حصان وحجرة واكديش ، وذلك غير ما أطلقه من المال في اثمان الخيل المصابة في القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أوموعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وماحضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وهجر جياده، فاذا نزل جاء

صاحبه واستعاده، فكلهم يركب خيله، ويطلب خيره، وهو يستعيرجوادا، ويستعر في الجهاد اجتهاداً.

قال في البرق: وحضرت بعده عند بعض الملوك وقد قيدت إليه عراب، فقيل له: كان السلطان يضيع هذه،وماعنده لهاحساب، ونسبوا جوده بها إلى السرف وعدوّه من معايبه، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه، وبمثل ذلك استتبت له الفتوح وخلصت له طاعة كتائبه.

قا ل في الفتح: وكان لايلبس إلا مايحل لبسه، وتطيب به نفسه، كالكتان والقطن والصوف، وكسوته يخرجها في اسداء المعروف ، وكانت محاضره مصونة من الخطر وخلواته مقدّسة بالطهر، ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل، ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل ، وماسمعت له قط كلمةتسقط، ولا لفظة فظة تسخط، ويغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد، ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية، وكان من جالسه لايعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد أنه مجالس أخ من الأخوان، وكان حليماً مقيلاً للعثرات، متجاوزا عن الهفوات، تقيا نقيا، وفيا صفيا، يغضي ولا يغضب، ويبشر ولا يتقطب، ماردّ سائلا ولا صدّ نائلا، ولا أخجل قائلاً، ولا خيب آملاً .

قال: ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان، فلما وصل سأله عن سبب تخلفه، فذكر دينا فأحضر غرماءه، وتقبل بالدين ، وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا.

قال: ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب إليه سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر، أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي

دينار، وتسحب، وربما وصل إلى الباب، فتحيل وتمحل وكذب، فجاء من أخبر السلطان أن الرجل بالباب،فقال: قل له: إن ابن منقذ يطلبك فاجهد أن لا تقع في عينه، فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا قدم الرجل إلى حينه بقدمه.

قال: ومما أذكره له في أول سفرتي معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين، أنه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه ، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه، فماطلبها ولا ذكرها ، وأراه أنه ماعرفها، على أن صاحب الديوان ماأنكرها، وكان يرضى من الأعمال بما تحمل صفوا عفوا، وتحصل حلوا ، وكله يخرج في الجود والجهاد، ثم لم يرض له بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

قال: ولما كنا بظاهر حران عم بصدقاته الفقراء والمساكين، وكتب إلى نوّابه في الولايات بإخراج الصدقات وقال لي: اكتب إلى الصفي بن القابض بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت :إنما الذهب الذي عنده مصري، فقال :فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية ، واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما، ويرتكب في كسب الأجر آثاما، فسمح ومنح، وتاجر الله وربح،ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الاحسان، وقال لي يوم الرحيل: انظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلاثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم، وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة، فعينت لكل اسم قسما فبلغ أربعمائة دينار، فأعلمته وقلت أنقص من كل اسم ربعا، فقال اجر ما جرى القلم به.

قال: وكان رحمه الله إذا أطلق لعاف عارفة، وقلت له: هذه ماتكفيه ردّها مضاعفة.

قال: وكان يغضب للكبائر، ولا يغضي عن الصغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمر، ويأمر بالسداد، فكل مماليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد.

قال: ورأى لي يوماً دواة محلاة بالفضة،فأنكرها، فقلت له: إن الشيخ أبا محمد والد أبي المعالي قد ذكر وجها في جوازها، ثم لم أكتب بها عنده بعدها.

وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظبا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها، فما رأيته صلى إلا في جماعة ، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة، وكان له امام راتب ملازم مواظب، فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم، إذاعرفه متقيا متجنبا للاثم، وكان يأخذ بالشرع ويعطي به، ولم يكن إلى المنجم مصغيا، ولم يزل لقوله ملغيا،ولا يتعيف ولا يتطير، ولا يتعين ولا يتحير، بل إذا عزم توكل على الله، فلا يفضل يوما على يوم، ولازمانا على زمان إلا بتفضيل الشرع، ومازال ناصراً للتوحيد، وقامعا جميع اهل البدع بالتبديد، شافعي المذهب أصولا وفروعا، معتقلا له معقولا ومسموعا، يدني أهل التنزيه، ويقصي أهل التشبيه، ويديم استفادة فقه الفقيه،واستزادة نباهة النبيه، ووجاهة الوجيه، فالعالمون في عدله،والعاملون في فضله والبلاد في أمنه، والعباد في منه.

- ٨٨٩٣ -

فصل

قال القاضي ابن شداد: كان مولد السلطان رحمه الله في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت، وكان والده أيوب بن شادي واليا بها، وكان كريما، أريحيا حليما، حسن الأخلاق مولده بدوين، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل، وانتقل ولده المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع، وكان والده محترما مقدّما، هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام واعطي بعلبك وأقام بها مدّة ومعه ولده المذكور، فأقام في خدمة والده يتربى تحت حجره، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، وقدّمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وعوّل عليه، ونظر إليه وقربه وخصصه، ولم يزل كلما تقدم قدما يبد منه أسباب تقتضي تقديمه إلى ماهو أعلى منه، حتى اتفق لعمه أسد الدين شيركوه الحركة إلى مصر، والنهوض إليها وقد مضى ذلك.

ثم قال:

ذكر ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية

مماورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:«بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله الا الله، وإقام الصلاة،وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام» فكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، ويتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا

حسنا، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل، جاريةعلى نمط الاستقامة، وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابوري رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدّة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم عليه.

وأما الصلاة فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، وكان يواظب على السنن والرواتب، ولقد رأيته يصليها إن استيقظ بوقت الليل وإلا اتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه، ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما، وماترك الصلاة إلا في الايام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهوسائر نزل وصلى.

وأما الزكاة فانه مات رضي الله عنه ولم يحفظ ماوجبت عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل فانها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال.

وأما صوم رمضان فإنه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة،وكان القاضي الفاضل قدتولى ثبت تلك الأيام، وشرع رحمه الله في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة التي توفي فيها، وواظب على الصوم مقدارا زائدا على شهر فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها، وكان الصوم لايوافق مزاجه فألهمه الله الصوم لقضاء الفوائت، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها ، فان القاضي كان غائبا، والطبيب يلومه وهو لايسمع ويقول: ماأعلم مايكون ، فكأنه كان ملهما براءة ذمته، ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله.

وأما الحج فإنه لم يزل عازما عليه وناويا لـه لاسيما في العام الذي توفي فيه، فـإنه صمـم العزم عليه وأمـر بالتأهـب، وعملت الـزوادة ولم يبق إلا المسير، فـاعتاق عـن ذلـك بسبب ضيـق الوقـت ، وفـراغ اليد عما يليـق بأمثاله، فأخره إلى العام المستقبل، فقضى الله ماقضى.

قـال: وهـذا شيء اشترك في العلم بـه الخاص والعـام، وكـان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى أنه كـان يستخير إمامه، ويشترط عليه أن يكون عالما بعلـوم القرآن العظيم متقنا لحفظه، وكـان يستقرىء من يحضره في الليـل، وهو في بـرجـه الحزبين والثلاثـة والأربعـة وهـو يسمع، وكـان يستقرىء في مجلسه العام مـن جرت عادته بذلك الآيـةوالعشرين والزائد على ذلـك، ولقـد اجتـاز على صغير بين يـدي أبيـه وهـو يقـرأ القـرآن، فاستحسن قراءتـه فقرّبه وجعل له حظا من خاص طعـامه، ووقف عليه، وعلى أبيه جزءا من مـزرعة،وكان رحمه الله خاشع القلب رقيـق الدمعة إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمـع عينه في معظم أوقاته، وكان شديد الرغبـة في سماع الحديث،ومتـى سمع عـن شيخ ذي روايـة عاليـة وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمـع عليه، واسمع من يحضره في ذلـك المكان مـن أولاده ومماليكـه والمختصين بـه، وكان يـأمر النـاس بالجلـوس عند سماع الحديـث اجلالًا له، وإن كـان الشيخ ممـن لايطرق أبواب السـلاطين ويتحامـى عن الحضور في مجالسهـم سعى إليـه وسمع عليه، تـردد إلى الحافظ السلفي بالاسكنـدرية وروى عنه أحـاديث كثيرة، وكان يحب أن يقـرأ الحديث بنفسـه، فكان يستحضرني في خلـوته ويحضر شيئامـن كتب الحديـث، ويقرأ هـو فإذا مـر بحديـث فيه عبرة رق قلبـه ودمعت عينـه، وكان كثير التعظيـم لشعائر الديـن قائلا ببعـث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بـالنار، مصدقا بجميع ماوردت بـه الشرائع منشرحـا بـذلـك صـدره، مبغضـا للفـلاسفـةوالمعطلـة والدهريـة،ومن يعاند الشريعة المطهـرة ، ولقد أمر ولده الظاهـر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له السهـروردي، قيل عنه أنه كان معانداً

للشرائع مبطلا، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرّف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياما فقتله، وكان حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه، فحكى التجاءه إلى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرنج بيت المقدس،وامتناع أصحابه من دخوله للحصر، فصلى ودعا فكفي ذلك، وقد تقدّم ذكره.

ثم قال: وكان رحمه الله عادلا رؤوفا رحيما ناصرا للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على أنه كان في جميع زمانه قابلا لمايعرض عليه من القصص، كاشفا لما ينهى إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ثم يجلس مع الكاتب ساعة في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق اللهعلى قلبه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته،وأخذ قصته، وكشف قضيته، ولقد ر أيته وقد استغاث إليه انسان من أهل دمشق، يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه، وأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحكم، فما خلصه إلا أن أشهد عليه شاهدين أنه وكل القاضي أمين الدين أبا القاسم قاضي حماه في المخاصمة، فأقاما الشهادة عندي في مجلسه، فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه،وكان من خواص جلساء السلطان، ثم جرت المحاكمة بينهماواتجهت اليمين على تقي الدين، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه،وأعظمهم عنده ، ولم يحابه في الحق.

قال: وكنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل عليّ شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي، ومعه كتاب حكمي سأل فتحه، وقال: خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، وقد سمعنا

انـك لاتحابي، فقلـت : وفي أي قضيـة هـو خصمـك، فقـال: إن سنقـر الخلاطـي كان مملـوكـي، ولم يزل على ملكـي إلى أن مـات، وكان في يـده أموال عظيمة كلها لي، ومات عنها، واستـولى عليها السلطان وأنا مطالبه، فقلت: يـاشيخ وما الـذي أقعدك إلى هذه الغـاية فقال: الحقـوق لاتبطل بالتـأخير، وهذا الكتاب الحكمـي ينطق بأنه قـد اشتراه من فلان التـاجر بأرجيش في اليوم الفلاني من شهر كـذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا، وماعـرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكـه بوجـه وتمم الشرط إلى آخره، فتعجبـت من هـذه القصة،وأعلمـت السلطـان بذلـك، فأحضره واستـدنـاه حتى جلس بين يدي، وكنـت إلى جانبه ثم انفـرك من طرّاحته حتى ساواه رحمه الله تعالى، ثـم ادّعى الرجل وفتح كتابه وقرىء تاريخه، فقـال السلطان :إن لي من يشهد أن سنقر هذا كان في ملكـي وفي يدي بمصر، وأني اشتريته مـع ثمانية أنفس في تـاريخ متقدم على هذا التـاريخ بسنة وأنه لم يزل في يـدي وملكي إلى أن اعتقته، ثم استحضر جماعة مـن أعيان الأمراء المجاهـدين فشهدوا بذلـك وحكوا القضية كماذكـرها، وذكـروا التاريخ كما ادّعـاه، فأبلس الـرجل فقلـت له: يامولانـا هذا الرجل مـا فعل ذلك الا طلبا لمراحـم السلطان، وقد حضر بين يدي المولى ومايحسـن أن يرجع خائب القصد، فقال: هـذا باب آخر، وتقدّم له بخلعة ونفقة بالغة.

قال: فانظر إلى ما في طي هذه القضيـة من المعاني الغريبة العجيبة من التواضـع والانقياد إلى الحق وإرغـام النفس، والكـرم في موضـع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمة الله عليه.

قال: وكرمه كان أظهر مـن أن يسطر، كان رحمه الله يهب الأقاليم وفتح آمد فطلبها منـه ابن قرا أرسلان فأعطـاه إياها، ورأيته وقـد اجتمع عنده وفود بـالقدس ولم يكـن في الخزانة مانعطيهـم، فباع قـرية مـن بيت المال وفضضنا ثمنها عليهـم ولم يفضل منه درهم واحد، وكـان يعطي في وقت

الضائقة كما يعطى في حال السعة، وكان نواب خزانته يخفون عنه شيئا من المال حذر أن يفجأهم لعلمهم أنه متى علم به أخرجه، وسمعته يوما يقول: يمكن في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب، فكأنه أراد بذلك نفسه، وكان يعطي فوق مايؤمل الطالب،وماسمعته يقول: أعطينا لفلان، وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه للمعطى بسط من لم يعط شيئا، وكان الناس يستزيدونه في كل وقت، وماسمعته قط يقول: قد زدت مرارا فكم أزيد؟ وأكثر الرسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة مايطلبون، ولا أخجل منه لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك، وماخدمه قط أحد الاّ وأغناه عن سؤال غيره.

وأما تعدد عطاياه فقال: حصرنا عدد ماوهب من الخيل بمرج عكا لاغير فكان عشرة آلاف رأس، ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر، اللهم إنك ألهمته الكرم، وأنت أكرم الأكرمين فتكرّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

قال: وكان رحمه اللهمن عظماء الشجعان،قوي النفس شديد البأس،عظيم الثبات لايهوله أمر، ولقد رأيته مرابطا في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لايزداد إلا قوة نفس، وصبرا، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لايزداد إلا قوة نفس، ولقد كان يعطي دستورا في أوائل الشتاء، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرة، ولقد سألت باليان بن بارزان،وهو من كبار ملوك الساحل، وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدتهم الكثيرة، فقال الترجمان عنه أنه يقول كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحاورنا فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرته أنا بستمائة ألف، أوقال عكس ذلك، فقلت: كم هلك منهم؟ فقال: أما بالقتل فقريب

مائة ألـف، وأما بـالموت والغرق فـلا يعلم، ومـارجع مـن هذا العـالم إلا الأقل.

قال: وكـان لابدّ له مـن أن يطوف حول العـدو كل يوم مـرة أو مرتين إذا كنا قريبا منهم، وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحـد، وعلى يده جنيـب، ويخرق العساكـر من الميمنـة إلى الميسرة يرتـب الأطلاب ويأمرهم بالتقدّم والوقـوف في مواضع يراها،وكان يشارف العدو ويجاوره، ولقد قرىء عليه جزء مـن الحديث بين الصفين، وذلك أني قلت لـه قدسمـع الحديث في جميـع المواطن الشريفـة، ومانقـل أنه سمـع بين الصفين، فـإن رأى المولى أن يؤثـر عنه ذلـك كان حسنـا، فأذن في ذلـك فـأحضر جـزءا هناك مـن لـه بـه سماع، فقـرىء عليه ونحـن على ظهـور الدواب بين الصفين يمشي تـارة ويقف أخرى، ومـا رأيته استكثـر العدو أصـلا، ولا استعظـم أمـرهـم قـط، وكـان مـع ذلـك في حـال الفكـر والتدبيريذكر بين يـديه الأقسام كلها، ويرتب على كـل قسم مقتضاه من غير حدّة ولا غضب يعتريه، ولقـد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقـع الكوس والعلم وهوثابت القدم في نفـر يسير، وقد انحـاز إلى الجبل يجمـع النـاس ويردّهـم ويخجلهم حتـى يرجعوا، ولم يـزل كذلك حتى عكس المسلمون على العـدو في ذلك اليوم، وقتل منهـم زهاء سبعـة آلاف مابين راجـل وفارس، ولم يـزل مصابـرا لهم وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر لـه ضعف المسلمين فصالح وهومسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهـم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة، ونحن لانتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح.

وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريـه أحوال مهولة وهوصابـر مرابط وتتراءى النـاران ونسمع منهـم صـوت الناقـوس، ويسمعـون منا صـوت الآذان إلى أن قضي الأمر.

قال: وكـان رحمه الله شديد المواظبـة على الجهاد عظيم الاهتمام بـه ولو حلف حـالف أنه ماأنفـق بعد خروجه إلى الجهـاد دينارا ولا درهما إلا في الجهـاد، وفي الارفـاد، لصـدق وبـر في يمينـه، ولقـد كـان الجهـاد وحبـه والشغف بـه قد استولى على قلبه وسـائر جوانحه استيـلاء عظيما، بحيث ماكـان له حديـث إلا فيه ولا نظـرإلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجـاله، ولا ميل إلا إلى مـن يذكره ويحث عليه، ولقـد هجر في محبة الجهـاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وقنـع من الدنيا بالسكون في ظل خيمـة تهب بها الرياح يمنةويسرة، ولقـد وقعت عليه الخيمـة في ليلة ريحة على مرج عكا، فلـو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيـده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما.

قلت: وشـواهد ماذكـر القاضي من ذلـك كثيرة، وقد سبقت مفـرقةفي وقعاته رحمه الله، منها ماقاساه على حصـار كوكب من الأمطار والأوحال، وقال الرشيد بن النابلسي من قصيدة له:

مـا أبهج الـديـن والـدنيـا بما لكهـا الصـــديق يـوسـف لا لاذت بـه الغير

ملـك تسـاوى جمادى في الجهـادوتمـــموز لـديـه وضـاهـى نـاجـراً صفـر

فليـس يثنيـه حـران تـوقـد عـن رضـى الالـه ولا إن اغـدق المطـر

ولا ينهنهـه عما يكـابـده ضـجّ أعيـذ معـاليـه ولا ضجـر

ولا يـرى الـروح إلا ظهـر سلهبـة في بطـن معـركـة مـركـوبها وعـر

صبر جميـل كطعـم الشهـد في فمـه وعنـد كـل مليـك طعمـه الصبر

قـال القـاضي: وكـان الـرجـل إذا أراد أن يتقـرب إليـه يحثـه على

الجهاد،أويذكر شيئا من أخبار الجهاد،ولقد ألف له كتب عدّة في الجهاد،وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت به آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي فيه، وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيراً مايطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل.

قال: ولأحكين عنه ماسمعت منه في ذلك، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين، وأعطى العساكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدمه أخاه العادل، فسار معه ليودعه، ويحظى بصلاة العيد في القدس ففعل ووقع له أنه يمضي معهم إلى عسقلان ويودعهم، ثم يعود على طريق الساحل ويتفقد البلاد الساحلية إلى عكا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لايفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة ، والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا على الساحل طالبي عكا، وكان الزمان شتاء عظيما، والبحر هائجا هيجاناعظيما، وموجه كالجبال ، كماقال الله تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي قادر: لو جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدينا، لما كنت أفعل، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم واستخففت رأي من لايقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه، فبينا أنا في ذلك اذ التفت اليّ وقال: في نفسي انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لاأبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ماكان يخطر لي، وقلت له ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى، ولا أقوى نية منه في نصرة دين الله، وحكيت له ماخطر لي، ثم قلت ما هذه إلآنية جميلة، ولكن المولى يسير في البحر العساكر، وهو سور الاسلام ولاينبغي أن يخاطر بنفسه، فقال:

أنا أستفتيك ماأشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال:غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات، قال: انظر الى هـذه الطوية ماأطهرها، وإلى هذه النفس مـاأشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنـه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه.

قال: وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكـا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثـرة دماميـل، كانـت ظهرت عليـه من وسطـه إلى ركبته بحيـث لايستطيـع الجلوس، وإنما يكـون متكئـا على جـانبه إذا كـان في الخيمـة، وامتنع من مد الطعـام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكـان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مـع ذلك كله يركـب من بكرة النهار إلى صـلاة الظهر يطوف على الأطـلاب، ومن صلاة العصر إلى صـلاة المغرب وهو صـابر على شدّة الألم وقوّة ضربـان الدمامل، وكان يعجب مـن ذلك فيقول رحمه الله: إذا ركبـت يزول عنـي ألمها حتـى أنزل، وهـذه عنـاية ربـانية، ولقـد مرض ونحن على الخروبـة،وكان قد تأخـر عن تل الحجل بسبـب مرضه، فبلغ الفرنـج ذلك فخرجوا طمعـا في أن ينالوا من المسلمين شيئـا بسبب مرضه، وهي نوبة النهر فخرجـوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، ثـم رحـل العدو في اليـوم التالي يطلبنـا، فركـب رحمه الله على مضض ورتـب العسـاكر للحـرب وجعل أولاده في القلـب، ونزل هـو وراء القوم بطلبـه، وكلما سـار إلى العدو يطلـب رأس النهـر سار هـو يستـدير إلى ورائهـم، حتـى يقطع بينهـم وبين خيـامهم، وهـو رحمه الله يسير سـاعـة ثم ينـزل يستريح ويظلل بمنديل على رأسه مـن شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لايـرى العدو ضعفا، ولم يزل كـذلك حتى نزل العـدو برأس النهر ونزل هـو على تل قبالتهم مطـل عليهم إلى أن دخل الليل، ثـم أمر العساكر أن تعود إلى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو إلى قمة الجبل، وضربت له خيمة لطيفة، وبات تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغلـه، وهوينام تارة ويستيقظ تارة أخـرى حتى لاح الصباح، ثـم ضرب البوق وركـب رحمه الله، وركبت العسـاكـر، وأحدقـت بالعـدو

ورحل العدو عائدا إلى خيمه من الجانب الغربي للنهر، وضايقه المسلمون مضايقة شديدة، وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتسابا: الأفضل والظاهر، والظافر، وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا وطبيب وعارض ا لجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لاغير فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقا كثيرا، وليس تحتها إلا واحد يعد بخلق عظيم رحمه الله، وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل مابـاتوا عليه بارحتهم، وبتنا على مابتنا عليه إلى الصباح، وعاد العسكر إلى ماكان عليه بالأمس من مضايقة العدو.

قال: ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها، وقال :لاننام الليلة حتى ينصب لنا خمسة مجانيق، ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته في ألذ فكاهة وأرغد عيشة والرسل تتواصل مخبرة بأنه نصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن الآخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها، وكانت من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطراً.

قال :ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى اسماعيل، فوقف على الكتاب، ولم يعرف أحد ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه رحمه الله.

قال: ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقي الدين، ونحن في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام،ويقف الناس على ظهر إلى الصباح والعدو بيازور بيننا وبينه شوط فرس لاغيرها، فأحضر العادل وابن جندر وابن المقدم وابن الداية سابق الدين، وأمر بالناس فأُبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديدا حتى أبكانا

مـن غير أن نعلـم السبـب، ثـم قـال رحمه الله والعبرة تخنقـه: تـوفي تقـي الدين، فـاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عـدت إلى نفسي فقلت: أستغفر الله من هذه الحالـة وانظروا أين أنتم، وأعرضـوا عما سواه، فقال رحمه الله: نعم أستغفر الله، وأخذ يكررها ثم قال: لايعلم هذا أحد.

قـال: وكان رحمه الله شـديـد الشوق والشغـف بـأولاده الصغار، وهـو صابـر على مفارقتهـم راض ببعدهـم عنه، وكـان صابـرا على مر العيش وخشونتـه مع القدرة التـامة على غير ذلك احتسـابا لله تعالى، اللهـم إنه ترك ذلك كله ابتغاء لمرضاتك فارض عنه.

قـال: ولقد كـان رحمه الله حليما متجاوزا قليـل الغضـب، ولقد كنـت بخدمتـه بمرج عيون قبـل خروج الفـرنج إلى عكا، يسر الله فتحهـا، وكان من عادته أنه يركب في وقت الركـوب، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس، ثـم ينهض إلى خيمة خاصـة له ينام فيهـا ثم يستيقظ من منـامه ويصلي ويجلس خلـوة، وأنا في خدمته يقـرأ شيئا من الحديث أوشيئـا من الفقه ولقد قرأ عليّ كتابا مختصرا لسلـم الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة مـن الفقه، فنـزل يومـا على عـادته ومـدّ الطعـام بين يديـه ثم عـزم على النهوض فقيـل له: إن وقـت الصلاة قـد قرب، فعـاد إلى الجلوس وقـال: نصلي وننـام، ثم جلـس يتحدث حـديث متضجـر وقد أخلي المكـان إلا عمن لـزم، فتقدم إليـه مملوك كبير محترم عنده وعـرض عليه قصـة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجر أخـرها ساعة، فلم يفعل وقدّمها إلى قريب مـن وجهه الكريم بيده وفتحهـا بحيث يقرؤها، فـوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه وقال :رجل مستحـق، فقال يوقع له المولى فقال: ليست الدواة حـاضرة الآن، وكان رحمه الله جالسا في بـاب الخركاة بحيث لايستطيع أحـد الدخـول إليها والـدواة في صدز الخركـاه والخركاة كبيرة، فقال لـه المخاطب هـاهي الدواة في صـدر الخركاه، قال القـاضي :فليس لهذا معنـى إلاأمـره إيـاه بـإحضار الـدواة لاغير، فـالتفـت رحمه الله فـرأى

الدواة، فقال: والله صدق، ثم استند على يده اليسرى، ومد يده اليمنى، واحضرها، ووقع له، فقلت: قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم:(وانك لعلى خلق عظيم)(١٣٨) ومأأرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال: ماضرنا شيء قضينا حاجته، وحصل الثواب، قال القاضي: ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الاحسان والحلم، (والله لايضيع أجر المحسنين)(١٣٩).

قال: ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لايتأثر لذلك، ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتبسم، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس،كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ماكان عليه، وهو يتبسم،وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني ، ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر و القبول.

ثم قال القاضي: وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها، فذكر ماتقدم من امتناع عسكره من الهجوم على ملك الانكلتيز، وهو في جمع يسير من اصحابه بعد أن أطافوا بهم، وواجه الجناح السلطان بذلك الكلام الخشن، فرجع السلطان مغضبا وظن أنه ربما صلب وقتل في ذلك اليوم، فنزل بيازور، وقد وصله من دمشق فاكهة كثيرة فطلب الأمراء ليأكلوا،فحضروا فرأوا من بشره وانبساطه ماأحدث لهم الطمانينة والأمن والسرور.

قال: وكان رحمه الله كثير المروءة، ندي الوجه كثير الحياء منبسطا لمن يرد عليه من الضيوف، يكرم الوافد عليه،وإن كان كافرا، ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته،

بعد وقوع الصلح في شوّال عند منصرفه من القدس الى دمشق، وقد تقدم ذلك وعرض له في الطريق، وطلب منه شيئا، فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة أربع وثمانين، ولقد رأيته وقد دخل إليه صاحب صيدا فاحترمه واكرمه وأكل معه، وعرض عليه الاسلام وذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه، وكان يكرم من يرد عليه

من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا لئلا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين ، حتى نحضرهم عنده وينالهم من احسانه، ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوي الأقدار، وكان أبوه صاحب توريز، فأعرض هوعن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل، وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس، ولما قضى لبانته منه ورأى اثار السلطان فيه، وقع له زيارته فوصل إلينا إلى العسكر، فلقيته ورحبت به، وعرفت السلطان وصوله فاستحضره وشكره عن الاسلام وحثه على الخير، وانصرف وبات عندي في الخيمة ،فلما صلينا الصبح أخذ يودّعني، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال: قضيت حاجتي منه ولاغرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته، ثم انصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال، فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله،فظهر عليه اثار العتب كيف لم اخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا، وشدّد النكير عليّ في ذلك، فماوجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين قاضي دمشق، كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، وايصال رقعة كتبتها اليه طي كتابي أخبرته فيها بانكار السلطان رواحه من غير اجتماع به، وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك فعاد واجتمع بالسلطان، فرحب به وانبسط معه واستوحش له، وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة،و أعطاه مركوبا لائقا وثيابا كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاء لأيامه.

قال: ولقد ر أيته رحمه الله وقد مثل بين يديه أسير فرنجي ، وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجزع ، فقال له الترجمان : من أي شيء تخاف فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ماأرى إلا خيرا فمنّ عليه وأطلقه، ورق له.

قال: وكنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الفرنج ووصل بعض اليزكيةومعه امرأة شديدة التحرق، كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها، فذكر قصة أم الرضيع الذي سرق وقد مضت.

قال: وكان رحمه الله لايرى الاساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الجناية، ولقد بدل في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئا سوى أنه صرفهم من عملهم لاغير، وكان رحمه الله حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه مالايسمعه من غيره، وكان يسأل الواحد مناعن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلبات أحواله ، وكان طاهر المجلس لايذكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا بالخير، وطاهر اللسان فما رأيته أولع بشتم قط، وطاهر القلم فما كتب بقلمه أذى لمسلم قط، وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفه، وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه، إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز مايكفي حاجته، وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان مايرى شيخا إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته، ومحل رضوانه.

قلت: ولجعفر بن شمس الخلافة من قصيدة رثاه بها:

ألست ترى كيف انبرى الخطب ثائرا
ومدّ يداً منه إلى دافع الخطب

إلى الناصر الملك الذي ملئت به
قلوب البرايا من رجاء ومن رعب

كريم أتاه الموت ضيفا فلم يكن
لينزله إلا على السهل والرحب

ولو خاب منه قبل ذلك سائل
لخاب وليس البخل من شيم السحب

قضى فقضى المعروف وانقرض الندى
وحطت رحال الوفد في الشرق والغرب

أفاض على الدنيا سجال نواله
فغاضت عليه أعين العجم والعرب

ولو أنه يبكى على قدر حقه
أسال دموع المزن من أعين الشهب

جزاه عن الاسلام خيرا إلهه
فما مل عنه من دفاع ومن ذب

تداركه بعد ابتذال فقد غدا
وكان شديد الخوف من مقارنة الصلب

أذل الله العدا مذ أطاعه
وسهل منهم كل ممتنع صعب

سقى الخلد عند الله دار مقره
يمتع منه بالجوار وبالقرب

فصل

في انقسام ممالكه بين أولاده وأخوته وبعض ماجرى بعد وفاته

قال العماد في كتاب البرق: خلف السلطان سبعة عشر ولداً.

أكبرهم الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائة، وتولى بعده دمشق إلى أن خرج منها إلى صرخد، وتولاها عمه العادل في شعبان سنة اثنتين وتسعين مضافة إلى ممالكه بالبلاد الشرقية والجزيرة وديار بكر.

ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان، ومولده بمصر ثامن من جمادى الاولى سنة سبع وستين، وتوفي بها في ملكه ليلة الاحد العشرين من محرم سنة خمس وتسعين، وتولى بعده احد اولاده الصغار.

ثم الملك الظاهر غياث الدين غازي، ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنة ثمان وستين، وتولى حلب واعمالها.

قال :ولقد أنشأت الرسالة الموسومة بالعتبى والعقبى فيما طرأ بعد السلطان إلى آخر سنة اثنتين وتسعين.

وقال في كتاب الفتح :تولى الملك الأفضل دمشق والساحل ومايجري مع ذلك من البلاد، وهو الذي حضر وفاة والده، وقام بسنة العزاء، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وإدناء الاولياء، وخلع على الاماثل والامراء والافاضل والعلماء وآوى اليه اخوته، وضم جماعته، وجهز اخاه الظافر خضرا مظفر الدين وانهضه لانجاد عمه العادل، كما سنذكره، وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك ومايجري معها في المملكة

الافضلية داخله، وقدم عليه سلطاناهما الملكان المجاهد والامجد الى دمشق، فتأكدت بينهم القرابة والالفة، ولما استقر الافضل بدمشق في مقام والده قدّم الى الديوان العزيز نجابين بانهاء الحال، ثم ندب ضياء الدين بن الشهرزوري في الرسالة، واصحبه عّدة والده في الغزاة وسيفه، ودرعه وحصانه، واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ماستنفد وسعه وامكانه، فما تهيأ مسير الرسول إلا في اواخر جمادى الآخرة، حتى حصل كل ما أراد من الهدايا الفاخرة، وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله، حتى لايظن انه انفرد بسوله، وقصد مداراة اخوته، وفضل بفضل نخوته، وذلك بعد ان جدّد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين وولي العهد عدّة الدين.

وقال ابن القادسي: وفي يوم الثلاثاء مستهل رمضان حمل ابن الشهرزوري ماكان أصحبه الافضل من حمل الشام الى الديوان العزيز، وهو صليب الصلبوت الذي كان قد أخذه والده، وذكر أنه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر، ومعه خادم مختص بخدمته، وحمل فرس أبيه وزرديته وخوذته وكانت صفراء مذهبة، ودبوس حديد وسيف وأربع زرديات، وقالوا هذه تركته وبها كان يقاتل، وتحفا جمة من الثياب، وحمل في جملة التحف أربع جوار من بنات ملوك الروم فيهن ابنة بارزان، وبنت صاحب جبلة.

قال العماد: وأمرني بانشاء الكتب وتحريرها، وتقريب المقاصد وتقريرها، منها :«اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء، ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر النعماء، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء، وطرفه مغض من الحياء، وهو للارض مقبل، وللفرض متقبل، وهو يمت بما قدمه واسلفه من الخدمات وذخره ذخر الأقوات لهذه الأوقات، وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السعيد الشهيد الشديد السديد المبير

للشرك المبيـد، لم يزل أيـام حياتـه، وإلى سـاعة وفـاته مستقيما على جـدد الجدّ، مستقيما في صون فريضة الجهاد إلى بـذل الجهد، ومصر بل الامصار باجتهـاده في ا لجهاد شاهده، والأنجـاد والأغوار في نظره واحـدة، والبيت المقدس من فتوحـاته، والملك العقيم من نتائج عزماتـه، وهو الذي ملك ملوك الشرق وغـل اعناقها، وأسر طـواغيت الكفـز وشدّ خناقهـا، وقمع عبدة الصلبـان وقطع اصلابها، وجمع كلمـة الايمان وعصم جنـابها، ونظم أسبابها، وسـدّ الثغور وسـدد الأمور، وقبض وعـدله مبسـوط وامره محوط، ووزره محطوط، وعملـه بالصـلاح منوط، ومـاخرج مـن الدنيـا الا وهو في حكم الطاعة الإمامية داخل، وبمتجـرها الرابح الى دار المقامة راحل، ولم تكـن له وصيـة الا بالاستمـرار على جادتها والاستكثـار من مـادتها، وان مضى الوالد على طاعة إمامه، فالمماليك أولاده وأخواه في مقامه».

قال: وتـولى ولده الملـك العزيـز أبو الفتـح عثمان مصر وجميع اعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونقاها مـن شوائب اختلالها واعتلالها، واحيى سنتي الجود والباس، وثبـت القواعد من حسـن السياسة على الاسـاس، واطلق كل ماكان يؤخـذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة، وضـاعف ماكان يطلق بـرسم العفـاة، وقدّم أمـر بيـت الله المقدس وعجـل له عشرة آلاف دينـار مصرية لتصرف في وجـوه ضرورية، ثـم أمده بـالحمل، وأفـاض عليه مـن الفضل، وقـرر واليه عز الديـن جرديك على ولايتـه، وأقوى يده برعـايته، ووالى حمل الغلات مـن مصر إلى القدس، وابدل وحشتـه بوفـاة السلطان من وفائه بـالانس، ثـم أشفق من غـدر الفرنج في فسخ الهدنة، فـأتى من تجهيز العسـاكر الى البيـت المقدس بكل مـا في المكنة، ثـم سمع بحـركة المواصلـة ومـن تابعهـم، وبـايعهـم وشـايعهـم، وقد خـرجـوا في ايمانهم حانثين، فخيـم ببركة الجب واستشـار امراءه أهـل الرأي واللـب، وجهز جيشا فوصلوا إلى دمشـق وقد فرغ العادل من حرب القـوم وسلمهم،وهز منهم أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم، فرأى ان الحمد اعود.

قال :وتـولى حلب وأعمالها وحصونهاومعاقلهـا وكرائم البلاد وعقـائلها الملـك الظـاهر غـازي، وهـو بـرجـاحته وسماحتـه الطـود والجود الموازن الموازي، وملـك مملكـة أقطـارهـا واسعة، وأمصـارهـا شـاسعـة، فحماهـا وحواها، وبهاء العدل رواها وقـوّاها، وأقر البيرة وأعمالهاومايجري معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود، ودخل في امره صاحب حماه ابن تقي الدين فأعزه وحماه.

قلت :وهو مأوى ذرّية والده، وبقـي الملك منهم في عقبه، وانحاز كل من أخـوته وأولادهم إليـه، وعوّلوا في تمشية أمـورهم عليه، والأمـر مستمر على ذلك في عقبه إلى الآن، والله تعالى ولي الاحسان.

ثـم زال ملك هـذا البيت في صفـر سنة ثمان وخمسين وستمائة بسبـب غلبة التتار الكفرة على ا لبلاد، والله بصير بالعباد.

ومـن كـلام القـاضي الفـاضل في جـواب ورد عليـه منـه بعـد مـوت السلطان:«متـى رأى المملوك خـط مولانا طـالعا في كتـاب، وطليعة على خطاب،تمثـل ذلك الشخـص الكريـم، وذلك السلطـان العظيم، وذلـك الخلق الكريم، وذلـك العهد القديم، فحيي بعد موتـه، وسبح من(يحيي العظـام وهي رميـم)(١٤٠) ،ورفـع يـده بها الله رافعه، ودعـا بصـالـح الله سامعه».

قال العماد: وكـان الملك العـادل مع السلطـان في الصيد قبـل وفاتـه، وكان مـوافقه ومرافقـه في مقتضياتـه، فلما عاد السلطان إلى دمشـق ودّعه ومضى إلى حصنـه بالكرك، فنـابه النائب، ولم يحضر وقـت احتضاره الاخ الغـائب، فلما عرف وصـل الى دمشـق بعد أيـام، ولم يطـل المقام ورحـل طالبا لبلاده بالجزيرة، حذراعليهـا من أهل الجريرة، وكان السلطان جعل له كل ماهو شرقي الفرات مـن البلاد والولايات، فلما وصل إلى الفرات

وجـد مماخـافـه دلائل الفترات، فأقـام بقلعـة جعبر، وسير إلى الولايـات الولاة، ووصى برعـايـاه الرعاة، واستناب في ميافـارقين وحاني وسميساط وحـرّان والـرّها، وشحنهـا بـالشحـن وعلـم العـدا انه في خـف، فخفـوا وعرضـوا وصفوا، وكان سيـف الدين بكتمـر صاحب خـلاط قد استبشر بمـوت السلطان، وتلقـب بالملـك الناصر، وحـدّث أمله بجـر العساكـر، وراسل صاحبـي الموصل وسنجار، وطير إليهم كتب الاستنفـار، وضم إليه من مـاردين مـاردين، وطار وطـاش، وارتاش وانتـاش، فبينا هـو في أثناء ذلك قتلته الاسماعيلية بخـلاط رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين، وأوّل من بـدا أمره بـالخروج على بلاد السلطان متـولى ماردين، ونزل على حصن الموزر، وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين صالح أهلها، وأضافه إلى نائبه بالرهـا، ثم تحرك عز الدين أتابك صاحب الموصل وأخوه عماد الـدين زنكي صاحـب نصيبين، وأرسلوا إلى العادل: تخرج من بـلادنا او تـدخل في مرادنـا، فكتب إلى بنـي أخيه يستنجـدهم ويستنفـرهم فـأنجـدوه، وكـان إنجاد حلـب أقـرب، وتقـدّم ذكر نجـدة الأفضل مـع أخيه الظاهـر، ونجدة العزيز الـواصلة إلى دمشق بعـد نجاز الأمـر،ووصلـت المواصلـة الى رأس عين ، والعـادل بحـران، وتقـارب العسكران حتـى ان الطلائع تتواجـه وتتجابـه، فمرض صاحـب الموصل ولم يطـق الاقـامـة، فغـادر ورجع عماد الـديـن أخـوه، وتضرع صـاحـب ماردين، وتشفع الأمـراء الأكابر فرضي العادل عنه وبلغـه قدوم ابن أخيه الظافـر إلى الفرات، فكتب إليـه بمنازلـة سروج وهي من أعمال مـاردين، وأمدّه بابـن تقي الدين، وابـن المقدّم، فنزلوا عليهـا ثامن رجب وفتحـوها تاسعـه، ورحل العادل منتصـف رجب إلى الرّقـة وتسلمها، ثم تملـك بلد الخابور جميعه، وجـاء الى نصيبين فنزل بظاهرها، وشرع في ضـم ذخائرها، فجاءت الـرّسل العماديـةفي طلب الصلـح، فرحـل ونزل دارا، وأتـاه خبر وفاة صـاحـب الموصـل وتسليم بلـده إلى ولده نـور الديـن أرسلان شـاه، وجرى بينهـم وبينه صلـح، ثم كاتبـه أهل خلاط،فـرحل إليهـا فرأى أن

البرد يشتد وأمد الحصار يمتد، فعاد إلى حران والرها، وأعرض عن مخالطة خلاط، وتأخر إلى الربيع أمرها.

قال: واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب أخي السلطان، وهو هناك سلطان عظيم الشان، مستول على جميع البلدان، وكان قدوصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام، فلما استقر الملك الأفضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام.

- ٨٩١٥ -

فصل

في وفاة صاحب الموصل وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق

قال عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير: لما وصل خبر وفاة صلاح الدين إلى صاحب الموصل عز الدين استشار في الذي يفعله، فأشار عليه أخي مجد الدين أبو السعادات بالاسراع في الحركة، وقصد البلاد الجزرية فإنها لامانع لهامنه. وقال مجاهد الدين قايماز: ليس هذا برأي فإنا نترك وراءنا مثل المولى عماد الدين صاحب سنجار، ومعز الدين صاحب الجزيرة، ومظفر الدين صاحب إربل ونسير، وانما الرأي أنا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ برأيهم وننظرمايقولون. فقال أخي: إن كنتم تفعلون مايشيرون به ويرونه فاقعدوا فانهم لايرون إلا هذا لأنهم لايؤثرون حركتكم ولا قوتكم، انما الرأي ان يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم، ويستميلهم ويبذل لهم اليمين على مابأيديهم، ويعلمهم انه على الحركة، فليس فيهم من يمكنه أن يخالف خوفا من قصد ولايته لاسيما اذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام، فهم لايشكون انه يملكها سريعا فيحملهم ذلك على موافقته، ومتى أراد الانسان أن يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت أفعاله، انما اذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم، وان كان العكس أحجم، فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين، فسكت أخي لأنه هو كان مخدوم الجميع على الحقيقة، والحاكم فيهم، واتبع المرحوم—يعني صاحب الموصل— قول مجاهد الدين، وأقام بالموصل عدّة شهور يراسل المذكورين فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال، غير أخيه عماد الدين فإنهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما، فإلى أن انفصل الحال وصل الملك العادل أبوبكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك، وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماه وحلب، وامتنعت البلاد به، وسار عز

الدين عن الموصـل إلى نصيبين وقد ابتدأ به اسهال بنزيـف، واجتمع فيها بأخيه عماد الديـن، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن مـن شبختان لقصد الرهـا، فأرسـل العادل حينئـذ يطلب الصلـح، وأن تكون البـلاد الجزرية: الرهـا،وحران، والرّقة وما معها بيده على سبيـل الاقطاع من عز الـدين، فلم يجبـه إلى ذلك وقوي المرض به واشتـد إلى أن عجز عن الحركـة، فعاد إلى الموصـل في طائفـة يسيرة مـن العسكـر، فلما وصل دنيسر رأى ضعفـا شديداً فأحضر أخـي، وكتب وصية، ثم سار إلى الموصل فـوصلها مريضا بالاسهال، وبقي كذلك إلى أن توفي في السـابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

قال: ولم أسمـع عن أحد من النـاس بمثل حالـه في مرضه، فإنـه كان لايزال ذاكراً الله تعـالى حتى أنه كان إذا تحدث مع إنسان يقطـع حديثه مـراراً، ويقول أشهـد أن لاإله إلا الله وحـده لاشريـك له، لـه الملك ولـه الحمد يحيـي ويميت، وهو حـي لايموت، بيده الخير، وهـو على كل شيء قديـر، وأشهد أن محمـدا صلى الله عليه وسلم عبـده ورسولـه، وأشهد أن الموت حق، وعذاب القبر حق، وسـؤال منكر ونكير حق، والصراط حق، والميزان حق، وأن السـاعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعـث من في القبور، ويقـول لمن عنـده يخاطبـه: إشهـد لي بهذا عنـد الله تعـالى، ثـم يعـود إلى حديثـه، وأحضر عنده من يقرأ القـرآن، فلم يزل كذلـك إلى أن توفي رحمه الله ودفن بالمدرسة التي أنشأها ببـاطن الموصل، مقابل دار المملكة، وهي للفريقين الشـافعية والحنفية، وكانـت مملكته نحو ثلاث عشرة سنـة وستة اشهر، وكان أسمـر مليح الوجه حسن اللحية،خفيـف العارضين، وحكى لي والـدي قال: هـو أشبه النـاس بجـده الشهيد قـدس الله روحه، قـال: وكـان رحمه الله ديِّناً خيراً قـد ابتنـى في داره مسجـدا يخرج إليه في الليـل، ويصلي فيه أوراداً كـانت له، ويلبـس فرجية كان قـد اخذها مـن الشيخ عمر النسـائي الصوفي، ويصلي فيها، وكان قـد حج ولبس بمكة حـرسها الله خـرقـة التصـوف مـن الشيـخ عمـر النسـائي المذكـور، وكـان مـن

الصالحين، وأوصى بالملك لابنه نور الدين أرسلان شاه، وأراد اخوه شرف الدين بن مودود بن زنكي أن يوليه فلم يفعل، وبقي نور الدين إلى سنة سبع وستمائة، فتوفي في شهر رجب منها، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل حذاء دار السلطنة، وكان عهد بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود، وجعل الامير بدر الدين لؤلؤا القائم بأمر دولته، وولاه إمارة الجيوش والعساكر، وسياسة القبائل والعشائر، ثم توفي الملك القاهر في ربيع الاول من سنة خمس عشرة وستمائة فجأة وخلف ثلاثة بنين صغارا.

قال: وأما عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، صهر نور الدين رحمه الله، وهو صاحب سنجار، فإنه توفي في المحرم سنة أربع وتسعين، وكانت ولايته ثلاثين سنة، وكان عدله قد عم البلاد، وغمر العباد، وأريقت الخمور وحدّ شاربها، وكانت صدقاته تصل إلى أقاصي البلاد، وتولى بعده ولده الأكبر قطب الدين محمد بن زنكي، وكان متولي أمره مجاهد الدين يرنقش العمادي.

قال: وحاصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ماردين في سنة خمس وتسعين، فبقي محاصراً لها أحد عشر شهراً، ولم يبق إلا الاستيلاء عليها، فبينما العادل يحاصرها إذ توفي ابن أخيه الملك العزيز صاحب مصر، وكان عسكره مع عمه العادل على ماردين، فلما توفي ملك أخوه الأفضل مصر، وكان بينه وبين عمه العادل نفرة، فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقته، ففارقوه، وعادوا إلى مصر فقل جمعه وعسكره، ثم خرج الأفضل عن مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه، فسار العادل عن ماردين جريدة إلى دمشق ليحفظها بعدما كان قد طلع سنجقه إلى قلعة ماردين، وترك ولده الملك الكامل محمداً محاصراً لها إلى أن اجتمع صاحب سنجار، وصاحب الموصل على ترحيله عنها، فرحل.

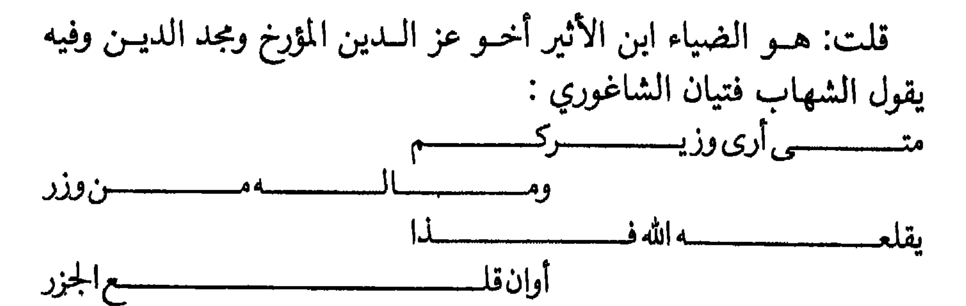
-٨٩١٨-

قال: وفي سنة ست وستمائة سار الملك العادل بن أيوب من الشام إلى سنجار في العساكر الشامية والمصرية، والجزرية والدياربكرية، فحصرها ونزل عليها من كل جانب، ونصب أحد عشر منجنيقا ثلاثة أشهر، وانتخى صاحب الموصل وصاحب إربل لصاحب سنجار، وأنفذ الخليفة رسله فأصلح الأمر، وانتظم الصلح ولله الحمد.

فصل

وأما رسالة العماد: الكاتب المعروفةبالعتبى والعقبى التي أشار إليها في آخر كتاب البرق، فيما جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة اثنتين وتسعين، فقد وقفت عليها، وحاصل مافيها أن قال: لما توفي السلطان رحمه الله، وملكت أولاده كان العزيز بمصر يقرّب أصحاب أبيه، ويكرمهم، والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرّب الأجانب ويبعد الاقارب، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزيرالجزري الذي استوزره.

قلت: هو الضياء ابن الأثير أخو عز الدين المؤرخ ومجد الدين وفيه يقول الشهاب فتيان الشاغوري :



متى أرى وزيركم ... ومالـه من وزر

يقلعه الله فذا ... أوان قلع الجزر

قال العماد:لما طلب من الأمراء أن يحلفوا له ، أظهروا له أيماناً وهم قد أضمروا الحنث فيها ، ولم يخف ذلك عليه ، ولما رأى الفاضل أمور الأفضل مختلة، تركه وسار إلى مصر ، وشرع الوزير الجزري في تفريق العصبة الناصرية، وما منهم إلا من فارق إلى الديار المصرية ، وكان قد أشير على الأفضل بإخلاء البيت المقدس لنواب العزيز بأعماله، حذراً من تكاليفه وأثقاله، فأجاب إلى ذلك، وقد كانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان ثلثها على مصالح القدس، وباقيها على ابن الأمير علي ابن أحمد المشطوب فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدوا أيديهم إلى الوقف، وساءت سيرتهم وتخوفوا من إنكار الملك العزيز عليهم، فلجأوا إلى الأفضل، فأفضل عليهم وسكن إليهم، فتأثر الملك العزيز بذلك، وأقوى الأسباب فيما حدث من النفار، نفار الأمراء الناصرية الكبار، ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الإضطراب والإضطرار، فأعزهم

العزيـز، ورفعهم فـاتفقوا على أن تكون كلمـة الإسلام مجتمعـة على الملك العزيـز لإحياء سنـة والده في الجود والبأس والكـرم، ومن جملـة الأسباب الباعثة تسلم الفـرنج ثغر جبيل من بعض مستحفظيـه، وضعف الأفضل عن استخـلاصه، فقيل للعـزيز: إن توانيت استـولت الفرنـج على البلاد، فخرج العـزيز بعساكـره، وبلغ الأفضـل فضاق صدره، واجتمـع بمن في خدمتـه من الأمراء بـرأس الماء، وأراد أن يستعطف قايماز النجمـي وكان في اقطاعـه بالسواد، وكـان بينه وبين الأفضل شقـاق وعناد، فأرسـل إليه فلـم يقبل ورحـل إلى عسكر العـزيز، ورأى الأفضـل أن يكتب إلى أخيـه بكـل مـا يجب من إعـلاء كلمتـه والإجتماع عليـه، ويكون الأفضـل مـن بعض القـائمين بين يديه، طلبـاً لتسكين الفتن، ورغبة في ذهـاب الاحن، فـأشير عليـه بغير الصـواب ، وقيل أنـت الكبير وإليـك التـدبير، فجـدّ واجتهـد ولايعلـم أصحـابك بهذا الخور الـذي داخلـك، والجبـن الـذي نازلك، ونحن بين يـديك، وكلنا عاقدون بالخنـاصر عليك، ووصل رسول الملك الظـاهر والكتب مـن الملوك الأكابـر بالانجـاد المتظاهر لـلأفضل، وسير الأفضل إلى عمـه العادل وهـو بحران والـرها كتبـاً ورسلاً، لما أبطـأ عليـه مسير عز الـدين عثمان الـزنجيلي على نجيب ليسرع ويـأتي به عـن قـريـب، وكتبـه واصلـة بعزمـه على نصره ونجـدتـه، وذلـك أوائل جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين، ولم يشعر الأفضـل إلا والعزيز بعساكره قد وصلوا إلى الفوّار، فعجل الرحيل وقد خالطت عساكر العزيز ساقه جيش الأفضل، فـأسرع ودخل دمشق يوم الجمعـة خامس جمادى، ونزل العـزيز يوم السبت بالكسوة، ونزل على دمشق يـوم الأحد، فلم يزل الأفضل يمانع ويـدافع حتـى وصـل عمـه العادل، فكتـب إلى العـزيـز يسألـه الإجتماع فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المزة، فعذلـه في أخيه، واستنزله عما كان فيه، فقال: على رضاك واتباع هواك، وقـال: نفس عن البلد الخناق، وكان قـد بلي البلد منهـم بمالا يطـاق، من قطـع الأنهار، وقطـف الثمار، فتأخـر العـزيز إلى صـوب داريا، والأعـوج، وكان قـد اجتمع عنـد الأفضل مـن

الملوك: عمه العادل، والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد ابن شيركوه صاحب حمص، والأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، والمنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه، ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين ابن السلطان، فاتفقوا على عقد يؤكد، وعهد يمهد، ورحل العزيز إلى مرج الصفر لكون المقام به أرفق، فمرض حتى أيس منه، ثم أفاق وأرسل من جانبه الأمير فخر الدين جركس، واعتمد عليه في هذه النوبة، فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرر بينهم الصلح، وتزوج العزيز ابنة عمه العادل، وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز في أول شعبان واحداً بعد واحد، فخرج الظاهر أولاً، والتقيا ونزلا بمرج الصفر، وبات عنده ليلة، ثم رجع وخرج العادل، ثم الأفضل، فلما اجتمع بأخيه فارقه وما ثوى، ورجع كل إلى بلده، ولما استقر الأفضل بدمشق قضى حقوق الجماعة وشكرهم، ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان، وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان، ورحل إلى بلده الرها وحران، ثم إن الأفضل نظم أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستمالته، وقال: كنت فارقت أخي مذ تسع سنين، وما التقينا إلا في هذه السنة فقلت:

نظرتك نظرة من بعد تسع ... تقضت بالتفرّق من سنين

وغض الدهر عنها طرف غدر ... مسافة قرب عين من جبين

وعاد إلى سجيته فأجرى ... بفرقتنا العيون من العيون

فريح الدهر لم يسمح بوصل ... يعود به الهجوع إلى الجفون

فراقاً ثم يعقبه ببين ... يعيد إلى الحشا عدم السكون

ولا يبدي جيوش القرب حتى
يرتب جيش بعد في الكمين
ولا يدني محلي منك الا
إذا دارت رحى الحرب الزبون
فليت الدهر يسمح لي بأخرى
ولو أمضى بها حكم المنون

قال: ثم كثر الشر ممن حول الأفضل في حق الأمراء الكبار ذوي الأقدار، فأنفوا من ذلك، وازمعوا على الإنفصال لسوء تلك الحال، فممن سار إلى مصر عز الدين سامة، وحرض العزيز على القيام لنصرة الدولة الناصرية، وعرفه أن أخاه الأفضل مسلوب الإختيار، مع من حوله من الأشرار، وممن سار إلى مصر القاضي محيي الدين محمد بن أبي عصرون، وتولى بعد أشهر قضاء القضاة بمصر وأعمالها، وذلك سنة إحدى وتسعين فاستمرت ولايته إلى أن عاد العزيز من الشام، وتبعه العادل فصرفه وأعاد القضاء إلى زين الدين علي بن شرف الدين يوسف الدمشقي، وكان نائباً لصدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس، ثم استقل ثم عزل بابن أبي عصرون ثم أعيد إليه، وكان الأفضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللذات، وتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب، مع من حوله من الأصحاب، ثم أقلع عن ذلك وتاب وجدّ في الذكر والزهد وأناب، وشرع في كتب مصحف بخطه، وحسنت طريقته، وظهرت حقيقته، وذلك في أوائل سنة إحدى وتسعين.

وفي هذه السنة في ربيع الآخر وصل الخبر بأن العزيز قادم يحصر دمشق مرة ثانية، فاشتدّ غم الأفضل، فأشير عليه بأن يرحل إلى عمه العادل، ويأتي به لدفع هذا القضاء النازل، فرحل رابع عشر جمادى الأولى والتقى بعمه بصفين، وطلب منه الرجوع معه إلى دمشق ففعل، ووصل العادل إليها تاسع جمادى الآخرة، وتخلف عنه الأفضل، وقصد

حلب للاستظهار بـأخيه الظاهر، فوثق معه الإيمان على مـا كان عليه من الصفا، وكذلك فعل بابن تقـي الدين بحماه، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل، وكان العادل أبـداً يشير بصرف الوزير الجزري، وكان قد استولى على الأفضـل، فلم يقبل، فكـان العادل أبـداً مغتماً لذلك، فبـالغ الأفضل في إكرام عمه، وإزالة غمه حتى تـرك له سنجقه وصار يركب في خدمـة عمه، وضاق أخوه الظـافر من هـذه الحال، وكان الظاهر قـد نفر عليه جماعـة من الملوك والأمـراء ممن هم في طاعتـه من جملتهم صـاحب حماه، وعز الدين بـن المقدّم صاحب بارين، فـراسلا العادل في الاعتصام بـه، وكان مـن جماعتهـم بدر الـديـن دلـدرم بن بهاء الـدولـة بن يـاروق صاحب تل باشر فاعتقله الظاهـر وبني عمه، وطلب منه تسليم حصنه، فشفع العادل فيهم، وكفل أنه يكفهم ويكفيهـم، واستصحبهم إلى دمشق فطلب منـه الظاهـر الوفاء بضمانـه فتعذر عليـه ردّهم، وتيسر لـه ودّهم، فغضب الظاهر لـذلك وراسل العزيز يحثه على الإسراع في القـدوم فأقبل العزيز وخيم بالفوّار .

وشرع العادل في تـدبير أمور الأفضـل، فكاتـب الأمراء الأسـدية مـن أصحاب العزيـز يحثهم على تركه، والانقطاع إلى حـزب الأفضل وسلكه، وكانت الأسـدية أبداً في عناء مـن تقدّم الناصرية عليهـا، وراسل العادل أيضاً العزيـز يخوفه من قبل الأسديـة، ويعرفه ماانطوت عليـه قلوبهم من الغل، فكانوا إذا لقيهـم عرفوا في وجهه التغير عليهم فرغبـوا عنه وحسنوا للأكراد مرافقتهم في الإنصراف عنه، ففعلـوا، وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجـاء السمين، فـدارت الأكـراد حـولـه وقالـوا: لانـأمـن عليـك مـن الناصريـة فأبرمـواأمرهم، وعجلـوا رحيلهم، فرحـل أبو الهيجاء والمهـرانية والأسديـة عشية.الإثنين رابع شـوّال، وكانوا أكثـر العسكر، واعلم العـزيز بهم فما بالى بـانصرافهم، وقـال: صفونـا من أكـدارهم ولم يـأمر أصحـابه باتباعهم وردّهـم ،وبقي في خواصه مقيماً تلك الليلة، ثـم رحل عائداً إلى مصر فجاء رسـول أبي الهيجاء السمين إلى العـادل يعلمه بـرحيل العـزيز

خائفاً، ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية، فتحالف العادل والأفضل على ملك مصر أن يكون للعادل الثلث وللأفضل الثلثان.

وخرجا يوم الأربعاء في الجيوش واستناب الأفضل بدمشق أخاه الأصغر قطب الدين موسى، وأما العزيز فإنه سار وأخذ طريق اللجون والرملة وفرق من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه من دخول البلد، وكان مقدّمهم الأمير بهاء الدين قراقوش وهو أكبر الأمراء الأسدية قد استنابه العزيز بالديار المصرية فهو مقيم على الصفاء، والمودّة والاخاء، فلما وصل العزيز تلقوه، وإلى ذروة سلطنته رقوه، وأما العادل والأفضل فاجتمعا بالمتخلفين عن العزيز وحرصت الأسدية أن يسبقوا العزيز فلم يقدروا، واجتهدوا أن يدركوه ويتقدّموا فتأخروا فأمرهم العادل بالثبات، وتسلم القدس وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل أبو الهيجاء السمين بأمر الأفضل والعادل فرتب فيها نوابه، وأسكنها أصحابه، وصحبهم إلى الديار المصرية لمحالفة الأسدية ومخالفة الناصرية، فنزل بهم العادل على بلبيس، وكان أوان أخذ زيادة النيل في الإنتهاء والسعر غال، وظهرت ندامة الأسدية، وضعفت معونتهم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكرهم والعدول إلى مستقرهم،فأرسل إلى القاضي الفاضل يستوفده للإستزاره، ويسترشده بالإستشارة، فألزمه العزيز بإجابة سؤاله فخرج إليه واستبشر الناس بخروجه رجاء الصلح، وركب العادل وتلقاه على فراسخ واجتمعا وأصلحا الأمور على ما يحب الفريقان، وعفا العزيز عن الأسدية، وأقام العادل عند العزيز وأما الأفضل فإن العزيز خرج إليه وودّعه فانصرف، ومعه أبو الهيجاء السمين وتولى القدس، ووصل الأفضل إلى دمشق غرة المحرم سنة إثنتين وتسعين.

ثم إن الأفضل لازم صيامه وقيامه، وقلل شرابه وطعامه، وحسن شعاره، واستوى ليله ونهاره، ووزيره الجزري قد بلي الناس منه ببلايا،

وهو في غفلة عن تلك القضايا، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه، وأنهم يميلون إلى أخيه فيصدّقه الأفضل فيما يدعيه، فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تعجبه بل تغضبه، وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر، وما منهم إلا من يشكو من الوزير الجزري، وكان قايماز النجمي قد لصق بالعادل، وكذلك عز الدين سامة، وصاهر العادل وظاهره، وكان العادل بمصر، مستوطنا للقصر، فوعد الجماعة بإزالة يد الوزير الجزري وردّه إلى بلاده، وقرّر مع العزيز،تسيير عسكره معه إلى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام، فاخرج العساكر إلى بركة الجب، وخرج العزيز لتشييعه وذلك مستهل ربيع الأوّل، ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب إلى أخيه العزيز من جانب الظاهر لتسكين هذا الرهج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والقاضي بهاء الدين بن شدّاد، ثم إن العادل أشار على العزيز بأن يوافقه على المسير ويرافقه فيه، فرآه عين التدبير، فسارا بالعساكر نحو الشام، ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بها طلبوا مروا بدمشق، فأعلموا الملك الأفضل بما أبرم من الأمر، فضاق صدره، وطال فكره، واستشار أصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل أخاه وعمه، ويسلم لهما حكمه وأشار الجزري وأصحابه بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة، ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر فشجعه وصبره، وتولى أسباب التحصير، وحلفوا الأمراء والمقدّمين، وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل، ورتبوا رجالا حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البكرة والأصيل، وتفرّق الأمراء على الأسوار والأبراج، وجاءت الرسل الظاهرية لإظهار المظاهرة، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولا، فوصل إلى العسكر العزيزي بالداروم وغزة، ولقي عند العزيز من قوله العزة، فبقي فلك الدين هناك أياماً في إصلاح ذات البين، ولاشك أنهم اشترطوا على الأفضل شروطاً وردّ وه بها وأقاموا ينتظرون الجواب، فنفذ من ذكر أن الأفضل أبى ذلك،

فلما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لايسمع من رأيهم، وأنه عازم على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره، مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن، فراسلوا العزيز والعادل واستظهر كل لنفسه، وأقام العسكر مذ عاشر رجب على البلد مستظهراً بالعدد والعدد، لايحدث حدثاً، ولا يعبث بالبلد إلا عبثاً، فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز والعادل بانتهاز الفرصة، فركبوا وتأهبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب، فما صدهم عن قصد البلد أحد، وما كان في طريقهم إلا الملك الظافر ومعه عسكر حلب، فقاتل على ظن قتال الجماعة، وما عنده علم بما دبروه من المخامرة، فحادوا ولم يكترثوا، ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر، ووصل العادل إلى باب توما وكان الأمير الأمين به قداستنهضه إليه بكتبه، ففتحه له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي، وبات العادل في الدار الأسدية، ودخل العزيز من باب الفرج، وبات في دار عمته الحسامية، وخرج إليه الأفضل ولقيه، وتجرع من هم زوال ملكه ما سقيه، فلما ملك العزيز دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر الكبير إلى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه، إشفاقاً عليه من قتله وتحريقه، وتحوّل الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره فهرب ليلا إلى بلاده وقد ادّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال وكان العزيز قرّر مع العادل أن يقيم العزيز بدمشق ويستنيب العادل بمصر، فلما ملك دمشق ندم على ماقرّره، ورجع عما دبره، ونفذ إلى أخيه الأفضل في السر يعتذر إليه، ويشير بما كان اشترط عليه، فأظهر الأفضل هذا السر لصحبه، والمخصوصين بقربه، فقالوا لا تنخدع بهذا القول فربما كانت خديعة، وأطلع عمك العادل على هذا السر فإنه يرى ذلك عين البر، فأرسل إلى العادل من أعلمه بذلك فعزت عليه مراسلة العزيز الأفضل واجتمع بالعزيز وعتبه ، وقرعه بماأنبىء به وأنبه، وقال

له: أبني وتهدم، وأوجد مصالحك وتعدم، فأنكر الحال وأحالها وانتقض الأمر قبل إبرامه، ووجه إلى الأفضل من أزعجه، وإلى صرخد أخرجه، وسد طريق الاستنصار على أخيه الظافر حتى أسلم في تسليم بصرى للظفر بسلامته، وبذلها ولم يتبعها بندامته، ورحل إلى حلب وأظهر الظاهر الاحتفال به، وأما الأفضل فإنه سار إلى قلعة صرخد وسكنها، وحوّل أهله وأخاه قطب الدين إليها وتوطنها،وعند خروج الأفضل من قلعة دمشق دخل العزيز إليها يوم الأربعاء رابع شعبان، وجلس يوم الجمعة في دار العدل، واعتقد الناس أنه يطول مقامه عندهم، فلم يشعروا به إلا وقد برّز للرحيل، وتقدم إلى العادل بأن يتولى البلاد وفارق دمشق عشية الإثنين تاسع الشهر، ونزل بالمخيم فوق مسجد القدم، ثم تحوّل إلى الكسوة وودّعه بها يوم السبت رابع عشر الشهر، فلما عاد العادل من وداع العزيز قرىء بالجامع منشوره العزيزي بالبلاد والأعمال والنظر في جميع الأحوال، وشاع أنه نائب العزيز، وهو سلطانه،وأبقى الخطبة باسم العزيز خالية من اسمه ، حالية برسمه، وضرب الدينار والدرهم على سكته وأظهر أنه قوي بشوكته وشكته، وجلس يومي الإثنين والخميس للعدل، وبسط يده لجمع الأموال وخزنها، لوقت عموم الحاجة إلى صرفها.

فصل

هذا آخر ما انطوت عليه «رسالة العتبى من أخبار ما جرى بعد موت السلطان رحمه الله»، وللعماد أيضاً كتاب آخر سماه« بنحلة الرحلة » ذكر فيه أيضاً نحواً من ذلك وهو أن الأحوال اختلت وتغيرت بعد موت السلطان، وأراد العماد الرحلة إلى مصر، فأصحبه الأفضل رسالة إلى أخيه العزيز فمضى إليه وعنده عمه العادل، فلم يتمكن من الرجوع إلا معهما لما خرجا بالعساكر فذكر الحديث في أخذ البلد، قال: وخرج الملك الأفضل واجتمع بالعزيز في الميدان، ودخلا من باب الفرج متصاحبين إلى الضريح الناصري، وصعد العزيز القلعة يوم الأربعاء وصلى هذه الجمعة عند ضريح والده في هيئة المودع، وأظهر بالبكاء والنحيب عنده سر القلب الموجع، ودخل دار الأمير سامة في جوار تلك القبة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بأن يبنيها مدرسة للتربة، قلت هي المدرسة المعروفة بالعزيزية، ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجه، فهذا قدر ما في كتاب النحلة مما يتعلق بما نحن فيه، ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا، لأنه موضوع للدولتين النيرتين إلا أنه لا بدّ من ذكر ما يتعلق بهما مما وقع فيهما وعقبيهما، وتبعنا العماد فيما ذكر في العتبى لكونه أشار إليها في كتاب البرق، واستوفينا ما في كتاب البرق، والفتح القدسي، والتاريخ الأتابكي، وكتاب القاضي أبي المحاسن وأتينا على ما فيها من المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات، ودواوين ومراسلات، والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا، في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد، ومن كتاب فاضلي:« أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه وإذا بدا تخريق ثوب فما يليه إلا تمزيقه،وهيهات أن يسدّ على قدر طريقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه».

فصل

بعد انتهـاء هذا الكتـاب واسماعه مرة، وقفـت على ماحسـن لي الحاقه بهذا الكتاب، من ذلـك أن القاضي الفاضل كتـب في سنة ثلاث وتسعين إلى القاضي محيـي الديـن بن الـزكي كتابـا قال فيـه: « ومما جـرى في هذه المدود من المثلاث الجاريـة، والمعضلات العادية بأس من الله طـرق بياتا، ونحن نيـام وظن الناس أن اليـوم الموعود قـد طرق في الليل الممـدود فإذا هم قيام إن الله تعـالى أتى بساعة كالسـاعة، كادت تكون للدنيـا كساعة،

في الثلث الأول من ليلة الجمعة ثامـن عشر جمادى الآخرة، وذلك أنه أتى عارض فيه ظلمات متكـاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عـاصفة، قوي لهوبها واشتـدّ هبـوبها، وارتفعـت لها صعقات، وتـدافعـت لها أعنـة مطلقـات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعـدها واعتنقت، وثار من السماء والأرض عجـاج،فقيل لعـل هذه على هـذه قد انطبقـت، وتوالـت البروق من جهـة المقطم على نظام، وتبع الـواحدة الأخرى وتقفى الثـانية على أثر الأولى، وترى البروق واقفة وهي تتعـاقب، وقائمة وهي تتجاذب، ولاتحسب إلا أن جهنـم قد سال منهـا واد، وعدا منها عـاد، وزاد عصف الريح إلى أن انطفأت سرج النجوم ومزقت أدم السماء، ومحت ماكان فوقه من الـرقوم، ولاتـزال هذه الـريح تسكـن سكونـا خفيفا ثـم تعاود عـودا عنيفـا، فكنـا كما قـال الله تعـالى(يجعلـون أصـابعهـم في آذانهم مـن الصـواعـق)(١٤١) وكما قلنـا: ويـردون أيديهم على أعينهـم مـن البـوارق، لاعـاصـم مـن الخطـف لـلأبصـار، ولا ملجـأ مـن الخطـب إلاّ معـاقـل الاستغفار، وفـرّ الناس رجالا ونسـاء وأطفالا، ونهضـوا من دورهم خفـافا وثقالا، لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيـلا، اذ يستغيثون ربهم ويذكرون ذنبهم، لايستغربـون العذاب لأنهم على موجباتـه مصرون، وفي وقت وقوع واقعاتـه باستحقاقه مقـرون، معتصمين بالمساجد الجامعـة، ومتلقين الآية النازلة مـن السماء بالاعناق الخاضعة، بـوجوه عانية، ونفـوس عن الأموال

والأهل سالية، ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم، وعميت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيما عليه قادمون وندموا ونحمد الله أن نفعهم بأنهم نادمون، وقاموا إلى صلواتهم وودوا أن لو كانوا من الذين عليها دائمون، ولم يزل ذلك دأبهم كلما سكنت الرياح تحركت، وكلما قيل استقلت بركت، وكلما أخذت قيل ما تركت، حتى الثلث الأخير من الليلة المذكورة، والقلوب إلى الحناجر بالغة، والأبصار عن سننها زائغة، إلى أن أذن الله في الركود، وأسعف الهاجدين بالأمر لها بالهجود، وأصبح كل يسلم على رفيقه ويهنيه بسلامة طريقه، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قدرد له الكرّة، وأدبه بعد أن كاد يأخذ على الغرة، وورد من الخبر أن المراكب كسرها ماكان معترضا في التحرز للعارض، والأصول العادية من الشجر عدت عليها الريح بحماها النافض، وأن في الطرق من المسافرين من كان نائما فدفنته الرياح حيا، وركب عما أغنى الفرار مما هو أمامه شيئاً، ولايحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفا، والقول مجزفا، فالأمر أعظم ولكن اللهسلم، والخطب أشق، ومابلغت ولا قضيت بهذا التكثير بعض الحق، ونرجو أن الله سبحانه قد أيقظنا، بماوعظنا، ونبهنا بما ولهنا، فما من عباده من رأى القيامة عيانا، ولم يلتمس عليها من بعده برهانا إلا أهل بلادنا فما اقتص الأوّلون مثلها في المثلات، ولا سبقت لها سابقة في المعضلات، والحمدلله الذي من فضله أن جعلنا نخبر عنها ولانخبر عنها ولا تخبر عنا، ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور إذا عنّا، وشغلت خدمته بهذا المهم، وجعلته على علم من هذا العلم، فالسعيد من وعظ بغيره، وقدكانت لنا وفينا الموعظة، وللذكرى حدود ونعوذ بالله من اقامة حدوده المغلظة».

ومن كتاب له آخر الى العادل في سنة ثلاث وتسعين أيضا:« وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت، وخطر البلاد ماأذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعه،

ولـلاسلام اليـوم قـدم إن زلت زل، وهمة إن ملـت فـإن النصر منه مـل، وتلك القدم العـادلية، وتلك الهمة الهمـة المسايفة السيفية، فـالله الله ثبتوا ذلـك الفـؤاد، ودمثوا ذلـك المهـاد، واسهـروا في الله فليست بليلـة رقـاد، ولاتنظروا في حديث زيد ولا عمـرو، ولا أن فلانا نفع ولا ضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر، انظـروا إلى انكم الاسلام كله قد برز إلى الشرك كلـه، وأنكـم ظـل الله فـان صححتـم تلـك النسبـة فـإن الله لاناسخ لظله واصبروا إن الله مع الصابـرين، ولا تهنوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير النـاصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي، وهيعـة وتنقضي، وليلة وتصبح، وتجارة وتربح» .

ومن كتـاب له آخـر إلى الملك العـادل :« أدام الله ذلك الاسـم تاجـا على مفـارق المنـابـر والطـروس ، وحيـاة للـدنيـا ومـافيهـا مـن الأجسـاد والنفـوس، وعرف المملـوك ماعـرفه مـن الأمـر الذي اقتضتـه المشاهـدة، وحرست به العاقبة في بيروت، ولامزيد على تشبيه الحال بقوله:

ألم تـــــر ان المرء تــــــذوي يمينــــــه
فيقطعهــــا عمــــد اليسلــــم ســــائره

ولوكـان فيها تدبير لكان مـولانا قد سبـق إليه، ومن قلم مـن الاصبع ظفرا، فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعا، ودفع عنه ضرا:

وتجســـم المكـــــروه ليـــس بضـــائر
مـــــا خلتــــه سببـــا إلى المحمــــود

وآخر كـل شقوه أوّل كـل غزوه، فلا يسـأم مولانا نيـة الربـاط وفعلها، وتجشـم الكلف فهـوإذا صرف وجهه إلى واحـد، وهو وجـه الله صرف الله إليـه الوجـوه كلهـا(والذيـن جـاهدوا فينـا لنهـدينهم سبلنـا وإن الله لمع المحسنين)(١٤٢)

ومـن كتـاب آخـر لـه:« هـذه الأوقـات التـي أنتـم فيهـا عـرائس

الأعمار،وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار، وماأسعد من أودع يد الله مافي يديه، فتلك نعم الله عليه، وتوفيقه الذي ماكل من طلبه وصل إليه، وسواد العجاج في هذه المواقف بياض ماسودّته الذنوب من الصحائف، فما أسعد تلك الوقعات، وماأعود بالطمأنينة تلك الرجفات».

فصل

وللعماد الكاتب رحمه الله كتاب آخر سماه «خطفة البارق وعطفة الشارق» ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين إلى أن توفي هو رحمه الله في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، واشتمل ذلك على فوائد تتعلق بما تقدّم، فأحببت إلحاقها به، من ذلك وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب باليمن في شوال سنة ثلاث وتسعين، وتولي ابنه شمس الملوك اسماعيل، هذا والملك العادل بدمشق وقد انتقل الملك الظافر إلى حلب بعد أن أخذ عمه منه بصرى، وعزم على قصد بغداد فصرفه أخوه الظاهر عن ذلك، وذهب الأمير أبوالهيجاء السمين إلى بغداد بأصحابه فأكرم، ثم سير في جيش الى همذان، ثم بعد رجوعه مات بدقوقا.

وانقضت مدّة هدنة الفرنج التي عقدوها مع ا لملك الناصر رحمه الله، فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا، فكسرهم وفتح يافا عنوة، وكانوا كاتبوا ملك الألمان، وكان قد ملك صقلية، فأنهوا إليه تلك البلية،وقالوا إن عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج، وكأنه في الأسر، منتظر الافراج، فإنه لايقبر إلا بالبيت المقدس اذا استخلص، والآن ماكان غلا منه استرخص، فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض، ولهوا عن كل سنةو فرض، فتدافعت إلى عكا سفنهم، وتدفقت مزنهم، وامتلأت بهم في الساحل مدنهم، وقصدوا بيروت وبها الامير عز الدين سامة، فلما سمع بوصولهم إلى صيدا خرج بجماعته منها وسار بأهله ومال عن وعر الأمر إلى سهله، ودخلها الفرنج بعد يوم من غير مطاولة سوم، ولا مماطلةروم، وكثر فيه الحديث، وذكر الطيب والخبيث، فمن قائل تجبن ومن قبل أن ينكب تنكب، ومن قائل رجاله هابوا فغابوا، ولو أنه دعاهم ماأجابوا، واتسع القول، ووقع الهول، حتى نظم بعضهم والفرنج على تبنين:

- ٨٩٣٤ -

سلـــم الحصـــن مـــا عليـــك مـــلامـــه
مـــا يـــلام الـــذي يـــروم الســـلامـــه
فعطـــاء الحصـــون مـــن غير حـــرب
ســـنـــة ســـنهـــا ببيروت ســـامـــه

وتصرفت الفـرنج في بيروت وأعمالها الساحلية، ويبقـي لسامـة الولايـة الجبلية، ثم توجه إلى مصر.

- ٥٩٣٥ -

ودخلت سنة أربع وتسعين

فنزل الفرنج سادس عشر المحرم على تبنين، وأرسل العادل القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي إلى الملك العزيز بمصر فخرج بجيوشه، ووصل في الثالث والعشرين من ربيع الأوّل، فجفلت الفرنج بعد ان كانوا ضايقوا الحصن، ورحلوا وجاءهم الخبر بهلاك ملك الألمان، ثم انتقل عسكر المسلمين إلى جانب الطور، ومع العزيز أخوته: الظافر والمعز، والمؤيد، وكان الافضل قد جاء إلى عمه قبلهم، وكان معهم على تبنين المجاهد صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك، وعز الدين بن المقدم، وبدر الدين دلدرم وغيرهم من الأعيان،ثم رجعوا إلى بلادهم بعد عقد الهدنة، ورجع العزيز إلى مصر بعد أن خلع على ابن عمه الملك المعظم عيسى بن العادل، وخصه بالسنجق واللواء المنشور لطي اللأواء، وعاد المعظم إلى دمشق وقد قرت به العيون، وحسنت فيه الظنون، فكان أعز أولاد العادل عنده، وأعلقهم بقلبه، وأخصهم بحبه، قد ولاه سلطنة دمشق، وأطاب فيها بنشر كرمه النشق، وأقام العادل حتى استقرت الهدنة، وظهرت في عمارة تبنين المكنه، ثم عاد إلى دمشق وأقام قليلا ثم شرق، ورقع بها من الأمر ماتخرق، ورتق ماتفتق، ورد بلاد أولاد عماد الدين زنكي إليهم لأنه توفي في هذه السنة، واستولى عليها ابن عمّهم صاحب الموصل، فأنجدهم عليه السلطان الملك العادل.

وتوفي جماعة من أمراء الموصل منهم الأمير عز الدين جرديك، وكان فارس الاسلام ومقدامه، وشجاعه وهمامه، ومابرح من أيام نور الدين إلى أيام صلاح الدين رحمهم الله ليث العرين، أشم العرنين، وهو الذي أعان صلاح الدين على القبض على شاور، وولاه صلاح الدين القدس في آخر عهده، فقام بمصالحه من بعده، ثم تسلم منه الملك الأفضل، وسلمه إلى أبي الهيجاء السمين، فلما خرج الأفضل من دمشق وصل إلى الموصل، وانتقل من حوض الكوثر إلى أعذب منهل.

قال: ونزل السلطان العادل على قلعة مـاردين في شهر رمضان، وملك ربضها ومدنها وولايـاتها وصاف عليها وشتا، وصبر وصابـر ولم يقل كيف ومتى، وماشك أحد أن ماردين في ملكـه مضافة إلى ملكه، وقـد هنأه بها الشعراء منهم ابراهيم بن مروان من أهل رأس عين له من قصيدة:

فـــإن تـــك مصر أم ملـــك فمارد
إذا نســب البلـــدان فحـــل الممالـــك

تقــاعــس عنهــا سنجــر وابــن عمــه
وقصر عنهــا عــزم زنكــي الاتــابكــي

فــان تــك قــد شــوركــت في فتــح غيرهــا
فمالـــك في أمثـــالها مـــن مشـــارك

ودخلت سنة خمس وتسعين

والملك العادل نازل على ماردين، وقد وصل إليه أصحاب الأطراف مساعدين، وقد أصلح بين صاحب الموصل وبني عمه عماد الدين،وردهم إلى سنجار، والخابور ونصيبين، وقد أذعن له الجماعه بالطاعة، ونائبه في تلك البلاد وديار بكر ولده الملك الكامل محمد.

قال: وفيها ليلة الأحد العشرين من المحرم توفي الملك العزيز بداره بالقاهرة، وكان عزم على الصيد في أعمال الفيوم فخيم تلك الليلة عند الاهرام،فقيل انه أصبح وركض خلف صيد فكبا به الفرس مرة بعد أخرى فتمت له سقطه، عمت بها على الزمان سخطه، فتفاقم ألمه وأقام يومين أوثلاثة لايستطيع له مخلوق إعانة ولا إغاثة، ثم حم حمامه ، وأظلمت بفجيعته أيامه، وقبر في داره، لينقل منها إلى دار قراره،ثم حوّل منها في الأيام الأفضلية إلى التربة المقدسة الشافعية، وورد كتاب القاضي الفاضل تعزية به للملك العادل:« أدام الله سلطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلى أمره بأمره، وأعز نصر الاسلام بنصره، وفدته الأنفس الكريمة، وأصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمة، وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمه، ولا نقص له رجالا ولا عددا، ولا أعدمه الله ماقدر في الملك العزيز رحمه الله له ذيلا ولا يدا، ولا أسخن له قلبا ولا كبدا، ولا كدر له خاطرا ولا موردا، ولما قدّر الله في الملك العزيز رحمة الله عليه، وتحياته مكررة إليه من انقضاء مهله، وحضور أجله، كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة، فرحم الله ذلك الوجه ونضره، ثم السبيل إلى الجنة يسره

وإذا محاسن أوجه بليت
فعفا الثرى عن وجهه الحسن

فـاعزز على المملـوك وعلى الأولياء، بـل على قلب مـولانا، لاسلبـه الله ثوب العز بسرعـة مصرعه، وانقلابه إلى مضجعـه، ولباسه ثوب البـلا قبل أن يبلى ثـوب الشبـاب، وزفــه إلى التراب وسريـره محفــوف بـاللــذات والأتراب، وكانـت مدّة المرض بعد العود من الفيوم أسبـوعين، وكانت في الساعـة السابعة مـن ليلة الأحد العشريـن من المحرم، والمملـوك في حال تسطيرها مجموع لـه بين مرض القلب وجسد، ووجع أطـراف وغليل كبد، وقد فجـع بهذا المولى والعهد بـوالده رحمه الله غير بعيـد، والأسى في كـل يوم عليه جديد».

ووصل قبل هـذا إلى العماد كتاب من الفاضل فيه:« وأنـا على مايعلمه المولى من العزلـة إلا أنها بلا سكون، ونحن على انتظـار البرق الشامي أن يمطر، وحـاشى ذمة الـوعد به أن تخفـر، واشتغال سيـدنا في هذا الـوقت بالدرس والتـدريس، والتصوير والتكييف، والتصانيـف التي تصرف فيها بالبـلاغة أحسـن التصاريف، نعمـة يتعين شكرهـا على العلماء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء».

قـال العماد: ولما توفي الملـك العـزيز خلـف بنين صغـار يزيـدون على العشرة، وولده الأكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر، وكان إلى أبيه أحـب أولاده، يشيم من شيمـه مخيلة سـداده، وقد اختص لـديه، ونص عليـه، فاجتمع الامـراء الصلاحية وكبيرهم ومقـدمهم فخر الـدين إياز سركـس ومنهم أسـد الدين سراسنقـر وزين الديـن قراجـه، وعقدوا الأمـر لولـده نـاصر الـدين، ونعتـوه بـالملـك المنصور، وأخـذوا لـه أيمان الجمهور، قـال: وكانت الأسديـة في الايام العزيـزية الناصرية مغمـورين، وبالاستيلاء عليهـم مقهورين، وكبيرهـم سيـف الدين يازكـوج، وكان عند وفاة العزيز غائبا بأسـوان، فلما بلغه ذلك حضر وجمع الأسدية، واجتمعوا هـم والصلاحيـة ظاهـر القاهـرة، فقال لهم: نعـم مارأيتمـوه من حفـظ العزيـز في ولده، لكنه صغير السـن لايحتمل ثقـل هذا الفن، ولا بـدّ من

كبير من أهل البيت يربيه ويدبر الدواوين، ويرتب القوانين، وماهاهنا إلا الملك العادل، وهو الآن ببلاد الشرق مشغول، وهاهنا من هو أقرب منه، وهو الملك الأفضل، فقال الأسدية: هذا هو الرأي الراجح، ولم يسع الصلاحية مخالفته، فاتفقوا على استدعاء الأفضل من صرخد، فخرج منها ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرية، فوصل إلى القدس يوم الخميس، وخرج إليه عسكره، وساروا معه إلى بيت جبريل، ثم أغذ السير فلما قرب منهم في تاسع ربيع الاوّل تلقوه، وإلى أعلى مراقي العلا رقوه، وسروا بقدومه، وجروا لمرسومه.

قال: وكان الناصرية كتبواإلى رفقائهم بالشام إنا أحوجنا إلى الوفاق، وتأكيد الميثاق، وقد كتب إلى نور الدين بالحضور، وضبط الأمور، وهو عندكم في صرخد، وإن توصل الينا انتظم أمره، وتمهد، فاجتهدوا في حصره وهو في حصنه، ولاتسمحوا بفك رهنه، ووصل إلى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر فخرج عسكرها إلى صرخد فوصلوا إلى بصرى يوم الأربعاء، فقيل لهم: إن الأفضل أدلج ليلا، واستصحب نجبا وخيلا فرجعوا إلى دمشق، وقيل لما عبر الأفضل بالبيت المقدّس وجد في طريقه نجابا مسرعا فأستحضره، واستكشف ورده وصدره، فقال أنا نجاب فخرالدين اياز سركس، ومعي كتبه إلى من يأنس به ويحبه، فتسلم منه الكتب،وعاد النجاب في خدمته، فلما وصل إلى القاهرة احتفل سركس له وأضاف وقدّم وغرم أموالا ثم أبصر نجابه، واقفاً ببابه، فأخبره الخبر فاستشعر من ذلك وتضور، فمضى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه فوصلا إلى القدس وسكنا به وعرف الناصرية جلية الحال، فأخذوا في الانتقال، وتوهم الأفضل من الباقين فقبضهم وحوى جوهرهم وعرضهم، فتفرقت الكلمة المجتمعة، وتوقفت الهمم المسرعه، وأمر الأفضل بالخطبة لابن العزيز على جميع المنابر،ثم الدعاء له في الآخر، ونقشت السكة أيضاباسم الولد في البلد وغير البلد.

قـال: ولما استقر الأفضـل بمصر حملوه على قصـد دمشق، وحصرهـا، وقالـوا له: اطلـب بلدك الذي منـه أخرجت، وعـن المقام فيـه أزعجت، ومالك في مصر مايكفيك، ودمشق لك بـوصية أبيك، وجاءته رسل أخيه الظاهـر من حلب وهـداياه، وقال لـه: انتهز الفـرصة فعمنا عنـا مشغول وإلى إن يتم مـن ماردين مـراده، وينضم إلى بيـاضه سواده نخـرج دمشق عن يـده، ونعجله اليـوم فيها عـن غده، وأنـا أصل إليـك وأقدم عليـك بـالبنود والجنـود والأسـاور والأسود، فما زالـوا به حتـى خـرج بالعسكـر واستناب سيف الدين يازكوج مكانه .

قال : ووصل إلى الملـك العادل الأمير سراسنقر أحد الأمـراء الناصرية المفارقين، فـاستحثه على مفـارقة ماردين، وتواصل مـن الناصريـة جماعة بعـده، وعنـدهم مـن الإستحثـاث مـا عنـده، فحـركه القـول وتجرد عـن العسكر واستصحـب معه الأميريـن: عز الديـن بن المقـدّم وبدر الـدين دلـدرم، وسرى ليلا لخمـس بقين مـن رجب، وأوصـى ولـده الكامـل أن يسير في مضـايقة حصـن مارديـن بسيرتـه، ويقتدي بعـزمته، ووصـل إلى دمشق يوم الإثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلد.

ووصلت العسـاكر المصريـة يوم الخميـس وأحاطـت بدمشـق،ودخلها جماعـة منهم مـن باب السـلامـة بلغوا إلى السـوق الكبير، وأعلنوا الفتـح بالتكبير، ولم يتبعهـم أحد على هذا التـدبير، فخرجـوا من باب الفـراديس وكرّوا على أعقابهم لمن وقـف لهم من الكراديس، وأما الأفضل فـإنه وصل إلى الميدان الأخضر، وضرب فيـه دهليز سرادقـه، وأقدم بـرواعده وبـوارقه، فأشار عليه أمراؤه بـالتأخر عن تلك المنزلة، وكانت منهـم زله،فنزلوا عند ميدان الحصا ثـم تأخروا إلى مسجد القدم، وامتلأ ذلـك الفضا بمضارب الخيـم، ففترّت الصـدمـة الأولى، وقصرت الصـدعـة الطـولى،وخمد الجمر فصـار رمادا، واستحـالت تلـك الأمواج المتـلاطمة ثمادا، ولـزموا منـازلهم أكثـر من سـتـة أشهر هنـاك، وتمت فـوارط عدمـت الاستدراك، وامتـدت

خيامهم من أقصى داريا إلى الغوطة، وظنوا أنهم آخذون بمخنق دمشق المضغوطة، وكاتب الملك العادل جماعة من أمراء العسكر المصري ففارقوه ودخلوا دمشق، فأكرمهم واحترمهم منهم طغرل المهراني، وإياز البانياسي، وابن كهدان، ومثقال الخادم، وابن أخت السلطان ابن سعد الدين كمشبه، وكثر الواصلون القاطعون لمن وراءهم، وأحسن العادل جزاءهم، فتكاثرت الأطماع وتتابعت الرؤوس والاتباع، ووصل الملك الظاهر،ومعه أخواه الظافر، والمعز، وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص، وعسكر حماه دون سلطانها، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس، وهو شيخ الدولة وكبيرها، وأمينها وأميرها، وفي حمايته حصنا تبنين وهونين ومايزال أسرى من كفراء الفرنج بدين الله عنده مرهونين، فرغبهم في السلامة والسلم، والاحتمال والحلم، وأشار على كل من الجانبين بتجنب المجانبة، والتقرب بالمقاربة والمراقبة، وجاءهم أيضا سعد الدين مسعود صاحب صفد، وأخوه نور الدين مودود.

قال: ولما جبنوا عن مضايقة الحصار واصلوا قطع الاشجار، وكسر الأنهار، ومنع كل مايدخل البلد من نعمة ونعم، وغنيمة وغنم، حتى ردوا القوافل، وصدوا الفروض والنوافل.

قال: وكان الناصرية المقيمون بالقدس قد استولوا عليه، ونظفوا ممن ارتابوا به حواليه، وأخرجوا منه المغاربة، ورجاله وأجناده الراتبه، ومعهم الأمير فارس الدين ميمون صاحب نابلس، وعز الدين سامة صاحب كوكب وبيسان، ثم وصل الخبر أن سركس ومن معه واصلون إلى دمشق،فتجرد من المحاصرين عسكر إلى طريقهم، وكانوا قد وصلوا إلى طبرية، وعبروا منها الى البقاع وتمكنوا خلال تلك الضياع، وسيروا إلى بعلبك ماصحبهم من الأثقال والأحمال، وكان صاحبها الامجد في جانب الملك العادل، وتجردوا خيلا، وقطعوها ليلا، وتوقلوا الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عقبة دمر، وقد فاتوا العسكر، فتقوى عسكر البلد فصاروا

يبكـرون ويـركبـون، ويقـربـون مـن العسكـر المصري ولايـرقبـون، وحفـر المحاصرون حولهم خندقا عميقا فصار لهم به عن الحصار شغل شاغل.

قـال: وعلى الجملة فما ظهـر منهم صنـع إلا في قطع الماء ومنـع الميره، والمضـايقـة الكثيرة، واحـراق البســاتين، وتخريـب الطـواحين، حتـى إذا انحسمت المواد، وفنيت في البلد الأزواد واضطروا إلى التسليم، واضطربوا على التـأخير والتقـديم، فتسلـط الـرعيـة على الملك العـادل وحملـوه على التسليم والاستسـلام، فتباينـت أراء الملوك المحـاصرين، بما دبـره العادل سيـف الـديـن، ولابـد للكبـار مـن الاحتيـال، إذا صمـم الصغـار على الاغتيال، وليس في ذلـك بدعة، فإن الحرب خدعة، فنفـذ الى الظاهر في الباطـن، وقال له: أنت السلطـان وحكمك على جميع الأماكـن والمواطن، وأنا أسلم إليك دمشق على أنها تكون لـك لا لغيرك، فقال الظاهر لأخيه الافضل: قلدني في الانعام بدمشق منة المتفضل، فقال له هذه لاتخلو من أقسام جـالبات لأسقـام، أجلك أن تتـولاها تـولية النـائب، وإن أخذتها دوني فمن النوائب، وإن أعطيتني عنها عوضاً ممـا أعرف لك فيه غرضا، فما لك مايصلـح أن تقايض به دمشق، وأنت لاتـدعي لها العشق، فتغير بهذا رأي الظـاهر، والله المطلـع على الضمائر، وقيـل أرسـل العادل وقـال: أسلـم اليكم دمشـق بعد سبعـة أشهـر، وتربـص وتصبر، فخذوا يمينـي، وكلوني إلى ديني، وظـن أنهم لايوافقون وفي الحصر يضايقـون، فلما أجابوه إلى هذا الملتمس، وقعقعـوا في الاستضاءة بهذاالقبس، عرف انهم نـادمون فيما عليـه من الحصر قـادمـون، فعاد عـن هـذا البـذل، وردّهم إلى سنـن العدل، وقيل: كان يكتب إلى الأفضل إن الأمـر انفصل مع الظاهر، وإنه يعاملـك معاملـة المسر لا المجاهـر، فخذ لنفسـك وأبدل معـى وحشتك بأنسك، ويكتب أيضا إلى الظاهر إن الأفضـل قد صالحني، وعلى الرضى صـافحنـي، وإنـك تحصـل على المضـاغنـة، وستفضي بـك المبـاينـة إلى المغابنـه،وقيل إنـه كان يكتـب في كل يـوم أجوبـة كتب قـوم لم يكاتبـوه، ويجيبهـم عما فيه لم يخاطبـوه، وخبزت تلـك الملطفات في عجين، لـتفـرّق

-٨٩٤٣-

على مـن يقصـد العسكـر مـن المسـاكين، فـإذا فتشـوا عثر على تلـك الملطفـات، فنعت مـن كتـب إليـه ، ولاعلم لـه، بـالآفـات، وعدّوا مـن المخامرين، فصار أكثر العسكر من المتهمين.

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وهم على ذلك والشتاء قدهجم، وكل بأمره مهتم، ودهمهم أيضا خبر وصول الملك الكامل من الشرق، وخرج من دمشق جماعة يظهرون أنهم من الناصحين، وتردّدوا إليهم ومنهم غادين ورائحين، وأبرقوا وأرعدوا وقالوا: غدا يكون قدوم الملك الكامل في الجحفل الحافل، ومعه من المال الصامت إلى أبيه العادل، فيستظهر بولده والمال والرجال، فلا يقعد عن النهوض إلى القتال، والصواب أن نتأخر قليلا، فرحلوا إلى سفح جبل العقبه، وبقيت أسواقهم مملوءة، وباتوا تلك الليلة وهم لكل مايحتاج إليه عادمون، وعلى مافرط منهم نادمون، وفقدوا حتى الماء للشرب، وكانت تلك الحالة كسرة قبل الحرب فاضطربوا المحل المحيل، واضطروا إلى راحة الرحيل.

ووصل الكامل تاسع عشر صفر، وقد جمع التركمان، واستصحب جند الرها وحران، ونزل في جوسق أبيه، فاستبشرالسلطان برحيلهم وقدوم ابنه، وقضت خشية الله بأمنه، وأقام الكامل حتى توجه أبوه إلى مصر، فخرج معه أياما ثم عاد ولم يؤثر مقاما، وانتقل إلى حران والرها واستقام به أمرها، وذلك حادي عشر ربيع الأوّل، وأما المحاصرون فإنهم انتقلوا من الكسوة إلى مرج الصفر، وسير الملكان الظاهر والمجاهد بعض الأثقال إلى بانياس، وأصحبا بقية الأحمال الملك الأفضل إلى مصر، وودّعاه وكلاهما سار جريدة إلى مقره، واستمر بعد ذلك على أمرار أمره، كلما رحل القوم عن منزل أحرقوا مالم يظفروا له بمحمل، وانتقلوا من مرج الصفر ولم يلووا على أحد، ولم يعرجوا إلى بلد، وأخذوا في السير والسرى، وذهبت آسادهم تروم معاودة الشرى، وتبعهم الصلاحية ينزلون بعدهم في منازلهم، ويخلفونهم في مناهلهم، وكان القوم ظنوا انهم يقدرون بمرج الصفر على الاقامة، فلقوا من البرد ماحضهم على النجاة والسلامة، وهذا المرج بقرب جبل الثلج في تموزلايقيم به إلا لابس فروة فكيف في كانون،

وقد عـرفوا أنهم الجانون حيـث لم يلزموا القـانون، وأرسلت الصـلاحية إلى الملك العادل يستعجلوبه، ويحثونه ولا يهملـونه، فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الأوّل، وودّع أعيـان البلد وسـار وتلا مـن تقدّمـه إلى تل العجـول، وأقام حتى اجتمع اتباعه.

وأرسل إلى الافضل العدل النجيب أبا محمـد ،وكان صلاح الدين رحمه الله يعتقد في صلاح دينه، ويمكنه من خواص حـاجاته، ويرسله في مهام الـرسائل، وكـان مـدلول الـرسـالـة: أرفق في السير، ووافـق على الخير، فما عندك اليوم من يصدْقك، وأنا لك كـالوالد وأبلغك مقصودك، وأحالفك ولا أخالفـك، وأوافقك ولا أفارقك، فـأشار على الافضل جماعته بـأن يرد جواب الرسالة: إن مقـاربتي لك بمباعدتك للصلاحية منـوطة، وموافقتي بمخـالفتهـم مشروطه، فلما سمـع ذلـك الصـلاحيـة استشاطـوا ونفـروا، واستـدلوا بـه على أنهم ظفـروا، وجدّ جـدّهـم، واحتـدّ حـد ّهـم، فطـووا المراحـل إلى السـائح، وكـان الأفضـل على بلبيـس، وقـد تفـرّق معظـم أصحابه إلى أخبازهـم، وجماعة منهم مع العادل في الباطـن كاتبوه، وعلى الابطـاء عـاتبوه، فسـار الجمعـان بعضهـم إلى بعض، والتقـوا فـانكسر أصحاب الأفضل وانهزمـوا، فدخلوا القاهرة، وأغلقـوا الأبواب للمحاصرة وانتهـى إلى الأفضـل أن جماعـة منهـم أرسلـوا إلى العـادل في إصـلاح أحوالهم،وانجاح آمالهم ،فقـال سيف الدين يازكوج لـلأفضل: لكل زمان عمل،ولكـل أوان أمل، فاصلـح الأمر كيـف تهيأ، فلا مـلام على اللبيب بأي زي تـزيا، فشرع الافضل في اصـلاح الامر مع عمـه، وراسله على أن يكون بحكمه، ثـم سلم الأمر ومر سالما، وحصـل له من التجربـة ماعاد به بالعواقب عالماً.

قال: وخيم العادل بالبركه، واستبـدّ بملك مصر آمنا من الشركة، ونفذ المقطعين إلى اقطاعهم، ونظـر للصلاحية في صلاح ضيـاعهم، وأرسل إلى الأفضل إن وافقتني على مـاأعطيك وقبلت سعدت، فهؤلاء الـذين عندك

مامنهم إلا من كتب إليّ وتقرّب، وانتظر يومي هذا وترقب وهذه إضبارة كتبهم فتأملها، وإن لم تصدقني فتسلمها واعلم أنهم غرّوك وضرّوك، وساؤوك بما سرّوك ، وقيل: لم يبق من الأمراء من لم يكتب إليه، ولم يخامر إلا أربعة أخلصهم سيف الدين يازكوج، فلما عرف الأفضل صدق عمه سلم المسألة،وسأل المعدله، فقرر للأفضل في ديار بكر:ميافارقين وأعمالها، وجبل جور وحاني وجملين، والمعاقل والحصون المحسوبة من ميافارقين، فرضي بها مكرها، وخرج إلى الشام متوجها ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر في الليلة التي دخل العادل في بكرتها القاهرة فاستقر بدار السلطنة، وقدم سيف الدين يازكوج وحكمه، واستبقى رضى الناصرية بابقاء الخطبة لابن العزيز، ولم ينافسهم مع حصول المعنى له في التفضيل والتمييز، وأقام وهو كل يوم في ارتفاع وسياده، وقوته في نموّ وزيادة.

قال: ورد القضاء الى القاضي صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي، ولم يزل قاضي القضاة بالديار المصرية، من الأيام الناصرية وكان نائبة القاضي زين الدين على بن يوسف الدمشقي، وتعصب الامراء المتغلبون على الملك العزيز في مراتبه بصرف صدر الدين وتولية نائبه، ولم يزل صدر الدين مصروفا تارة بمحيي الدين بن أبي عصرون، وتارة بزين الدين حتى تعصب العادل له وبعث العزيز على ردّه، فلما انقضت أيام العزيز وجاء الأفضل كان أوّل ماحمل عليه أن صدر الدين يعزل، وتولى زين الدين القضاء، فلما جاءت نوبة العادل في هذه السنة ردّ صدر الدين إلى منصبه، وردّ التدريس بالمدرسة الشافعية في التربة المقدسة، وبالمشهد الشريف الحسيني الذي أجرى عليه حكم المدرسة إلى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، وكتب إليه وهو بدمشق فاستدعاه، وقد كان قبل ذلك ولاه في ممالكه الجزرية أمور المناصب الشرعية، والامور الدينية، ومدارس الشافعية، وربط الصوفية، وهو قاضي قضاتها، ووالي هداتها، وهادي ولاتها، وله في مناصبه نوّاب، وفي مراتبه أصحاب.

قال: ولما دخل العادل القاهرة، استشعر أصحاب الدواوين مهابةالوزير صفي الدين ابن شكرالظاهرة، ونزل في الدار السلطانيةفي الحجرة الفاضلية، وتصدّر في مكان مكانته وشهر من قلمه عضب شهامته، وسيف صرامته، وقمع المتجبرين، ووضع المتكبرين، وأخذ قوس الوزارة باريها، وأجرى الله الأمورأحسن مجاريها.

قال: وندب العادل من الأسدية والصلاحية أميرين كبيرين إلى الشام لإصلاح ذات البين بحمص، وحماه وحلب وغيرها، وهماسرا سنقر، وكرجي.

قال: ولما ودّع الافضل عمه بالبركة سار إلى صرخد، وأقام بها وندب إلى البلاد التي بديار بكر من يتسلمها،ولما انفصل عن مصر وجد المواصلين له لصحبته مفارقين، وكذا الدنيا ماتقبل على أحد ولاتمدّه بمدد، إلا تواردت على حياضه الجموع، وتزاحم في رياضه الرتوع، فاذا صرفت عنه وجوهها صرف أهلها عنه الوجوه، وأحلوا به مكروه المكروه.

قال.وأما الظافر فإن عمه أحسن إليه، ووعده بعطاء جزيل، وودّعه بثناءجميل، وأقطعه بأعمال دمشق حزرما وضياع السواد، وشق عليه انه لايجد مايجود به وهو من الاجواد، ووصل إلى دمشق رابع جمادى الآخرة وسكن في جوسق بستانه بالنيرب، وسلك طريقة الاحتراز والاحتراس، واختار البعد عن مقاربة الناس، ولزم السكينة، ولم يدخل المدينة، وطلب من القاضي بجامع النيرب خطيبا شافعياً ليكون بالصلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيا، واحتاط غاية الاحتياط، وطوى بساط النشاط.

فصل

قال العماد: واستدعى العادل ابنه الكامل إلى مصر ليستنيبه فيها وكان بحران، وهوفي تلك البلاد نائب السلطان، فسلم تلك الولاية إلى أخيه

الفائز، ووصل إلى دمشق سادس عشر شعبان، ونزل بجوسق أبيه في بستانه، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا، وهو وزيره، ومستحثه على المكارم ومشيره.

قال: وخدمته بكلمة أوّلها:

أنتم تحبون بالاعراض تعذيبي
وتقصدون بخلق الصدّ تهذيبي
ساروا فيا صحتي من مهجتي ارتحلي
غابوا فيا سنتي عن مقلتي غيبي
قد كان يهضمني دهري فأدركني
محمد بن أبي بكر بن أيوب
الكامل المالك الأملاك حيث له
رق الأعاجم منهم والأعاريب
معطر عرفه عرفا ومكرمة
مخمر طينه بالطهر والطيب
لا يدعي جوده البحر عرفا ومكرمة
يلفى تأبيه في الشم الشناخيب (١٤٣)
دعتك مصر إلى سلطانها فأجب
دعاءها فهو حق غير مكذوب

قال: وعزمت على صحبته في هذه السفرة إلى مصر، فخرج في الثالث والعشرين من شعبان إلى الكسوة، وخرج سلطان دمشق الملك المعظم ليودّع سلطان مصر أخاه الكامل، وصحبه إلى رأس الماء مع عدّة من الأمراء، ثم ودعه وانصرف وتشوّش مزاج الكامل بعده وانحرف، ووصل

إلى العباسة في الحادي والعشرين من رمضان، والتقاه والده العادل وأنزله بالقصر، ثم ركب إليه بعد يومين وأستصحبه إلى الدار ورتب أحواله على الإيثار، وكان قد عقد له على ابنة عمه الملك الناصر رحمه الله، فأدخله إليها ليبني عليها.

قال: وأصبح العادل يوم الإثنين سابع عشر شوّال، وركب بالسنجق السلطاني والمركب الخسرواني، والسيوف المسلولة، والعقود المحلولة، وأمر الخطيبين بجامعي مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ليس بعد دعاء الخليفة إلا الدعاء لهما، وانقطعت الخطبة لابن العزيز، وكان أحضر جماعة من الفقهاء والقضاة والكبراء والولاة، وقال لهم قول المستفتي المستشير: هل تصح ولاية الصغير؟ فقالوا: هذا مولى عليه فلا يلي، وغيابات الحوادث بنظره لاتنجاب ولا تنجلي، فقال: فهل يجوز للمولى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر، ويرتب الأمور بحكم النيابة ويدبر؟ فقالوا: إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابة، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصابة، لاسيما في السلطنة التي هي خلافة الخليفة، فلا حق فيه إلا للكبير الذي يعين على الحقيقة، وجرى منهم في هذا المعنى الإمعان، فلما عرف الشرع أحضر الأمراء والتمس منهم الطاعة والسمع، وخاطبهم في اليمين له والميثاق، وألزمهم بالوفاء، والوفاق، فأبوا وخاطبهم بماراعهم، وملأ بالتقريع اسماعهم، ثم قال: قد علمتم ما هو الواجب من التظافر على حفظ ثغور الإسلام، وتدبير الممالك بمصر والشام، وما هذا أمر يناط بالصبيان، أو يحاط بغير ذي القدرة والسلطان، فأذعنوا وأطاعوا وحصل الإئتلاف، ورفع الخلاف.

قال: ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده، معقوداً سنجقه بمعاقده، والمناصل مجذوبة، والصواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة، ومشى في ركابه من إليه تحبب، وإلى السلطان تقرب.

قال: وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوّال إلى برج المقسم، والمقسم موضع على شاطىء النيل يزار، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار، وهو المكان الذي قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضي الله عنهم على مصر، ولما أمر صلاح الدين رحمه الله بإدارة السور على مصر والقاهرة، وتولاها الأمير قراقوش جعل نهايته التي تلي القاهرة عند المقسم، وبنى فيه برجاً هو مشرف على النيل ذو شرفات، ومعقل ذو طبقات، وثيق البناء، رفيع الفناء، وبنى مسجداً جامعاً، واتصلت العمارة منه إلى البلد، متتابعة المدد، وهو متنزه عن الأكدار والأقذار منزه، وبالجنات مشبه، وإلى البحر والبر بمناظرة الشبابيك موجه، فاختار الكامل أن يجلس فيه يوماً للتفرج، فجلس في الطبقة العليا، واجتمع الأمراء والأعيان في الطبقة الدنيا، ثم مدّ السماط في الجامع، ثم ذكر العماد أنه مدحه ثم بكلمة أوّلها:

مغرم القلب مدنف — وجده ليس يوصف
وعدونا واخلفوا — ووفينا ولم يفوا

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال قدم فلك الدين أخو العادل من دمشق.

قلت: هو أخوه لأمه واسمه أبو منصور سليمان بن شروه بن جلدك، وإليه تنسب المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس بدمشق وبها قبره.

قال العماد: وفي هذا اليوم خطب للعادل وابنه الكامل، والعادل في مهامه يستشيره ويستدعيه، والمرء كثير بأخيه، ثم عاد إلى دمشق بعد شهور.

قال: وفي العشرين من الشهر خرج حاج مصر إلى البركة، وأمر

عليهم نصير الدين الخضر بن بهرام، وكان والي المحلة، وهو مستمر الولاية من الأيام الصلاحية، وحج معه من معروفي الأجناد وأمرائها عدّة، وكذلك حج في هذه السنة حاج دمشق وصحبهم الأمير عز الدين سامة، وكانت السنة مباركة، والنعم متداركة، والخيرعام، والخصب تام.

قال: وانتظرنا زيادة بحر النيل في أوقاتها، فبلغ إلى احدى وعشرين أصبعا من ثلاث عشرة ذراعا، فعاد بذلك كل قلب مرتاعا، ثم أخذ في النقص وهو مرجو الزيادة مأمول الوفاء على العاده، فقنط الناس، ووقع اليأس، واشتدّ المحل، وغلا السعر، ويئس الفلاحون من الفلاح، وأجفلوا من البلاد للانتزاح، وطاروا بأجنحة النجاة في طلب النجاح، وقيل إن هذا النقص لم يعهد من عهد الصحابة، وشرعنا في الاستغفار والانابة، وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم التروية، وكأنما أصابهم مصيبة فهم في التعزية، ثم استسقوا ثلاثة أيام إلى العيد، وأفاض الخطيب في ذكر الوعيد، وغصت بالخلائق الأمكنة، وضجت بالأدعية والضراعات الألسنة.

قال: وفي السنة الّتي قبلها، وهي سنة خمس وتسعين، استدعي القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى بغداد، وولي قضاء القضاة، وكان متولي القضاء بالموصل، فحرج في أواخر شعبان، فلما وصل بغداد بجل وعظم، وكان قد تردّد إلى بغداد دفعات في الأيام الصلاحية بسبب الرسالة، فهو كان المعين لها، كما تقدّم ذكره.

فصل

في وفاة جماعة من الأعيان في هذه السنةأعني سنة ست وتسعين

قال العماد: وفيها ثالث عشر جمادى الأولى توفي في داره بدمشق الأمير صارم الدين قايماز النجمي، وكان متولي أسباب صلاح الدين رحمه الله في مخيمه وبيوته، يعمل عمل أستاذ الدار، واذا فتح بلد أسلمه إليه، واستأمنه عليه، فيكون أوّل من افتض عذرته، وشام ديمته، وحصل له من بلد آمد عند فتحه، ومن ديار مصر عند موت عاضدها أموال عظيمة، وتصدّق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية عينا، وأظهر أنه قضى من حقوق الله في ذمته دينا، وهو بالعرف معروف، وبالخير موصوف، يحب اقتناء المفاخر ببناء الربط والقناطر، ومن جملتها رباط خسفين ورباط نوى، وله مدرسة مجاورة داره، ولماكفى الله دمشق الحصر نهض وراء العادل إلى مصر، فردّه إلى دمشق ليلازم خدمة الملك المعظم ولده، ويكون من أقوى عدده وأولى عدده، وكان في خلقه زعاره، وكانت حصافته مستعارة.

قال: ولما دفن نبشت أمواله، وفتشت رحاله، وحضر أمناء القاضي، وضمناء الوالي، وأخرجوا خبايا الزوايا، وسموط النقود، وخطوط النسايا، وغيروا رسوم المنزل ومعالمه، واستنبطوا دنانيره ودراهمه، وحفروا أماكن في الدار وبركة الحمام في الجوار، فحملوا أوقارا من النضار، وظهروا على الكنوز المخفية، والدفائن الألفية، فقيل زادت على مائة ألف دينار، وهو قليل في جنب مايحرزه من كذا وكذا قنطار.واستقل ماطواه الحزن، وأخفاه الدفن، وقيل كان يكنز في صحارى ضياعه، ومغارات اقطاعه.

قلت: واتهم بعده جماعة بأن له عندهم ودائع، وتأذى بذلك المتأبي

منهم والطائع، وداره بدمشق هي التي بناها الملك الاشرف أبو الفتح موسى بن العادل داراً للحديث في سنة ثلاثين وستمائة، وأخرب الحمام الذي كان مجاورا لها، وأدخله في ربعها، وذلك في جوار قلعة دمشق بينهما الخندق والطريق، وثم مدرسته المعروفة بالقيمازية.

قال العماد: وفي جمادى الآخرة من هذه السنة توفي —يعني بمصر— الحاجب لؤلؤ وكان في الأيام الصلاحية أشجع الشجعان، وأفرس الفرسان وله مقامات في الغزاة، ومواقف مع العداة، وهو الذي نهض وراء مراكب الفرنج الناهضة في بحر إيلة إلى الحجاز، وأتى في كسرهم وأسرهم بالإعجال والإعجاز، وكانوا قطعوا الطريق في بحر عيذاب على التجار، وحصلت أموالهم تحت الاستيلاء بعد حصولهم تحت الاسار، فأنقذ واستنقذ، ومانزل حتى أخذ، وساق إلى القاهرة أولئك الكفار مقهورين واعتقلهم مأسورين.

قلت: وفيه يقول الرضى بن أبي حصينة المصري يخاطب الفرنج:

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه ... والدر في البحر لايخشى من الغير

فأمر حسامك أن يحظى بنحرهم ... فالدر مذ كان منسوب إلى النحر

وقد قيل فيه أشعار كثيرة، تقدّم بعضها في أخبار سنة ثمان وسبعين.

قال العماد: ومن دلائل سماحه ماشاهدته بالقاهرة في سنة إحدى وتسعين من مبراته الظاهرة أنه لما حط القحط رحله، ووصل المحل محله، وتم الغلا، وعم البلا، ابتكر هذا الحاجب الكبير مكرمة لم يسبق إليها، وذلك أنه كان يخبز كل ليلة اثني عشر ألف رغيفا فإذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حشر الفقراء، ثم يفتح الباب مقدار مايخرج منه واحد بعد واحد، ويعلم أنه غير عائد فيتناول كل منه قرصه، ويرى

ذلك من خيراته فرصه، فما يزال قاعداً حتى يفرق الألوف على الألوف، وكان هذا دأبه في هذا الغلاء، حتى هب رخاء الرخاء، فحينئذ تنوعت صدقاته، واستغرقت بالصلاة أوقاته، وكان بهي الشيب نقي الجيب، قد جعل الله البركة في عمره، وخصه مدة حياته بإمرار أمره، فأنجده في أوان ضعفه بتضعيف بره، ولا شك أنه من الأولياء الأبدال، والصالحين الصالحي الأعمال.

قال: وفي يوم السبت الحادي والعشرين من ذي القعدة، وأنا بالديار المصرية، توفي الفقيه الكبير شهاب الدين الطوسي، وهو أكبر الأئمة الشافعية ورئيسها، وإليه فتياها وتدريسها، وهو من أصحاب محمد بن يحيى، وكم واجه الملوك بالحق المر، وأنكر عليهم ماينكرونه من العرف ويعرفونه من النكر، ولما وصل إلى مصر كان تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب متوليها، فأعجبه سمت المذكور، فولاه مدرسته بمصر، وهي المعروفة بمنازل العز فوليها، وأقام فيها مفيدا حتى فاز في جنة النعيم بفوزه، وخلت منازل العز من منازل عزه، وأصبح الناس حول سريره مزدحمين، وعليه متوجعين، فوصلوا به إلى القرافة، معان الرحمة والرأفة، وهناك الأصاغر والأكابر من الملوك والأمراء مشاة، وجنازته بما فيه من لباس التقوى مغشاة، ولما نفضوا أيديهم من ترابه انفضوا من أيادي بركته متربين، وبنار اللهب والتلهب عليه مضطرمين، ونمى الخبر إلى حماه وعرف ابن تقي الدين، فولى قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي بمصر وقوف أبيه، وسير نائبه لتسلم ذلك وتوليه، وكان اتفق حضوره عنده في الرسالة فاهتدى برشده إلى الضلالة.

قال: وفي العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه العالم بدر الدين بن عسكر رئيس الحنفية بدمشق.

قلت: وقيل كانت وفاته في تاسع عشر جمادى الأولى، ويعرف بابن العقاده.

قال:وفي سابع عشر شعبان توفي بحلب الفقيه الكبير ظهير الدين عبد السلام الفارسي، وكان أبرع فقيه وأفقه بارع، ورد إلى اصفهان سنة تسع وأربعين، ولقي بها العلماء المبرزين، وخالط صدورها بني الخجندي، وكان تفقه بكرمان، وقرأ على فخر الدين الرازي، من أكبر تلامذة محمد ابن يحيى، وتنقل في بلاد خراسان والعراق، ولقيته بمصر سنة اثنين وسبعين في العهد الصلاحي، وسامه السلطان المقام بها ليفوّض إليه التدريس بقبر الشافعي رضي الله عنه، فعبر وماصبر، وعاد إلى البلاد، ثم وفد إلى دمشق في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين ثم سار إلى حلب في ثاني شعبان، فكان من وفاته بها ماكان.

قال:وفي هذه السنة توفي بنيسابور الفقيه الكبير محيي الدين بن محيي الدين محمد بن يحيى.

وفيها توفي صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين قرا أرسلان.

وفيها مات بدمشق في العشر الأوسط من شعبان الهمام العبدي، الشاعر البغدادي، وهو أبو الحسن على بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس من ربيعة وقدم دمشق سنة خمس وتسعين، وهو أشعر من رأيته في هذا الزمان، وسمعته ينشد الملك العادل ودمشق محصورة كلمة شاعره، وصادفته ذا سمت حسن، وفصاحة ولسن، ومعه ديوان شعره يحوي قلائد دره وفرائد سحره، وتوفر على مدح الأمجد صاحب بعلبك ومن شعره:

وما الناس الا كامل الحظ ناقص
وآخر منهم ناقص الحظ كامل

وإني لمثـــــــر مـــــــن حيــــــــاء وعفـــــــة
وإن لم يكـــــن عنـــــدي مـــــن المال طـــائل

قال: وتـوفي في هذه السنـة قبل الفاضـل بثلاثـة أيام الأثير بـن بنان، وكان مشمولاً في الدولتين بكل قبـول واحترام واحسان، وكان السلطان لما تصرف في القصر ولاه بيـع موجـوده، وبذل في نصرتـه غـاية مجهـوده، ولما فرغ مـن شغله أبقاه على رسـم انعامه كلـه، واستمر إمراره واستقـر قراره، وجلس في بيته يسـبح عليه رواياته العـالية، حتى أدرك أيام الملك العزيز، ولم يدرك في العـز أملاً، ولم يملك عمـلا، حتى تغير خلقه، وتقلـل رزقه، وتبطل حقـه، وآل أمره إلى اعتقالـه بالديون، واحتبـاسه في الرهـون، وممن غاظـه وزير العزيز، وكـان مؤدبه في الصغر، واستـوزره في الكبر فتجهمه، واسمعه مـاكرهـه، وقال له: مـا أحسن ما أدبـت مخدومك وخـرجته، وعلى مراتب أخـلاقك درجتـه، وقال للفـاضـل: أنا خلصتـك في أيام شـاور مـرتين، ودافعت عنـك دفعتين، وهذه قصـائدك في مدحـي، ومقاصـدك لمنحـي، وكان يعـرف لتقـادم عهده وانتقـالـه في الحالات، مبادي أربـاب المنـاصـب إلى الغايـات، فكـرهـه النـواب ودحضوه ولمعـارض النـوائب عرّضوه، وكـان بالقاهرة جـاري، وباب داره مقابل بـاب داري، وأنا أعينه في الأيام الصلاحية بأصلح إعانة، وأصونه بأرجح صيانه.

فصل

في وفاة القاضي الفاضل رحمه الله

قال العماد : وفي هذه السنة تمت الرزية الكبرى، والبلية العظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفنا إلى دار البقاء، في داره بالقاهرة سادس ربيع الآخر، يوم الثلاثاء وكان يعني ذلك اليوم بمصاف الأفضل يوم الكسره، وبمصاب الفاضل يوم الحسرة، وذكر أنه ليلة الثلاثاء في مدرسته صلى العشاء، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرسها، وتحدّث معه ماشاء وشوهد من كل ليلة أبش، وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضره وطالت المسامرة، وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسن، وقال لغلامه: رتب حوائج الحمام، وعرفني حين أقضي مُنى المنام، فوافاه سحراً للاعلام، فما اكترث بصوت الغلام، ولم يدر أن كلم الحمام حمى من الكلام، وأن وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه عن الحمام، فبادر إليه ولده فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أن القدر لهباغت، فلبث يومه لايسمع له إلاّ أنين خفي، علم منه أنه بعهد الله وفي، ثم قضى سعيداً، ومضى شهيدا حميدا، فوقاه الله تعالى الوصية فكانت له بسيد الأولين والآخرين أسوه، وإن تردى عن رداء العمر فله من حلل البقاء في عليين كسوه، ولأنه لم يبق في مدّة حياته عملاً صالحاً إلاّ وقدّمه، ولا عهداً في الجنة إلاّ أحكمه، ولا عقداً في البر إلاّ أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سبل الخيرات متجاوزة عن الخراب، لاسيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب، وأعان طلبة الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة والأيتام بالكتاب، والخيرات الدارة على الأيام، فكانت حياة ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام، وكان رحمه الله للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، سلطانه مطاع، والسلطان مطيع، وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع، وهو واحد الزمان، وصاحب القرآن، قد خصه الله بالمكانة والإمكان،

والسلطان رحمه الله من مفتتحات فتوحه ومختتماتها، ومبادىء أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرائه وآرائه، ومقاليد غناه وعنائه، وكنت من حسناته محسوبا، وإلى مناسب آلائه منسوبا، أعرف صناعته ويعرف صناعتي، وأعارض بضاعته الثمينة بمزجاة بضاعتي، ولم يزل يجذب بضبعي، ويجلب نفعي، وما أوسع درعه للخطاب في شغلي إذا ضاق بالخطب الشاغل ذرعي، وكانت كتابته كتائب النصر ، ويراعته رائعة الدهر، وبراعته بارية للبرية، وعبارته نافثة في عقد السحر، وكانت بلاغته للدولة مجملة، وللمملكة مكملة، وللعصر الصلاحي على سائر الأعصار مفضلة، ومفتتحاته في الفتوحات البديعة بديعة، ومخترعاته في الصنائع المخترعة صنيعة، وإنما نسجت على منواله، ومزجت من جرياله، ورويت بزلاله، وهو الذي نسخ أساليب القدماء بها أقدمه من الأساليب، وأغربه من الابداع وأبدعه من الغريب، وما ألفيته كرر دعاء ذكره في مكاتبته، ولا ردّد لفظا في مخاطبته بل تأتي فصوله مبتكرة، مبتدعة مبتدهة لا مفتكره، بالعرف والعرفان معرفة لانكره، وكانت الدولة بادالته تدال، والزلة بازالته تزال، والكرام في ظله يقيلون، ومن عثرات النوائب بفضله يستقيلون، وبعز حمى حمايته يعزون، ولهز عطف عطفه يهتزون ، فإلى من الوفادة بعده، وممن الافادة، وفيمن السيادة ولمن السعادة؟ والحمد لله الذي له الغيب والشهاده، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولأمره منقادون .

وقد وصفه العماد أيضافي كتاب الخريدة في القسم الرابع في ذكر محاسن فضلاء مصر وأعمالها، فقال: وقبل شروعي في ذكر أعيان مصر وأحاسنها ومزايا فضلائها ومزائنها، أقدّم ذكر من جميع أفاضل الدهر وأماثل العصر ، كالقطرة في تيار بحره بل كالذرة في أنوار فجره، وهو المولى القاضي الأجل الفاضل الأسعد أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن البيساني، صاحب القرآن، العديم الأقران، وواحد الزمان العظيم الشان، رب القلم والبيان واللسن

واللسان ، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقـادة، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة والفضـل الذي مـا سمع لـه بمماثل في الأوائل ممـن لو عـاش في زمانه لتعلـق بغباره، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمـدية التي نسخـت الشرائع، ورسخت بها الصنـائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكـار ويقلع الانوار ، ويبـدع الأزهار، وهو ضابط الملك بـآرائه، ورابط السلك بآلائه، إن شـاء أنشأ في يـوم واحد بل في سـاعة مـا لو دوّن لكـان لأهل الصناعة خير بضاعـة، أين قس في مقام حصافته، ومـن حاتم وعمرو في سماحتـه وحماسته، فضلـه بالافضـال حال، ونجـم قبولـه في أفق الاقبـال عـال، لامنّ في فعلـه ولا مين في قـولـه، ولا خلف في وعـده ولا بـطء في رفده الصادق الشيـم، السابق بالكرم، ذو الوفـاء والمروّه، والصفاء والفتوّه والتقـى والصلاح، والنـدى والسماح، منشر رفات العلـم ونـاشر راياتـه ، وجـالي غيابـات الفضل وتـالي آياتـه، وهو مـن أولياء الله الـذين خصـوا بكرامتـه، وأخلصوا لـولايته قد وفقـه الله للخير كله، وفضـل هذا العصر على الاعصار السالفة بفضله ونبله، فهو مـع ما يتولاه من أشغال المملكة الشاغلـة ، ومهماته المستغـرقة في العـاجلة لايغفـل عن الآجلـة، ولا يفتر عن المواظبـة على نوافل صـلاته ونوافل صـلاته، وحفظ أوراده ووظـائفه، وبث أصفاده وعـوارفه، ويختم كل يـوم من القرآن المجيد، ويضيـف إليه ما شـاء اللهمن المزيد ، وأنا أؤثـر أن أفرد لنظمه ونثـره كتابا، فإننـي أغار من ذكـره مع الذين هـم كالسها في فلـك شمسه وذكائه، وكالثـرى عند ثـريـا علمه وذكـائه فـإنما تبـدو النجـوم إذا لم تبرز الشمس حـاجبهـا، وتحجـب نور الغـزالة عنـد إشراقها كـواكبها، وإنـه لايؤثـر أيضا إثبـات ذلك، فأنـا ممتثل لأمره المطاع ملتـزم له قانون الاتبـاع، وأضع أذني لأذنه، قابض يميني على يمنـه راكن بأملي إلى ركنه، قاطن بـرجائي في ظل أمنه، افترض رضـاه ولا أعترض على مـا يحكـم بـه ويـراه، ولا أقـوم إلا حيـث يقيمني ، ولا أسـوم إلا ما يسـومني ولا أعـرف يد المكتنى غير يده ، ولا أتصـدّى إلا لما جعلنـي بصـدده، وأسأل الله التـوفيـق للثبـات على هـذا

السنن وابتهاج جدده وهو أحق ممدوح بمدحي واقضاهم بحقه، وأسماهم في أفقه، وأولاهم بصدقه، وأهداهم إلى طرقه، ولي فيه مدائح منظومة ومنثوره، ومقاصد معاهدها معموره، وقصائد قلائدها على مجده موفوره.

ثم ذكر منها بعض ماتقدّم ذكره في مواضع من هذا الكتاب وله فيه من قصيدة أوّلها:

بحياتكم ماعندكم بعدي
فسوى الأسى مابعدكم عندي
مالاجنة لاعدمتهم
رغبوا عن الاسعاد في الزهد
إن لم يفوا فلقد وفى كرما
عبد الرحيم بذمة المجد
ذو الرتبة الشماء والشرف الـ
ـعالي السنا والسؤدد العد
الناس كلهم له تبع
وفي فضله والدهر كالعبد
كم غاص بحر بنانه فغدا
درّ البيان يساق في العقد
ان سوّد البيضاء بيض من
ثوب الليالي كل مسودّ
قلم أقاليم البلاد به
وثغورها للضبط والسدّ
ملك كتيبته كتابته
فرد بجيش النصر في جند
الأسمر الخطيّ تابعه
في حكمه والأبيض الهندي
والنائبات بحدّه أبدا
مثلومة مغلولة الحد

وهي طويلة.

ثم قال: ولوأوردت من كلامه طرفاً لظهر عجز الأفاضل، واعترفت بالقصور ذوو الفضائل، فلايحسن ذكر البحر في الجداول، ولا العرش في المنازل، فأنا أؤثر أن أفرده بقسم لايمتزج بسواه، ولايتبهرج به من في جملته أوردناه، ولعله يأذن لي في ذلك ، فلا سبيل إليه إلاّ بإذنه، ولا نفاذ للتصرف إلا بعد الفكاك (١٤٤) من رهنه.

قلت: وقد قالت الشعراء فيه فأكثروا، وقد تقدم لأبي الحسن بن الذروي فيه أبيات حسنة عامي حجه، وللتاج أبي الفتح البلطي فيه:

لله عبد رحيم
يدعى بعبد الرحيم
على صراط سوي
من الهدى مستقيم
ينمي إلى شرف في
ذرى المعالي صميم
مهذب حاز ماشئت
من تقى وعلوم
نسك ابن مريم عيسى
وهدى موسى الكليم
يرى التهجد انسا
في جنح ليل بهيم
مسهد الطرف يتلو
آي القرآن العظيم

وللقاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك فيه من قصيدة:

عبد الرحيم على البرية رحمة
أمنت بصحبتها حلول عقابها

يـــاســـائلا عنـــه وعـــن أسبـــابـــه
نـــال السماء فسلـــه عـــن أسبـــابها
والـــدهـــر يعلـــم أن فيصـــل خطبـــه
بخطـــى بـــراعتـــه وفصـــل خطـــابها
ولقـــد علـــت رتـــب الأجـــل على الـــورى
بسمـــو منصبهـــا وطيـــب نصـــابها
وأتتـــه خـــاطبـــة إليـــه وزارة
ولطـــا لما أعيـــت على خطـــابها
مـــا القبـــوه بها لأن بعلمهـــا
أسماءه أغنتـــه عـــن ألقـــابها
قـــال الـــزمـــان لغيره إذ رامهـــا
تـــربـــت يمينـــك لســـت مـــن أتـــرابها
اذهـــب طـــريقـــك لســـت مـــن آرائهـــا
وارجـــع وراءك لســـت مـــن أربـــابها
وبعـــز سيـــدنـــا وسيـــد غيرنـــا
ذلـــت مـــن الأيـــام شمـــس صعـــابها
وأتـــت سعـــادتـــه إلى أبـــوابـــه
لا كـــالـــذي يسعـــى إلى أبـــوابها
تعنـــو الملـــوك لـــوجهـــه بـــوجـــوههـــا
لا بـــل تســـاق لبـــابـــه بـــرقـــابها
شغـــل الملـــوك بما يقـــول ونفســـه
مشغـــولـــة بـــالـــذكـــر في محرابها
في الصـــوم والصلـــوات أتعـــب نفســـه
وضمان راحتـــه على اتعـــابها
وتعجـــل الاقـــلاع عـــن لـــذاتـــه
ثقـــة بحســـن مـــآلها ومـــآبها
فلتفخـــر الـــدنيـــا بســـائس ملكهـــا
منـــه ودارس علمهـــا وكتـــابها

صـــوّامهــا قـــوّامهـــا عـــلامهـــا
عمالها بـــــــــذالها وهـــــــــابها

وله أيضا من أخرى:
وســـألـــت مـــن أي المعـــادن ثغـــرهـــا
فـــوجدت مـــن عبـــد الـــرحيم المعـــدنـــا
أبصرت جـــوهـــر ثغـــرهـــا وكـــلامـــه
فعلمـــت حقـــا ان هـــذا مـــن هنـــا
ذاك الكـــلام مـــن الكمال بمنـــزل
لا يـــدرك الســـاعـــي إليـــه ســـوى العنـــا
يـــدنـــو مـــن الافهـــام إلا أنـــه
تلقـــاه أبعـــد مـــا يكـــون إذا دنـــا

قلت: كان والده تولى القضاء بعسقلان، وأنفذ ولده الفاضل إلى مصر، فاتصل بكتاب الدولة المصرية أبي الفتح بن قادوس وغيره، وفتح الله عليه في هذه الصناعة ففاق فيها أهل عصره، مضافاً إلى ما منحه الله تعالى من علو قدره، وقد سبق من ترسلاته ما يشهد لعظيم أمره، وقرأت من نظمه:
وسيـــف عتيـــق للعـــلاء فـــإن تقـــل
رأيـــت أبـــا بكـــر فقـــل وعتيـــق
فـــزر بـــابـــه فهـــو الطـــريـــق إلى النـــدى
ودع كـــل بـــاب مـــا إليـــه طـــريـــق

وله أيضاً:
سبقتـــم بـــاســـداء الجميـــل تكـــرمـــاً
ومـــا مثلكـــم فيمـــن تحدّث أو حكـــى
وقـــد كـــان ظنـــي أن أســـابقكـــم بـــه
ولكـــن بكـــت قبلي فهيـــج لي البكـــا

ودفن رحمه الله بمقبرته بالقرافة.

وقرأت في تاريخ أبي علي حسن بن محمد بن اسماعيل القليوبي الذي ذيله على تاريخ أبي القاسم السمناني قال: حدثني الملك المحسن أحمد بن السلطان صلاح الدين أن يوم موت الفاضل اتفق دخول الملك العادل إلى مصر، وأخذها من ابن أخيه الأفضل.

قال: دخل العادل من باب، وخرجنا نسرع بالجنازة من باب آخر، قال: وأكثر أهل مصر يذكرون أن كتبه التي جمعها مقدار مائة ألف مجلد، وكان يجمعها من سائر البلاد. قال: وسمعت قاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري ببغداد أيام ولايته يحدث أن القاضي الفاضل لما سمع أن العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت، خشية أن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر إليه أو يجري في حقه إهانة، وكان بينهما مقارصة فأصبح ميتاً، وكانت له معاملة حسنة مع الله تعالى، وصلاة بالليل كما ذكروا عنه رحمه الله.

قلت: وأخبرني القاضي الشهيد ضياء الدين بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله أن القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحداً من أولاده، وكانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أن توفي، قال: ولما قدم العادل مصر وملكها بات وأصبح فزار قبر الشافعي رضى الله عنه، وجاء إلى قبر الفاضل فزاره، قال ابن أبي الحجاج: وأنا حاضر ذلك.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

قال العماد: ففيها توفي الأمير عـز الدين ابراهيم بن شمـس الدين بن محمـد بن المقـدم في حصـن أفـاميه، وفيهـا أو في سنـة سـت قبلها تـوفي السلطان خوارزم شاه بـن تكش بن ايل أرسلان بن أتسـز بن محمد، وهو الذي زالت دولـة السلجوقية بملكه، واجتمـع له مع خوارزم، خـراسان، والعراق، ولما مات قام ولده علاء الدين مقامه.

قال: وفيهـا كتب السلطـان العادل لـلأمير فخر الـدين إيـاز شركس بأعمال تبنين، وهـونين، وبانيـاس، والحوله، وما يجري معهـا، وكانـت مع الأمير حسام الـدين بشـاره، فحاصره وأنجـده الملك المعظـم عيسى ابـن السلطان من دمشق، فسلم البلاد وخرج.

قال: وفيها توفي الأمير بهاء الدين قراقـوش، وهو من القدماء الكرماء، وشيوخ الدولـة الكبراء، أمير الأسدية ومقدمها، وكريمهـا ومكرمها، ولم أر غيره خصياً لم تقـاومه الفحول، ولم يؤثـر في محال مأثراته المحـول، وله في الغزوات والفتـوحات مـواقف معـروفة، ومقامـات موصـوفة، وهـو الذي احتاط على القصر، حين استتبـت على متوليـه أسباب النصر، وذلـك قبل موت العـاضد بمـدة، ولما خطب لبنـي العباس بـالديـار المصرية تسلـم القصر بما فيه، واستظهر على أقـارب العاضد وبنيه، وتـولى عمارة الأسوار المحيطـة بمصر والقاهـره، وأتـى فيها بـالعجائب الظـاهـرة، وكان معـاذ الإلتجـاء، وملاذ الإرتجاء، غير أنـه نسب إلى اللجـاج لشدة ثبـاته وفـرط جموده، ولا يكـاد يعجم لصـلابـة عـوده، ولما توفي تسلـم العـادل داره بما حوته من الذخائر، وصارت اقطاعاته للملك الكامل.

قال: وفيها نقـل إلى العادل عن غلام الأمير أيبـك الفطيس أن جماعة قد عزموا على الفتـك بالعادل حال ركوبه، وأسنـد أصل ذلك إلى الملكين

المعز اسحق والمؤيد مسعود ولدي صلاح الدين رحمه الله، فأحضر الغلام وعصره فمات ولم يقر، واعتقل المعز والمؤيد ونزع من اتهمه في ذلك من الأمراء الصلاحيه، وتكلم الناس بأحاديث في هذه القضية.

قال: وفي هذه السنة اشتد الغلاء، وامتد البلاء وتحققت المجاعة وهلك القوي، فكيف الضعيف، ونهك السمين فكيف العجيف، وخرج الناس حذر الموت من الديار، وتفرّق فرق بمصر في الأمصار، ورأيت الآرامل على تلك الرمال، والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج على ساحل البحر على اللقم، تسترق الجياع باللقم، فقل من إلى الشام خلص إلاّ بعد أن قل عدد أهله ونقص.

قلت: ثم زالت تلك الشدة بعد مدة، وتوفي العماد الكاتب رحمه الله مصنف هذه الكتب: الفتح، والبرق، وهذه الرسائل الثلاث العتبى، والنحلة، والخطفة بدمشق في أوّل شهر رمضان من هذه السنة، وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقابر الصوفية بالشرف القبلي.

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك الأفضل بسميساط في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وحمل إلى حلب فدفن بها

وتوفي الملك الظاهر بحلب في سنة ثلاث عشرة وستمائة.

وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي، ودفن بالجبل وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بدمشق في سنة خمس عشرة

-٨٩٦٧-

وستمائة، وابنه المعظم في أواخر سنة أربع وعشرين وستمائة، وأخواه الأشرف والكامل في سنة خمس وثلاثين وستمائة رحمهم الله ووفق من بقي من أهل بيتهم وأصلح ذات بينهم آمين.

***

آخر الجزء الثاني من الأصل المنقول منه، الذي هو بخط المؤلف.

والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده. على يد العبد الضعيف المفتقر إلى رحمة ربه اللطيف ، محمد بن أحمد البودري المغربي الأزهري.

آخر الجزء الثاني من الروضتين بأخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة رحمه الله.

حواشي الجزء الأول حسب تقسيم المؤلف

١ــ سورة الرعد ــ الآية :٩.
٢ــ سورة ابراهيم ــ الآية ٣١.
٣ــ سورة الطارق ــ الآية :٩.
٤ ــ سورة هود ــ الآية: ١٢٠.
٥ ــ سورة القمر ــ الآيات :٤ـ٥.
٦ــ **رواه الإمام الترمزي في كتاب الشمائل**
٧ــ انظره عن أبي داود في جامع الأصول لابن الأثير ج ٨ ص ١٩.
٨ــ صحيح مسلم ـ ط. دار الفكر بيروت ج٢ ص ١٣٢ ـ باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح.
٩ــ انظره في جامع الأصول ج١١ ص ٧٩٢.
١٠ــ سورة الحاقة ــ الآية :٨.
١١ــ في حاشية الأصل: «قف، كان المؤلف اختصر تاريخ ابن عساكر».
١٢ــ سورة الذاريات ــ الآية :٥٥.
١٣ــ في حاشية الأصل: ولد نور الدين سنة ٥١١ وتوفي سنة ٥٦٩، وولد صلاح الدين سنة ٥٣٢ وتوفي سنة ٥٨٩.
١٤ــ ديوان أبي تمام ـ ط. دار المعارف القاهرة ج٣ ص ١٥٢.
١٥ ــ في حاشية الأصل: قف على أن نور الدين كان حنفي المذهب.
١٦ــ في حاشية الأصل: قف على أن الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد عنها.
١٧ــ أي لايذكرن بقبيح ، كان يصان مجلسه عن رفث القول. النهاية لابن الأثير.
١٨ـ أي أوضحهم وعداً. القاموس.
١٩ــ سنا البرق الشامي للبنداري ـ .القاهرة ١٩٧٩ ص ١٦.
٢٠ــ في حاشية الأصل حاشية، قال المؤلف: هو عبد المؤمن بن هبة الله بن حمزة الأصفهاني الحنفي، ولقبه شوروه ـ بشين معجمة مفتوحة ، وراء ساكنة بين واوين مفتوحتين ، وآخره هاء ، والله أعلم. كذا في الأصل المنقول من خط مؤلفه.
٢١ــ ليست هذه الأبيات في المطبوع من تاريخ إربل.
٢٢ــ في الحاشية: قف على هذه المنقبة العظيمة.
٢٣ــ انظر تاريخ حلب لابن الشحنة ـ ط. طوكيو ١٩٩٠ ص ١٠٥.
٢٤ــ سورة الفرقان ــ الآية: ٦٣.
٢٥ــ سورة النور ــ الآية: ٥١.
٢٦ــ سورة الزمر ــ الآية ١٠٠.
٢٧ــ سورة الأنعام ــ الآية : ١٦٠.
٢٨ــ سورة البقرة ــ الآية: ٢٦١.
٢٩ــ سورة ص ــ الآية: ٢٩.
٣٠ــ سورة الانفطار ــ الآية: ١٩.
٣١ــ سورة آل عمران ــ الآية ١٩٥.

٣٢— لم تصلنا ترجمة نور الدين في الأجزاء الموجودة من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم.
٣٣— انظر الخريدة— قسم بلاد الشام ـ ج١ ص ١٢٣.
٣٤— تخمط : تكبر وغضب، القاموس.

٣٥—دأيت للشيء: ختلته وراوغته. القاموس.
٣٦— الشلق· الضرب بالسوط وغيره.
٣٧— الجث— القطع ، أو انتزاع الشجر من أصله، وبالضم: ما أشرف من الأرض حتى كاكمة صغيرة.
٣٨— أجن الماء إذا تغير لونه وطعمه.
٣٩— في هامش الأصل: حاشية ـ الجناجن ـ بجيمين ونونين ـ عظام الصدر.
٤٠— في هامش الأصل: الشرر أحكام الفتل وابرامه، والسحل دونه، أي أمضى منه في الأمور الكبار وفي الصغار، والذماء: بقية الروح في المذبوح، والله أعلم.
٤١— ليلة الهرير هي إحدى ليالي القادسية، وكذلك هي إحدى ليالي صفين.
٤٢— من أمثال العرب يعني إبطان غير المظهر.
٤٣— الابرنز: الأمير.
٤٤— وقم: قهر وأذل. القاموس.
٤٥— الكرينة· المغنية، ولا أدري إذا كان الكرين: المغني.
٤٦— تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهاني بتهذيب البنداري، ـ ط. القاهرة ١٩٠٠ ص ١٨٧— ١٨٨.
٤٧— القلة: أعلى مكان بالقلعة أو بالحصن.
٤٨— قبر زنكي قرب مشهد الإمام علي رضي الله عنه، ومكان هذا المشهد حيث باب بغداد في الرقة، وعلى مقربة من هذا الباب جرت حفريات رجحت مكان القبر وحددته.
٤٩— تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٩— ١٩٠.
٥٠— خبز مصنع من طحين معجون بالسمن والسكر.أو خبز بلا أدم (بقسماط)
٥١— صحيح مسلم— كتاب الحدود ـ ٥ ص ١١٧.
٥٢— بزرك: عظيم.
٥٣— سورة التوبة— الآية : ١١١.
٥٤— سورة الصافات— الآية: ٤٤.
٥٥— مرت هذه الكلمة من قبل في تاريخ ابن القلانسي، ووقتها خيل لي أنها تصحيف «حظائر» ولكن التكرار بالرسم نفسه نفى هذا الاجتهاد، ولدى السؤال تبين لي أن فطائر جمع فطيرة، والفطيرة قطعة الأرض واضحة المعالم لافرق إن كانت مزروعة أو بدون زراعة.
٥٦— حبيب النجار، ومثواه كما هو رائج في أنطاكية.
٥٧— ديوان أسامة ص ١٧٠.
٥٨— سورة فاطر— الآية : ٤٣.
٥٩— جفخ · فخر وتكبر.
٦٠— سورة الأنعام— الآية: ٩٦.
٦١— سرطته: بلعته.
٦٢— الزبرج· الزينة

٦٣— يفيل: يخطىء.
٦٤— آخر صفوف الحرب.
٦٥— سدك به لزمه وتولع به.
٦٦— السرق الحرير، والشليل الثوب يلبس تحت الدرع.

٦٧— الأرين· النشيط، وسرير الميت أو تابوته، والسيف. القاموس.
٦٨— الأنب— ثمر الباذنجان، والغاصي: القليل المتفرق.
٦٩— الكسم· الحشيش الكثير، والصوار: القطيع من البقر.
٧٠— العرار: الصياح والصراخ.
٧١— الخبار: مالان من الأرض.
٧٢— العلاب— جمع علبة- وهي النخلة الطويلة والقدح الضخم يحلب فيها.
٧٣— الشجن· الحزن والهم، وشجنته الحاجة · حبسته.
٧٤— الضجم: عوج في الفم والشدق، وضغمه: عضه.
٧٥— ديوان أسامة ص ١٦٢.
٧٦— ديوان أسامة ص ٧٦.
٧٧— ديوان أسامة ص ٢٩٠.
٧٨— ديوان أسامة ص ٢٨٧.
٧٩— ليست في ديوانه المطبوع.
٨٠— ديوان أسامة ص ٣٠٦— ٣٠٩.
٨١— القنس· الأصل ، أعلى الرأس.
٨٢— ديوان أسامة ص ٤٠— ٤١ (عدة أبيات).
٨٣— كتاب العصا لأسامة- ط . القاهرة ١٩٧٢ ضمن نوادر المخطوطات ج١ ص ٢٠٧.
٨٤— جاءت قصيدة ابن رزيك في ديوان أسامة مع رد آخر غير هذا لأسامة ص ١٣٦— ١٣٧.
٨٥— ديوان أسامة ص ٢١٣— ٢١٧.
٨٦— ديوان أسامة ص ١٤٠ —١٤١ مع فوارق.
٨٧— بط الجرح شقه.
٨٨— ديوان أسامة ص ١٧٥ — ١٧٧.
٨٩— الخريدة - قسم مصر - ط • القاهرة ١٩٥١ ج ١ ص ١٧٣ — ١٨٣.
٩٠— ليست في ديوانه المطبوع.
٩١— الخريدة - قسم مصر- ج١ ص ١٧٤.
٩٢— الخريدة - قسم مصر - ج١ ص ١٨٠.
٩٣— الخريدة - قسم مصر- ج١ ص ١٨٠.
٩٤— ديوان أسامة— ص ٢٨١ - ٢٨٣.
٩٥— سنا البرق الشامي ص ١٩.
٩٦— ليسا في ديوانه المطبوع.
٩٧— سورة الأعراف- الآية· ٩٥.
٩٨— الخريدة — قسم مصر - ج ١ ص ١٨٩ - ٢٠٠.
٩٩— الخريدة — قسم الشام - ج٢ ص ٣٥.

١٠٠— سنا البرق الشامي ص ٢٢— ٢٤.
١٠١— انظر سورة آل عمران ـ الآية: ٢٦.
١٠٢— سورة آل عمران— الآية : ٢١٦.
١٠٣— سورة البقرة— الآية: ٢١٦.
١٠٤— سورة النساء— الآية: ٥٤.

١٠٥— سورة النحل— الآية: ٩١.
١٠٦— الخريدة ـ قسم الشام — ج ١ ص ٢٧٧.
١٠٧— سورة الأنفال— الآية : ٤٢.
١٠٨— سورة القصص— الآية: ٨٣.
١٠٩— سورة الرعد— الآية: ٤٣.
١١٠— ديوان عرقلة الكلبي ـ ط. بيروت: ١٩٩٢ ص ٥٧.
١١١— ديوان عرقلة الكلبي ص ١١٠.
١١٢— ديوان عرقلة ص ٤٩.
١١٣— ديوان عرقلة ص ٦٤.
١١٤— ديوان عرقلة ص ٥٢. الخريدة ـ قسم الشام — ج١ ص ١٨٠.
١١٥— سورة النحل— الآية : ٥٢.
١١٦— سورة النحل— الآية: ٢٦.
١١٧ سورة الأنفال— الآية : ٤٢.
١١٨— الخريدة ـ قسم مصر ـ ج١ ص ٢٣٥— ٢٣٧.
١١٩— سورة آل عمران— الآية: ١٧٤.
١٢٠— كذا وهو وهم فقد عاشت الخلافة الفاطمية / ٢٧٠/ سنة هجرية من ٢٩٧ حتى ٥٦٧ (٩٠٩ـ ١١٧١) ، وكان القائد جوهر الصقلبي قد استولى على مصر سنة ٣٥٨ / ٦٦٩م، وبعد ذلك بوقت قصير انتقل الخليفة المعز إلى القاهرة المؤسسة حديثا.
١٢١— ديوان العرقلة ص ٣٧— ٣٨.
١٢٢ـ سورة الصف ـ الآية: ٨ . وحديث المصنف عن تاريخ الدولة الفاطمية ونسب أئمتها صادر عن التعصب ، ذلك أن مسالة النسب مبتوتة من حيث الصحة، أضف الى هذا أن اسم المهدي عبد اللـه وليس عبيد الله وكنت قد عالجت هذه المسالة بالتفصيل بكتابي الجامع بأخبار القرامطة ، ج ١ ص ٧٧— ١٠٧.
١٢٣— سورة الكهف— الآية: ١٠٤. وكنت قد نشرت مادونه القاضي عبد الجبار في تثبيت دلائل النبوة في كتابي الجامع بأخبار القرامطة ج١ ص ٢٩٥ـ ٣٣٠.
١٢٤— سورة الأسراء ـ الآية ٥٨.
١٢٥— زرا هي أزرع الحالية وسمسكين هي الشيخ مسكين الحالية وهما على مقربة من بعضهما.
١٢٦— متح الماء: نزعه، والمقصود هنا رفع زنكي إلى القلعة.
١٢٧— الخريدة ـ قسم الشام ج ٣ ص ٦٤ـ ٦٥.
١٢٨— طمام موضع على مقربة من صنعاء، وكان سوقاً مشهوراً. معجم المدن والقبائل اليمنية لابراهيم المقحفي ـ ط. صنعاء ١٩٨٥.

١٢٩— الخريدة— قسم الشام— ج٣ ص ١٠٣ — ١٠٤.
١٣٠— سورة البروج— الآية: ٢٠.
١٣١— الخريدة — قسم مصر — ج ١ ص ١٨٦— ١٨٧.
١٣٢— سورة الشوري— الآية : ٤١.
١٣٣— سورة البقرة— الآية:١٩٤.
١٣٤— ديوان عرقلة ص ٧٠.

١٣٥— منامات الوهراني ومقاماته ورسائله — ط. القاهرة ١٩٦٨ ص ١٤.
١٣٦— ديوان أسامة ص ١٥٨.
١٣٧— المعرفة والتاريخ للفسوي ـ ط. بيروت ١٩٨١ ج٢ ص ٣٦٧.
١٣٨— ليست في ديوان أسامة المطبوع.
١٣٩— سورة التوبة— الآية: ٥٨.
١٤٠— سورة الليل— الآيتان: ١٤ — ١٥.
١٤١ ليست في ديوانه المطبوع.
١٤٢— سورة النبأ— الآية : ٢٠.
١٤٣— الأعلاق الخطيرة— قسم الشام ج٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٨.
١٤٤— سورة الرعد — الآية : ٣٨.
١٤٥— كذا وهو وهم قائم على تجاهل زمن كل من ابن أبي حصينة والمعري المتقدم على أسامة، ولا وجود لطائية أسامة في ترجمته في الخريدة.
١٤٦— أي أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالامام علي كرم الله وجهه.
١٤٧— الخريدة ـ قسم الشام—ج١ ص ٤٠٦— ٤١٩.
١٤٨— الخريدة— قسم الشام— ج١ ص ٤٠٢— ٤٠٣.
١٤٩— سورة الأنعام— الآية : ١٦٤.
١٥٠— الخريدة — قسم الشام— ج٢ ص ٣٣٦— ٣٣٩.
١٥١— الخريدة— قسم الشام— ج١ ص ٤٩١— ٤٩٥.
١٥٢— الخريدة— قسم مصر — ج١ ص ١٠٦.
١٥٣— لاترجمة للعثماني في قسم مصر المطبوع من الخريدة.
١٥٤— الخريدة— قسم الشام— ج٢ ص ٣٦٤. وللشاتاني ترجمة جيدة في بغية الطلب لابن العديم على أساسها يقوّم نص الخريدة المنشور.
١٥٥— ديوان العرقلة ص ٦٥.
١٥٦— محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد. معجم البلدان.
١٥٧— سورة فصلت— الآية : ٤٦.
١٥٨— هذا بعض بيت ورد في الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزي ـ ط. بيُروت ـ دار القلم ج١ ص ٣٤١ والبيت هو:
أبى القتل إلّا آل صمة إنهم   أبو غيره والقدر يجري إلى القدر.
١٥٩— سورة النساء— الآية : ١٠٠.

حواشي الجزء الثاني من الروضتين

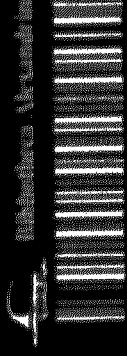
١— الأمج: حر وعطش، والشديد الحر، القاموس.
٢— سورة آل عمران— الآية: ٣٤ .
٣— سورة الأنفال— الآية: ٦١ .
٤— سورة الأعراف— الآية: ٨٧ .
٥— ديوان سبط ابن التعاويذي— ط دار صادر بيروت ص ٤٢٠ —٤٢٤
٦— سورة البقرة— الآية: ٢٤ .
٧— هذه القبور في المدرسة الشامية البرانية، التي باتت الآن في موقع متوسط داخل دمشق، وقد جرى ترميمها مؤخراً.
٨— انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٧ص٤٤٤،٤٤٧ .
٩— في هذا اشارة إلى قصة الزباء والانتقام منها حين جدع قصير أنفه، فقيل في الأمثال لأمر ماجدع قصير أنفه.
١٠— سورة آل عمران— الآية: ١٩٦ .
١١— سورة المجادلة— الآية: ٢٢ .
١٢— سورة آل عمران— الآية: ١٧٤ .
١٣— سورة الفجر— الآيتان:١٣—١٤ .
١٥— هو زيد بن الحسن زيد بن زيد، من شيوخ ابن العديم، ترجم له في كتاب بغية الطلب ج ٩ ص ٤٠٠٢—٤٠١٣ .
١٦— سورة الواقعة— الآية:٦٥ .
١٧— سورة الزمر— الآية: ٧١ .
١٨— لعلها زالة التي ذكرها الحميري في الروض المعطار وقال عنها: مدينة صغيرة عامرة بينها وبين أوجلة التي بأرض برقة عشرة مراحل.
١٩— سورة طه — الآية: ٣٧ .
٢٠— الخريدة— بداية قسم شعراء الشام ص ١٣٦ .
٢١— سورة التوبة— الآية: ٣٦ .
٢٢— السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى. القاموس.
٢٣— سورة آل عمران— الآية: ٢٦
٢٤— سورة الأحزاب— الآية: ٢٧ .
٢٥— سمق سموقا: علا وطال. القاموس.
٢٦— سورة الروم— الآيتان: ١—٢ .
٢٧— سورة مريم— الآية: ٢٦ .
٢٨— التيوع: كل بقلة إذا قطعت سال منها لبن أبيض حار يقرح البدن. القاموس.
٢٩— سورة الرحمن— الآية: ١٣ .
٣٠— سورة التين— الآية: ١ .
٣١— انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ٣٠٦ .
٣٢— انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ١٤٦ .
٣٣— سورة الفجر — الآيتان: ٧—٨ .
٣٤— موسوعة أطراف الحديث ج ٤ ص ٤٢٢ .
٣٥— سورة يوسف— الآية: ٨٤ .
٣٦— تدقق رواية العماد هذه على ماجاء لدى وليم الصوري وصاحب ذيل تاريخه.

٣٧— سورة الفتح— الآية: ٤ .
٣٨— سورة القدر— الآيتان: ٣—٤ .
٣٩— سورة آل عمران— الآية: ١٤٨ .
٤٠— سورة النبأ— الآية: ٤٠ .
٤١— سورة الروم— الآية: ٤٧ .
٤٢— سورة الفرقان— الآية: ٢٦ .
٤٣— سورة هود— الآية: ٤٣ .
٤٤— سورة فاطر— الآية: ٢ .
٤٥— سورة الأنبياء— الآية: ١٠٥ .
٤٦— سورة طه— الآية: ٣٧ .
٤٧— سورة الاسراء— الآية: ١ .
٤٨— سورة آل عمران— الآية: ٣٧ .
٤٩— سورة التوبة—الآية: ١١١ .
٥٠— سورة الشورى— الآية: ١٣ .
٥١— سورة النور— الآية: ٥٥ .
٥٢— سورة المائدة— الآية: ٢١ .
٥٣— الفتخ من العقبان اللينة الجناح. القاموس.
٥٤— سورة النحل— الآية: ٩٠ .
٥٥— سورة الأنعام— الآية: ٤٥ .
٥٦— سورة الفاتحة— الآيتان: ١—٢ .
٥٧— سورة الأنعام— الآية:١ .
٥٨— سورة الاسراء- - الآية: ١١١ .
٥٩— سورة الكهف— الآية: ١ .
٦٠— سورة النمل— الآية: ٦٠ .
٦١—سورة سبأ—الآية: ١ .
٦٢— سورة فاطر— الآية: ١ .
٦٣— سورة النجم— الآيات: ١٤—١٧ .
٦٤— انظر الآية ٣٦ من سورة النور.
٦٥— سورة النساء— الآية: ١٧٢ .
٦٦— سورة المائدة— الآية: ١٧ .
٦٧— سورة الأنفال— الآية: ١٠ .
٦٨— سورة النحل— الآية: ٩٢ .
٦٩— سورة الأعراف— الآية: ١٧٥ .
٧٠— سورة الأنفال— الآية: ٦٥ .
٧١— سورة آل عمران— الآية: ١٦٠ .
٧٢— سورة الأحقاف— الآية: ١٥ .
٧٣— سورة النمل— الآية: ١٩ .
٧٤— سورة هود— الآية: ٣٨ .
٧٥— سورة آل عمران— الآية: ١٧٥ .
٧٦— سورة الدخان— الآيات: ٢٥—٢٨ .
٧٧— سورة الفرقان— الآية: ٣٨ .
٧٨— سورة غافر— الآية: ٨٥ .
٧٩— سورة فاطر— الآية: ٣٤ .
٨٠— سورة الزمر— الآية: ٧٤ .
٨١— سورة الأعراف— الآية: ٤٣ .

٨٢— سورة يونس— الآية: ١٠ .
٨٣— سورة ابراهيم— الآية: ٣٤ .
٨٤— سورة مريم— الآية: ٨٤ .
٨٥— سورة الواقعة— الآيتان: ٢٥—٢٦
٨٦— سورة الحجر— الآية: ٤٦ .
٨٧— سورة الطلاق— الآية: ٧ .
٨٨— ليست في ديوانه المطبوع.
٨٩— سورة التوبة— الآية: ١١١ .
٩٠— سورة التوبة— الآية: ٢٦ .
٩١— سورة الأنفال— الآية: ١٧ .
٩٢— سورة آل عمران— الآية: ٣٤ .
٩٣— سورة الفرقان— الآية: ٢٦ .
٩٤— سورة الحاقة— الآية: ٧ .
٩٥— سورة يوسف— الآية: ٧٧ .
٩٦— الأسل نبات، والرماح والنبل وشوك النخل، وعيدان تنبت بلا ورق يعمل منها الحصر. القاموس.
٩٧— الخربشت بالفارسية: الخيمة— الايوان. نوع من أنواع الدروع.
٩٨— قلعتان عظيمتان من أعمال إربل. معجم البلدان.
٩٩— سورة النساء— الآية: ١٠٠ .
١٠٠— سورة طه— الآية: ١٣٢ .
١٠١— سورة الحج— الآية: ٤٠ .
١٠٢— سورة محمد— الآية: ٣٥ .
١٠٣— سورة الأحزاب— الآية: ٢١ .
١٠٤— سورة آل عمران— الآية: ١٥٩ .
١٠٥— سورة التوبة— الآية: ٤٦ .
١٠٦— سورة القمر— الآية: ٨ .
١٠٧— سورة الأنبياء— الآية: ٩٦ .
١٠٨— ديوان حاتم الطائي— ط دار صادر بيروت ص ٥١ مع فوارق.
١٠٩— سورة هود— الآية: ٤٣ .
١١٠— سورة الأنعام— الآية: ٦٤ .
١١١— سورة آل عمران— الآية: ١٢٣ .
١١٢— سورة الأنعام— الآية: ٤٣ .
١١٣— سورة الأنعام— الآية: ٣٥ .
١١٤— سورة آل عمران— الآية: ٣٠ .
١١٥— سورة الانسان— الآية: ٣٠ .
١١٦— سورة الأنعام— الآية: ٩١ .
١١٧— سورة النمل— الآية: ٧٣ .
١١٨— سورة الحشر— الآية: ١٠ .
١١٩— سورة المزمل— الآية: ٦ .
١٢٠— سورة آل عمران— الآية: ١٣ .
١٢١— سورة المائدة— الآية: ٦٤ .
١٢٢— سورة الحج— الآية: ٤٠ .
١٢٣— سورة يوسف— الآية: ٤١ .
١٢٤— سورة آل عمران— الآية: ١٦ .
١٢٥— سورة آل عمران— الآية: ١٠٣ .
١٢٦— يروى أن هذا قاله عبد الله بن الزبير أثناء معركة الجمل، فقد اصطرع هو والاشتر النخعي — مالك بن

الحارث، فنادى بهذا النداء.
١٢٧— الخريدة— قسم الشام، ج ٢ ص ٣٣٤—٣٣٥ .
١٢٨— سورة العاديات— الآيتان: ٩—١٠ .
١٢٩— سورة الأنبياء— الآية: ١٠٤ .
١٣٠— سورة الرحمن— الآية: ٦٠ .
١٣١— سورة التوبة— الآية: ٤٠ .
١٣٢— المدرسة التي أسسها وحملت اسمه، حيث باتت من أهم مراكز التعليم في بلاد الشام.
١٣٣— شعر دعبل بن علي الخزاعي— ط دمشق ١٩٦٤ ص ٧١ .
١٣٤— سورة الحشر— الآية: ٢٢ .
١٣٥— سورة التوبة— الآية: ١٢٩ .
١٣٦— موسوعة أطراف الحديث ج ٥ ص ٤٠ .
١٣٧— لعل في هذا اشارة إلى عدم تصديق عمر بن الخطاب رضي الله عنه خبر وفاة النبي ﷺ عندما سمعة للمرة الأولى فقال: «إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليه ..... ».
انظر مغازي الزهري— تحقيقي —ط . دمشق ١٩٨١ ص ١٣٢ .
١٣٨— سورة القلم— الآية: ٤ .
١٣٩— سورة التوبة— الآية: ١٢٠ .
١٤٠— سورة يس— الآية: ٧٨ .
١٤١— سورة البقرة— الآية:١٩ .
١٤٢— سورة العنكبوت— الآية: ٦٩ .
١٤٣— الشنخوب: أعلى الجبل. القاموس.
١٤٤— الخريدة— قسم مصر — ج ١ ص ٣٥—٥٤ .

المحتوى


04144653